حكم العسكر

فى مصر المحروسة

من الدولة الفرعونية إلى حكم مبارك



بقلم
العامل عطية الصيرفى

المرحوم / يوسف درويش
القاهرة

إهـــــداء٢٠٠٦

المرحوم / يوسف درويش
القاهرة

حكم العسكر

في مصر المحروسة

من الدولة الفرعونية إلى حكم مبارك

بقلم
العامل عطية الصيرفي

من مظالم حكم العسكر

يا كافة من أنجبنا أولاد
تعالى وابكينا معى

امرأة مصرية فى العصر القبطى

ولدى يا ولدى والسلطة خدت ولدى
ولدى يا ولدى والسلطة خدت كبدى

امرأة مصرية فى العصر الحديث

يارب يا متجلى اهلك الشرطللى

امرأة مصرية من الزمن المعاصر

حكم العسكر
فى مصر المحروسة
من الدولة الفرعونية إلى حكم مبارك

العامل عطية الصيرفى

الإهـداء..

.. إلى عامل التلغراف والمناضل المصرى الأعظم والمثقف الأعظم خطيب الثورة العرابية الذى لم يهزم بهزيمتها. بل ظل شامخاً ومنتصراً وصامداً يجول فى ريف مصر حتى قبض عليه وتم نفيه خارج البلاد ثم أعيد إلى مصر لعله يسكت ويصمت. ولكنه جدد ثورته ضد السلطة الإقطاعية والاحتلال الإنجليزى لمصر مما أدى إلى نفيه مرة ثانية حتى توفى فدفنوه فى قبر مجهول بعيداً عن ضفاف النيل الخالد.

.. إلى عبدالله النديم

العامل عطية الصيرفى

شكر وتقدير..

فى البدء ينبغى أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير للزميل والأخ والصديق الشاعر سمير عبدالباقى زميل السجن والنضال.

وللعلم فإننى لا أشكر الزميل سمير عبدالباقى لجهده المضنى فى إعداد هذا الكتاب وما ترتب على هذا الجهد من متاعب ومصاعب، ولكننى أشكره وأقدره لدفعى دفعاً إلى تأليف هذا الكتاب الضخم بشأن حكم العسكر فى مصر وذلك بقصد إبراز عامل من عمال مصر البسطاء يستطيع كشف مظالم العسكرة التى حكمت مصر آلاف السنين وبقصد إثبات أن الطبقة العاملة المصرية قادرة على إفراز مثقفين من بين صفوفها. مثقفين يكتبون ويوظفون أقلامهم من خلال المكابدة لا من خلال المشاهدة. ولهذا أقول شكراً وتقديراً للزميل الأخ والصديق الشاعر سمير عبدالباقى.

العامل
عطية الصيرفى

مقدمة الكتاب

في البدء ينبغي أن أتقدم بوافر الشكر للصديق والمناضل الشاعر سمير عبد الباقي زميل السجن والمعتقل للجهد الذي بذله في إعداد ذلك الكتاب وتشجيعه المستمر لفكرته وضرورته .. كما أشكر المؤرخ الأستاذ محمود السندبسطي الذي استفدت من علمه الغزير في تسطير ذلك الكتاب وأشكر المحاسب الأستاذ فاروق حسين الذي أفادني في دراستي هذه . واشكر الفنان الدكتور عز العرب واشكر المناضل اليسارى السيد عبد المغنى لما يقدمه من خدمات ومساعدة ..

أما فكرة الكتاب فقد نبعت من مكابدتي وليدت مشاهدتي من تسلط العسكرة البوليسية والملكية ثم من عسكرة ثورة يوليو التي استقبلتها الطبقة العاملة المصرية بالأحضان باعتبارها عيد لمظلومين وباعتبارها ثورة وطنية ومع هذا يفاجئ عمال مصر بمحاكمة زملائهم عمال كفر الدوار وشنق العاملين خميس والبقري في محاكمة تفوق في وحشيتها محاكمة سليمان الحلبي ومحاكمة فلاحي دنشواي .. وذلك بالإضافة لعسكرة النقابات العمالية وإشاعة المحاكمات العسكرية الفظيعة التي حوكمت أنا أمامها رغم أنني واحد من اليساريين المختلفين مع ثورة يوليو دون معارضتها مما دعاني إلى القول بأن وطنية ثورة يوليو كانت وللحزن تنز بالطغيان رغم إنجازاتها الإصلاحية واشتراكيتها الناصرية .. ومن ثم فقد تيقنت أن الطغيان السلطوي هو طبيعة ملازمة لحكم العسكر سواء كانوا غزاة أو وطنيين أو عملاء ولهذا عزمت على إعداد ذلك الكتاب طوال خمس سنوات .. ومما شجعني على إعداده وإصداره أن مادته وأفكاره لم يصدر بشأنها كتاب في المكتبة العربية كما اخبرني الكثير من الأخوة المثقفين المصريين ..

ومن هنا فقد وجدت في إصدار هذا الكتاب ضرورة وطنية وواجب اجتماعي وأخلاقي تجاه الشعب المصري الأجير والفقير الذي اصطلى وما زال يصطلي بنار العسكر والعسكرة خلال نضاله في سبيل الخبز والحرية ..

العامل

عطية الصيرفي

1

حكم العكسر
فى مصر المحروسة
من الدولة الفرعونية
حتى حكم مبارك

الفرعونية

دولة . حضارة . مجتمع . مدنى

- الفرعونية ظاهرة مدنية
- الفرعونية دولة
- الفرعونية حضارة
- الفرعونية مجتمع مدنى
- أمة من الفلاحين
- المماليك يسقطون الفرعونية

الفرعونية ظاهرة مدنية

لم يُعرف حتى الآن الكيفية التى أفرز بها الشعب المصرى ظاهرة الفرعونية كدولة وحضارة ومجتمع مدنى فى أغوار العصر العتيق.. هذه الظاهرة السلطوية والمدنية التى ابتدعها الإنسان المصرى وحده خلال تطوره وارتقائه رويداً رويداً من غسق التاريخ إلى فجر التاريخ إلى فلق الصبح البشرى. ومن الوحشية إلى الفطرة والبداوة إلى التحضر الذى تجلى على ما يبدو فى ظهور الفرعونية كدولة وحضارة ومجتمع مدنى مما جعلها ظاهرة إنسانية واجتماعية فريدة فى العالم القديم..

إن هذا الانبثاق البشرى العظيم كان يدل على أن الإنسان المصرى قد أسرع الخطى صوب الوعى البشرى الذى تجلى فى بزوغ فجر الضمير مبكراً جداً فوق كوكب الأرض مما يعنى أنه قد انفصل مبكراً أيضاً عن الطبيعة والحيوان بعد أن كوَّن مفهومه ولغة تخاطبه وأصبح مدركاً بحاجاته البشرية والأخطار التى تحيط به فتخلص من أغلال غرائزه وبادر بتغليب جانبه الإنسانى على جانبه الحيوانى فتشأت العلاقات الاجتماعية بين الإنسان المصرى وأخيه الإنسان المصرى. وبفضل هذه العلاقات الإنسانية استطاع الإنسان المصرى القديم تنظيم علاقاته وصراعه مع الطبيعة. مما يعنى أنه بات واعياً بذاته ولذاته فعرف قصده وحدَّد هدفه فحقق الانتصار فى صراعه مع الطبيعة حيث خرج منتصراً فى هذا الصراع ليدخل مسرح الصراع الاجتماعى الجديد ليبدأ كفاحه الشاق بينه وبين نفسه. وهو كفاح لم يكد يتخطى بدايته حتى يومنا هذا على حد قول العلامه بريستد. ومع ذلك فقد ظل الصراع مع الطبيعة مستمراً من خلال العمل والانتاج مما أدى إلى تدفق الوعى المادى

فصنع الإنسان المصرى الآلات والأدوات وباشر الزرع والضرع والصنعة والحرفة وشيد القرى والمدائن وزادت معارفه العقلية فعرف فصول السنة ومحاصيلها الشتوية والصيفية وعلم الحساب وتابع حركة النجوم وفرض سطانه على الطبيعة مما دفعه إلى مجال الدين والعبادة والعلوم والفنون والإدارة باعتبارها علوم عقلية.

ولقد ترتب على هذا الصراع مع الطبيعة ظهور ريف زراعى ومدن حرفيه وصناعية وزيادة فى الانتاج والثروة الأمر الذى أدى إلى اشتعال الصراع الاجتماعى فى قلب المجتمع البدائى المصرى المسمى بالمجتمع الشيوعى البدائى أو مجتمع المساواة البدائية الذى كان يتساوى فيه الناس فى عملية الإنتاج وفى عملية توزيع الانتاج.

ويبدو إن ذلك الصراع الطبقى المبكر جداً كان واعياً بقصده مما يدل على ان العقل المصرى كان ناضجاً آنذاك بدليل أن ذلك الصراع قد نقل المجتمع المصرى من مرحلة الشيوعية البدائية إلى مرحلة الاقطاع متخطيا المجتمع العبودى ومرحلته مما يعنى ان الإنسان المصرى العظيم هو أول إنسان فوق كوكب الأرض يحرق مرحلة تاريخية كاملة هى مرحلة المجتمع العُبودى الذى تسوده عُبودية الإنسان لأخيه الإنسان.. وبالتالى فلم تعرف مصر القديمة ذلك المجتمع العبودى الذى ينقسم إلى طبقة الأسياد ملاك العبيد وإلى طبقة الأغلبية من العبيد المنتجين فى مجال الزرع والضرع والحرفة والصنعة الذين يعاملون معاملة حيوانات الجر ويتعرضون للبيع والشراء ذكراناً وإناثاً والموت والحياة بواسطة أسيادهم. وقد انتشرت هذه العبودية المظلمة فى مجمل المجتمعات القديمة باستثناء مصر ذات النظام الاقطاعى المتقدم وبالتالى فلم يعرف الإنسان المصرى عبودية المصرى لأخيه المصرى مما يعنى أنه قد عاش حراً يمارس حياته المنتجة على ضفاف النيل طوال العصور القديمة وهذا ما أدى إلى تطوره المادى والروحى من خلال زيادة خبراته المادية ومعارفه الروحية والعقلية فلمح بثاقب نظره العلاقة ما بين السماء ونجومها والأرض وجمادها ونباتها وحيواناتها فإهتدى إلى المادة وإلى علم الفلك الذى هداه إلى التقويم الزراعى وفصول السنة: فصل فيضان النيل وفصل بذر الحبوب وفصل حصاد الزرع ومن هذه الفصول حدد الانسان المصرى الشهور الزراعية توت وبابه وهاتور وكيهك وطوبه وأمشير وبرمهات وبرمودة وبشنس وبؤونه وأبيب ومسرى.. هذه بداية ثورة الإنسان المصرى بواسطة خبرته وعقله فى مواجهة الطبيعة ومن هنا اهتدى إلى علم الحساب والمساحة وممارسة الزرع والضرع من حرث وتسميد وعزق وبذر وحصاد

ودراس وتذرية وغربلة وتكييل وتخزين وتسجيل للمحاصيل. وببده صنع آلات الزراعة وأدواتها من الفأس والمعزقة والمحراث والمنجل والمدراة والبلطة والسكين والمديه والنورج والشادوف وبالتالى زرع الحبوب والخضار والفاكهة والنباتات الطبية والعطرية وأشجار الزينة والأخشاب واستأنس الماعز والأبقار والحمير والطيور الداجنة مما جعله منتجاً للبيض والألبان واللحوم وخبيراً فى مجال الرى والصرف.

وقد اكتملت ثورته بممارسته المبكرة للحرفه والصنعه فى مجال التشييد والعمارة وصناعة النجارة والحدادة وصناعة النسيج والذهب والفخار والسلال واكتشف مناجم الفحم والذهب والنحاس مما يعنى انه قد صنع بنفسه المنشار والأزميل والمطرقة وغيرها من الآلات، ثم توجت ثورة الإنسان المصرى بمعرفة القراءة والكتابة بواسطة أبجدية مصرية ومن هنا برع المصريون القدماء فى الطب والهندسة والتحنيط وعلم الإدارة والقانون والعبادة وما بعد الموت ومن هنا انبثقت الفرعونية كدولة وحضارة ومجتمع مدنى مما يعنى انها كانت نتيجة لتطور المجتمع المصرى القديم وانها ظاهرة مدنية وسلطوية.

الفرعونية دولــة

تؤكد وقائع التاريخ المصرى القديم أن الفرعونية دولة ذات طبيعة إقطاعية أفرزها المجتمع الاقطاعى المصرى العتيق الذى يعتبر انه أول مجتمع اقطاعى طبقى أى أنه كان يتكون من عدة طبقات اجتماعية فى التاريخ البشرى ومن ثم فقد كانت الدولة الفرعونية مماثلة للدولة الحديثة فى انها جهاز للقهر الطبقى ضد طبقات الفلاحين والصناع المصريين لصالح الطبقة الإقطاعية الحاكمة والمالكة.

كما أن الفرعونية دولة قانونية هى الأولى من نوعها فى التاريخ البشرى كدولة سلطوية وقانونية حيث بدأت تؤكد واقعها السلطوى وجانبها القانونى قبل توحيد مصر على يد الملك مينا عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد مما يعنى ان الشعب المصرى فى ظل الفرعونية قد بادر مبكراً فى صنع قانونه العام والخاص قبل ظهور شريعة حمورابى فى بابل وقانون ماند فى الهند وقانون دراكون فى اليونان القديمة وقانون صولون فى اليونان القديمة وقانون الألواح الإثنى عشر فى روما القديمة.

فالملك مينا موحد القطرين قد أسس دولته الجديدة على أساس نظام مركزى قانونى يسمح باستمرار الدولة المصرية الموحدة دون انفصال وقد تجلى ذلك فى مؤسسة القصر الملكى ومؤسسة البلاط الفرعونى أى الحكومة، وبذلك أصبح الفرعون رئيس السلطة التنفيذية باعتباره رب الوحدة وراعيها وحاكم القطرين وصاحب التاجين الذى يدبر الأمور من القصر الكبير.

ووفقاً للديانة المصرية القديمة التى اهتدى إليها المصريون أصبح الملك الفرعونى يحمل لقب حورس باعتباره الملك والإله حيث باشر وظيفته الملكية والدنيوية بتأسيس حكومة تضم أجهزة الشمال وأجهزة الجنوب بالإضافة إلى عشره من المستشارين الكبار من أهل الجنوب ويبدو أنهم من كبار الإقطاعيين وفى هذا السياق الإدارى والنافذ ظهرت وظيفة الوزير وكبير مهندسى الفرعون بالإضافة إلى ظهور وظيفة نائب الملك ووظائف حكام المقاطعات ومؤسسة الجيش المصرى لحرب الخارج فقط وحماية الحدود المصرية ولهذا تأسست الحصون العسكرية والمعابد الدينية بفضل تعليمات الفرعون الملك والاله.

ويشرف الفرعون الملك والاله بواسطة وزرائه ونوابه ومستشاريه على الجهاز الإدارى المركزى للدولة وعلى إدارة بيت الملك والإدارة المالية وعلى إدارة المعابد الملكية وإدارة الأشغال العامة وإدارة المياه والجيش وعلى إدارة الضرائب التى كانت متقدمة ومتطورة جداً فى العصر العتيق حيث بدأت تنظم كل سنتين عمليات الجرد العام والحصر العام لكل ثروات البلاد. وكان يطلق عليه تعداد الذهب والحقول باعتباره القاعدة أو أساس فرض الضرائب التى كانت ضرائب مباشرة فى ذلك الوقت ويرى الدكتور ناصر الانصارى ان الحركة التجارية كانت تحت رقابة الدولة مما يعنى قيام اشتراكية الدولة فى هذه الأيام.

هذه هى ملامح من القانون العام للدولة الفرعونية التى وضعت ونظمت القانون الخاص متجلياً فى نظام الأسرة ونظام المواريث والوصايا وحق الملكية والمنفعة ونظام الرق وعلاقات العمل والأجور وتنظيم عقود البيع والشراء.

فالأسرة المصرية وفقا للقانون الفرعونى تتكون من الأب والأم والأولاد فقط. وكان لكل عصرى أن يتزوج من امرأة واحدة فقط. والمرأة المتزوجة كانت لها ذمتها المالية ولها الحق فى

التعاقد وتملك الأشياء والعقارات دون إذن من زوجها وكان الزواج يتم فى المعبد وبحضور أقارب الزوجين تم تطور نظام الأسرة فأصبحت تشمل الوالدين والاولاد والأخوة والأخوات والأمهات والخدم والمحظيات وهم يخضعون جميعاً لرب الأسرة ومع هذا التطور القانونى للأسرة فقد ظهر نظام تعدد الزوجات ولكنه لم يكن شائعاً ولا يحدث إلا نادراً وغالباً عند الأقرباء.

ولقد كان نظام المواريث الفرعونى متقدماً حيث كانت ثروة الأب والأم تنتقل إلى الأولاد واولاد الاولاد ووفاة الابن لا تمنع من توريث ابن الابن أى الحفيد وكانت التركه توزع بالتساوى على الذكور والاناث وعند انعدام الاولاد تئول التركه إلى الأخوه والأخوات وكانت الوصايا حرة حرية مطلقة دون التزام من الموصى بنصاب لمراعاة حق الورثة كما ان الوصية جائزة للوارث.

ورغم أن ملكية الأراضى الزراعية كان أغلبها ملكية حكومية فقد حصل الفلاح المصرى على حق الانتفاع وبالنسبة للأراضى المملوكة للأهالى فقد حصل أصحابها على ممارسة حق الملكية وحق التصرف بالبيع والشراء.

وبشأن نظام الرق فإن القانون المصرى القديم لم يتعرض لهذه المسألة بسبب انعدام ظاهرة الرق فى مصر الفرعونية.

هكذا كان الوضع القانونى السائد فى الدولة الفرعونية ذات الطبيعة الاقطاعية والاشتراكية حيث مارست الرقابة على الحركة التجارية وحولت أغلب الأراضى الزراعية إلى ملكية حكومية عامة فى مجتمع اقطاعى يضم طبقة الاقطاعيين وطبقة موظفى الدولة والحكومة وطبقة الصناع وطبقة الفلاحين مما أدى إلى اشتعال صراع الطبقات فى مواجهة الفرعون الملك والاله مما يدل على أن الفرعونية دولة وحضارة.

الفرعونية حضارة

إذا كانت الفرعونية دولة فقد كانت أيضاً حضارة تتألق على ضفاف النيل وسط ظلمات العصر العتيق، ففى رحابها لم تظهر العبودية واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان وبالتالى فلم يستذل الإنسان المصرى وحتى الطفل اللقيط كان يجد له أباً رحيماً وأماً حنوناً مما يعنى ان العلاقات الإنسانية قد تعاظم شأنها وبلغت ذروتها فى ظل الفرعونية.

وقد صاحب ذلك تقدم ملحوظ فى الزرع والضرع والحرفة والصنعة والتشييد والعمارة والمعمار وفى العلوم والطب والتحنيط والهندسة والمساحة والإدارة والفنون والخبرات العسكرية.

يؤكد ذلك وجود الأهرامات والمعابد والمقابر والمسلات والتحنيط والمهن الطبية والهندسية والإدارية وممارسات الزراعة والصناعة والرى والصرف والعمل القتالى والعسكرى.

فى سنة ١٩٨٧ أذيع على دائرة تلفزيونية حلقة حديث هام لفيلسوف الإدارة وحكيم علمائها ـ بيتر دبراكان ـ صاحب مدرسة الإدارة بالأهداف وجهه إلى مجموعة منتقاة من بيوت الأعمال والجامعات فى الولايات المتحدة.. وقد ذكر عالم الإدارة فى حديثة وصفا دقيقا للإدارة الفرعونية فقال :

«إن أفضل المديرين كانوا أولئك الذين اضطلعوا بمهمة بناء الأهرام فى مصر القديمة. كان الزمن المتاح لهم لانجاز مشروعاتهم ضئيلا. كما كانت مواردهم العلمية ووسائل النقل والرفع محدودة وبدائية. ولكنهم برغم ذلك شيدوا أعظم وأبقى عجائب الدنيا. وانه لسوء الحظ لم يذكر المصريون كثيراً من أساليبهم فى العمل الإدارى ولم يشركوا أحداً فى العلم بفنونهم. وفى هذا يتمثل الفرق بين مجرد الحصول على المعرفة الكيفية وبين إرساء الممارسات التى تتحول إلى منظومات تنقلها ونعلمها للآخرين وتنتقل من جيل إلى جيل وتتطور بمضى الزمن».

هكذا تجلت عظمة الإنسان المصرى القديم فى علوم الإدارة بفضل خلاصه من العبودية وتمتعه بالحرية فى عهد الفرعونية التى تربعت على عرش أقدم نظام اقطاعى فى التاريخ وفقاً لمقولة العلامة جمال حمدان ويؤكد ذلك العلامة والمؤرخ الألمانى كورت لانجه بقوله :

يكفى برهة من التفكير لتهدينا إلى أن قلة يسيره من الشعوب منها مصر وسومر والصين استطاعت أن تنتقل من البداوة إلى الحضارة فى الأزمان السحيقة وأن تنتهج لنفسها أسلوباً فى الحياة يعد أغنى وأصح ما حققه الجهد البشرى فى هذا السبيل وهو أسلوب لايدين به لغير نفسها ورجاحة عقلها وصدق شعورها وتتسم به ذروة رفيعة من ذرى التمدن. وبهذا

تمهد للبشرية طريقها إلى الرقى. وما بمصر حاجة إلى إثبات أثرها الظاهر فى الحضارات التالية لحضارتها. وما اكثر ما ينكرون عليها هذا الأمر. لكن الرأى مجمع حتى عند هؤلاء الجاحدين على أن أثر مصر القديمة ما يزال يعمل حتى اليوم. فإذا لم تفهموا ذلك يا أحفاد الفراعنة وإذا لم تنتفعوا بتاريخكم الأول مثلما ننفعل نحن الغرباء فلا تلومن إلا أنفسكم.

ويأتى لنا العلامة الأمريكى برستد بمقولة الوزير الفرعونى ـ بتاح حتب ـ التى تقول : يعترف بفضل الرجل الذى يتخذ العدالة «منهجا» فينهج نهجها. كما يقدم لنا مقولة الفلاح المصرى الفصيح التى تقول : إن العدالة خالدة الذكرى فهى تنزل مع من «مات» إلى القبر ولكن اسمه لا يمحى من الأرض بل يذكر على مر السنين بسبب العدل.

حقاً فقد كانت الفرعونية ظاهرة حضارة وعدالة لخلو المجتمع المصرى القديمة من العبودية واستعباد المصرى لأخيه المصرى فى حين ان العبودية كانت هى القماش الاجتماعى التى تكتس به الامم والمجتمعات القديمة مثل فارس وبابل واليونان القديمة وتشريع اليهود العبرانيين حيث اعترفت شريعة حمورابى بالنظام العبودى وفن الأدب اليونانى القديم وجود طبقتين، طبقة الأسياد وطبقة العبيد وجاء فى أسفار التوراة ان عبودية الإنسان للإنسان عمل مشروع.

وبالتالى فلم تكن الفرعونية ظاهرة استبدادية مثلما يشاع عنها ظلما وعدوانا كمالم يكن لقب الفرعون يرمز إلى الاستبداد إذ أن كلمة فرعون فى اللغة المصرية القديمة تعنى البيت الكبير ونظراً لأن الفرعون كان يسكن فى ذلك البيت الكبير فتسحب اسم المسكن على ساكنه ولولا فرعون موسى الذى اصطدم باليهود العبرانيين الغرباء وطبيعتهم القبلية والعنصرية لما شاب الفرعونية لعنات القرآن الكريم بسبب تصرفات ملك فرعونى واحد من عشرات الملوك الفراعنة الذى استطاع الإنسان المصرى فى عهودهم أن يحقق ضميره الإنسانى وضميره الوطنى وضميره الاجتماعى وضميره الدينى فعرف العبادة مبكراً وعرف إلهاً خالقاً السموات والأرض مبكراً واهتدى إلى فكرة توحيد الإله مبكراً فى عهد الملك الفرعون اخناتون وذلك قبل ظهور الأديان السماوية. ولا ننسى فى هذا المقام ان الفرعونية هى الدولة الوحيدة ألتى احتضنت نبياً من الأنبياء هو يوسف ﷺ يقول سفر التكوين التوراتى.

وحدث جوع فى الأرض فاتخذ إبرام ـ أى إبراهيم ﷺ طريقه إلى مصر لأن الجوع فى الأرض كان شديداً.. فحدث لما دخل إبرام إلى مصر ان المصريين قد رأوا المرأة ـ أى زوجة إبراهيم ﷺ ـ انها حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومن حولها لدى فرعون فأخذت إلى بيت فرعون، فصنع إبرام نعمة بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن. فضرب الرب فرعون وبنيه ضربات عظيمة بسبب سارة امرأة إبرام.. فدعا فرعون إبرام وقال له ما هذا الذى صنعت بى لماذا لا تخبرنى انها امرأتك، لماذا قلت هى أختى أخذتها لتكون زوجتى. والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب، فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له.

إن هذه النصوص التوراتيه وما فيها من مبالغات لا تعنى إلا أن الفرعونية كانت ظاهرة حضارة ورخاء فى العصر العتيق.

وتتجلى الحضارة الفرعونية اكثر واكثر فى نصوص الأدبيات المصرية القديمة مثل كتاب الموتى ومتون الأهرام وأقوال الحكماء المصريين هذه الأدبيات التى سرق نصوصها اليهود كما سرقوا ثياب العائلات المصرية وحليها الذهبية عند رحيلهم السرى والمفاجئ من مصر القديمة وصنعوا منها عجلهم الذهبى على أرض سيناء.

يؤكد ذلك ما قدمه لنا العلامة الأمريكى برستد فى كتابه فجر الضمير ما أخذه اليهود من أقوال ومأثورات من الأدب المصرى والفرعونى ووضعوه فى أسفار التوراة التى كتبوها فى فترة الأسر البابلى لليهود ولذلك فإن كتابات الحكيم المصرى القديم أمينموبى قد انتقلت إلى سفر الأمثال وسفر أيوب وسفر شاءول وسفر أرميا.

ـ يقول الحكيم أمينموبى المصرى :

أَمِل اذنيك لتسمع أقوالى. وأعكف قلبك على فهمها لأنه شىء مفيد. إذا وضعتها فى قلبك ولكن الويل لمن يتعدها.

ـ يقول سفر الأمثال التوراتى :

امل اذنك واسمع كلام الحكماء ووجه قلبك إلى معرفتى لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك وإن ثبتت جميعاً على شفتيك.

ـ يقول الحكيم أمينموبى المصرى :

لأجل أن ترد على تقرير لمن أرسلك

ـ يقول سفر الأمثال التوراتى :

لأعلمك قسط كلام الحق لترد جواب الحق للذين أرسلوك.

ـ يقول الحكيم المصرى أمينموبى:

لا تغير حَدَّ علامات حدود الحقول ولا تكونن شرها من أجل ذراع ولا تتعدين على حدود أرملة.

ـ يقول سفر الأمثال التوراتى:

لا تنقل التخم القديم ولا تدخل حقول الأيتام

ـ يقول الحكيم المصرى أمينموبى:

لا تتعبن نفسك فى طلب المزيد حينما تكون قد حصلت بالفعل على حاجتك وإذا جلب إليك المال بالسرقة لا يكون فانه لا يمكث معك سواد الليل وعندما يأتى الصباح لا يكون فى منزل، بل يكون قد صنع لنفسه أجنحة كالأوز وطار إلى السماء

ـ يقول سفر الأمثال التوراتى:

لا تتعب لكى تصير غنياً.. هل تطير عينك نحوه وليس هو لأنه يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء.

ـ يقول الحكيم المصرى أمينموبى:

الفقر فى يد الله خير من الغنى. وأرغفة تحصل عليها بقلب فرح خير من ثروة تحصل عليها فى تعاسة.

ـ يقول سفر الأمثال التوراتى:

القليل مع مخافة الرب. خير من كنز عظيم مع هم.

أكله من البقول حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه الحقد.

ـ يقول الحكيم المصرى أميتموبى:

الكاتب الماهر فى وظيفته سيجد منه كفؤاً لأن يكون من رجال البلاط

ـ يقول سفر الأمثال التوراتى:

ارايت رجلاً مجتهداً فى عمله امام الملوك يقف.

ـ يقول الحكيم المصرى أمينموبى:

تبصر لنفسك فى هذه الفضول. حتى تكون مسرةٌ لك وتعليما.

ـ يقول سفر الأمثال التوراتى:

الم أكتب لك ثلاثين فعلاً، من جهة مسرة ومعرفة

ـ تقول متون التوابيت المصرية:

لقد خلقت المياه العظيمة حتى يتمكن الفقير من استعمالها مثل الغنى.

ـ يقول سفر الأمثال التوراتى:

الغنى والفقير يتلاقيان كلاهما أمام الرب.

هكذا نقل اليهود إلى أسفار توراتهم كل ما أبدعه العقل المصرى وصاغه الحكماء المصريون من أدب وعظة وحكمة لأن ليس لهم حضارة ومن ثم سرقوا حضارة غيرهم كما يقول ادولف هتلر.

كان العقل المصرى القديم على هذا النحو من النضوح والاستنارة كان ثمرة طبيعية لحضارة الفرعونية وعدالتها التى اتخذت من الميزان رمزاً عملياً لها وهذا لم يحدث من قبل فى تاريخ البشرية ومن ثم أبدع العقل المصرى القديم روائع العلوم والفنون والحكمه والعظات البالغات التى قد تجلت فى سلوك المصريين وأخلاقهم.

يقول العلامة برستد:

فى ذلك العصر المبكر لأقدم جماعة بشرية مصرية وصلت إلينا أخبارها، ساد الاعتقاد بأن حق كل فرد فى التحلى بالأخلاق الفاضله يمكن أن يقوم على أساس النهج والسلوك اللذين يعامل بهما أفراد أسرته وهم والده وولدته وأخوته.

ولذلك قال أحد أشراف الوجه القبلى فى نقوش على مقبرته عدد فيها أعماله الطيبة واختتمها بقوله.. ..

إنى لا أقول كذباً لأنى كنت إنساناً محبوباً من والده وممدوحاً من والدته حسن السلوك مع أخيه ودوداً لأخته.

ويقص علينا أحد الموتى فى نقوش تمثاله الموضوع على قبره فيقول.. لقد طلبت إلى المثال أن ينحت لى هذه التماثيل وقد كان مرتاحاً للأجر الذى دفعته له.

كما يقول مدير ضيعة فرعونية فى نقش مكتوب على مقبرته.. أما فيما يخص كل رجل عمل هذا لى فإنه لم يكن غير مرتاح سواء كان صانعاً أم حجاراً، وكما كان الإنسان المصرى فى ظل الفرعونية يهتم بالدنيا الآخرة فقد كان عاشقاً للجمال والحياة من خلال أغنياته والتفنن فى شعر الغزل الذى يتجلى فى القصيدة الغزلية التالية :

اخـــت لا مـثـيـــل لهـــا ... فريدة أكمل من كل البشر
تـأكـل كـالنجمة المعبـودة ... تصعد فى بداية عـام جديد
فـى تألقهـا تفـوق الكــل ... بشـرتهـــا متوهجـــه
ذراعـاهـا أروع مـن الـذهـب ... أصابعها كزهر اللـوتس
ردفاها يتدليان خصرها نحيل ... سيقانها تكشف عن جمالها

الفرعونية مجتمع مدنى

إذا كانت الفرعونية دولة شرعية وقانونية.. وإذا كانت حضارة إنسانية راقية فى جوهرها ومفاهيمها الإنسانيةفلابد أن تكون غُلالة حريرية ناعمة لمجتمع مدنى بمعنى ان المجتمع المصرى فى ظلها الظليل مجتمع مدنى لا تشوبه شوائب العسكره وخشونة العسكر ونظام العسكريين. حيث كانت الدولة مدنية والوزراء والقضاه وأمراء الاقاليم وكبار الموظفين وكهنة المعابد كلهم عناصر مدنية لا صله لهم بالعسكر والعسكره.

وحتى الجيش المصرى القديم كان لواؤه معقوداً للقضاه وأمراء الاقاليم وكانت وظيفته محددة فى حراسة التخوم المصرية وحرب الخارج دون حرب الداخل المصرى وصراعاته السياسية والطبقية ومن هنا فقد كان المجتمع المدنى فى مصرالقديمة يموج بالرضى الاجتماعى والسخط

الاجتماعى ايضاً لأنه كان مجتمعاً طبقياً أى مجتمع إقطاعى يضم طبقة الاقطاعيين المصريين على رأسها الفرعون الملك والاله وطبقات الصناع والفلاحين وصغار الموظفين. وفى وجود ذلك الانقسام الطبقى انتشرت مظاهر الاحتجاج الاجتماعى والثراء الطبقى حيث يشير لنا الأدب المصرى القديم إلى هذه المظاهر الاجتماعية المتناقضة التى تغشى الحياة المصرية وقتئذ يؤكد ذلك تلك القصيدة التى تصف لنا أحوال كبار الموظفين وهذه هى :

إنك تعيش سعيدا مستمتعاً بصحة طيبة.. إنك لست فقيراً ولا تعساً.. إنك ثابت كالساعات.. ان خططك ومقاصدك ثابته وحياتك طويلة وكلماتك بليغه.

وانك تسمع ما هو مستحب.. وانك تغضب ثابتا وعدوك يسقط والذى يتكلم ضدك لم يعد له وجود.

وينافق الموظف الصغير رئيسه فيقول :

إننى كحصان ينكش فى الأرض.. فالنوم لا يزور قلبى فى النهار.. وهو فى الليل لا يغشانى كلما فكرت فى رغبتى أن أخدم سيدى.. الخادم ينفع سيده ويصف لنا شاعر مصرى الصانع والحرفى فى القصيده التاليه :

لم أر الحداد يُوفد كسفير ... ولا صانع الذهب يؤدى رساله

ولكن رأيت الحداد فى عمله ... بجانب بؤره موقده

لقد كانت أصابعه مثل جلد التمساح ... وكان أنتن من بيض السمك

وفى قصيدة أخرى يقول :

كل صانع فنان يعمل بالأزميل ... يُغنى نفسه أكثر مما يفلح الأرض

فعقله من الخشب وأذاته من المعدن ... وهو يعمل أكثر مما تستطيع ذراعاه

ثم يصف الحذاء فيقول :

إنه جد تعيس وانه يستجدى دائماً ... وما يقضم غير الجلد

ويأتى العلامه أميل لودفيغ فيصف الفلاح المصرى القديم بقوله وما كان الفلاح ليمتاز عن البهائم بغير الغذاء والفكر وكان غذاء الفلاح اردأ من غذاء البهائم فى الغالب. وذلك لأن الناس كثير ويسهل استبدال بعضهم ببعض ولم يكن لدى الفلاح مهما كان حراً سوى فكر الفراعنة.

وكان الفلاح لا يعرف بالضبط مدى تملكه لحقله وهل كان الحاكم أو الملتزم أو فرعون نفسه ولى عمله وصاحب أرضه.. ويتجلى لنا مصير ألوف الفلاحين عندما نقرأ على البردى وصف حياة الفلاحين المؤثر الآتى :

قرضت الحشرات نصف الحبوب والتهم فرس النهر نصفها الآخر. وتبدو الفئران كثيرة فى الحقول ويأتى الجراد وتطعم الماشية وتنقر العصافير ويأخذ اللصوص ما بقى فى الجرن. وهلكت الأغنام من الحرث ودرس البرى وهنالك يأتى الكاتب على زورقه جمعاً للغلة وويل للفلاح. ولدى الموظفين عِصىٌ. ولدى الزنوج جذوع ويقولون صارخين سلم حبك وإذا لم يكن عنده من الحب (أى القمح) شىء ضربوه وقيدوه وقذفوه فى القناة حتى يغرق. وتوثق اولاده وزوجته أمامه ويفر الجيران إنقاذاً لقمحهم.

والحمالون المصريون أثناء عملهم الشاق كانوا ينشدون نشيد الكدح والعرق التالى :

نجر حتى الليل سنابل القمح وأكياس الحب وتطفح الأهراء حتى الدرج وتكثر الكدر أى القبضة من القمح ألف مرة وتغطس السفن الواسعة وتملأ القمح الضفاف ولنحمل بلا راحة أفتريدون شرب دمائنا.

وعندما تهدأ ضجة هؤلاء الشيالين الساخطة.. فإذا هم يسمعون أغنية الرضى والمتعة عن قرب وتحت شجرة الجميز القريبة حيث تستريح سيده إقطاعية على بساط مفروش لها حيث تغنى هذه السيدة بأغنية تقول:

ـ إشرب حتى الثمل. وتمتع بهذا اليوم الجميل. وتثرثر الجارة فى الفيضة فاستفد من زمنك أجل حتى السكر صب ثمانى عشرة مرة فى كوبى الذهبى..

وكانوايشاهدون الأغنياء رجالاً ونساءً فى ناحية من الحديقة على حصر ملونة مصنوعة من البردى غير بعيدين من كوانين الفحم التى كان الطهاة يشوون عليها السمك والأوز أى أطعمة المصريين المفضلة. كما كانوا يشوون عليها لحم البقر وكان الغلمان العراة والراقصات غير المستورات تقريبا يأخذون من الأوضاع ما هو تصويرى فى ليل ذلك العرض الذى يرسل سدوله فجأة. أو كانوا يرقصون على نور مصابيح زيت صغيرة فيوزعون عطراً على اولئك السادة والسيدات بين مالا حد له من ألحان العود والقيثار والمزمار وكانت النساء يضطجعن

هنالك بملابس خفيفة لا تمسكها أربطة الكتف إلا للحين الذى يردنه. وقد كن يبذلن من العناية بشعورهن طوال ساعات فى تمشيطها وتمويجها وصبغ بياضها بدهان غريب.. كما كن يدهن أجفانهن باللون الأخضر وحواجبهن باللون الأسود مع الاطالة فيها زيادة فى التماع وجمال عيونهن.

تلك هى بعض ملامح السخط الاجتماعى لدى الصناع والفلاحين والرضى الاجتماعى لدى الشباعى والأغنياء من الاقطاعين كما وضحه العلامة أميل لود فيج فى سفره ؟. ومن هذا المنطلق وحده اشتعل الصراع الطبقى واحتجاجاته الاجتماعية التى تبدأ بالآهة والتأفف والشكوى والتقاضى والإضراب والتظاهر والثورة.

كل هذا حدث فى مصر الفرعونية ذات المجتمع المدنى الذى يوصف بأنه مجتمع من الفلاحين لا مجتمع من المحاربين مما أضفى على الأمة المصرية وصفا يقول بأنها أمة من الفلاحين وليست أمة من المحاربين. هذه الأمة التى عرفت مظاهر الصراع الطبقى مبكراً من خلال آهة الفلاح وتأفف الشيالين وقضايا المحاكم وشكاوى المصريين التى كان من أبرزها شكاوى الفلاح الفصيح، أن ذلك الفلاح الفصيح قد اعتدى عليه موظف فى الدولة الفرعونية بسرقة حميره وما عليها بذريعة أن أحد حميره قد التقم قبضة من عيدان القمح الخاص بذلك الموظف ولهذا حاول الفلاح استرحام ذلك الموظف بغية استرداد حميره وما عليها بدون جدوى مما دفعه إلى الذهاب إلى الفرعون وتقديم شكاياته التسع التى تضمنت التظلم والتوسل والرجاء والتنديد والاتهام والجرأة وهذه بعض شكاياته التسع:

إنك الرئيس وفى يدك الميزان ... فإن اختل الميزان فإنك تختل ايضا.. لسانك هو اللسان الصغير للميزان.. فإذا سترت وجهك عن العالم.. فمن الذى يمكنه ان يرفع العار.. يا ربان السفينة لا تدع سفينتك تغرق فى الرمال.. أيتها الملاجئ لا تساعدى التمساح على السرقة.. أنت كمن يصنع العدل.. أنت تجئ كالشبح وبمجيئك ينتهى الجوع.. أنت كالسماء الهادئة بعد عاصفة هوجاء.. أنت كالنار تنضج الطعام.. أنت كالماء تروى الظمأ.. لقد نصبت لتسمع الشكاوى.. وتفصل بين المتخاصمين وتضرب على يد السارق.. ولكنك تتحالف مع السارق.. فالناس تحبك رغم انك معتد.. ولقد نصبت سندا للرجل الفقير تحميه من الغرق.. ولكن انظر فانك انت فيضانه الغارق.. لقد تعلمت ولكن لا لتكون سارقا.. وانت يا من تمثل

الاستقامة بين كل الناس قد صرت على رأى البقاه فى كل البلاد.. ان البستانى الذى يروى حقله بالعسف ليثمر زرعه بالبهتان وبذلك تعتمر الضيعه بالشر.. لا يوجد فرد صامت لا تحفزه حالتك إلى الكلام.. ولا من نائم لا تجعله حالتك يستيقظ من رقدته.. ولا إنسان مكتئب إلا جعله يثور.. ولا من غبى إلا جعلته حالتك يتعلم.. إن قلبك جشع وذلك لا يليق بك.. إنك تسرق وذلك لا ينفعك.. وحتى الموظفين الذين اقيمو المنع الظلم اصبحوا انفسهم ظالمين.. اقم العدل لرب العدل.. وهو الذى اصبح عدلا حقا.. هل هو ميزان لا يحيد.. هل هو ميزان ثابت.. لا ينحرف أو هل هو مجرد العجز عن الوصول إلى تصحيح الخطأ المشين الذى حاق به هو الدافع إلى هذا الموقف.. مع ان الحاكم العادل الذى كان فى قدرته ان يصلح هذا الخطأ كان حاضراً منذ البداية.. انك لم تكن مريضا.. انك لم تمت.. تكلم الصدق.. وافعل الصدق لانه عظيم ولانه قوى ثابت..

بهذه الكيفية الاحتجاجيه الحارة والصارخة قدم الفلاح الفصيح شكاياته التسع كشكل من الاحتجاج الاجتماعى والصراع الطبقى فى مصر القديمة.

ولا يعنى هذا الا ان مصر ذات المجتمع المدنى كانت مسرحا للصراع الطبقى المتقدم والمتطور فى العصر العتيق حيث الآهة الساخطة للفقراء والتأفف الساخط للكادحين والتقاضى الساخط للمظلومين والشكاوى الساخطة للمقهورين. ففى الشكوى خاصة اذا كانت ضد ظالم او حاكم جائر تبرز فيها الشجاعة والجرأة والمواجهة مما جعلها فى مصر القديمة وسيلة كفاحية لتحقيق غايات اجتماعية وحقوقية.. وهذا يدل على تزايد الوعى الاجتماعى لدى الإنسان المصرى. هذا الوعى الذى قد ازداد نضوجا مما دفع الانسان المصرى الكادح والاجير إلى اكتشاف وسائل كفاحية واحجاجية ذات ضغط اجتماعى وفعالية جماهيرية وشعبية مؤثرة تجلت فى المظاهرات الجماهيرية والاضرابات عن العمل.

ففى عام ٢٩ من حكم رمسيس الثانى وفى اليوم العاشر من شهر أمشير تسلق عمال تكرو يوليس الجدران الخمسة صائحين لقد جعنا ثمانية عشر يوما. ثم حفروا خنادق احتموا بها خلف معبد تورميس الثالث وخرج موظفو سجن تكرو يوليس والمتفرجون إلى مكان العمال ثم دعوهم إلى العودة لعملهم قائلين لهم. عندنا قمح من فرعون مخزون فى مخازن تكرو يوليس وقد أغرى العمال هذا الكلام فعادوا إلى أعمالهم ومع ذلك فانهم فى

اليوم التالى تركوا آلاتهم مرة أخرى وساروا حتى بلغوا الباب الجنوبى لمعبد تورميس الثالث وازدادت الحالة خطرا فى اليوم الثالث فان العمال احتلوا المعبد كله واستعدوا للزحف إلى ما ورائه وفى ١٢ أمشير اصبح من الضرورى ان تدعى القوات العسكرية فانتحب ضابطان وبعض الحراس من القلعة ليكونوا وسطاء ومع ذلك فقد رفض المضربون قبول هذه الوساطة وأبد رغبتهم فى مفاوضة رئيس المدينة الذى ارسل اليهم ليتوسط فى أمرهم وفى النهاية اضطر صاحب الخزينة (مدتاهت) إلى جمع زعماء العمال ليسمع شكواهم فقالوا لهم بأن الجوع والظمأ يلمان بنا وليس عندنا شىء من النبات أو الزيت أو السمك أو الطعام من أى نوع كان فاكتب إلى فرعون واطلب اليه ان يدعنا نعيش وفى شهر برمهات لم يتسلم كل عامل من المضربين جرايته اليومية فقط بل جراية الأيام التى لم يتسلمها فى الشهر السابق.

كما وقع اضراب آخر فى شهر برمهات حيث تجمهر العمال وجلسوا فى مدينة الأموات وعبثا حاول الموظفون إعادتهم إلى أعمالهم إذ كان جوابهم سوف لا نحضر قولوا لرئيسكم.. حقا إننا لم نجتز الجدران بسبب جوعنا فحسب إن لدينا كلمة كبيرة تريد قولها.. حقا ان مركز فرعون هذا سيصيبه السوء.

وحدث بعد ذلك بشهر واحد فى اليوم الثامن والعشرين من شهر برموده عندما مر الوزير بمدينة الأموات فى رحلة مصلحية انه اضطر إلى ان يتدخل فى الامر بنفسه فكتب خطابا جعل أحد ضباط شرطته يقرؤه على ثلاثة من وكلاء العمال ورد فيه قائلا لا تأخذ منا مقرراتنا فهل أنا الوزير معين لكى آخذ وأنهب ان ما يفعله رجل مثلى إنما هو الاعطاء وبالرغم من عدم وجود شىء فى مخازن الغلال حاضراً تحت تصرفه فإنه يريد ان يرضيهم على قدر الامكان ومن ثم فقد أخذ كاتب مدينة الأموات ــ التى يعملون بها يؤكد للعمال المضربين ــ قائلا إنكم ستتسلمون نصف المقررات وأنا بنفسى سأوزعها عليكم وبعد أربعة أيام أى فى اليوم الثانى من شهر بشنس تسلم العمال كيسين من القمح مقرر الشهر كله.

ونظرا لأن مطلب العمال المضربين لم يتحقق كاملاً فقد اضربوا عن العمل وتظاهروا متوجهين إلى مخازن الغلال فى الميناء ولكن الكاتب (امن نخت) هددهم بأنه سوف يقدم إلى المحكمة كل عامل يذهب إلى الميناء فعادوا أدراجهم إلى الرمسيوم مدينة الأموات التى يعملون بها ولكنهم كرروا مظاهراتهم واضراباتهم بعد عشرة أيام بهدف تحقيق مطالبهم

وفى هذه المرة اجتازوا أسوار المدينة وحيئذ تدخل أمير المدينة فتسلم العمال اخيرا خمسين كيسا من القمح مستحقة لهم.

وإذا ما دققنا النظر فى هذه المظاهرات والاضرابات المطلبية للعمال المصريين القدماء فسوف نرى أنها اضرابات اقتصادية وسياسية حيث تظاهر العمال واضربوا عن العمل بهدف الحصول على أجورهم العينية ثم تطورت هذه المظاهرات وتلك الاضرابات إلى احتجاجات سياسية عندما بادر العمال بقولهم.. إننا لم نضرب بسبب جوعنا فقط ولكن لدينا كلمة كبيرة نريد ان نقولها.. حقا إن مركز فرعون سوف يصيبه السوء.

إن ذلك المستوى الرفيع من الصراع الطبقى واحتجاجاته الاجتماعية من المستحيل أن تحدث فى مجتمع عبودى ولكن من الممكن أن تحدث فى مجتمع اقطاعى ذا طبيعة مدنية.

وفى رحاب ذلك المناخ المدنى للمجتمع المصرى الفرعونى تطور الصّراع الطبقى واحتجاجاته التظاهرية والاضرابية إلى ثورة باعتبارها علم التعبير الإجتماعى فى التطبيق.

ويبدو أن مصر القديمة كانت حُبْلى بالثورة. هذه الثورة الاجتماعية التى كانت موجهة بالطبيعة ضد طبقة الاقطاعيين الحاكمين والمالكين تحت قيادة الفرعون الملك والاله حيث بادر الشعب المصرى الكادح والأجير بتنظيم تنظيم نفسه فى مؤسسات نضالية وكفاحية باعتبارها وسائله الكفاحية فى ممارسة الصراع الطبقى يؤكد ذلك مقولة العلامة أميل لودفيج التى تقول:

«ويمضى الزمن وتزدهر طيبة فتشمل على زمر من المهندسين والحطابين والمقابر، حتى ان العتالين الذى كانوا يجرون سفينة الشمس إلى الجحيم ليلاً كانت لهم نقابة».

ومن هنا باتت مصر الفرعونية مؤهلة لحدوث تغيير اجتماعى باشتعال أول حريق اجتماعى فى مصر تجلى فى قيام ثورة على الاقطاع فى العصر القديم ويقدم لنا العلامة أميل لودفيج لمحة.من ثورات الشعب المصرى فيقول:

ومع كل ذلك ثار فلاحو مصر وعمالها واسشتاطوا على سادتهم ذات مرة فأسفرت الفتنة عن كسر شوكة الاغنياء والكهنة وتدوم الثورة مدة طويلة. تدوم فى أواخر الدولة القديمة من سنة ٢٣٥٠ إلى سنة ٢١٥٠ قبل الميلاد أى قبل يوسف بمدة كبيرة. ويحتمل أن تكون قد بدأت

ضد عاهل ظالم اسمه كيتى أو نشأت عن زواج أحد الفراعنة بنات الشعب كما يرى بعض العلماء. ومهما يكن الأمر فقد صورت مسئولية فرعون تجاه الأمة عن ذلك وقد نقل الكهنة هذه المسئولية منذ الأسرة الخامسة من السماء إلى الأرض على نمط البروستانت. وهذه هى الثورة الوحيدة التى اشتعلت فى تاريخ ذلك العالم فلم تنته إلينا وثائق عنها غير التى جاءت من المغلوب. وليس عندنا خبر عنها من الغالب مادام الخط الهيروغليفى وحده الذى كان موجودا. ولم يكن الكهان من الشجاعة بحيث يذكرون الوقائع. وما وصل إلينا من انباء العويل والأنين فمنهم.. وقد قال أحد كهان هليو بوليس:

ضاع البلد وعادت الشمس لا تضئ. وغدا النيل فارغا فيمكنك أن تعبره ماشيا وتشرب ضوارى الصحراء من نهر مصر. وينهض أعداء فى الشرق فيرون هذا البلد فى مأتم وألم وكل واحد يقتل الآخر ويسود الحقد بين أهل المدن ويحمل الفم المتكلم على السكوت وينقلب كلام الآخرين إلى نار فى الفؤاد.

وإليك كيف يصف موظف سلطان الفقراء..

الفقراء ينتصرون. ولتقهر الأقوياء. ويغلب الذين يلبسون النسيج الناعمة ويبرز من لم ير النور قط وينال المناصب وعلى من يريد ان يعمل ان يتسلح.. وأصبح صاحب سرير من كان غير ذى حائط ينام عليه وأصبح ينام تحت الشجر من كان غير ذى ظل. وأصبح عرضه للرياح والزوابع من كان ذا ظل. وأصبح مالكا أكواما من القمح من كان لا يجد خبزا. وصارت ذات جرار زيوت عطرية من كانت غير ذات خضاب وصارت صاحبة مرآة من كانت ترى خيالها فى النيل فقط.

بيدأن الكبار جياع بيكون. وما كانت الأهرام تخبئة فقد غدا فارغا وكشف القناع عما هو خفىٌ ولم يعد لفرعون عوائد من القمح والسمك والطيور والبرونز والزيت وجميع الاشياء الطيبة مالاً له وعطل الوزير من خادم لما لم يبق من خدم ومن كانوا يحملون الآخرين على بناء قبورهم صاروا يبنونها بأيديهم.. وتوارى الضحك وأصبح امراً غير معروف واها واها يا ليت هذا آخر العالم. إذن لكان هذا آخر الشغب والاضطراب.. اى آخر الثورة..

ولما اعتبر الامراء والكهان بالكارثة التى اصابت آباءهم فمنحوا الشعب المصرى بعض الحقوق. فسمحوا له بالاشتراك فى الطقوس الدينية واخذوا يعرضون حياته وطبائعه على القبور. وصاروا يصرخون بأن الخلود بكتب لمن يخلص للعادات.. وهكذا يفرج الغم عن المضطهدين والمكروبين حيث يؤذن للموظفين وللصناع ايضا فى انشاء قبور لإنفسهم وفى الاشتراك فى الخلود..

تلك هى بعض ملامح ثورة الشعب المصرى المبكرة على الاقطاع هذه الملامح الثوريه والاجتماعية التى تتأكد وتتجلى وضوحاً فى بردية الحكيم المصرى القديم إيبوور التى تحكى سطورها مظاهر تلك الثورة ومردودها الاجتماعى فى الآتى:

انظر الآن لقد ارتفعت ألسنة اللهب. وامتدت نارها وستكون حربا على اعداء البلاد.. انظر لقد حدث شيء لم يحدث منذ وقت طويل.. لقد سرق عامة الناس الملك واخذوه.. انظر الآن. ان الذى دفن كما يدفن الصقر حوريس اصبح مُلقى فوق نعش.. واصبح الهرم خالياً مما كان فيه.. انظر الآن لقد وصل الامر إلى اسوأ الحدود.. وحرمت البلاد من الملكية على يد فئة لا تعرف كيف تسير الامور.. انظر لقد اصبحت النبيلات يعملن بأيديهن ويعمل النبلاء فى حوانيت الحرف.. واصبح كل من كان ينام على حصير مالكاً لسرير.. انظر ان من كان يرفل فى الحلل اصبح يرتدى الأسمال. ومن لم ينسج لنفسه شيئا مالكا لأعلى ملابس الكتان.. انظر ان النبيلات اصبحن يتضورن جوعا.. ولكن رجال الملك راضون عما فعلوه.. انظر انه لم يعد هناك وجود للدواوين وصار الناس أشبه بقطيع لا راعى له.. هكذا ثار الصناع والفلاحون فى مصر الفرعونية ذات المجتمع المدنى بهدف التغيير الاجتماعى وما يفرزه من حياة أفضل.ويهدف المساواة فى الخلود اسوة بالفرعون والامراء والاقطاعيين وكبار الحكام.

وقد صاحب ذلك قيام ثورة على الدين الفرعونى تفجرت بشكل علوى حيث قادها ونفذها الملك الفرعونى اخناتون ضد الطبيعة التعددية للديانة الفرعونية بهدف توحيدها فى عبادة الشمس مما جعله يسمى بأبى التوحيد والوحدانية الإلهية القديمة ذات المجتمع المدنى التى كانت وطنا للثورات والاحتجاجات فى العصر العتيق وهذا ما أدى إلى تداول السلطة فى مصر القديمة بين ستة وعشرين أسرة فرعونية بواسطة العشرات من الملوك الفراعنة.

أمـة من الفلاحين

لما كانت الفرعونية دولة وحضارة ومجتمع مدنى خال من عبودية الإنسان لأخيه الإنسان يعيش وسط مـحيط بشـرى تستبد به العبودية بواسطة طبقـات الأسـياد من ملوك وحكام وأمراء وسـادة يستعبدون طبقات العبيد المنتجين والكادحين الاكثر عددا الذين كانوا يمثلون الاغلبيـة السـاحقـة فى شـعوب المحيط البشـرى كان لابد أن تسود فى ذلك المجتمع المدنى المصرى علاقـات اجتمـاعية وإنسانية متقدمة تسمح بالممارسـة الطبيعية للصراع الطبقى واحتجاجـاته الاجتمـاعيـة التى تتجلى فى الآهة والتأفف والشكوى والتقاضى والإضراب والتظاهر والثـورة فى ظل سلطة مـدنيـة وقـانونيـة لا تشـوبهـا عـدوانيـة العـسـكر والعـسكرة وشراستها حيث كانت العسكرة المصرية وجيشها المصرى ذات نشاط حربى وقتالى وعسكرى مُوجه لحرب الخـارج المصرى وحماية الحدود المصرية فقط. وبالتالى فقد كـانت العسكرة المصرية مغلولة الأيدى فى حرب الداخل المصرى الذى كـان مسئوليته الأمنية تقع على كاهل الشرطة المصرية تنفيذا للقانون الذى اصدره المجتمع المدنى فى مصر الفرعونية.

وخلافا لذلك كان يحدث فى الدول العبودية قهر العبيد واذلالهم وبيعهم وشرائهم وقتلهم كما كـان يحدث فى بلاد فارس وبابل واليونان وروما هذه هى العلاقات الاجتماعية العبودية بين الأسياد والعبيد التى كان يمارسها طبقات الأسياد بواسطة العسكره وغلظتها والعسـاكر وبأسهم الشـديد فى حـرب الـداخل أى فى قلب بـلاد فـارس واليونان وروما التى كـانت تعيش فى أرجـائها قتل العبيد بواسطة مصارعـة بعضهم بعضا حتى الموت أو مـصارعـة الوحوش الكاسـرة بقـصـد تسليـة الأسـيـاد ولهـوهم والتـرفيـه عنهم. ومن ثم فـقـد كـانت العـسكرة وعسـاكـرهـا فـى هـذه البـلاد تمارس حـرب الداخل ضد طبـقـات العبيـد فى بلادها وتمارس حـرب الخـارج للغـزو والفـتح والسـيطرة على البـلاد الأخـرى وبسـبب التـناقض بين مـصـر الفـرعونيـة والدول الأخـرى خيل للمؤرخين الكبـار مثل ـ أدولف إرمـان وهـرمـان ـ وأمـيـل لودفـيـج ان مصـر الفـرعونية ذات المجتمـع المدنى أمة من الفلاحين المسالمين وليست أمة من المحـاربين أى أن المصـريين القـدمـاء كلهم شـعب مـتـخـصص فى الزرع والضـرع والحـرفـة والصنعـة لا شـأن له بالعـسكرة والعـسكريـة والعـمل القـتالى والحربى مما يعنى أنه شـعب من الفـلاحين المسـالمين فقط مع ان التـاريخ يقـول لنا ان الإنسـان المصرى فـلاح وصـانـع وجندى

شجاع وتتميز جنديته وعسكريته بطبيعة فريدة لا تتوافر فى جنود وعساكر الدول العبودية حيث تنبثق العسكرة المصرية القديمة دون غيرها من الوطنية المصرية المبكرة جدا والمحررة من الطغيان العبودى مما جعل الإنسان المصرى هو أول جندى يقاتل من أجل قضية وطنية تتجلى فى الحفاظ على أرض مصر وحدودها من الغزو والغزاة.

يؤيد ذلك انتصار الجيش المصرى فى حروب بلاد النوبة فى عهد الأسرة الثانية عشر والاستيلاء على مناجم الذهب واستغلالها ومبادرة الملك أحمس بطرد الهكسوس من قلعتهم فى شرق الدلتا وحروب تحتمس الثالث البالغ عددها ستة عشر حربا التى كان من أشهرها معركة مجدو حيث استطاع الجيش المصرى أن يخضع فلسطين وسوريا وتقدم حتى بلاد ما بين النهرين وأعالى الفرات حتى باتت مصر امبراطورية وقوة عالمية يحسب حسابها فمن أعالى الفرات حتى النوبة جنوبا وليبيا غربا وتبدأ أول امبراطورية فى التاريخ ويعد مؤسسها تحتمس الثالث أحد عباقرة الحروب على مر التاريخ، كما ان حروب الملك رمسيس الثانى ضد الحيثيين التى كان من أهمها معركة قادش ومهاجمة حصون سوريا وفلسطين والاستيلاء عليها خير دليل على قوة الجيش المصرى وخلال الحرب مع الليبيين الوافدين من الغرب فى عهد الملك الفرعونى منفتاح استطاع الجيش المصرى هزيمتهم بعد قتال دام ستة ساعات حتى ان أمير الليبين حربى لم ينتظر النهاية الفاصلة وانما فر تاركا نعاله وقوسه وجعبته وسقط معسكر الليبيين بذخائره وعائلة الأمير الليبى فى أيدى الجيش المصرى الذى استولى على ما فيه من أوانى بلغ عددها ٣١٦٦ ومن الأسلحة البرونز ٩١١١ بالإضافة إلى أسر ٩٣٧٦ أسيراً ومما يذكر ان العساكر والضباط المصريين كانوا يفرحون بالعمل القتالى ويبتهجون به مما جعلهم يغامرون فى المعارك الحربية وخير شاهد على ذلك قصة استيلاء الجيش المصرى على مدينة يافا.

تقول القصة الحربية أن احد قواد الملك تحتمس الثالث وضع خمسمائة من أحسن جنوده فى أكياس أو سلال أستطاع خمسمائة آخرون أن يدخلوا بهم يافا بحيلة حربية وبذلك أمكنه الاستيلاء على المدينة واستسلام قائدها وعساكرها.

وتقول المتون العسكرية التى أوردها لنا الدكتور عبد العزيز صالح وهى عن قائد عسكرى مصرى يسمى «ونى» خرج على رأس جيشه فى خمس حملات فى النصف الأول من القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد.

ووصف القائد ونى كثافة جيشة فادعى انه تكون من عشرات الألوف الكثيرة من الجنود وانه ترتب على حكمته انه لم يحدث ان تشاجر جندى مع زميله ولم يحدث ان اغتصب جندى كسرة من عابر سبيل أو سرق نعله ولم يحدث ان نهب جندى من جنوده خرقة من قرية أو سلب عنزه من عشيرة حتى جاوز بجيشة مناطق الحدود كلها.

ولا يعنى هذا إلا ان العسكرية المصرية الفرعونية قد ظهر فى صفوفها الوعى التنظيمى فى التدريب والقتال حيث عرفت الخطوة العسكرية وتنظيم الصف والوعى السلوكى والتقاليد الاخلاقية المستحبة من خلال نشر روح الطاعة فى الجيش وتغليب روح التراحم بين الجنود ومع الناس المدنيين وهم فى طريقهم إلى مواقع الحرب والقتال.

ولما كانت العسكرية المصرية ذات شأن فى الوجدان المصرى فقد دون أحد الضباط نقوشا على قبره تقول.. إنه مواطن كفء فى شئون الحرب ومن يقول انه كان ماهرا فى السيف وان سمعة المحارب لن تكون هينة على الاطلاق وان سمعة الجسور لن تضيع فى وطنه على الاطلاق ولذلك لم يتردد الفرعون سنوسرت الثالث أحد أشهر فراعنة الاسرة الثانية عشرة وأول من أسس جيش نظاميا فى ؟ التاريخ، بأنه على استعداد ان يتبرأ منهم ان لم ينهجوا نهجه فى الحرب وصيانة حدود وطنهم وكان الفرعون كامس كان يثق بشعبه المصرى ولهذا خاطب بلاطه قائلا سوف أحارب الهكسوس وفعلا حاربهم وانتصر عليهم وعاد إلى طيبة ووصف أديب عودته المنتصرة فقال :

طابت رحلة الأمير وجنوده أمامه لم يتناقصوا ولن يتآمر أحدهم ضد رفيقه ولم تشتك قلوب الناس منهم. وأصبح أقليم طيبة فى عيد وهرع اليه النسوة والرجال.

هذه هى العسكرية المصرية التى تتجلى أمجادها وعبقريتها فى معركة مجدو بقيادة الفرعون تحتمس الثالث العظيم الذى استشار ضباطه وجنوده فى اختيار الطريق إلى مدينة مجدو فاختاروا الطريق الطبيعى والسهل ولكنه اعترض على هذا الاختيار واختار طريقا جبليا صعبا لادراكه بأن العدو لم يتصور ان الجيش المصرى يأتى عبر ذلك الطريق.. ودار حوار ديمقراطى بين القائد تحتمس وجيشه حتى اقتنع ضباطه وعساكره بالمرور فى الطريق الجبلى تحت قيادته باعتباره القائد والقدوة والمثل ومن ثم فقد تحقق النصر المبين للجيش المصرى والعسكرية المصرية القديمة والظافرة.

أليس ذلك بكاف لإثبات أن الأمة المصرية أمة من الصناع والفلاحين والمحاربين كذلك وليست أمة من الفلاحين المسالمين فقط كما نرى بعض السادة المؤرخين والدليل على ذلك هو الخوف الذى استبد بالغزاة الذين احتلوا مصر من العسكرية المصرية وبعثها من سكونها حتى لا تطيح بهم وتحرر الأرض المصرية من احتلالهم العسكرى والاستيطانى معا وخاصة بعد معركة رفح العسكرية التى خاضها المصريون حينما هزمت جيوش البطالمة الاغريق امام جيش السلوقيين فى سوريا وحدهم دفاعا عن الحكم البطلمى مما جعلهم يعودون كجنود منتصرين إلى الاستعانة بالمصريين الذين حققوا له النصر، ذلك النصر المبين الذى حولهم إلى ثوار بغيتهم تحرير مصر من البطالمة المستعمرين والمستوطنين.. ولذلك بادر الغزاة المتعاقبون بوأد كل مظاهر العسكرية المصرية بسجن المصريين سجنا مؤبدا فى مجال الزرع والضرع والحرفة والصنعة وإبعادهم عن اى عمل حربى وعسكرى حتى لا تعود العسكرية المصرية من جديد، واستمر هذا الحال دهرا طويلا بسجن والمصريين فى مجال الزراعة والحرفة منذ ذلك الوقت حتى اضطر محمد على الحاكم العثمانى إلى تجنيد المصريين كما اراد تكوين جيش قوى يحقق به أطماعه التوسعية وبعد ان تخلص من جنده الألبان وفشل فى تجنيد السودانيين فاضطر اضطرارا إلى تجنيد المصريين الذين حققوا له انتصارات مذهلة فى جزيرة العرب والسودان وبلادا لمورة وفى الشام وضد الدولة العثمانية وهكذا ابتعد المصريون عن الجندية منذ معركة رفح سنة ٢١٧ ق. م. حتى تولى محمد على حكم مصر سنة ١٨٠٥ سجن المصريون فى أعمال الزراعة والحرفة وابعدوا ابعادا عن الجندية ضمانا الاستمرار الحكام الاجانب فى حكم مصر.

المماليك يسقطون الفرعونية

لقد بادر الفراعنة المتأخرون فى الدولة الفرعونية الحديثة بانقلاب سياسى أطاحوا بواسطته بالدولة الفرعونية المدنية واقاموا بدلا منها دولة فرعونية عسكرية ولذلك تغير الحال فى مصر ففى كل مكان انتشر الجنود المشاة والركبان وجنود العربات مع ضباطهم وبجانبهم تزايدت جيوش (متزاى) أى جيوش الشرطة والبوليس والغريب ان الجيش المصرى وعساكر الشرطة كان أغلبهم من المماليك والمرتزقة الأجانب (الأغريق) ومن هنا بات الجيش المصرى المكون من المماليك الأجانب والمرتزقة هو القوة الرئيسية فى الدولة الفرعونية

فالمشرف على الجنود هو الذى يأمر من أين تبدأ الأعمال فى قناة ما وكان وكيله هو الذى يأمر بنقل كتل الأحجار ويتولى نقل أحد التماثيل ومن هنا نرى أن ضباط الجيش قد احتلوا المراكز التى كان يشغلها سابقاً رؤساء خزينة الاله ولم تمض على ذلك سوى قرون معدودة حتى انتزع هؤلاء الجنود المماليك والمرتزقة الملك الفرعون عن عرشه واقاموا مكانه كبيرهم العظيم على حد قول أدولف أرمان وهرمان رافكه وحتى تجد هذه العسكره الجديدة والقريبة من يساندها من المصريين فتحالفت مع الكهنة المصريين وبالتالى فقد أصبح العسكر الأجانب والكهنة المصريون يمثلان القوة العليا فى مصر الفرعونية.

ولم يكتف العسكر المماليك والأجانب بمناصبهم العسكرية بل شغلوا مجمل وظائف المديرين المدنيين مثلهم مثل المماليك المصريين فى القرون الوسطى وكانوا يتكونون من الإغريق والليبيين والفينيقين الذين لا ينطوون على أى اخلاص للوطنية المصرية والشعب المصرى والفرعون الذى جلبهم ولهذا فقد اشترك بعضهم فى المؤامرة التى ديرت ضد رمسيس الثالث الذى جلبهم إلى مصر.

وان خلفاء الفرعون رمسيس الثالث هولاء التسعة الذين تسموا باسم الرعامسة وكان بعضهم ابناؤه كان معظمهم مجرد آلات فى أيدى الكهنة الأقوياء والعساكر المماليك الأجانب والمرتزقة ولذلك استطاع بعض الكهنة بمساعدة عسكر المماليك الأجانب من خلع بعض الرعامسة من أحفاد رمسيس الثالث من العرش وينصب نفسه ملكا على مصر الفرعونية.

وقد حدث ذلك بفضل تغليب عدد الجنود الممالك الأجانب على الجنود المصريين من صناع وفلاحين ففى إحدى كتائب الجيش المصرى البالغ عددها خمسة آلاف جندى منهم ٥٢٠ من الشردان و١٦٢٠ من الكهك و١٠٠ من الزنوج و١٨٠ من المشوش والباقى من المصريين. وفى عهد الأسرة الفرعونية التاسعة عشر كان الجيش المصرى بضم الكثير من جنود المماليك الأجانب ففى احدى الفرق العسكرية البالغ عددها ٣٦٠٠ جندى كان عدد الجنود المصريين لا يزيد على ١٩٠٠ جندى مصرى والباقى من المماليك الأجانب.

ولذلك كان المصريون يحتقرون هؤلاء الجنود المرتزقة والأجانب مهما كانت رتبهم العسكرية ويصفونهم بالشياطين وأعداء الإله رع وتأكيدا لذلك فقد كتب وكيل الجند

المصرى بازدراء إلى أمير مزاى المسئول عن الشرطة يقول :

إنك طفل من الأرقاء ولست بأمير ابداً انك جلبت من مكان آخر لتقيم هنا.

ولكن كيف وصل هؤلاء المماليك المرتزقة والأجانب إلى مصر؟ ان حروب الملك تحتمس وانتصاراته قد جلبت موجات عديدة من الأسرى الذين استوطنوا فى مصر.. كما وفد على مصر الامبراطورية ذات الغنى والثراء موجات من الشعوب المجاورة هربا من الجوع والعبودية فى أوطانهم كما فعل العبرانيون وغيرهم فى عهد النبى يوسف.

ولما آلت الامبراطورية المصرية ذات الرخاء والثراء إلى الفراعنة الرعامسة الضعاف توارى الرخاء واختفى الثراء إلى حد ما وبالتالى فقد اهتز العدل الاجتماعى فى الامبراطورية الفرعونية مما أدى إلى نشوء خصومة اجتماعية بين الشعب المصرى والملوك الرعامسة تجلىّ مظاهرها فى اشتعال الصراع الطبقى لدى الجماهير المصرية فى مواجهة هؤلاء الملوك الفراعنة المتأخرين الذين اعترى حماسهم/الوطنى فتور ملحوظ ممارسة حرب الخارج المصرى حفاظاً على الامبراطورية المصرية بينما اشتعل حماسهم فى ممارسة حرب الداخل المصرى حفاظا على عروشهم ومن هنا طفحت العسكرة الفرعونية معتمدة على المماليك الأجانب والمرتزقة وعلى طبقة الكهان مما أدى تحالف الدين والعسكرة أى تحالف الكاهن المصرى مع العسكرى المملوك والأجنبى ضد الوطنية المصرية والصراع الطبقى للشعب المصرى الصانع والفالح.

ولذلك لاحظ المورخ اليونانى القديم هيرودت عند زيارته لمصر بأن المصريين كانوا يضيقون ذرعا بالأجانب عامة والأغريق منهم خاصة إذ كان الكثير من هؤلاء العساكر الأغارقة المرتزقة يعملون فى جيش الاحتلال الفارسى ويقول ايضا وكانت الدسائس تملأ بلاط الفرعون حتى قبل أن أحد قواده قد خانه ولاذ ببلاط قمبيز ملك الفرس وأرشده على أقرب السبل لغزو مصر. وقيل ان هذا القائد الخائن هو الذى قاد بنفسه جيش الملك قمبيز لغزو مصر حيث واجه الجيش المصرى فى ربيع عام ٥٢٥ ق. م. عند السويس وكان جيشا خليطا من المصريين والمرتزقة الأجانب وحدث قتال شديد أدى إلى تراجع الجيش المصرى المختلط إلى العاصمة منف التى سقطت فى يد الملك الفارسى قمبيز، حدث ذلك لأن

الفراعنة المتأخرين قد عسكروا الحياة المصرية بالعساكر المماليك المرتزقة كما فعل الفرعون بسماتيك رأس الاسرة السادسة والعشرين بندب رجال السيف من الأفارقة للاستعانة بهم للتخلص من منافسية كما يقول الاستاذ صبحى وحيده فى كتابه.

ويؤكد ذلك هيرودت بقوله.. وقد عمد الفرعون بسماتيك أثناء حكمه إلى تشجيع هجرة اليونانيين إلى مصر فأ عطى من استعان بهم فى حربه الداخلية أراضى يزرعونها وييسر إقامة من أقبل على أثرهم من التجار اليونانيين ورغب المصريين فى تعلم اللغة اليونانية.

هكذا أسس الفراعنة المتأخرون عسكرتهم من المماليك الأجانب ضد شعبهم المصرى وضد وطنيتهم المصرية مما أدى إلى سقوطهم وسقوط الفرعونية العتيدة بواسطة هذه العسكرة التى انحازت إلى جيوش الغزو الفارسى يؤيد ذلك ما ورد بدائرة المعارف الايطالية التى تقول :

إن انتصار الفرس على المصريين يرجع إلى خيانة الجنود والضباط الاغارقه والفينيقين الذين كان الفراعنة المتأخرون يستعينون بهم فى الجيش المصرى.

ومن المحزن جداً ان تكون عسكرة الفراعنة المتأخرين هى المقدمة لمصيبة العسكرة الأبدية التى ابتليت بها مصر وشعبها منذ الغزو الفارسى حتى حضور الألفية الثالثة للميلاد باستثناء سنوات ثورة سنة ١٩١٩ التى استطاع الشعب المصرى ان يفرض خلالها مظاهر المجتمع الديمقراطى المدنى فى مواجهة عسكرة الاحتلال الانجليزى والعسكرة الملكية. وفيما يلى سنوات العسكرة التى كتبت على جبين الشعب المصرى.

عسكرة الفرس... استمرت ١٥٠ سنة

عسكرة البطالمة... استمرت ٢٩٣ سنة

عسكرة الرومان الغربيين... استمرت ٣٦١ سنة

عسكرة الرومان الشرقيين... استمرت ٢٠٩ سنة

عسكرة العرب والأمويين والعباسيين، والفواطم والأيوبيين، والمماليك والعثمانيين ١٢٧٦سنة.

وعسكرة أسرة محمد على استمرت ١٤٧ سنة.

أما عسكرة ثورة يوليو وسلطة الجيش فإنها مستمرة إلى ما شاء الله..

مما يعنى أن حكم العسكرة المستبدة والغليظة قد ظل راسخا على قلب الشعب المصرى قرابة ألفين وخمسمائة سنة ولا يدرى أحد متى ينتهى ذلك الشر المستطير فى سنوات الألفية الميلادية الثالثة التى بدأت سنوات عقدها الأول فى ظل عسكرة الرئيس حسنى مبارك الذى أصبح بيده كل شىء فى مصر بفضل عسكرته ومع اعتذارى للذات العلية فإنه يقول للشىء كن فيكون. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون هذه الآية قالها الشيخ شعراوى للرئيس المقتول انور السادات وهكذا يعامل الحكام الطغاة الذين قد تكاثروا فى مصر القديمة والوسيطة والحديثة والمعاصرة لا بسبب جغرافية مصر كما يقول العلامة جمال حمدان ولكن بسبب استمرار حكم العسكرة التى ابتليت به مصر.

ومن هنا فالرئيس مبارك امام خيارين فى توريث عسكرته وجمهوريته المصرية الأول إما أن يورثها لعسكرى آخر وفقا للمبدأ المغولى القائل بأن السلطة يجب ان تقوم على أكتاف العسكر والعساكر من حملة السلاح. وإما أن يورثها لولده جمال حسنى مبارك بذريعة إضفاء الطابع المدنى على الجمهورية المصرية الموروثة بعد ترويض العسكرة وطغياتها التى سوف نواصل المشى فى مشوارها الزمنى الطويل مما جعلها سبب الأسباب فى غزو مصر بالكثير من الغزاة الذين جلبوا إليها ثلاث هجرات بشرية كانت مدداً وسنداً لعسكرة الغزاة وقد بدأت بالهجرة البشرية الأغريقية التى بدأ توافدها فى عهد الفراعنة المتأخرين ثم الهجرة البشرية العربية التى جاءت إلى مصر فور الفتح العربى لمصر ثم الهجرة البشرية المغولية التى جلبها الأمراء الأيوبيين وظلت تتوافد بعدهم وكانت اكثر الهجرات البشرية ظلمة وظلاما ووحشية وتخلفا ومن جراء ذلك تغير الدين المصرى من الفرعونية إلى المسيحية القبطية ثم إلى الإسلام وتغيرت اللغة المصرية من الهروغليفية إلى القبطية ثم إلى اللسان العربى المبين ومع ذلك فقد ظل الشعب المصرى كالطود يباشر زرعه وضرعه وفق الشهور الفرعونية.

■■■



حكم العكسر
فى مصر المحروسة
من الدولة الفرعونية
حتى حكم مبارك

الهجرة البشرية الأولى

عسكرة . استطيان . احتلال

- البطالة عسكرة واستيطان
- الرومان عسكرة واحتلال
- المسيحية تواجه العسكرة الرومانية واليهودية
- تمصير المسيحية فى مواجهة العسكرة
- أنا مسيحى .. أنا مسيحية
- عشق الموت والاستشهاد
- غلبت الروم

البطالة عسكرة واستيطان

ملعونة هذه العسكرة التى ابتلى بها المجتمع المصرى القديم فى عهد الفراعنة المتأخرين الذين عملوا على تدعيم أمنهم القومى فى مواجهة الشعب المصرى وصراعه الطبقى من خلال اللجوء إلى العسكرة الأجنبية التى كان قوامها العساكر الأغريق والفنيقيين الذين اقتصرت مهمتهم تقريبا على حرب الداخل المصرى دون حرب الخارج المصرى مما مكنهم من فتح مصر لأول هجرة بشرية هى الهجرة الأغريقية التى استوطنت مصر.

ولقد كانت هذه الهجرة البشرية الأغريقية التى استوطنت مصر غير آبهة بالوطنية المصرية مما مكن عسكرتها من القضاء على الفرعونية كدولة وحضارة ومجتمع مدنى من خلال انحيازها إلى جيوش الغزو الفارسى مما أدى إلى هزيمة الجيش الفرعونى المصرى واحتلال مصر بواسطة الفرس وعسكرتهم الضارية.

ولكن الشعب المصرى بقيادة تحالف الصناع والكهنة الذى حول المعابد المصرية إلى نقابات ومضانع وقلاع ثورية لم يمكن الغزو الفارسى من تثبيت أقدامه فى مصر رغم تواجده العسكرى القوى فى مصر طوال ١٥٠ سنة وبفضل هذه المقاومة المصرية استطاعت جيوش الاسكندر الاكبر المقدونى الاغريقية من بلاد الاغريق ان تطيح بالغزو الفارسى لمصر وسط ترحيب المستوطنين الأغارقة دون المصريين الذين كانوا يشاركون الفرس فى حكم بلادهم بفضل مقاومتهم الوطنية العتيده.

ولذلك اضطر الاسكندر الأكبر المقدونى إلى ترضية المصريين بالدخول العلنى فى دينهم الفرعونى حتى قيل أنه من سلالة الفراعنة ثم ترك مصر عائداً إلى آسيا لمباشرة فتوحاته

حيث خلفه بعض قواده وعساكره ولم يعد إلى مصر مرة ثانية وأصبحت الاسكندرية عاصمة لها واستمر حكمها ٢٩٣ سنة حيث كان سندها الرئيسى المستوطنين الأغريق ولهذا كانت تعتبر كانت دولة البطالمة تعتبر سلطة الهجرة البشرية الأولى فى مصر المسماه بالهجرة الأغريقية، ولقد كان موت الإسكندر الأكبر فى آسيا هو سبب قيام دولة البطالمة فى مصر نتيجة لتوزيع إمبراطوريته على كبار قواده العسكريين حيث حصل القائد العسكرى بطليموس على حكم مصر فأسس دولته البطلمية وحصل القائد العسكرى سلوقس على حكم سوريا فأسس فيها الدولة السلوقية التى ناصبت العداء للبطالمة فى مصر للتنافس بيهما على السيطرة مما أدى إلى قيام الحروب بين الدولتين وتبادلتا النصر والهزيمة وفى أواخر عصر بطليموس الثالث الحق السلوقيون الهزيمة بالبطالمة، مما اضطر البطالمة فى عهد بطليموس الرابع إلى الاستعانة بجيش عسكرى من المصريين الذين حققوا نصرا كبيرا على السلوقيين فى معركة رفح المشهورة فى عام ٢١٧ ق.م.

ولكن العساكر المصريين المنتصريين عادوا إلى مصر بوطنيتهم المصرية التى حفزتهم على الثورة على حكم البطالمة بهدف عودة الفرعونية من جديد مما دفع عسكر البطالمة إلى سحق الثورة المصرية ووضع دستور للغزاة وهجراتهم البشرية يبدو فى الآتى :

١ ـ غزو مصر عسكريا وبشريا فى وقت واحد.

٢ ـ حكم مصر حكما مطلقا بواسطة عسكرة الغزاة.

٣ ـ إبعاد المصريين عن إدارة شئون بلادهم.

٤ ـ منع المصريين منعاً باتاً من حمل السلاح ومن ممارسة العمل الحربى والعسكرى.

٥ ـ حبس المصريين حبسا مطلقا فى مجال الزرع والضرع والحرفة والصنعة وأشغال السخرة.

٦ ـ نهب مصر نهباً تاماً واستباحة أرضها وعرضها.

٧ ـ فرض ثقافة الهجرة البشرية الغازية ولغتها على المصريين.

إن ذلك الدستور الذى ابتدعه الحكام البطالمة الذين بلغ عددهم ١٢ ملكا بطليموساً وسبعة ملكات كلهم قد تسمين باسم كليوباترا، قد عمل به ونفذه كل الغزاه الذين احتلوا

مصـر تبـاعاً بعـد ذلك. وفى ظل ذلك الدسـتور الاسـتيطانى الاحتـلالى اسـتبدت عـسكرة البطالمة بالشعب المصرى الكادح والفالح والصانع من خلال الضرائب التى كان من أبشعها ضريبة الرأس التى كانت تفرض على الإنسان المصرى سواء كان رجلا أو امرأة أو شيخا أو طفلا عاجزا أو قعيدا، كما شاعت السخرة بين المصريين من خلال اجبارهم على العمل الإكراهى فى مجال الحرفة والصنعة وفى مجال الزرع والضرع وفى اشغال الحفر والردم والمناجم وصناعة المعدات الحربية تحت رقابة عسكرية بشعة ووحشية حيث كانت تكفى ملاحظة واحدة على الكادح والصانع أثناء العمل والانتاج تؤدى به إلى عقوبة الشنق فى الشوارع العامة، هذه ملامح علاقات العمل العبودى فى عهد البطالمة وعسكرتهم ذات البأس الشديد مما كان سببا فى انتشار أسواق الرقيق والنخاسة لأول مرة فى مصر.

ولذلك فقد واجه المصريون عسكرة البطالمة وجبروتها بالإضراب عن العمل فى المزارع والمصانع والمحاجر بالإضافة إلى الهروب الجماعى ومع ذلك فقد استطاعت عسكرة الحكام البطالمة استعباد الشعب المصرى واستغلاله استغلالا مكثفا مما جعلها تضاهى الاكبراطورية الرومانية اقتصاديا وعسكريا ولهذا كان يقال أن روما كانت لا تخشى إلا ثلاثة أشخاص أولهم القائد العسكرى الأفريقى هانيبال قائد قرطاجنه الذى غزا روما وحاول دحرها والثانى العبد الثورى سبارتكوس قائد ثورة العبيد والثالث إمرأة هى كليوباترا الملكة البطلمية الأخيرة هذه المرأة الداهية التى حاولت أن تتربع على عرش روما من خلال نفوذها الاقتصادى والعسكرى وعلاقتها بالقائد الرومانى الشهير يوليوس قيصر الذى كان موته واغتياله سبباً فى وأد الطموح الملكى للمرأة الداهية كليوباترا التى قد جددت ذلك الطموح من خلال علاقتها بتلميذه وخليفته القائد العسكرى انطونيوس، مما أدى إلى اختلافه السلطوى مع زميله وصهره وشريكه فى السلطة القائد العسكرى إكتافيوس ومن جراء ذلك دارت الحرب بين الجيش الرومانى بقيادة القائد اكتافيوس وبين الجيش البطلمى بقيادة الملكة كليوباترا وعشيقها القائد الرومانى انطونيوس. وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة الجيش البطلمى وانتحار قائدية الملكة كليوباترا والقائد الرومانى انطونيوس فى معركة إكتيوم البحرية فى عام ٣٠ ق. م. مما أدى إلى احتلال الرومان لمصر حيث ثبت ان عسكره البطالمة كانت عسكرة هشة فى حرب الخارج بينما كانت عسكرة عنيفة وغليظة فى الداخل المصرى مما جعلها لا تكتسى بغلالة ولو رقيقة

من الوطنية المصرية رغم عمرها الاستيطاني الطويل في مصر وبالتالي فلم يأبه المصريون بزوال حكم البطالمة ومجئ الاحتلال الروماني حيث ظلوا مشغولين في زرعهم وضرعهم وصناعاتهم وحرفهم في القاع الاجتماعي المصري بينما الأغارقة واليهود يمثلان الصفوة والطبقات السائدة والحاكمة والمالكة في مصر البطلمية.

الرومان عسكرة واحتلال

يقول الأمبراطور اغسطس قيصر الروماني في وثيقة أعماله المشهورة.. لقد ضممت مصر إلى ممتلكات الشعب الروماني.

هكذا قال اكتافيوس القائد الروماني المنتصر على الملكة كليوباترا وعشيقها القائد العسكري الروماني انطونيوس عام ٣٠ ق. م. معبرا عن فرحة الشعب الروماني الغامرة التي جعلته يغير من طبيعة الدولة الرومانية من الجمهورية إلى الأمبراطورية ويغير اسمه إلى الامبراطور أغسطس قيصر.

ولقد كان الامبراطور اغسطس يخشى من ثورات الشعب المصري فلجأ إلى عسكرة الحياة المصرية عسكرة شديدة في مواجهة المصريين المشاغبين والذين كانوا يمثلون الطبقات الاجتماعية الدنيا القابعة في القاع الاجتماعي المصري حيث ظل الأغارقة واليهود يمثلون الصفوة والطبقات الاجتماعية السائدة في المجتمع المصري.

وقد بدت العسكرة الرومانية في جلب ثلاث فرق رومانية بالاضافة إلى القوات العسكرية المساعدة وأقام الرومان حاميات عسكرية قوية في الأماكن الفاعلة في مصر، حامية في الاسكندرية العاصمة وأخرى في حصن بابليون عند التقاء الوجيهن البحري والقبلي والثالثة في طيبة عاصمة مصر الفرعونية ومركز الوطنيه ورمز المقاومة ضد الغزاة والرابعة في أسوان لحماية حدوذ مصر الجنوبية. وكان الجيش الروماني يتألف في عصر الامبراطور أغسطس من ٢٠ فرقة تحمل كل فرقة أسما ولقبا وعدد أفراد الفرقة يبلغ ٦٠٠٠ جندي وقد عسكرت تلك القوات الرومانية في مدينة الإسكندرية وفي مدينة طيبة وفي كل موقع مصري يشتم منه رائحة الثورة المصرية.

ولقد تعرض الشعب المصرى الذى كان يزيد عدده على سبعة ملايين نسمة لأقصى حالات الاستغلال والاستبعاد يؤيد ذلك ان الجزية النوعية التى كانت فى عهد اغسطس قد زادت أربعة أمثال ما كان البطالمة الأوائل! ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد كان هناك فرق بين البطالمة والرومان وهو أن معظم ما كان البطالمة يبتزونه من مصر كان يبقى فيها اما معظم ما كان الرومان يبتزونه من مصر عينا كان ام نقدا فانه كان ينقل إلى روما وتخسره مصر، فقد كانت مصر عبارة عن مزرعة تمد روما بالغلال بل ان قيصر اعتبرها ملكا خاصا له يستولى على قمحها لأهل روما ليضمن ولاءهم له وفى احدى المرات كتب أحد الاباطره الرومان إلى والى مصر قائلا.. إنما وليت على مصر لتجز وبرها لا لتسلخ جلدها.

إن هذه الحكمه الامبراطورية لم تكن تعنى الشفقة على مصر وشعبها بل شفقة بالرومان حتى لا تجف الموارد المصرية فى وجوههم حيث كان الرومان لا يعتبرون المواطن المصرى إنسانا ولهذا كان الاحتلال الرومانى موجها إلى غاية واحدة هى استعباد الفلاح المصرى واستغلاله من خلال تأجير الأراضى الزراعية أو جباية الضرائب المتعددة التى كان منها ضريبة دفن الموتى فى البر الغربى من النيل. وتنبئنا الوثائق بأن المصريين كانوا يهربون من السخرة وضريبة الرأس ويجتمعون فى الأدغال والمستنقعات حتى أن بعض القرى هربت بأكملها تقريبا. وتحدثنا بردية من عهد نيرون بأن سكان ست قرى من قرى الفيوم قد نقص عددهم نقصا شديدا بسبب الهروب الجماعى.

وتخبرنا بردية من هذا العهد بأن عبء تحصيل الضرائب لم يرهق كاهل دافعى الضرائب فقط بل جامعيها ايضا مما دفع الجباة إلى الشكوى من سوء الحال وقد كتب الفيلسوف اليهودى فيلون الذى عاصر الامبراطورين كاليجولا وكلادويوس عن قرى أخرى هرب كل أهلها بسبب الضرائب وبسبب سجن الأطفال والزوجات والتنكيل بهم للارشاد عن أهلهم الهاربين من دفع الضرائب.ويروى أن جباة الضرائب كانوا لا يتورعون حتى عن الاستيلاء على جثث الموتى المصريين الذين لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب.

ولذلك فقد ثار المصريون ضد الاحتلال الرومانى فى منطقة طيبة وفى برار ى الدلتا وقد تزعم ثورة الدلتا المعروفة بحرب الرعاة كاهن مصرى اسمه أسيدوروس استطاع ان يواجه العسكرة الرومانية الغليظة وأوقع الهزيمة بها وكاد الثوار ان يدخلوا الإسكندرية لولا

ان انقذتها منهم نجدة سريعة جاءت من روما.

ومع هذا فقد ظلت العسكرة الرومانية بشعبها الغربى وعاصمتها روما والبيزنطى وعاصمتها القسطنطينية واحداً وسبعين سنة ظهرت خلالها المسيحية ضد العبودية الرومانية وعسكرتها حيث استمرت الأوضاع على ما هى عليه من ظلم فادح بعد ان أصبحت مصر تابعة للجزء البيزنطى فقد استمرت مصر تمد بيزنطة بالغلال كما كانت تمد روما بها.

المسيحية تواجه العسكرة الرومانية واليهودية

ظهرت المسيحية كغيث إلهى أمطرته السماء لغسل الدماء البشرية الغزيرة التى أهدرتها عسكرة الامبراطورية الرومانية وما صحب ذلك من عذاب وآلام لآلاف الآلاف من البشر خلال ثورة العبيد بقيادة العبد العبقرى السورى سبارتكوس الذى قاد أهم ثورة للعبيد ضد عبودية الرومان وعسكرة الرومان وانتهت بهزيمة العبيد الثوار وصلب اكثر من سبعة آلاف منهم على أشجار طريق طويل من الطرق الرومانية.

كما ظهرت المسيحية كرد فعل الهى للعسكرة اليهودية ذات الطبيعة الدينوية والقومية (الصهيونية) العطشى دوما إلى المال والدماء وممارسة الابادة البشرية ولهذا يقول العلامة اميل لودفيج.. وكان إله العبرانيين فى القلب إلها عسكريا والها قوميا معاً. أى رمزالقبائل اتخذت للقتال وكان سيف يهوه أى اله اليهود هو الذى يسوق داود واليهود إلى المعركة ولذلك كان الهاً رعاداً ومقاتلا. وكان خاصا باليهود وحدهم وليس الها لكل البشر مما جعل الشريعة الموسوية شريعة صارمة وشديدة وحربية وعسكرية ضد الاغيار اى ضد كل البشر طوال الف وأربعمائة سنة. ومن هنا بعث الله المسيح ﷺ من قلب اليهود أنفسهم إذ كل رسول بعث إلى قومه فقط وبعث سيدنا محمد رسول الله ﷺ إلى الناس كافة فهو ﷺ نبى كل زمان ومكان، وبعثه ﷺ إلى الناس كافة إحدى الخصائص الخمس التى خصه الله سبحانه وتعالى بها دون سائر الأنبياء والرسل حيث قال ﷺ : «اعطيت خمسا لم يعطهن نبى من قبل، كنت أول خلق الله وخاتم رسل الله، وبعث كل نبى لقومه وبعثت للناس كافة ونصرت بالعرب. وجعلت لى الأرض مسجدا وأرضها طهورا وأعطيت الشفاعة» صدق رسول الله ﷺ.

وذلك بقصد محو عسكرة ودموية الرومان واليهود معا بدعوته إلى الحب والتسامح والرحمة والعدل للعالمين يقول العلامة اميل لودفيج: وبما ان دعوته جاوزت حدود بلده فقد أسس جمعية بين الأمم وأوجد شعوراً فريداً يفوق الشعور حول الدولة وهو حين دعا الأمم إلى تأليف حلف بشرى شامل للعبيد والبرابرة ايضا. لا إلى تأليف حلف قومه. يكون قد جاوز شواطئ البحر المتوسط. ومع ان يسوع لم يجاوز حدود بلده الصغير فقدعُدّ فاتحا أعظم من الإسكندر.

وهو إذ يأتى بالرحمة والعدل والنجاة والمسيح من أسوار اورشليم أى القدس الحجرية إلى بساتين الجليل يكون قد حول الاله (اليهودى) الشديد العنيف الذين صوروه لأنفسهم واختصوا هم به دون البشر. يكون قد حول اله الحرب والانتقام إلى اله حليم كريم. كما كان شخصه وهو يدعو ابنا للرب وأخاً للناس. ولكن مع كل خشوع. وهو لم يقدم حياته إلا عن حب للحقيقة. غير ان موته الظاهرى كان من القسوة والظلم ما يبدو يسوع معه ضحية مؤكدة متوجة لرسالته.. وهنالك عنصران بشريان. هنالك موته ووجه أمه قد أضفيا عليه من الشعاع ما لم يتفق لأحد من بنى وطنه سابقا. ويعرض اليهود عنه فيتقبله العالم. وكان الناس يأملون أن يجدوا السلام.. كما ان تعاليمه المثالية جعلت منه شيوعيا فى الحياة الاجتماعية ولذلك قال قولته الخالدة.. بع كل ما لك ووزع على الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال واتبعنى. ووفقا للتعاليم المسيحية المثالية عاش المسيحيون الأوائل عيشة شيوعية خالصة كعمال وفلاحين وصيادين وحرفيين بدون تملك خاص وكانوا يوزعون أغذيتهم وثيابهم ويحظرون حمل السلاح ولا يتاجرون فيما بينهم وكانوا يتحلون بالحلم والورع ويسلمون كل مال منال إلى لجنة مفوض إليها أمر توزيعه.

ولذلك يقول سفر أعمال الرسل من العهد الجديد بشأن حوارى المسيح وكانوا يواظبون على تعليم الرسل والشركة ـ أى الاشتراكية المسيحية ـ وكسر الخبز والصلوات وصار خوف فى كل نفس وكانت عجائب وآيات كثيرة تجرى على أيدى الرسل. وجميع الذين آمنوا كانوا معا وكان عندهم كل شيء مشتركا. والأملاك والمقتنيات كانوا يبعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج.

وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ولم يكن أحد يقول ان شيئا من أمواله

بل كان عندهم كل شيء مشتركا. وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع ونعمة عظيمة كانت على جميعهم. إذ لم يكن أحد محتاجا لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا بيعونها ويأتون باثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل فكان يوزع على كل أحد كما يكون احتياجه ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا الذى يترجم ابن الوعظ وهو لاوى قبرصى الجنس إذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل.

تلك هى المسيحية التى دعا إليها المسيح ﷺ كدين فيه الخلاص من عسكرة الرومان وعبودية الرومان وفية النجاة من عسكرة اليهود وعنصرية اليهود مما دفع الشعب المصرى إلى تناول المسيحية وتمصيرها حتى باتت مصر هى المسيحية والمسيحية هى مصر.

هكذا كان المسيح ﷺ وهذه هى المسيحية وتعاليمها وأخلاقياتها المرفوضة من اليهود والتى يختلف معها المسلمون وان كانوا يوصون بالمسيح باعتباره نبيا ورسولا

تمصير المسيحية فى مواجهة العسكرة

لم يأبه المصريون ولم يلتفتوا ابداً إلى ديانة الأغريق المستوطنين ولا إلى ديانة اليهود المستوطنين ولا إلى ديانة الاحتلال الرومانى لإدراكهم الفطرى انها ديانات غريبة وعنصرية ولا تتفق مع وطنيتهم المصرية ولا تحقق لهم الخير والحرية مما جعلهم يتمسكون بديانتهم الفرعونية حتى يقال ان الفرعونية كدين قد ظلت موجودة فى مصر يعتنقها عدد قليل من المصريين إلى ما بعد الفتح العربى لمصر وخاصة فى الصعيد.

ولقد ضاق المصريون ذرعاً من جراء محاصرتهم بالمستوطنين الأغريق والمستوطنين اليهود والمستوطنين والمحتلين الرومان وعساكرهم وعسكرتهم حتى كادت تختنق وطنيتهم المصرية مما جعلهم يصغون السمع للدعوة المسيحية الجديدة التى ظهرت على أرض فلسطين المجاورة والمتاخمة بما فيها من حب وعدل وتسامح بين الناس جميعا بحيث تقضى على عطشهم الروحى وتطفىء ظمأهم الإنسانى.. ولهذا فقد استبدت بالمصريين سيرة عيسى المسيح ﷺ الداعى إلى المسيحية هذا العبرانى الفقير وأمه مريم البتول الذى ولدفى مزود للبقر وبعثه الله رحمة للعالمين يدعو للحب والرحمة والعدل والاشتراكية وانصاف كل

الكادحين والمستضعفين فى الأرض لم يقف المصريون يتفرجون على ظهور هذه المسيحية الجديدة وما تلاقيه من ويلات وصعاب من اليهود والاحتلال الرومانى فى فلسطين حيث تعرض المسيحيون الأوائل لأهوال تجعل الولدان شيبا وخاصة بعد محاكمة المسيح وادانته بواسطة محكمة يهودية رومانية بواسطة قاض قضاة اليهود "قيافا" الذى مضى بقتله وصلبه على الصليب ـ «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم» ـ ولكن يبدو ان بعض المصريين الذين يمقتون الرومان واليهود معا قد ذهب إلى فلسطين بقصد مساندة وجمهرة المسيحية الجديدة حيث جاء فى أعمال الرسل فى الانجيل..

انه لما قبض الأمير الرومانى على بولس وأدخلوه إلى المعسكر سأله الأمير قائلا: ألست أنت المصرى الذى صنع قبل هذه الأيام فتنة وأخرج إلى البرية الأربعة آلاف رجل من القتلة.. فقال بولس أنا رجل يهودى طرسوسى من أهل مدينة غير دنية من كيليكية.

إن هذه الفتنة أو الثورة أو المظاهرة الذى قدر عددها الحاكم الرومانى بأربعة آلاف رجل من القتلة والذى شخص قائدها بأنه من المرجح من المصريين الذين قد تناولوا المسيحية فى مدينة الاسكندرية ذات الميناء الكبير الذى تنفذ إليه السفن الغادية والرائحة حاملة فى بطنها وعلى ظهرها البضائع والأفكار التى وفدت إلى مصر واستقبلها العقل المصرى. ولقد كان القصد من هذه المظاهرة المصرية جمهور المسيحية الجديدة ومساندة المسيحيين الأوائل ضد تحالف اليهود والعسكرة الرومانية فى فلسطين تعبيرا عن التضامن الأخوى بين المصريين وحوارى المسيح. وتتجلى مصرية هذه المظاهرة من خلال شخص قائدها المصرى الذى قد تمكن من حشد جهود من الناس للتظاهر ضد اليهود وعسكرة الرومان العدوان اللدودان للمسيحية الجديدة ومن ثم فإن هؤلاء الناس لابد ان يكونوا من المصريين الذين قد تناولوا المسيحية وتشربوا تعاليمها باعتبار ذلك شكلا من أشكال مقاومة عسكرة الرومان ومظالم اليهود ويبدو أن المصريين قد تناولوا المسيحية وتعاطوها اقتناعا منهم بأن المسيح هو حورس الاله الفرعونى الذى ظهر من جديد وأن التثليث المسيحى الذى يتجلى فى الأب والابن والروح القدس هو التثليث الفرعونى الذى كان يتجلى فى إيزيس وأوزوريس وحورس.

ومن هنا باتت الاسكندرية الشعبية وطناً مبكراً للمسيحية مما دفع القديس مرقس إلى الحضور إليها بوعد سابق من المصريين الذين قد تناولوا المسيحية بدليل ان القديس مرقس

العبرانى الأصل لم ينزل ضيفا على الحى الرومانى أو الحى الاغريقى أو الحى اليهودى بمدينة الاسكندرية بل نزل ضيفا على الحى الشعبى والعشوائى الكائن بأطراف الاسكندرية الذى يسكنه المصريون الصناع والاجراء حيث استقبله الاسكافى ونقيب الاسكافيه الأسطى حنانيـــا الذى شغل وظيفة أول بطريرك مصرى لكنيسة اسكندرية الوطنية المرقسية الارثوذكسية.

وفى تقديرى ان القديس مرقس لم يأت إلى الاسكندرية بهدف البشارة بل جاء إليها من أجل مباركة المصريين الذين قد تناولوا المسيحية الأصولية فى مواجهة الاغريق الوثنيين واليهود العنصريين والعسكرة الرومانية بالقبطية هذه المباركة المقدسة التى تجلت فى تأسيس أول كنيسة مسيحية أصولية فى العالم وهى كنيسة الاسكندرية المرقسية الاصولية التى تعتبر كنيسة مصر الوطنية.

ولقد ترتب على هذه الزيارة المقدسة للقديس مرقس هياج جموع اليهود والأغريق على الكنيسة المرقسية فى شرق الاسكندرية فى عام ٦٨ ميلادية حيث قتلوا القديس مـــرقس وسحلوه أى جروه بالحبال فى شوارع الاسكندرية فى حماية العسكرة الرومانية حتى مزقوا جسده الطاهر الشريف.. وذلك دون ان يقتلوا خليفته المعلم والأسطى ونقيب الاسكافيين حنانيا الذى قاد البشارة بالمسيحية واعتلى كرسى بطريرك الكنيسة المرقسية المصرية التى تمكنت من جعل الوطنية المصرية مسيحية. والمسيحية وطنية مصرية تقود الصراع الوطنى ضد عسكرة الاحتلال الرومانى وضد المستوطنين اليهود والأغريق هذا الصراع الذى استمر مئات السنين وسقط خلاله آلاف الآلاف من الشهداء المصريين. مما يعنى ان المسيحية قد تمصرت كضرورة وطنية باعتبارها فرعونية جديدة قائمة على التثليث وان حورس والمسيح صنوان تقريبا.. مع ان استشهاد المصريين قد بدأ مع الاحتلال الرومانى لمصر فى طيبة وفى الاسكندرية بطريقة إيجابية من خلال مقاومة إيجابية تختلف عن المقاومة السلبية التى مارسها المصريون المسيحيون من خلال الاعتراف بالمسيحية ولهذا كتب هـ ابدرس بل عـــالم البرديات البريطانى.. ولما كان أغسطس قد اقر لليهود وجميع امتيازاتهم. فى حين انه رفض مطلب مواطنى الاسكندرية بانشاء مجلس للشورى فقد اتخذ عداء المواطن ــ المصرىّ ــ للرومان مظهر عداء لليهود اذ كان الهجوم عليهم أسلم عاقبة للاسكندريين من الهجوم على

الرومان مباشرة. وكثيرا ما أدت المذابح الطائفية العديده التى وقعت فى شوارع المدينة إلى تدخل الحامية الرومانية لقمع الاضطرابات وإلى ارسال الوفود من جانب أحد الفريقين أو كليهما إلى الامبراطور وإلى محاكمة بعض زعماء الاسكندرية امام مجلس الامبراطور.. وقد نشأ عن ذلك نوع من الأدب الوطنى أحرز رواجا واسعا بين الجماهير ويسميه العلماء الآن ـ نظرا لما بينه وبين أعمال الشهداء المسيحيين من تشابه ـ بأعمال الشهداء الاسكندريين الوثنيين.. هذه الرسائل تبالغ فى وصف شجاعة زعماء الاسكندرية باعتدادهم بأنفسهم. فهذا هو أحد مديرى معاهد التربية بمدينة الاسكندرية يخاطب أحد المسئولين الرومانيين قائلا: انت الابن الذى تبرأت منه سالومى اليهودية.. ويصف أحد أصدقاء الامبراطور الرومانى بأنه يهودى لا يساوى شروى نقير ولقد ظل المصريون الوثنيون من اتباع الآله ايزيس الفرعونية فى ظل انتشار المسيحية المصرية حيث كان بعضهم يمثلون صفوة العلم والمعرفة ليس فى مصر فقط بل فى أرجاء الامبراطورية الرومانية وللاسف فان هؤلاء المصريين السلفيين من اتباع الديانة الفرعونية قد تعرضوا للاضطهاد والملاحقة من الجماهير المصرية المسيحية إلى حد ان هذه الجماهير المسيحية المصرية قد اعتراها الهوس العنصرى فور الاعتراف بالنصرانية فى القرن الرابع الميلادى حيث يقول العلامة اميل لودفيج..

ويعترف بالنصرانية فى القرن الرابع فيفوق نصارى مصر مضطهديهم عنفا ويظهر من هولاء النصارى ـ المصريين ـ أناس بلغوا من التعصب ما يهدمون به المعابد والكتابات والتماثيل والصور الجدرانية الفرعونية التى لم يمسها أى شعب أجنبى من ألوف السنين ويقتل من يزعم أنهم وثنيون بالمئات وتقطع تلميذة أفلاطون الحسناء ومعلمه علم الفلك الاستاذة هيبانيه اربا اربا وتحرق كصنيعة للشيطان. ولما نهب معبد السرابيوم من غير ان تنزل صاعقة على الهدامين كان ذلك خاتمة لأحد وجوه العالم القديم.

ويتنبأ أحد حكماء الاسكندرية المتأخرين بما يأتى:

يقترب الوقت الذى لا يعرف فيه احد ديانه المصريين وسيهجر بلدنا وستكون القبور والموتى فقط شهودا عليه. فيا مصر لن يبقى من مذهبك سوى أساطير لا يؤمن بها أحد من الاعقاب ولن يبقى غير الكلام المنقوش على الحجر والذى يحدث عن قدماء الآلهه.

من يصدق ان النصارى المصرين قد مارسو العنف كل العنف هذا ضد إخوتهم المصرين المتمسكين بدياناتهم الفرعونية فى حين انهم لم يتصدوا للعسكرة الرومانية وحلفائها من اليهود والاغريق المستوطنين فى مصر الا من خلال مواجهة سلبية واستشهاد سلبى للغاية مما يعنى ان الأقباط المصريين وقتئذ قد تناسو تعاليم المسيح ﷺ ودعوته للحب والعدل والتسامح وكانت هذه سقطة لا مبرر لها مما جعلها نقطة سوداء فى تاريخ مصر القبطية.

أنا مسيحية أنا مسيحى

أنا مسيحية أنا مسيحى.. هكذا تجلت مقاومة المسيحيين المصريين الرجال والنساء فى ترديدها العبارتين فى مواجهة عسكرة الرومان وحكام الرومان باعتبارهما اعترافا بمصر كمسيحية وانها هى المسيحية واعترافابأن المسيحية هى مصر مما جعل ذلك الاعتراف الوطنى والدينى مصدر عذاب وتعذيب وقتل وتقتيل للمصريين طوال مئات من السنين يقسمها الدكتور إبراهيم نصحى إلى ثلاث فترات كلها قتل وتعذيب وصلب للمسيحيين المصريين من مقتل القديس مرقس فى مدينة الاسكندرية عام ٦٨ ميلادية حتى عام ٣١٣ ميلادية أى طوال ٢٤٥ سنةمن حكم من أباطرة الرومان الوثنيين وعسكرتهم.

والثانيةمن عام ٣١٣ ميلادية حتى عام ٤٥١ أى طوال ١٣٨ سنة من حكم أباطرة الرومان المناصرين للهراطقة وعسكرتهم والثالثة من عام ٤٥١ ميلادية حتى عام ٦٤١ ميلادية أى طوال ١٩٠ سنة من أباطرة الرومان المناصرين لبابا روما وعسكرتهم ومن هنا فقد استمر تقتيل وتعذيب المسيحيين المصريين بواسطة عسكرة الرومان الوثنيين والمسيحيين معا قرابة ٥٧٣ سنة مما يعنى ان تصفية المصريين جسدياً لم يكن بسبب تناولهم المسيحية فقط بل بسبب مسيحيتهم المصرية والوطنية حيث رأى الرومان الوثنيون ان المسيحية المصرية خطر على الامبراطورية الرومانية وهذا ما دفعهم إلى تقتيل وتعذيب المصريين بالحرق والجلد والصلب والسحل وتحطيم الأسنان والقائهم إلى الوحوش المفترسة وذلك بالاضافة إلى ابادة قرى مصرية باكملها وأشهر الاضطهادات التى تعرضت لها المسيحية المصرية اضطهادات الامبراطور تراجان سنة ١٩٣ ميلادية والامبراطور دكينوس سنة ٢٤٩ ميلادية والامبراطور فاليريان سنة ٢٥٤ ميلادية ولكن كان اعنفها جميعا المذابح التى مارسها الامبراطور دقلديانوس بهدف إبادة الشعب المصرى هذه الابادة التى صمد لها المصريون ولم يتخلوا عن

مسيحيتهم ووطنيتهم المصرية مما جعل الكنيسة القبطية تبادر ببدء تقويمها سنة ٢٨٤ وهى السنة التى تولى فيها هذا الامبراطور الدموى حكم الامبراطورية الرومانية وقد سمى هذا التقويم بتقويم الشهداء كما اطلقوا على عصر دقلديانوس عصر الشهداء.. هؤلاء الشهداء المصريون الذى بلغ عددهم آلاف الآلاف الذين كان من بينهم الكثير من بطاركه الكنيسة المصرية والكثير ايضا من أساقفتها ورهبانها الذين صمدوا امام المذابح من خلال مقاومتهم السلبية التى تجلت فقط بترديد عبارة أنا مسيحى وعبارة انا مسيحية باعتبارهما اعترافا بالمسيحية والوطنية المصرية امام عسكرة الرومان الوحشية. ولما كانت المسيحية المصرية ذات طبيعة وطنية وأصولية فقد اصطدمت أيضا مع أباطرة الرومان المسيحيين بعد ان اعترفت الامبراطورية الرومانية بالمسيحية حيث رأى أباطرة الرومان أن المسيحية المصرية تعنى خروجاً صارخاً على التبعية الرومانية وخروجا على شريعة القوة والجبروت التى تقول الناس على دين ملوكهم مما سوف يؤدى إلى استقلال مصر عن الامبراطورية الرومانية. ومن ثم فلابد من اجبار المصريين على اعتناق مسيحية غير وطنية وغير مصرية بحيث تتطابق مذهبيا مع المسيحية الرومانية.. وفى سبيل تحقيق ذلك عادت العسكرة الرومانية إلى فظاعتها ووحشيتها فقتلت وعذبت ونفت المصريون بالجملة وشمل ذلك بطاركة الاقباط ورجال الكنيسة الوطنية المرقسية.

ولذلك يقول استاذ البرديات المصرية هـ أيدرس بل:

ـ من المستحيل ان نقرأ القصص الأولى الحقيقية فيما يبدو من الاستشهاد مثل آلام القديسة برتبوا أو أعمال شهداء «سيكلى» دون ان تهز مشاعرنا اهتزازاً للبطولة الرائعة التى أبداها كل من الرجال والنساء فى غير مباهاة. وخاصة عند ما نتذكر أن مضمون هذه القصص يتلخص فى العبارة البسيطة أنا مسيحى او انا مسيحية فهذه العبارة كثيرا ما يتحرج الناس حتى فى أيامنا هذه من ذكرها فى البلاد المسيحية غير انها كانت فى القرنين الثانى والثالث لا تثير فقط تهكم أو سخرية من لا تصادف هوى فى نفوسهم بل كانت تعرض قائلها لنوع من الموت الذى ينخلع له فؤاد أثبت الناس جناناً. فالمسرح غاص بالجماهير المتعطشة للدماء وحفنة من المسيحيين واقفة وسط الساحة. والأسد أو النمر الضارى يفتك بهم على الرمال المخضبة بالدماء. وفى النهاية يهوى السيف الرحيم فيضع حداً لآلام الجسد المزق ارباً.

وهذه على سبيل المثال قصة استجواب القديسة «برتبوا» كما ترويها ـ ولو انها فى الواقع لم تكتب إلا الجزء الأول من القصة التى تابعها أحد زملائها فى الاستشهاد أو أتمها فيما بعد كاتب ثالث.

تقول القصة..

وما أن وصلنا إلى السوق العامة حتى انتشر الخبر فى الأحياء المتاخمة لها. فاحتشدت جموع غفيرة من الناس. ثم صعدنا الطريق إلى المحكمة. وهناك استجوب غيرنا واعترفوا. ولما جاء دورى أطل والدى ومعه ابنى وجذبنى من حظيرة المتهمين وقال لى متوسلا ارحمى ولدك الرضيع. وقال لى هيلاديانوس وكيل الامبراطور للشئون المالية فى الولاية الذى كانت سلطة العفو والاعدام قد آلت إليه.. ارحمى أباك الذى خط الشيب فى رأسه. ارحمى ولدك الرضيع وقدمى القرابين من اجل سلامة الأباطرة.. فأجبته أنا مسيحية وعندما هم والدى أن يسحبنى من بين المتهمين أمر هيلاديانوس بجره إلى أسفل وضربه بعصا.. وقد حزّ فى نفسى مالحق أبى من أذى كما لو كنت أنا التى ضربت وغمرنى الأسى على شيخوخته التعسه.. وبعد ذلك قضى هيلادياتوس بإدانتنا جميعا وحكم برمينا طعاما للسباع ونزلنا الطريق إلى السجن مبتهجين.

هكذا قاوم المصريون المسيحيون عسكرة الرومان بواسطة الاعتراف الذى كان يتجلى فى ترديد عبارة انا مسيحى.. انا مسيحية وهذا الاعتراف يمثل فى حد ذاته لغزاً وظاهرة وطنية ودينية ونفسية ومزاجية غامضة لم يحدد مصدرها العقل المصرى أو الوجدان المصرى أو المزاج المصرى وقتئذ الذى يترجم الوجدان والعاطفة فى أقصى ذروتهما. وخاصة ان ظاهرة الاعتراف هذه قد خلت تماما من المقاومة الايجابية دفاعاً عن الوطنية المصرية كمسيحية ودفاعا عن المسيحية كوطنية مصرية فى حين ان هذه المقاومة الايجابية قد ظهرت بشكل صارخ فى مواجهة اخوتهم المصريين الوثنيين كما ذكرت من قبل..

ولكن لماذا اختفت تماما هذه المقاومة الايجابية امام عسكرة الرومان ؟ هل كان ذلك من جراء تفسيرهم الساذج لقول المسيح ﷺ فى الآية الانجيلية التى تقول.. من ضربك على خدك الأيسر فأدر له الخد الأيمن. مع ان المسيح قال فى آية انجيلية أخرى.. لا تظنوا أنى

جئت لالقى سلاما على الأرض.. ما جئت لالقى سلاما بل سيفا.

وعلى العموم فإن ذلك الموقف الاعترافى والسلبى للمصريين فى مواجهة العسكرة الرومانية يعتبر ظاهرة محيرة لأنها كانت سببا رئيسيا فى استمرار الحكم الدموى للرومان مدة طويلة إذ أنه لو كان ذلك الموقف الاعترافى إيجابيا مصحوبا بالمقاومة الفعالة والشجاعة بدلا من الاستسلام الجبان لتغير الحال فى مصر خلال فترة الاحتلال الرومانى بحيث باتت بلدا محررا ومستقلا وبحيث انسحب هذا الموقف الاعترافى الايجابى على مستقبل مصر مما يجعلها قادرة تماما على صد الغزاة ووقف هجراتهم البشرية التى توافدت على ضفاف النيل ولذلك فهل يوصف موقف المصريين الاعترافى والسلبى ظاهرة جبن تفشت لأول مرة فى شعب بأسره واستبدت به وسيطرت على عقله ووجدانه ومزاجه حتى أصبح الموت مطلبا جماعيا ملحا. كما دأبت جماهير اليهود على الانتحار الجماعى وذبح أطفالهم بالجملة عندما كان يحاصرهم المسيحيون الأوربيون فى القرون الوسطى بغية تنصيرهم إجباريا والتخلى عن ديانتهم اليهودية.

ان الاعتراف بالدين فى هاتين الحالتين لا يعتبر جبنا فرديا أو جماعيا لأن الجبن هو التراجع عن ذلك الموقف الاعترافى فى مواجهة السلطة حرصا على الوجود حتى لو كان وجودا ذليلا.. ولكنه يعتبر موقفا ذاتيا فى غاية الذاتية وأنانيا فى غاية الانانية لارتباطه المباشر بمصلحة الذات والأنا بصرف النظر عن مصالح الآخرين..

وتتجلى تلك المصلحة فى النتيجة المحققة من الموقف الاعترافى وهى الموت باعتباره عتبة الملكوت السماوية وما به من جنات عرضها السموات والأرض ومن هنا فإن إشاعة موقف الاعتراف المسيحى فى صفوف المصريين أثناء الاحتلال الرومانى كان يعنى تفشى الانانية الذاتية بين المصريين والمصريات بقصد التنيح الاستشهادى والانتحار الاستشهادى طمعا فى الوصول إلى الملكوت بجوار المسيح ﷺ ولتذهب مصر وشعبها إلى الجحيم ولتذهب مصر وشعبها إلى الجحيم ولتذهب المسيحية وأتباعها ايضا إلى الجحيم طالما انتقل السادة المعترفون إلى الأمجاد السماوية مع العلم ان هؤلاء السادة هم وحدهم المسئولون عن تفشى السلبية فى الحياة المصرية حتى وقتنا هذا وهم ايضا المسئولون عن تغيير الديانة المصرية القديمة واللغة المصرية القديمة.. ولست أجد فى التشخيص أبلغ مما يعبر عنه ابن حزم فى

كتابه الأحكام.. من أن اللغة يسقط اكثرها بسقوط همة أهلها.. وذلك بعكس الشعب الايرانى الذى لم يسقط لغته الفارسية لعدم سقوط همته فى عشق الحياة فى حين ان المصريين المسيحيين قد اعتراهم عشق الموت والانتحار الاستشهادى فى مواجهة العسكرة الرومانية التى خطفت أرواحهم الغالية وجعلت من مصر ولاية لاستعبادها وخزانة لنهبها ومزرعة للقمح الذى يصدر إلى الامبراطور كخراج إجبارى وجزية إكراهية طوال مئات السنين.

عشق الموت والاستشهاد

إن الغموض الشديد الذى يكتنف ظاهرة الاعتراف المسيحى السلبى الذى كان يتفشى بين المصريين من خلال ترديد عبارة أنا مسيحى أنا مسيحية فى مواجهة عسكرة الاحتلال الرومانى يتجلى تفسيرها فى ظاهرة عشق الموت والاستشهاد الذى تعنى الحب فى ذروته والشوق فى منتهاه إلى الموت هذه الظاهرة السلبية التى لم يعرفها شعب آخر غير الشعب المصرى وان كانت قد ظهرت أخيراً لدى بعض المذاهب المسيحية. وللأسف لم تلق ظاهرة عشق الموت المصرية التى تشبثت بالشعب المصرى مئات السنين فى فترة الاحتلال الرومانى لمصر من يقوم بدراستها وجمهرتها ولم يصدر أى تقدير ولو تقريبى بعدد شهداء ظاهرة عشق الموت وحتى كتاب السنكسار بأجزائه الثلاثة بشأن أخبار الشهداء الأقباط لم يف بذلك الغرض عن عدد الشهداء والشهيدات المصريين فى هذه الأيام المظلمة ولقد ترتب على ذلك إهمال متعمد وإغفال مقصود بتاريخ الفترة القبطية من تاريخ الشعب المصرى علما بأن هذه الفترة التاريخية المنسية تتضمن الكثير من معرفة العقل المصرى والوجدان المصرى والمزاج المصرى والنفسية العامة للمصريين.

وعلى العموم يحكى لنا كتاب السنكسار الجامع لسيرة الشهداء المصريين خلال حكم الاحتلال الرومانى لمحات من هذه السيرة الدامية:

وفى اليوم الرابع عشر من شهر كيهك المبارك استشهد الأب العظيم الأنبا أيونيوس أسقف مدينة إسنا وقد استشهد فى أيامة عدد كبير من شعبه ـ القبطى ـ وذلك أنه لما ذهب الوالى الرومانى إريانوس الوثنى إلى الصعيد كان فى طريقة يضطهد النصارى ويكلفهم بالسجود للأوثان ومن خالف عذبه ثم قتله وعند دخوله كان أربعة من الصبية يسوقون دواباً تحمل بطيخاً

فسألهم عساكر الوالى عن معتقداتهم فأجابوا نحن نصارى فقبضوا عليهم. ولما علمت أمهم أسرعت اليهم وكانت تشجعهم وتقول للجند نحن نحب المسيح ولا نعد أصنامكم المرذولة.. ولما كان الصباح استحضرهم الوالى وعرض عليهم عبادة الأصنام فرفضوا فقطع رؤوسهم.

أما الوالى أريامونس فقد رحل إلى قرية تسمى حلوان غرب إسنا فخرج أهلها واعترفوا بالمسيح فأمر بقطع رؤوسهم ثم وجد بعد ذلك امرأة عجوزاً فسألها عن الوالى فقالت له الوالى الكافر فسألها عن معبودها فقالت انا مسيحية فقطع راسها وفى نفس القرية قابله أهلها قائلين بصوت واحد نحن مسيحيون فأمر جنوده أن يستلوا سيوفهم ولا يبقوا أحداً.. وكان الواحد منهم يقدم ابنته إلى السياف الرومانى ويقول لها إلى العريس الحقيقى الذى لا يموت وكل الجمع يتقدمون إلى السياف الرومانى : نحن ماضون إلى الفرح الدائم فى ملكوت السموات. وفى عودة الوالى الرومانى إلى إسنا قابلة ثلاثة رجال كانوا يصيحون نحن نصارى فقال العساكر الرومانيون لقد حلفنا الا نخرج سيوفنا هنا فقال لهم الرجال هذه فؤوسنا وأخذوا منهم الفؤوس ووضعوا رؤوسهم على حجر بجوار باب المدينة وقطعوها بالفؤوس. ونالوا اكليل الشهادة.

وجاء اليوم السابع والعشرين من شهر كيهك المبارك وفى هذا اليوم استشهد القديس العظيم الانبا يسارى أسقف أنصارى فى عهد الامبراطور ـ الرومانى الدموى ـ دقلديانوس حيث ذهب بنفسه معترفاً بمسيحيته فعذب واستشهد..

وفى اليوم الثانى من شهر برمهات المبارك استهشد القديس الطوباوى الأنبا مطراوى الأسقف وهذا الأب كان من أكابر اشمون جريس لقد عذب هذا القديس ثم استشهد بقطع رأسه.

وفى اليوم الثالث من شهر برمهات استشهد القديس برفوديوس وكان من كبار أغنياء بانباس واكثرهم صدقة وعطفا على الفقراء ولقد سمع هذا القديس بمرور القائد الرومانى فوقف أمام بيته ونادى قائلا أنا نصرانى فأصدر القائد امراً بقطع رأسه.

وفى اليوم الثالث عشر من شهر برمهات استشهد القديسون الأربعون شهيدا بمدينة سبسطه بالصعيد وكان من بينهم صبيان وأطفال.

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر أبيب استشهدت القديسة اوفيميه. وذلك أنه لما عبر أحد نواب الامبراطور الرومانى دقلديانوس ببعض القديسين وكانوا مربوطين بسلاسل فى رقابهم كالكلاب. ورأتهم هذه القديسة التهبت جوارحها ثم لعنت الامبراطور الرومانى ووبخت الوالى قائلة يا قاسى القلب. أما تشفق على هؤلاء القوم القديسين، فغضب الوالى وأبلغ أمرها إلى الامبراطور فاستحضرها وسألها عن معتقداتها فاعترفت قائلة أنا مسيحية فعذبها بالضرب والحرق حتى أسلمت روحها الطاهرة.

وفى اليوم الثالث عشر من شهر طوبة استشهدت القديسة دميانة وكانت هذه العذراء المصرية المجاهدة ابنه مرقس والى البرلس والزعفران وكانت وحيدة لأبويها ورفضت الزواج وابلغت أباها انها قد نذرت نفسها عروساً للمسيح فبنى لها سكناً منفرداً تتعبد فيه ومعها أربعين عذراء مصرية.. ولما علم بذلك الامبراطور الرومانى دقلديانوس بادر فاحضر مرقس الوالى ووالد القديسة دميانه فأمره أن يسجد للأوثان فامتنع أولا ثم سجد.

ولما عاد مرقس إلى قصر ولايته علمت القديسة بما فعله والدها فأسرعت إليه ودخلت بدون سلام وتحية وقالت له ما هذا الذى سمعته عنك كنت أود أن يأتنى خبر موتك من أن أسمع عنك أنك تركت الاله الذى جبلك من العدم إلى الوجود وسجدت لمصنوعات الأيدى.. اعلم انك ان لم ترجع عما أنت عليه الآن ولم تترك عبادة الأحجار فلست والدى ولا أنا أبنتك. فذهب إلى الأمبراطور دقلديانوس وأعترف بالسيد المسيح. ولما عجز الأمبراطور عن اقناعه بالوعد والوعيد أمر فقطعوا رأسه.

ولما علم الأمبراطور دقلديانوس الرومانى أن الذى حول مرقس عن عبادة الأوثان هى دميانة ابنته أرسل إليها أميراً وأمره أن يلاطفها أولاً وان لم تطعه يقطع رأسها. فذهب الأمير ومعه مائة جندى رومانى وآلات التعذيب. ولما وصل إلى قصرها دخل إليها وقال لا أنا رسول من دقلديانوس الأمبراطور جئت أدعوك بناء على أمره أن تسجدى لآلهته لينعم لك بما تريدين.

فصاحت القديسة دميانة قائلة.. شجب الله الرسول ومن أرسله أما تستحون أن تسموا الأحجار والأخشاب آلهه. ليس إله فى السماء وعلى الأرض إلا إله واحد الخالق الأزلى وعليه أتوكل وباسمه أحيا وأموت.

فغضب الأمير وأمر بتعذيبها وكانت العذاري واقفات يبكين عليها ثم أمر بقطع رأسها هى وجميع من معها من العذارى العفيفات المصريات.

هذه لمحات من وقائع ظاهرة عشق الموت المصرية التى أشاعت الحزن فى مصر مما جعل الحزن مصرى الجنسية حيث أصبح الندب التى كانت تمارسه الندابات المصريات فى الجنائز والمآتم صرخة مصرية، حيث كانت الندابة المصرية تردد قائلة بصوت حزين..

يا كافة من انجبن/أبناء.. تعالين وابكين معى.

ان هذا الحزن المصرى العميق والطويل المدى كان بمثابة احتجاج مصر على شيوع ظاهر عشق الموت التى قضت على آلاف الآلاف من المصريين والمصريات الذين تركوا الوطن والأهل والأحباب والمسيحية المصرية وهربوا إلى الملكوت وجنات الملكوت فالقديسة المصرية «برتبوا» قد هربت إلى الملكوت وأخذته مكاناً أبدياً مختاراً بدون مراعاة لطفلها الرضيع ووالدها العجوز وأهلها وأحبابها ووطنها مصر ومسيحيتها المصرية بدافع عشق للموت وكذا فعل كل الشهداء والشهيدات فى مصر الرومانية.

ونظراً لأن ظاهرة عشق الموت كانت نتيجة لظاهرة الاعتراف السلبى بترديد عبارة أنا مسيحى، أنا مسيحية فى حضور العسكرة الرومانية، فقد كان ذلك يعنى فراراً مقصوراً وعملياً وهروباً عقائدياً وواقعياً من واجب مقاومة العسكرة الرومانية المحتلة كواجب وطنى ودينى ومسئولية أخلاقية تجاه الشعب المصرى والمسيحية المصرية.

ولقد كان هذا الهروب وذاك الفرار قد أديا ضمنياً إلى تكليف العدم المصرى أو العدمية المصرية مقاومته الاحتلال الرومانى وعسكرته وللأسف فقد أصبح ذلك التكليف الهروبى المنوط بالعدم أو العدمية فى مواجهة الطغاة موروثا مصرياً سارى المفعول حتى الآن وان كان وللأسف ايضا من يصف الفرار والهروب من التصدى للطغيان عموماً بأنه مجرد «تــرك الملك للمـالك» و«سلطان من لا يعـرف السلطان» و«الناس على دين ملكوهم» و«يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى».. «يا عزيز يا عزيز كبة تاخد الانجليز». «ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب».

كل هذا الهروب والتواكل وتجنب الصدام مع الطغاة فى مصر مصدره ظاهرة عشق الموت التى باتت ظاهرة مصرية فى العهد الرومانى. ونسأل أنفسنا من أين جاءت إلى مصر هذه الظاهرة.. هل جاءت من جراء الاحتلال الرومانى الذى كان احتلالاً غليظاً ومركبا يجثم على صدر مصر والمصريين من خلال المستوطنين الأغريق واليهود والرومان وعسكرتهم مما دفع المصريين إلى محاولة تجديد الفرعونية بالأخذ أخذاً مطلقاً بالمسيحية وتمصيرها بحيث باتت مسيحية قبطية أى مصرية تماماً حتى يستطيعوا بواسطتها التصدى للاحتلال الرومانى وحلفائه اليهود والأغريق.. ولكن تسرى الرياح بما لا تشتهى السفن حيث تكتل التحالف الاستيطانى والاحتلال ضدهم لإدراكه ان مصر المسيحية أصبحت خطراً على مصالح التحالف وعسكرته مما جعله يشن حرب الإبادة الجماعية ضد المسيحية المصرية مشخصة فى الشعب القبطى.

عندئذ بادر المصريون إلى البحث عن مخرج للافلات من هذه الإبادة الجماعية التى لا تبق ولا تذر فرجعوا إلى الفرعونية فلم يجدوا مخرجا إلا بواسطة المقاومة المادية والعملية ثم رجعوا إلى مسيحيتهم المصرية الجديدة فوجدوا بها مخرجاً لا يوجد فى الفرعونية التى تقوم على حياة الجسد فى الحياة الدنيا. وقد تجلى المخرج المسيحى فى وجود حياتين حياة الجسد فى الحياة وحياة الروح الأبدية فى الملكوت حيث يوجد المسيح ﷺ.

ويبدو أن هذا المخرج المسيحى قد ساق المصريين جميعا إلى حاله من الصوفية القبطية الصارخة التى أدت إلى حياة الرهبنة.. ومن ثم قاموا بتغليب حياة الروح على حياة الجسد لأن الأولى فانية والثانية أبدية وبالتالى فقد فطنوا أن حياة الجسد محلها المختار يكون فى الحياة على الأرض مما يجعلها مهددة دوماً بإبادة العسكرة الرومانية فى حين ان حياة الروح الأبدية محلها المختار يقع فى الملكوت حيث لا رومان ولا شيطان رجيم ومن هنا برزت ظاهرة عشق الموت الذى لا يتحقق الا بالاعتراف وترديد عبارة انا مسيحى. أنا مسيحية. ان ذلك التصور بشأن ظاهرة عشق الموت المصرية ربما يكون قد ساعد على تحقيقه فى مصر هو تأثير الثقافة الإغريقية على المصريين وقتئذ حيث تحاور فلاسفة اليونان بشأن حياة الروح كما ورد فى كتاب البحر الأبيض المتوسط للعلامة أميل لودفيج.

وكان علم اللاهوت اليونانى يبتعد عن مبدأ جنة مملوءة بالملاذ ويبحث عن حقل روحى منذ قال فيثاغورس وأفلاطون.. ان حياة الروح هى الحياة الحقيقية.. وكان أبيذ قليس قد قال هو وتلاميذه مع خلاف طفيف ان الروح تجازى فى مقابل جولاتها الدنيوية إما بعدم الوجود بعد الموت وأما بالعودة إلى الجوهر الإلهى.

ونشأ عن مثل ذلك المذهب فى زمن الرومان مزيج غريب من المشاعر المؤلفة من خشية الموت والشوق إلى الموت.. وهذا يفسر ما يبغيه مذهب ما وراء هنالك القائل ان حياة الدنيا ليست غير إعداد وكان هذا المذهب يتضمن رغبة فى نجاة الروح.

ويقترب سنيكا الذى عاش فى العصر الواقع بين موت عيسى وكتابه الأنجيل من تعاليم النصرانية فى مذهبه عن الموت ومن قوله إن الجسم حمل وعقاب للروح التى يثقلها ويقيدها.

والروح تكافح هذا اللحم الثقيل. والروح تود أن تعود إلى مصدرها وتنتظرها الراحة الأبدية حيث كانت قد شاهدت الحقيقة والنور.. ويقول فيلون الفيلسوف اليهودى فى ذلك الزمن.. إن الروح مدفونة فى الجسم كما فى القبر.. وما اكثر اقتراب هذين الفيلسوفين اللذين كان إحدهما وثنياً والآخر يهودياً. واللذين كان أحدهما يقيم فى روما والآخر بالأسكندرية من نبى الناصرة.. المسيح ﷺ.

إذن فإن مسألة الروح والحياة الروحية الأبدية التى سيطرت على طموحات المصريين بعد أن ازدادوا وعيا بها من خلال أخذهم بالمسيحية التى ساقتهم إلى ظاهر عشق الموت بواسطة الانتحار الذى أدى إلى تغليب الحياة الروحية على الحياة الجسدية. والانتحار فى حد ذاته هو حاله مزاجية حادة من العدم والعدمية وحالة من الغربة الاجتماعية السحيقة وحالة من اليأس والقنوط وحاله من المخاطره وحاله من الاحتجاج وحاله من الفدائية والمقاومة وحالة من الخوف على الغير وحالة من الهوس والجنون. ويندرج تحت هذه الحالات المأساوية من الانتحار انتحار انطونيوس وكليوباترا والانتحار السلبى للأقباط فى مصر وانتحار هتلر وعشيقته ووزير دعايته وانتحار أبطال الساموراى اليابانى فى الحرب وانتحار المناضل الفلسطينى والكردى وانتحار المناضل الوطنى والثورى خوفاً من كشف رفاقه فى النضال وانتحار الرهبان البوذيين الاحتجاجى وانتحار بعض الجماعات الدينية

وأخيراً انتحار أى مجنون. ومن الممكن فى هذا السياق الانتحارى أن نعتبر شهداء المصريين فى الفترة الرومانية قد مارسوا الانتحار الاستشهادى مثلهم مثل المناضلين الوطنيين والثوريين الذين يعتبرون من خيرة الشهداء.. ولكن الانتحار السلبى والاستشهادى للأقباط كان يتميز فى نظرهم وفى وعيهم بأنه مجرد هجرة خاطفة واستسلامية تنتقل خلالها الروح إلى الملكوت تاركة الجسد للعفن والتيبس الرمّى على الأرض.. وتاركه المسيحية والوطن والأهل والأحباب فريسة لسيوف العسكرة الرومانية بقصد الخلاص الذاتى للشهيد المعترف والشهيدة المعترفة فى حضور العسكرة الرومانية وذلك على حساب الخلاص الوطنى للشعب المصرى الذى أهدرت عقيدته ووطنيته وخبزه وحريته فى ظل حكم الاحتلال الرومانى.

وبعد هذا السرد بشأن ظاهرة عشق الموت المصرية وممارستها بواسطة الأنتحار الاستشهادى والاستسلامى بسيوف عساكر الرومان ينبغى القول بأن تلاميذ المسيح عليه السلام وحوارييه لم يعرفوا ظاهرة عشق الموت هذه ولم يباشروها.

بدليل ما ورد فى الإصحاح السادس والعشرون من إنجيل متى من وصف لواقعة القبض على السيد المسيح بواسطة عساكرالرومان وحشد من اليهود لتقديمه إلى المحكمة الرومانية واليهودية التى كان يرأسها الكاهن اليهودى «قيافا» رئيس الكهنة اليهود حيث قال المسيح عليه السلام.. فى تلك الساعة قال يسوع للجموع.

كأنه على لص خرجتم ـ بسيوف وعصى لتأخذونى. كل يوم كنت أجلس معكم أعلم فى الهيكل ولم تمسكونى. وأما هذا كله فقد كان لكى تكمل كتب الأنبياء. تركه التلاميذ وهربوا.. والذى امسكوا يسوع مضوا به إلى قيافا رئيس الكهنة حيث اجتمع الكهنة والشيوخ. وأما بطرس فدخل إلى الداخل وجلس بين الخدم لينظر النهاية.

هكذا لم تستبد ظاهرة عشق الموت وانتحارها السلبى والاستشهادى بتلاميذ المسيح وعلى رأسهم تلميذة القديس بطرس.. مما يعنى أن ظاهرة عشق الموت ظاهرة مصرية برزت خلال مقاومة الأقباط المصريين لعسكرة الاحتلال الرومانى بفضل اجتهاد رجال اللاهوت القبطى الذين بادروا بتفسير بعض الآيات الإنجيلية تفسيراً سطحياً خالصاً قد ترتب عليه ظهور ظاهرة عشق الموت فى مصر وحدها ومن أهم هذه الآيات ما جاء فى انجيل متى على لسان السيد المسيح.

حينئذ قال يسوع لتلاميذه إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى. فإن أراد أن يخلص نفسه يهلكها. ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها لأنه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم وخسر نفسه.

إن هذه الآيه الإنجيلية بالذات كانت تردد باستمرار على لسان السيد المسيح فى الكنائس المصرية.. وان بعض القديسين الأقباط قد سمعوا ان المسيح عليه السلام كان يرددها فى داخل الكنائس كما ورد فى كتاب السنكسار الجامع لأخبار الشهداء الأقباط.

عندئذ أكون قد أوضحت فى حدود قدراتى ملامح الأساس الفكرى لظاهرة عشق الموت المصرية باعتبارها اجتهادا لاهوتيا قبطى صرف فى مقاومة عسكرة الرومان. هذه الظاهرة التى خلقت أناراً سلبية وضارة فى أجيال الشعب المصرى المتعاقبة تمثلت فى ضآلة روح المقاومة والصمود وضآلة الروح القتالية عموماً فى مواجهة الطغاة وعسكرة الغزاة مما أدى إلى تدمير روح الوطنية المصرية بحيث لم تبعث وتتفجر ثوريتها الكامنة إلا على فترات متباعدة.

ومن جراء ذلك أصبح التواكل مصرى الجنسية ايضا حيث ورد فى كتاب السنكسار أنه فى شهر برموده المبارك وقعت غارة من عربان الصعيد على برية شبهت بلدة القديس مقاريوس الكبير ونهبوا كل ما فى الكنائس والأديرة فاجتمع الآباء الرهبان وصلوا وتشفعوا بالآباء والقديسين فطردهم السيد المسيح ونجى الرهبان من أيديهم. هذا هو واقع الحال للمصريين جميعاً مسلمين ومسيحيين باعتبار هذا الواقع السلبى تابعاً من توابع ظاهرة عشق الموت المصرية. ويبدو هذا التابع ممثلاً فى حالة اللامبالاة وتفشى الاغتراب الاجماعى والرضوخ الذليل والسكوت الجبان واختفاء ثورية العمال والفلاحين والمثقفين وهجرة المثقفين والاكاديميين الأقباط إلى الأديرة أو إلى المهجر البعيد عن مصر وشعب مصر كما كان يفعل أجدادنا الشهداء الأقباط.

ولعل السبب الرئيسى فى تفشى ظاهرة عشق الموت المصرية وغيرها من الظواهر السلبية الضارة وغير السوية التى أهدرت الوطنية المصرية هو ابتعاد المصريين جميعاً عن العمل القتالى والحربى والعسكرى وحبسهم حبساً مطلقاً فى مجال الزرع والضرع وفى مجال الحرفة والصنعة وفى مجال اللاهوت والعبادة والرهبنة بحيث التزم المصريون بما ورد

فى رسالة القديس بولس إلى أهل روميه التى تقول :

لتخضع كل نفس للسلاطين القائمة لأنه ليس سلطانا إلا من الله ـ والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله وحتى من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله. والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينوية فإن الحكام ليسوا خدماً للأعمال الصالحة بل للشريرة.

هكذا التزم الأجداد الأقباط بهذا السلوك الاستسلامى والسلبى فى علاقتهم بالسلطة والسلطان.

حتى غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. فى بضع سنين.. لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون.

غلبت الـروم

غلبت الروم فى أدنى الأرض.. هكذا سجل القرآن الكريم هزيمة الروم وعسكرة الروم سنة ٦١٨ ميلادية امام جيوش الفرس وعسكرة الفرس بقيادة القائد الفارسى شاهين. هذه الجيوش التى غزت مصر من الطريق الذى جاء فيه الاسكندر الأكبر لغزو مصر وقد استمرت معارك الغزو بين الفرس والروم طوال عامين حتى تم احتلال مدينة الاسكندرية بواسطة الخيانة.

إن هذا الغزو الفارسى يوضح ان مصر كانت ومازالت مصباً للصراع العالمى أى الصراع المحتدم بين القوتين العظيمتين فـارس والروم فى الماضى حيث كان لكل منهما عسكرة وحشية طاغية. كما كانت منبعاً للصراع المحلى الذى يتقدمه الصراع الطبقى.. وان هذين الشكلين من الصراع العالمى والمحلى مازالا موجودين بمصر إلى الآن بسبب مكانتها العامة بقول العلامة القـرد بتلر فى كتابة فتح العرب لمصر.. وفى الحق لم يكن فى بلاد الدولة الرومانية ما هو أشفى حالا من مصر فقد سعى الأمبراطور الرومانى جستينان جهده ليجبر القبط الذين ليسوا على مذهب الدولة الرومانية فيدخلهم عنوة إلى ذلك المذهب السلطوى.. ومن ثم عاد الكفاح الشديد الذى ثار قديما بين طائفة المسيحيْن الملكانيين والمسيحيين الأقباط البعاقبه وصار أشد سعيراً ولم يكن عند قبط مصر همٌ أكثر منه يملأ قلوبهم ويملك عليهم آمالهم. فلم يكن عجبا على ذلك أن يسمع صليل السلاح بين حين وحين فى مدينة الاسكندرية نفسها التى كانت عاصمة مصر وقتئذ.

وفى مصر ذاتها كانت توجد ثلاثة أحزاب متصارعة حزب المسيحيين المصريين اليعاقبة الأرثــوذوكــس الذى يمثل الشعب المصرى وكان لهذا الحزب كنيسته المصرية الوطنية وبطارقته.. وحزب المسيحيين الملكانيين الكاثوليك التابعين للأمبراطور الرومانى والكنيسة الرومانية الذى يمثل سلطة روما وتحرسه العسكرة الرومانية فى مصر. وحزب المستوطنين اليهود.

وكان بين الحزبين المسيحيين صراع لا يتوقف كان مظهره الصراع المذهبى بين كنيسة السلطة الرومانية البيزنطية والكنيسة المصرية والوطنية وذلك بجانب الصراع الطبقى والوطنى الحاد للشعب الكادح والفالح والصانع ضد عسكرة الرومان ونهبهم واحتلالهم الغاشم لمصر.. ولهذا يعلق الأستاذ بتلر على ذلك الصراع بقوله..

ولم يكن عجباً أن يكون هذا فى بلاد أصبح الحكام فيها لا هم لهم إلا ان يجمعوا المال لخزائن الملك الرومانى البيزنطى وحاشيته وان تكون لمذهبهم اليد العليا فى أهل البلاد فصار الحكم فى أيديهم أداة تؤدى إلى الظلم ونشر الشقاء. فالحق أن بلاد مصر إذ ذاك كانت جميعاً تضطرم بنار الثورة ورغبة الخروج لا يغطيها إلا غطاء شفيف من الرماد.

ولقد كان ذلك الصراع الطبقى للمصريين موجه ايضا إلى المستوطنين اليهود الذين كانوا فى أغلب الأحيان عملاء للعسكرة الرومانية مع أنهم أى اليهود يمقتون أشد المقت كل اتباع المسيح ﷺ ولكن ذلك المقت على ما يبدو كان ظاهراً للأقباط المصريين اليعاقبة ومستتراً تجاه المسيحيين الرومان الملكانيين وقد تمثل ذلك الحقد اليهودى فى مصر وغيرها حيث يرى اليهود ان العسكرة الفارسية كانت وراء خلاصهم من الأسر البابلى الذى أجبرهم عليه الملك البابلى نبوخذ نصر ولم يفلتوا من هذا الأسر الجماعى لليهود إلا بفضل الملك «قورش» الفارسى الذى أطاح بالدولة البابلية مما دفعهم على ما يبد إلى التحالف مع ولده الملك قمبيز ابن الملك قورش فى فتح مصر.. ثم كرروا مساعدتهم للفرس وعساكرهم فى غزو مصر للمره الثانية فى سنة ٦١٦ ميلادية. هذا الغزو الفارسى الذى عجز عن اقتحام مدينة الاسكندرية وفتحها طوال عامين حتى تطوع طالب علم فى معاهد الأسكندرية من البحرين هو الطالب بطرس البحرينى الذى يقال أنه يهودى بالذهاب إلى المعسكر الفارسى على مشارف الأسكندرية وقابل قائده شــاهين حيث أرشده على طريقة غزو الاسكندرية

باستخدام قوارب صيادى السمك فى بحيرة مريوط.. وعلى الفور بادر القائد الفارسى بحشد عساكره فى قوارب الصيد إلى قلب الاسكندرية فدخلوها بغته مما مكنهم من ذبح أغلب العساكر الرومانية واحتلال مدينة الاسكندرية بواسطة الخيانة.

وقبل احتلال مدينة الأسكندرية وظف الفرس عسكرتهم وسيوفهم ضد المصريين اذ كانوا فى حربهم غلاظ القلوب مادام السيف فى أيديهم وكانت غلطتهم وحشية لا يبررها عقل ولا تدعو إليها حاجة كما يقول المؤرخ بتلر.. ولما طال حصار الاسكندرية على هذه العسكرة الفارسية الغليظة عملوا على إبادة القرى القبطية القريبة من الاسكندرية وخاصة أديرة الأقباط غيظا لفشلهم فى فتح الأسكندرية.. وقد جاء فى الأخبار أنه كان بأرض الاسكندرية ستمائه من الأديرة وكان الرهبان المصريون آمنين فى حصون هذه الأديرة المنيعة مطمئنين لحصونهم وموقعهم المحايد لسببين رئيسين هما أن العسكرة الرومانية عسكرة احتلالية نهائية تستعبدهم وتستغلهم وتجبرهم على تغيير مذهبهم المسيحى المرقسى القبطى كما ان عسكرة الفرس عسكرة غازية ووثنية تعبد النار دون الله سبحانه وتعالى والقصد من غزوها نهب مصر واستعبادها واستغلالها وتغيير دينها. والسبب الثانى ان الأقباط المصريين غارقين حتى آذانهم فى الزرع والضرع والحرفة والصنعة والعمل التعبدى واللاهوتى وذلك دون العمل العسكرى والقتالى ورغم هذه الوضعية الحيادية للمصريين فقد بادزت عسكرة الفرس بالهجوم على هذه القرى وما فيها من كنائس وأديرة وقتلوا من فيها من الرجال لم يفلت من قتلهم إلا من هرب. ونهب كل ما فى القرى والأديرة من مال ومتاع بواسطة عساكر الفرس التى واصلت فتوحاتها فى مصر حتى بلغت أسوان كما واصلت قتلها للمصريين بالجملة ولذلك فقد سجل البطريرك القبطى بيزنتيوس الذى كان مطران مدينة قفط فى الصعيد خلال الغزو الفارسى فى موعظة له بعث بها إلى ابو شيبة قال فيها.. **لقد خذلنا الله لما نقترفه من الذنوب وسلط علينا من الأمم من لا يرحمنا.**

كما وصف ما قاساه الأقباط المصريين من عسكرة الفرس الوَلىّ القبطى الانبا شنوده بقوله..

سيأتى الفرس إلى مصر يسفكون فيها الدماء ويسلبون أموال المصريين ويسبون ابناءهم ببيعونهم بالذهب فإنهم قوم ظالمين معتدون وستنزل المصائب على أيديهم بمصر. ينهبون

الكنائس ما بها من آنية مقدسة ويشربون الخمر فى المحراب ولا يبالون وينتهكون أعراض النساء على مرأى من رجالهن وسيبلغ الشر أعظمة والشقاء أقصاه. وسيهلك ثلث من يبقى من الناس فى بؤس وعذاب وسيبقى الفرس فى مصر حينا من الدهر ثم يخرجون منها.

قال تعالى : ﴿غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ...﴾، صدق الله العظيم. «سورة الروم».

وفعلاً صدقت هذه الآية بانتصار أهل الصليب المسيحيين بقيادة الأمبراطور هرقل الذى أعاد الصليب المخطوف إلى مدينة القدس بعد هزيمة العسكرة الفارسية هزيمة منكرة أمام جيوش هرقل الرومانى.

هكذا انتهى الصراع الدولى السياسى والدينى بين عسكرة الروم وعسكرة الفرس هذا الصراع الذى أشعله اليهود عملاء الفرس وعسكرتهم وأعداء أهل الصليب سواء كانوا ملكانيين بيزنطيين أو يعاقبة مصريين. يقول المقريزى ان اليهود اتفقوا مع الفرس كما فعلوا من قبل فى فلسطين حيث ان كسرى وجنوده جاءوا إلى مصر فقتلوا طائفة كبيرة من المسيحيين وأسروا عدداً عظيماً منهم وساعدهم اليهود على إهلاك المسيحيين وتخريب كنائسهم ولذلك فقد كان انتصار أهل الصليب على عسكرة الفرس تحقيقاً لنبوءة القرآن الكريم ثم تصديقاً لمقولة الوالى القبطى الانبا شنوده. كما ان ذلك الانتصار المسيحى على الوثنية الفارسية فى سنة ٦٢٨ ميلادية هو انتصار على اليهود ايضا الذين تحالفوا مع عسكرة الفرس ووظفوا سيوفهم لمساندتها ولهذا فقد انكسرت عسكرة الفرس العتيدة وتشتت وتعرض اليهود إلى مذبحة قام بها القساوسة والعوام فور عودة فلسطين ومصر إلى حكم الأمبراطورية الرومانية البيزنطية كمقدمة لمجئ الفتح العربى وعسكرته إلى مصر.

■■■



حكم العكسر
فى مصر المحروسة
من الدولة الفرعونية
حتى حكم مبارك

الهجرة البشرية الثانية

عسكرة . ولسان . وكتاب مبين

- بنيامين وعسكرة المقوقس
- عسكرة عربية دائمة
- عسكرة وهجرة وخراج
- المصريون والعسكرة العربية
- عسكرة الشراكسة التركية
- عسكرة السيف والذهب
- العسكرة القراقوشية والأيوبية

بنيامين وعسكرة المقوقس

﴿غُلبت الروم فى أدنى وهم من بعد غلبهم سيغلبون..﴾.. صدق الله العظيم.

لقد تحققت هذه النبوءة القرآنية بانتصار عسكرة الروم على عسكرة الفرس التى قد غُلبت بعد عشر سنين من حكم مصر وغيرها من بلاد الأمبراطورية الرومانية مما أدى إلى انتصار عسكرة الصليب وهزيمة عسكرة النار والمجوس.

ومما يذكر أن عسكرة هذه الأيام كانت عسكرة ذات طبيعة دينية بجانب أنها عسكرة احتلالية واستغلالية واستعبادية وسياسية ولقد ابتلى الشعب المصرى بصنوف هذه العسكرة وويلاتها وأهوالها التى تجعل الولدان شيباً فى حين ان العقل المصرى والوجدان المصرى والمزاج المصرى عازفين وغير آبهين بهذه العسكرة وطبيعتها القتالية والحربية والعسكرية المرفوضة وقتئذ من الشعب المصرى المشغول تماماً فى أموره المادية والروحية التى كان يعشقها من حرفة وصنعة وزرع وضرع ولاهوت وتعبد ورهبنه. هذه هى حياته التى كان يصارع من أجل الحفاظ عليها بطريقته السلبية التى كان يتخللها شىء من المقاومة الايجابية المحدودة فى هذا الإطار، اختار الشعب المصرى القسيس التقى الشاب بينيامين البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاما بطريركاً لمصر قبل رحيل عسكرة الفرس سنة ٦٢٧.. ويقول الأستاذ بتلر.. إن اختيار بنيامين للولاية الدينية فى مصر قد قوبل بالرضى وانه كان حبيباً إلى الناس عزيزاً عليهم. وأنه قد بقى على محبة الناس وإجلالهم إياه لم ينقص من ذلك شىء وعلى تغير الأحوال وكانت مدة ولايته اكثر عهد فى تاريخ القبط تقلباً وأعظمه حوادث لكنه لم يتساهل فى أمر الدين ولم يغض عن رذيلة فى الخلق فشرع منذ أول أمره يأخذ

قسوسه بالشدة إذا هم جاوزوا حدود التقى فى حياتهم. وأعاد إلى الكنيسة المصرية الوطنية اطمئنانها واستقرارها بعد أن زعزعتها حوادث السياسة وكادت تهدمها وأمضى بنيامين أربع سنوات أو خمسة في سلام تحت ظل عسكرة الفرس فى الأسكندرية مما يعنى أن قيادة بنيامين للكنيسة الوطنية قدحققت وجوداً فعالاً للقبط وكنيستهم المصرية فى مواجهة عسكرة الفرس الأمر الذى يوضح تطور المقاومة الاستشهادية السلبية والاستسلامية إلى مقاومة إيجابية فى مواجهة عسكرة الغزاة.

وفى رحاب ذلك الاستقرار فى الحياة المصرية خرج الفرس وعسكرتهم سنة ٦٢٧ تقريباً وعادت العسكرة الرومانية إلى مصر تحت قيادة الأمبراطور الرومانى البيزنطى هرقل الذى أرسل إلى مصر والياً من أدهى ولاته ليتولى شئون الدين والدنيا فى مصر بعد توحيد المذاهب المسيحية فى مصر أيضاً، أى تحويل الكنيسة المصرية المرقسية فى مصر إلى كنيسة تابعة للكنيسة الرومانية، مما جعل ولايته ولاية دموية إرهابية بواسطة عسكرته الرومانية القاسية، ولقد رأى بنيامين بثاقب نظرة أن مجئ المقوقس وولايته على مصر هى الشر المستطير بعينه إزاء الشعب المصرى والكنيسة القبطية وان فترة من الإرهاب لمذهبى والاضطهاد الوطنى قد جاءت بمجئ ذلك الطاغية البيزنطى.. كما رأى جهود القبط المصريين فى مقدم المقوقس إعلان حرب جديدة ضد الشعب المصرى وكنيسته الوطنية سوف تشعلها عسكرة الرومان من جديد.

ولذلك بادر البطريرك الثورى والشاب بنيامين بإعداد كنيسته الوطنية فى الأسكندرية استعداداً للهرب من وجه المقوقس وعسكرته حيث جمع القساوسة والجماهير الشعبية والقى فيهم خطاباً يدعوهم فيه إلى الثبات على عقيدتهم ووطنيتهم المصرية حتى الموت.ثم أصدر امراً وطنياً إلى جميع أساقفة المصريين بالهجرة إلى الجبال والصحارى ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم ذلك على حد تعبير العلامة الفريد بتلر.

ان ذلك الموقف الثورى الذى اتخذه البطريرك الشاب بنيامين قد جعل منه زعيماً وطنياً ووليا قبطياً ناضل من أجل حماية الوطنية المصرية والكنيسة القبطية معاً من خلال مقاومة إيجابية وفعاله ضد عسكرة المقوقس هذه المقاومة الجديدة التى رفضت ظاهرة عشق الموت

القبطية الاستسلامية وظاهرة الانتحار الاستشهادى السلبى المصرية بالاعتراف وترديد عبارة أنا مسيحى.. أنا مسيحية لتذهب الروح إلى ملكوت السماء حيث النعيم المقيم وليبقى الجسد على الأرض حيث الدود والعفن والموت. ذلك هو الهروب الذاتى والأنانى والروحى الذى تجاوزه البطريرك المصرى بنيامين حيث باشر هو ومن معه الهروب بالروح والجسد معاً على الأرض دون السماء حتى يحقق النصر للوطن والكنيسة ولهذا هرب ودعا قادة الوطن المصرى والكنيسة القبطية إلى الهروب الجماعى بالروح والجسد إلى أحضان مصر وشعبها حتى يشتت جهد وشمل عسكرة المقوقس وعساكره فى البرارى والصحارى والقرى والمدن المصرية.

ورد على ذلك المقوقس باعتباره والياً على مصر من قبل الأمبراطور هرقل الرومانى البيزنطى وباعتباره بطريرك المسيحيين الملكانيين الرومان بنشر عسكرته وعساكره ونشر قساوسته السلطويين فى الدلتا وفى الصعيد حتى مدينة أسيوط بقصد اضطهاد الأقباط وتعذيبهم وقتلهم .وتقتلهم لكى يتخلوا عن مذهبهم الدينى والقبطى طوال عشر سنوات.

ومن مظاهر ذلك الاضطهاد الدموى والمذهبى ما ورد فى ترجمه حياة البطريرك القبطى اسحق.. انه فى شبابه لقى قسا اسمه يوسف كان ممن شهروا بين يدى المقوقس وجلد كثيراً لأنه شهد شهادة حق.. وكذلك فعلت عسكرة المقوقس بشقيق البطريرك القبطى بنيامين حيث تعرض للتعذيب والحرق والموت غرقاً.. وفى إحدى المرات ذهب المقوقس إلى أحد الأديرة فوجده خلاءً مما فيه إلا من خازنه فقبضت عليه عساكرة وجلدوه وسألوه فقال الخازن.. لقد جمع صمويل الزاهد رهبان الدير وخطب فيهم فأطال ووصف المقوقس بالكفر وبأنه يهودى ولا يؤمن بالله فلما سمع الرهبان قوله هذا هربوا قبل مقدمك فلما سمع المقوقس ذلك ثار ثائرته وعض شفتيه من الغيظ وسب الخازن والدير ورهبانه وانصرف إلى الفيوم حيث دعا عساكره واتباعه وأمرهم بالعودة إلى الدير الذى قد عاد إليه رهبانه وشيخهم الزاهد صمويل فقبضوا عليه وقيدوا يديه من خلاف ووضعوا فى عنقه طوقا من حديد وساقوه إلى المقوقس وفى الطريق كان الأنبا صمويل يسب ويلعن المقوقس بدون مبالاة.. ولما رآه المقوقس أمر عساكره أن يضربوه حتى سال دمه ثم قال له.. صمويل أيها الزاهد الشقى من ذا أقامك رئيساً للدير وأمرك ان تعلم الرهبان ان يسبونى ومذهبى

فرد عليه العابد المصرى صمويك قائلا:

إن البر فى طاعة الله وطاعة وليه بنيامين وليس فى طاعتك والدخول فى مذهبك الشيطانى يا سلالة الطاغوت ويا أيها الشيخ الدجال فأمر المقوقس ان يضربوه على فمه وقال المقوقس.

لقد غرك يا صمويل أن رهبانك يجلونك ويعلون من شأن زهدك ولهذا تجرأت وقويت نفسك ألا تؤدى لى ما يجب عليك ان تؤديه ساشعرك أثر سبابك للعظماء إذا سولت لك نفسك ألا تؤدى لعظيم رجال الدين وكبير جباة المال فى أرض مصر.

فأجابه الزاهد صمويل..

لقد كان من قبل إبليس كبير الملائكة ولكن كبره وكفره فسقا به عن أمر ربه.

فلما سمع المقوقس ذلك امتلأ قلبه بالغيظ على ذلك الوطنى المصرى والولى القبطى فأمر عساكره بقتله فقتلوه كما وظف المقوقس عساكره فى المرور على الأديرة القبطية والكنائس المصرية لإرهاب رهبانها وقساوستها واجبارهم على التخلى عن وطنيتهم المصرية وكنيستهم القبطية ومذهبها حتى ان بعض الأساقفة والقساوسة المصريين قد مالوا إلى مذهب الكنيسة الرومانية البيزنطية.. ولكن بعض الأقباط الذين قد تمسكوا بمصرهم وكنيستهم شكلوا تنظيمات سرية قبطية ثورية للخلاص من المقوقس وسلطته كحاكم رومانى وبطريرك رومانى.. وكان من أشهر هذه التنظيمات الثورية والوطنية تنظيم جماعة الجايانية التى كان مقرها كنيسة قروية بجوار مريوط. هذه الجماعة الوطنية التى قررت قتل واغتيال المقوقس الظالم ولكن ضابطا رومانيا علم بذلك فأرسل عساكره وأمرهم بقتل الثوار الأقباط فكان ذلك وقتل الجنود بعضهم وجرحوا وقطعوا أيدى البعض الآخر. ويقال ان أحد الأديرة القريبة من الاسكندرية حيث مقر المقوقس وسلطته وعسكرته ظل رجال ورهبانه صامدين لأنهم كانوا مصريين جميعاً ووطنيين ليس من بينهم غريب ويبدو أن رجال ذلك الدير المصرى قد لجئوا إلى التقية أو إلى القبطية السرية التى انتشرت فى صفوف المصريين بدليل ان الكثير من أهالى الاسكندرية المصريين قد ظلوا متمسكين بوطنيتهم وكنيستهم بشكل سرى حيث كان يقودهم القسيس المصرى أجاتوا الذى كان يخفى نفسه فى لباس نجار طوال سنوات عسكره المقسوقس ولهذا فقد كافأه الشعب المصرى وكنيسته القبطية ذلك النجار الوطنى بتوليته

بطريركا على مصر خلفا لاستاذه وقائده الوطنى البطريرك بنيامين.

هذه فترة ولاية المقوقس وعسكرته الرومانية فى مصر التى تتميز بأمور بالغة الأهمية لأنها أفرزت المناضل المصرى البطريرك بنيامين الذى يعتبر زعيماً وطنياً للشعب المصرى ووليا قبطيا للكنيسة الوطنية وتتجلى زعامته فى قدراته الفكرية وتنبؤاته المستقبلية حيث تنبأ بظهور الطبيعة الوحشية والاستبدادية لعسكرة المقوقس وتنبأ بزوال ومحو العسكرة الرومانية إلى الأبد.. كما تنبأ ضمنياً بقدوم عسكرة الفتح العربى هذه العسكرة الفريدة والفترة التى سوف تقضى على عسكره القوتين العظيمتين أى عسكره الروم وعسكرة الفرس معاً.

وبجانب ذلك فقد خلص الشعب المصرى إلى حد ما من الخوف الخرافى الذى أدى إلى شيوع عشق الموت والشوق الجنونى الاستشهادى الانتحارى والسلبى ومنع ممارسة هروب الروح إلى الملكوت كظاهرة ذاتية وأنانية وربط الروح بالجسد خلال مقاومة عسكرة المقوقس واعتبر الهروب إلى أحضان مصر وشعبها أسمى من الهروب إلى الملكوت واكثر منه قداسة مما شجع على انتشار الروح الوطنية التى باشرت التحدى والمقاومة واللجوء إلى تأسيس منظمات قبطية سرية ذات طبيعة قتالية ومن مجمل كل هذا فقد جعل من الكنيسة القبطية مؤسسة وطنية مازالت صامدة.

تلك هى بعض انجازات البطريرك المصرى بنيامين ذات الطبيعة النضالية والوطنية والشعبية ضد عسكرة المقوقس الرومانى وكنيسته السلطوية، هذه الانجازات التى عكست كراهية المصريين أهل الصليب وقتئذ وحقدهم وغضبهم وعدائهم الشديد واللدود للرومان أهل السيف والصليب معاً مما أدى إلى حرث الأرض المصرية وتمهيدها للفتح العربى الذى تنبأ به البطريرك بنيامين الذى كان بمثابة (جيش عربى طليعى) استهل الفتح العربى لمصر.

عسكره عربية رائعة

تتميز العسكرة العربية التى انبثق من خلالها الفتح العربى لمصر سنة ٦٤٠ ميلادية والفتوحات العربية الأخرى بأنها عسكرة رائعة لما حققته فى وقت واحد تقريبا من انتصارات عسكرية رائعة ضد عسكرة الامبراطورية الفارسية وضد عسكرة الامبراطورية الرومانية هاتين الامبراطورتين اللتين تمثلان القوتين العسكريتين العظيمتين فى العصور

القديمة والوسيطة حيث كانتا تتمتعان بتراث عسكرى عتيد وخبرات حربية وقتالية هائلة مكتسبة من حروب بعضها لبعض طوال مئات السنين ومن حروب اليونان ومصر وقرطاجنة فى عهد القائد العسكرى البارز هانيبال.

وتتجلى تلك الروعة الحربية والقتالية لهذا العسكرة العربية التى هزمت الروم والفرس فى جعل انتصاراتها القتالية تؤدى إلى قيام إمبراطورية عربية مترامية الأطراف فى آسيا وأفريقيا وأوروبا.

والأمر المثير حقا أن العسكرة العربية ليس لها تراث عسكرى أو تاريخ حربى اللهم مجرد حروب قبلية وبدائية مثل حرب البسوس التى كان فارسها الفعلى «الزيرسالم» وحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان التى كان فارسها عنترة بن شداد العبسى وحرب الفجار التى انتهت بتأسيس حلف الفضول فى مكة عندما كان الرسول ﷺ صبياً وقد شارك فيها ﷺ معاونا لأعمامه.. وكانت هذه الحروب البدائية تعتمد على الشجاعة الفردية والبطولات الفردية والكر والفر كما يقول امرؤ القيس الشاعر العربى :

مكر مفر مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

وفى غزوات الرسول محمد ﷺ تطورت هذه الحرب البدائية إلى حرب الصفوف وتقسيمها إلى ميمنة وميسرة معتمدة على عبقرية الرسول ﷺ العسكرية الفطرية حيث استفادت العسكرية العربية من الخبرات العسكرية للروم والفرس من خلال القبائل العربية المتاخمة لها.

ففى غزوة بدر أشار الصحابى حباب من المنذر الأنصارى على الرسول قائلاً.. يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله.. بشأن هذه الحرب.. أم هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال الرسول بل هو الرأى والحرب والمكيدة يا حباب.. فرد حباب يا رسول الله ليس هذا المنزل. أى منزل الساحة الحربية. فالمنزل أن نجعل الماء خلفنا حتى تشرب ولا يشربون. فنفذ الرسول مشورته الحربية.. وفى غزوة الخندق أشار الصحابى سلمان الفارسى على الرسول بحفر الخندق حول المدينة ليمنع المشركين وحلفاءهم من اقتحامها أسوة بما يفعل الفرس فى حروبهم.

ثم تطورت العسكرة العربية فى حروب الفتوحات العربية وفى حروب الفتنة الكبرى مما أدى إلى ظهور عبقريات عسكرية فى صفوف العسكريين العرب مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وسعد بن أبى وقاص وموسى بن نصير وطارق بن زياد وغيرهم ويبدو ان هذه العسكرية العربية ذات الروح العقائدية جعلها تمتص خيرات الروم والفرس العسكرية والحربية من خلال القبائل العربية المتاخمة لدولتى الروم والفرس ولهذا باتت عسكرة عربية قوية ذات بأس شديد طوال مئات السنين وذلك من منطلق أنها عسكرة كان شعارها النصر أو الشهادة.

بالاضافة إلى ان توزيع الغنائم على المحاربين العرب وقبائلهم قد شجع الرجال والشباب العرب على احتراف الجندية والعسكرة.

ابتغاء للشهادة عند الموت وما يترتب عليها من مقام محمود فى جنات النعيم.

وابتغاء للغنيمة كمصدر رزق سخى وطيب للمحارب وأسرته وقبيلته.

والجدير بالذكر ان العسكرة العربية كانت تخضع لقيادات سياسية ذات طبيعة مدنية مما جعلها عسكرة رشيدة ومنضبطة وذات قصد وهدف يؤيد ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب باعتباره أميراً مدنياً للامبراطورية العربية الوليدة، فقد اصدر أمراً سياسياً ومدنياً بعزل القائد العسكرى العربى الفذ خالد بن الوليد اثناء قيادته الجسورة والموفقة فى حرب الروم لأنه رأى أن عسكرته العبقرية ربما تفتن الناس مما يؤدى إلى فتن وقلاقل تنتهى إلى تغليب أهل السيف والعسكرة على أهل السياسة والسلطة المدنية فى الدولة الإسلامية الجديدة كما حدث فيما بعد.

ولذلك فقد كان ابن الخطاب أميراً مقتدراً وسياسياً ثاقب الرأى فى المسألة العسكرية رغم انه شخص مدنى ولما كان يكره توظيف البحر فى حروب فتوحاته لأنه العرب ليسو أهلا لثقافة البحر وركوبه فقد أصدر امراً بعزل أمير البحرين العلاء بن الحضرمى بسبب غزوة فارس بطريق البحر بغير إذن الخليفة وعين مكانه سعد بن أبى وقاص.

وخلال تسيير جيش الفتح العربى لمصر أرسل الخليفة إلى قائده عمرو بن العاص أمراً يقول فيه.. إذا لم تكن بلغك أمرى هذا قبل دخولك إلى حدود مصر فعليك بالعودة وإذا

دخلت حدودها فواصل سيرك إلى مصر والله معك. ولما قرأ عمرو بن العاص الأمر الصادر إليه سأل مستشاريه فى أى مكان نحن فأجابوه بأننا فى حدود مصر فمضى سيره إلى ضفاف النيل. كما أنه قد حذره من اتخاذ الأسكندرية كقاعدة للعسكرة العربية وعاصمة للفتح الحربى بسبب خشيته على الجيش العربى من البحر الذى سوف تتخذه العسكرة الرومية طريقا لعودة احتلالهم لمصر وقد حدث ذلك فعلا مرة واحدة ثم استعادها العرب، وأمره ان يتخذ عاصمة جديدة بديلا عن الإسكندرية قائلا لا تجعل بينى وبين المسلمين بحرا فبنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط.

وبشأن تأسيس مدينة الفسطاط فقد تم ذلك بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب واختياره الذى كان اختياراً موفقاً بسبب موقعها الجغرافى على ضفاف النيل وفى قلب مصر بالقرب من حصن بابليون حيث مدن وقرى الدلتا شمالاً والصعيد المترامى الأطراف جنوباً ومن ثم فالاختيار عبقرى والمكان عبقرى من حيث ملاءمته ليصبح محلا مختاراً لعاصمة مصر الجديدة. ومن حيث ملاءمته لقيام أول مدينة عسكرية فى تاريخ مصر تضم جنود العسكرة العربية وأسرهم وقائدهم بحيث تستطيع هذه العسكرة الناشئة أن تكون قادرة على صد أى هجوم عسكرى معاد يأتيها من الجنوب أو الشمال.. وفضلا عن هذا فقد كان تأسيس مدينة الفسطاط يعتبر فرصة ذهبية لقيام تحالف عمل بين العسكرة العربية الغازية وبين أهل الحرف والصناعات المصرية نظراً لأن العرب وقتئذ غير قادرين على ممارسة أية حرفة وأية صنعة لبداوتهم الشديدة كما يقول ابن خلدون.

ولقد تجلى ذلك التحالف العظيم بين عسكرة الفتح العربى وبين الأقباط المصريين أهل الحرف والصناعات المصرية القديمة والعتيدة فى بناء مدينة الفسطاط كأول مدينة عربية عسكرية على أرض مصر هذه المدينة التى آوى إليها الجنود العرب وأهلهم وقبائلهم التى وفدت إلى مصر للاقامة والسكنى كبداية للهجرة البشرية الثانية التى وفدت إلى مصر وهى الهجرة العربية التى آتت من شبه الجزيرة العربية كما تجلى ذلك التحالف العظيم فى علاقات العمل والحياة بين الأقباط والعرب أثناء بناء مدينة الفسطاط وخلال سد حاجات الأجناد العرب وأهلهم وقبائلهم بمنتجات الحرف والصناعة المصرية من سلاح وثياب وسلع وبضائع مختلفة تنتجها الحرف والصناعات المصرية والقبطية.

إن هذه العلاقات الإنسانية والاجتماعية والأخوية أثمرت تداول اللسان العربى المبين وسط جماهير الحرفيين والصناع الأقباط الذين بدأوا رويدا رويدا يتركون لغتهم القبطية التى قد تمزقت إلى لهجات لغوية مختلفة مثل اللغة الدمنهورية واللغة الفيومية واللغة الأخميمية وغيرها من اللغات واللهجات القبطية هذا بالاضافة إلى السبب الرئيسى لانتشار اللغة العربية الأمر الغريب ان ظاهرة هجر اللغة الوطنية والقبطية التى حدثت فى مصر فور مجئ الفتح العربى لم تحدث فى بلاد فارس التى تمسكت بلغتها الفارسية فى ظل الفتوحات العربية وكذلك لم تحدث فى البلاد الأسيوية التى طالتها الفتوحات العربية لأن هذه الفتوحات لم يصاحبها هجرة بشرية عربية كما حدث فى مصر بالاضافة إلى ان هذه البلاد الآسيوية لم يتأسس بها خلال سيطرة العسكرة العربية عليها مُدناً عربية وعسكرية مثل مدينة الفسطاط فى مصر. ولهذا فقد تعرضت البلاد الآسيوية التى باتت جزءاً من دولة الخلافة العربية إلى هجرة عسكرية حيث هاجر الكثير من أبنائها صوب مكة والمدينة والعواصم العربية مما أدى إلى انتشار ظاهرة الموالى الذين أصبح لهم شأن فى علوم القرآن والحديث والفقه والشعر والنثر والأدب والفلسفة والعلوم المختلفة.. فى حين ان مصر لم تعرف ظاهرة الهجرة العكسية إلا نادراً جداً.

ولقد كان أروع تجليات العلاقة بين الأقباط المصريين والعسكرة العربية فى مصر هو شيوع تداول اللسان العربى فى صفوف الأقباط إلى حد استطاعتهم قراءة القرآن الكريم الذى بهرهم بآياته البينات وخاصة آيات الحرية التى لم يرد مثلها فى آيات الأنجيل أو آيات التوراة. وهذه بعض آيات الحرية فى القرآن الكريم:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لا إكراه فى الدين...﴾.. «سورة البقرة»، ﴿وان تولو فإنما عليك البلاغ..﴾.. «سورة آل عمران»، ﴿فأعرض عنهم وعظهم..﴾.. «سورة النساء»، ﴿ما على الرسول إلا البلاغ..﴾.. «سورة المائدة»، ﴿قل لست عليهم بوكيل..﴾.. «سورة الأنعام»، ﴿فاعف عنهم واصفح..﴾.. «سورة المائدة»، ﴿ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً..﴾.. «سورة النساء»، ﴿واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فاعرض عنهم..﴾.. «سورة الأنعام»، ﴿وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً

ولهواً..﴾.. «سورة الأنعام»، ﴿واعرض عن المشركين..﴾.. «سورة الأنعام»، ﴿وذر الذين يلحدون فى أسمائه..﴾.. «سورة الأعراف»، ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين..﴾.. «سورة يونس»، ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل..﴾.. «سورة يونس»، ﴿فان تولوا فإنما عليك البلاغ المبين..﴾.. «سورة النحل»، ﴿وجادلهم بالتى هى أحسن..﴾.. «سورة النحل»، ﴿وما انت عليهم بجبار..﴾.. «سورة ق»، ﴿لست عليهم بمسيطر..﴾.. «سورة الغاشية»، ﴿لكم دينكم ولى دين..﴾.. «سورة الكافرون».

ومن منطلق هذه الآيات القرآنية الداعية إلى حرية الإنسان فى اختيار عقيدته الدينية فقد كانت هى المدخل الرئيسى فى دخول طبقة الحرفيين والصناع والكادحين الأقباط المصريين إلى الإسلام رويداً رويداً قبل دخول الأثرياء ورجال اللاهوت القبطى والفلاحين مما أدى إلى تغيير الدين فى مصر للمرة الثانية من المسيحية اليعقوبية الوطنية إلى الإسلام.. وإلى تغيير اللغة المصرية مرة أخرى ايضا من اللغة القبطية التى هى امتداد للغة الفرعونية إلى اللغة العربية واللسان العربى.

هذه ثمرات العسكرة العربية والفتح العربى لمصر وشعبها القبطى الصانع والفالح والمتعبد الذى يمارس حرفة العسكرة والجندية طوعا أو كرها لأن العسكرة العربية الغازية قد ورثت من عسكرة الروم وعسكرة البطالمة قبلها ضرورة حبس المصريين حبسا مطلقا فى مجال الحرفة والصنعة وفى مجال الزرع والضرع وابعاده تماما عن حرفة الحرب والأمور العسكرية والقتالية حتى يظل ممارسا للحرف الإنتاجية حفاظا على موارد بلاده، حتى يظل جاهلا بشئونها عازفا عن ممارستها حتى لا يتم أى بعث للوطنية المصرية والقبطية.

هكذا أثمرت فكرة بناء مدينة الفسطاط كمدينة عسكرية وعربية بادر بها الخليفة عمر بن الخطاب كفكرة مستقبلية كان تنفيذها سبباً رئيسياً فى انتشار اللسان العربى والدين الإسلامى فى صفوف القوى المنتجة والطبقة العاملة القبطية والمصرية.

ولم تتوقف مبادرات عمر بن الخطاب المستقبلية فى شئون العسكر والعسكرة حيث تقول هويدا عبد العظيم رمضان فى كتابها.. المجتمع فى مصر الإسلامية.. إن أول من أسس ديوان الجند فى العسكرة العربية هو عمر بن الخطاب بناء على مشورة رجل من فارس وقد خصص لذلك الديوان ميزانية مالية خاصة لدفع نفقات العسكرة ومرتبات العساكر الذين

كانوا من الجنود النظاميين وبعضهم من المتطوعين.. وبالنسبة للجنود النظاميين من أهل الغنى والجهاد الذين يفرض لهم العطاء من بيت المال فقد كانوا للجهاد لا يشتغلون بالزراعة والتجار وغيرها وان فعلوا تعرضوا للعقاب بناء على نهى عمر بن الخطاب فيقول ابن عبد الحكيم ان عمر بن الخطاب أمر المنادى ان يخرج إلى امراء الأجناد لابلاغ الرعية ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون.. ولهذا فقد علم أن أحد جنود مصر قد حرث بأرض مصر فمنعه وعاقبه ثم عفا عنه كإنذار أخير ورسالة موجهة إلى جنود العسكرة العربية فى مصر لكى لا يمارسوا الحرث والزرع وإلا عوقبوا .. وترى الدكتورة سيدة كاشف ان السبب الذى دفع عمر بن الخطاب إلى نهى الجند من الاشتغال بالزراعة وعدم تقسيم الأراضى بينهم هو خوفه من استرخاء العسكرة العربية وافتتان الجند بالثروة والمال.

واذا تأملنا موقف عمر بن الخطاب فى هذه المسألة الحيوية فإنه كان يخشى من سطوة العسكرة العربية بمصر على الفلاحين الأقباط الذين يحترفون الزرع والضرع منذ عهد أجدادهم الفراعنة. هذه السطوة العسكرية العربية القادرة وقتئذ على إهدار خيرات الفلاحين الأقباط وتغليب العسكر العرب عليهم والاستبداد بشئونهم مما يؤدى حتما إلى بوار الأرض المصرية وضياع ماء النيل الخالد حيث كان يتميز الفلاح القبطى بأنه مهندس فى الرى والصرف وأستاذ فى الزرع والضرع كما كان يرى عمر بن الخطاب ان تدخل العسكرة العربية فى شئون الفلاحين الأقباط سوف يصاحبه محاولة اكراه هؤلاء الفلاحين الأقباط على تغيير دينهم المسيحى اليعقوبى والأصولى والدخول اجباراً إلى الإسلام الأمر الذى سوف يؤدى إلى هروبهم الجماعى من قراهم وأرضهم فتتوقف زراعة القمح والعدس والفول والبصل والقثاء وعسل النحل والشهد المصفى فلا يجد أجناد العرب هم وعيالهم وقبائلهم ما يأكلون.. كما يتوقف بالتالى خراج بيت المال.

مع العلم ان الأجناد العرب الذين قد فتحوا مصر كان عددهم يتراوح ما بين أربعة آلاف جندى إلى خمسة عشر ألف جندى بخلاف عيالهم وقبائلهم التى لحقت بهم وذلك طبقا للمصادر المختلفة فى حين ان عدد جنود الروم كان قرابة ثلاثين الف جندى موزعين على الولايات المصرية ومن ثم لم تكن لهم قيادة عسكرية أو مدنية مركزية كما يقول بل قد

استمر فتح مصر طوال عامين حيث وصلت العسكرة العربية بقيادة عمرو بن العاص إلى العربية فى ١٢ ديسمبر ٦٣٩ وتم تسليم الإسكندرية من العسكرة الرومية المهزومة فى ٨ نوفمبر ٦٤١ ثم استولت عليها العسكرة الرومية بعد ذلك ولكن العسكرة العربية قد استعادت فتحها فى صيف سنة ٦٤٦ كما يقول بتلر.

وقد ظلت العسكرة العربية فى مصر ذات طبيعة عربية خالصة تقريباً فلم يشترك الشعب المصرى والقبطى فى اى عمل حربى أو عسكرى فى ظل هذه العسكرة العربية لسببين سبق ذكرهما. الأول ان العسكرة العربية الغازية قد ورثت من الغزاة السابقين لمصر ظاهرة حبس المصريين حبسا مطلقا فى الزرع والضرع والحرفة والصنعة وفى المجال اللاهوتى والتعبدى حتى لا يمارسوا حمل السلاح فيوجهوه صوب عسكرة الغزاة دفاعاً عن وطنيتهم المصرية والسبب الثانى ان المزاج المصرى كان عازفا عن الحرب وصناعتها اذ ان الحرب كانت تقوم بين غزاة مصر مما جعل لسان حالهم يقول اللهم أهلك الغزاة بالغزاة..

ولكن هذه العسكرة قد بدأت تعتريها الفوضى لغياب الإدارة المدنية والسياسية المركزية والحازمة حيث تقول هويدا عبد العظيم رمضان.. إن الجند كثيراً ما تدخلوا فى عزل وتولية الولاة مما أدى إلى حروب وتمردات عسكرية فى قلب العسكرة العربية فى مصر مما أدى إلى إهدار طبيعتها العربية فى زمن المعتصم العباسى سنة ٨٤١ ميلادية من جراء تطعيم هذه العسكرة بعساكر من الفرس والترك والسودانيين تحت قيادات عسكرية غير عربية.. ولهذا يقول المقريزى.. انقرضت دولة العرب من مصر وصار جندها العجم والموالى من عهد المعتصم وبالتالى فإن عمر العسكرة العربية فى مصر قد بدأ منذ عام ٦٣٩ حتى عام ٨٤١ ميلادية أى أن عمرها فى مصر قد استمر قرنين وسنين على ضفاف النيل.

هكذا تخلت العسكرة ذات اللسان العربى والكتاب المبين عن عروبتها وسلمت أمرها وسيفها وخراجها وجزيتها إلى عسكرة أعجمية من المماليك والجنود المرتزقة من أتراك وغيرهم بينما المصريون يتداولون اللسان العربى المبين حيث دخل بعضهم الإسلام وظل بعضهم على مسيحيته المصرية ولكنهم جميعاً محبوسين فى زرعهم وضرعهم وفى حرفهم وصنعتهم لا شأن لهم بالعسكرة سواء كانت عربية أو أعجمية.

إذا كانت هذه العسكرة تتساوى مع عسكرة الفرس والبطالمة والرومان والعرب فى استغلال الشعب المصرى وفقا لشعار.. إحلب الدر حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم.

عسكرة وهجرة وخراج

قال رسول الله ﷺ.. إذا فتح الله عليكم مصر. فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً. فذلك الجند خير أجناد الله.. قال ابو بكر رضي الله عنه. ولم ذلك يا رسول الله ؟.. قال.. لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة، هكذا وصف الرسول أبناء مصر وأبناء وادى النيل بأنهم خير أجناد الأرض لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة أى يعيشون ويتكاثرون فى موقع جغرافى يحظى بعبقرية المكان إلى آخر الزمان.

من هذا المنطلق وفدت العسكرة العربية إلى مصر ممثلة فى آلاف الجنود العرب الذين قد صحبهم عيالهم وقبائلهم مما اضطر العسكرة العربية إلى بناء أول مدينة عربية ذات طبيعة عسكرية فى مصر هى مدينة الفسطاط التى كانت محلاً مختاراً لأول تجمعات الهجرة البشرية العربية إلى مصر. هذه الهجرة التى استمرت وتزايدت رويدا رويدا على حساب المستوطنين اليهود والرومان والأغريق ثم التحمت وتشابكت مع الشعب المصرى والقبطى فى المدن أولاً ثم فى الريف المصرى وقراه الأمر الذى ساعد على انتشار اللسان العربى والدين الإسلامى وتتجلى تجمعات الهجرة البشرية العربية التى جلبتها العسكرة العربية معها إلى مصر فى خطط مدينة الفسطاط أى أزقتها وحاراتها وشوارعها التى قد ذكرها المقريزى وهى :

خطة مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعه بن مالك بن حجيره خطة تجيب. وتجيب هم بنو عذى وسعد إبنى الأشرس بن شبيب فمن كان من ولد عدى وسعد يقال لهم تجيب.. وتجيب أمهم.

وخطة لخم فى موضعين وما خالطها من جذام.. ولهم خطتان احداهما منسوبه إلى بنى ريه.. والخطة الثانية خطة رشدة بن أدب ابن جزيله من لخم.

خطط اللفيف انما سموا بذلك لالتفاف بعضهم ببعض. وسبب ذلك أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية. أخبر ان مراكب الروم قد توجهت إلى الاسكندرية لقتال المسلمين فبعث

عمرو.. بعمرو بن جماله الازدى الحجرى ليأتيه بالخبر فمضى.. واسرعت هذه القبائل التى تدعى اللفيف وتعاقدوا على اللحاق به وهم جمع كثير. فلما رآهم عمرو بن جماله استكثرهم، وقال تالله ما رأيت قوما قد سدوا الأفق مثلكم وانكم كما قال الله تعالى : ﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً.. ﴾، سمو من يومئذٍ اللفيف وخطط غافق.. وخطط الصدف.. وخطط الفارسيين وهم بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام.. خطط تدمع وهو مالك بن مرة.. خطة غطيف بن مراد.. خطة وعلان.. خطة يحصب بن مالك.. خطة رعين بن زيد بن سهل.. خطة ذى الكلاع بن شرحبيل بن حمير، خطة المغافر بن يفعر بن مرة، خطة سبأ وخطة الرخبة بن زر بن كعب، خطة السلف بن سعد، خطة بنى وائل، خطط القيض بن مرتد، خطط الحمراوات الثلاث.

تلك هى الحارات والأزقة والشوارع فى مدينة الفسطاط العربية والعسكرية التى كانت ملاذاً للهجرة العربية والعسكرية إلى مصر فى مدينتها حيث كان يعين لها أمير عربى يسمى أمير الفسطاط.

وفى عام مائة وتسع هجرية وفد على مصر ثلاثة آلاف من قيس فتحول ديوانهم إلى مصر ولم يسمح لهم بالنزول إلى الفسطاط فانزلوا الحوف الشرقى ومارسوا الزرع والضرع بها فلما بلغ عامة قومهم تحملوا اليهم فوصل اليهم كما يقول المقريزى خمسمائة أهل بيت من البادية ثم اتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت فصار فى بلبيس ألف وخمسمائة ألف أهل بيت من قيس.

وإذا دققنا النظر فى طبيعة هذه الهجرة البشرية العربية الوافدة على مصر فسوف نجدها عسكرة فى عسكرة بمعنى أن جميع أفرادها الراشدين كانوا جنوداً محترفين فى العسكرة العربية مقابل أرزاق تأتيهم من الديوان العربى العام ولقد ظلت هذه الأرزاق مستمرة حتى ألغاها وأوقفها الخليفة المعتصم فى العصر العباسى عندما تم تغليب العسكرة التركية والمملوكية على العسكرة العربية فى الدولة الإسلامية.. وهذا ما اضطر القبائل العربية فى مصر إلى السير فى مناكبها بحثا عن الرزق فى الزرع والضرع والحرفة والصنعة دون أن تصادم عنصريا أو تتصارع طبيعياً مع الشعب المصرى القبطى الذى قد دخل الإسلام والذى لم يدخل الإسلام وذلك بفضل تداول اللسان العربى فى صفوف المصريين

والعرب مما أدى إلى شيوع التآخى الإنسانى الذى تطور إلى تآخ وطنى وطبقى بين الكادحين العرب والأقباط، وذلك رغم الطبيعة العدوانية والعنصرية للعسكرة والعساكر عموماً ورغم أن العسكرة العربية عسكرة غازية. إذ أن العسكرة العربية فى مصر كان قصدها تصفية الوجود الاحتلالى لعسكرة الروم ومن ثم فالشعب المصرى القبطى لم يكن طرفاً فى حرب الروم والعرب ولم يكن فى واقع الأمر منحازاً ايجابيا خلال صراع العسكرة العربية مع العسكرة الرومية لأنه كما ذكرت وكررت ان الشعب المصرى القبطى كان بعيداً كل البعد عن الأعمال العسكرية ماديا وروحيا.. وان كان منحازا عاطفيا فقط مع الفتح العربى وعسكرته طمعا واملا فى تغيير حياته إلى الأفضل وبالتالى فلم تتوافر أسباب الصراع بين المستوطنين العرب الذين استوطنوا مصر فى سياق الفتح العربى وبعده والذين أصبحوا وطنيين مصريين تجمعهم رابطة الوطنية المصرية مع الشعب المصرى القبطى من خلال علاقات النسب والمصاهرة والدم المشترك واللسان والوطن المصرى الذى يحتضن الجميع بصرف النظر عن الدين والمعتقد الإيمانى.

هذه ملامح الهجرة البشرية العربية التى تختلف عن سابقتها الهجرة البشرية الأغريقية.. فإذا كانت الهجرة البشرية الأولى قد ذابت ملامحها فى مصر والمصريين فإن الهجرة البشرية الثانية قد طبعت ملامحها على مصر والمصريين بحيث باتت مصر تحمل على سورها الرحب ثالوثا - تاريخيا مقدسا يتجلى فى مصر الفرعونية القبطية العربية ذات اللسان العربى المبين لسان القرآن والذكر الحكيم إلى ما شاء الله.

ولكن هذه الهجرة العربية ما كانت تأتى إلى مصر وتسعى إليها بشغف ما لم تكن ضامنة ان يأتى إليها رزقها رغدا من زرع مصر وضرعها وصناعتها وتجارتها بواسطة الخراج والجزية من المصريين الأقباط لا من الرومان المحتلين ومن ثم تحولت مصر إلى مصدر للثروة والثراء للفتح العربى وعسكرته باعتبارها خزينة للمال ومخزناً للقمح وبقرة حلوب تدر الجزية والخراج من كد وعرق الشعب المصرى والقبطى.

فالخراج هو الضريبة العامة على الأرض وزرعها وضرعها وعلى الحرف الصناعية ومنتجاتها وعلى العقارات وما تغله.. والجزية هى ضريبة الرأس على المصريين الذين لم يدخلوا الإسلام مع العلم ان الخراج والجزية كان الشعب المصرى يجبر على دفعها للعسكرة الرومانية واحتلالها.

يقـول المقـريزى.. أول من جبى خراج مـصر فى الإسـلام عـمرو بن العاص ﷺ فكانت جبايته إثنى عشر مليون «ألف ألف» دينار يفرضه دينارين عن كل رجل. ثم جبى عبد الله بن أبى سـرح مصر أربعة عشر مليون «ألف ألف» دينار.. فقال عثمان بن عفان ﷺ لعمرو بن العاص.. يا أبا عبد الله درت اللقحة باكثر من درها الأول فرد عليه عمرو بن العاص قائلاً.. أضررتم بوليدها.

وهذا الذى جباة عمرو ثم عبد الله إنما هو عن الجماجم خاصة دون الخراج.. أى أنه الجزية.

وقال بن عبد الحكم. عن عبد الله بن لهيقة.. لما فتح عمرو بن العاص مصر صولح على جميع من فيها من الرجال ممن راهق الحلم إلى ما فوق ذلك ليس فيهم امرأة ولا صبى ولا شيخ. على دينارين ديتارين. فأحصوا ذلك فبلغت ثمانية آلاف ألف وفقا لتعليمات الخليفة عمر بن الخطاب التى تنص على أن الجزية لا تكتب إلا على من حرف عليه الموس.. وبشأن الجباية فقد أقر عمرو بن العاص الشعب المصرى على جباية الروم فكانت جبايتهم بالتعديل إذا عمرت القرية وكثر أهلها يزيد عليهم وإن قل أهلها وخربت نقصوا.. وكانت هذه الجباية السلطوية تجبى من الفلاحين والصناع المصريين بدون جدوى كما يقول المقـريزى.. وقال هشام بن أبى رقية اللخمى.. قدم صاحب إخنا على عمرو بن العاص فقال له...أخبرنا عما علينا من الجزية فنصير لها.. فقال عمرو وهو يشير إلى ركن كنيسة لو أعطيتنى من الأرض إلى السقف ما أخبرتك ما عليك. إنما أنتم خزانة لنا وان كثر علينا كثرنا عليكم.. وان خفف عنا خففنا عنكم.. ومن ذهب إلى هذا الحديث ذهب إلى ان مصر فتحت عنوة.

وكانت الجزية كما يقول بتلر نسبية ومندرجة حسب الأحوال الاجتماعية للإنسان المصرى.. وكان يعفى منها الرهبان المصريين ومن أسلم من المصريين.. ولما كانت الجزية قد اختلطت بالخراج أثناء عمليات الجباية فلم يتهيأ لأكثر المؤرخين تحديد مبالغ كلا منهما على حدة فى ظل عسكرة الفتح العربى ولهذا يقال ان الضرائب التى فرضتها العسكرة على المصريين هى كالآتى :

١ ـ الجزية التى تأخذ من كل مصرى بالغ الحلم ولم يدخل إلى الإسلام.

٢ ـ ضريبة مالية تتمثل فى الضرائب العقارية والضرائب الإدارية المحلية.

٣ ـ ضريبة الطعام وهى ضريبة عينية تؤدى قمحاً وشعيراً وزبيباً وعسلاً.

٤ ـ ضريبة تفرض على أصحاب الحرف والصناعات الصغيرة.

هذه لمحة على مجمل الضرائب التى فرضت على المصريين طوال عسكرة الفتح العربى والعهد الأموى حيث تتابع على مصر ثمانية وعشرين واليا حكموا نحو ١١٢ سنة تعرضت مصر وشعبها للنهب المتزايد يوكد ما كتبه الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك إلى أسامة بن زيد التنوخى متولى خراج مصر يقول.. احلب الدر حتى ينقطع واحلب الدم حتى ينصرم.

المصريون والعسكرة العربية

من المأثور عن عمرو بن العاص قوله فى جيشه وعسكرته.. حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله يقول.. «إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لكم فيها صهراً وذمة، فكفوا أيدكم وعفوا فروجكم. وعفوا أبصاركم..» هكذا كتب حسين فوزى فى كتابه سندباد مصرى.

إن هذا المأثور الطيب هو دستور علاقة العسكرة العربية بالمصريين الذى كان يتضمن حقوق الإنسان المصرى بعد الفتح العربى هذا الفتح العربى الذى لم يُسمى غزو مصر حيث كان القصد فيه إزاحة العسكرة الرومية البيزنطية بواسطة العسكرة العربية. ولهذا كانت الحرب بين عسكرة الروم والعسكرة العربية حرب بين جيشين هما جيش الروم الاحتلالى والاستيطانى وجيش العرب الفاتح دون مشاركة المصريين فى هذه الحرب.. كما لم يحاربوا من قبل إكتافيوس اغسطس الأمبراطور الرومانى الذى غزا مصر وطاح بالملكة كليوباترا البطلمية لأنهم لم يعتادوا ولم يألفوا الأعمال الحربية والعسكرية من جراء سجنهم سجنا مطلقا فى مجالات الزرع والضرع والحرف والصنعة واللاهوت التعبدى بواسطة الغزاة وبالتالى فإن فاقد الشىء لا يعطيه حيث لا يمارس الحرب إلا من عرف الحرب والقتال ولذلك فإن ثورة العبيد ضد الجمهورية الرومانية لم يبادر بها ويحققها عبيد الزرع والضرع والحرفة والصنعة ولكن الذى بادر بها وحققها العبيد المجالدون والمحاربون والمقاتلون بقيادة العبد السورى سبارتكوس.. يضاف إلى ذلك أن المصريين قد رأوا أن الحرب ضد الغزاة الرومان والعرب لا ناقة لهم فيها ولا بعير. ومع هذا فقد كتب بعض المؤرخين العرب بأن

الأقباط المصريين كانوا متواجدين بالحصون العسكرية للعسكرة الرومانية وهذا غير صحيح كما يقول بتلر الذى يرى ان هؤلاء القبط المصريين كانوا مجرد مساجين فى سجون المقوقس قائد العسكرة الرومانية الذى شن حرباً عنصرية ضد المصريين وكنيستهم الوطنية.. ولهذا فقد رحب المصريون بعسكرة الفتح العربى التى أطاحت بعسكرة الروم المحتلة والظالمة والعنصرية مما جعلهم يعطون للفتح العربى وعسكرته قلوبهم دون سيوفهم التى لم تكن موجودة أصلاً وهذا ما دفع عمرو بن العاص قائد العسكرة العربية إلى أخذ موقف عظيم الشأن تجلى فى اصدار أمر بالأمان إلى بنيامين بطريرك المصريين من خلال النداء التالى.. أينما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله. فليأت البطريرك إلى هنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته. وفى رواية أخرى تقول:

فليأت الشيخ البطريرك آمنا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين فى سواها لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة.

هكذا عاد البطريرك المصرى الوطنى بنيامين إلى حضن كنيسته الوطنية بعد هروبه الثورى فى برارى مصر وصحاريها كشكل من أشكال المقاومة الإيجابية حفاظا على المسيحية المصرية والكنيسة الوطنية طوال عشر سنوات فى عهد العسكرة الرومية بقيادة المقوقس وثلاث سنوات فى عهد الفتح العربى وعسكرته.

ولقد كانت عودة البطريرك بنيامين إلى كنيسته الوطنية بالاسكندرية تعتبر أكبر فرحة وطنية تشهدها مصر فى العصر القديم والوسيط حيث عاش المصريون جميعا فى أفراح مستمرة لعودة زعيمهم الدينى والوطنى وما ترتب على هذه العودة الميمونة من نشاط وتعمير للكنائس والأديرة القبطية فى الأرجاء المصرية حيث توفر المال اللازم لذلك، ومما يذكر ان عمرو بن العاص قائد العسكرة العربية قد استقبل البطريرك بنيامين استقبالا طيبا يليق بمقامه الدينى والوطنى حتى قال عمر ولا لأصحابه إننى لم أر يوماً فى بلد من البلاد التى فتحها الله علينا رجلا مثل هذا بين رجال الدين..

يقول بتلر.. حدث فى دير مقاريوس احتفال كبير للبطريرك بنيامين خطب فيه المعلم الأكبر بازل مطران نقبوسنى فقال بعد الترحيب بالبطريرك المصرى بنيامين أنه يشكر الله

على أن أنجاه من الكفرة وحفظ قلبه من ذلك الطاغية الأكبر.. يقصد المقوقس.. الذى شرده فعاد إلى أبنائه يراهم ملتفين حوله مرة أخرى.. ولقد رد البطريرك المصرى فقال كنت فى بلدى وهو الأسكندرية فوجدت بها أمناً من الخوف واطمئناناً من البلاء وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفره وبأسهم. وقد وصف قومه المصريين بأنهم فرحوا كما يفرح الأطفال اذا حلت قيودهم واطلقوا ليرتشفوا من لبان أمهاتهم وكتب.. حنا النقيوسى.. بعد الفتح العربى بخمسين سنة.. وهو لا يتورع من ان يصف العسكرة العربية بأبشع الأوصاف.. ولكنه يقول فى عمرو بن العاص.

أنه قد تشدد فى جباته الضرائب ولكنه لم يضع يده على شىء من ملك الكنيسة ولم يرتكب شيئا من النهب أو النصب. بل أنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر مدة فى حياته.

وكان أكبر مظهر من مظاهر تكريم وتقدير البطريرك المصرى بنيامين ما رواه بين عبدالحكم أن الخليفة عمر بن الخطاب طلب من عمرو بن العاص قائد العسكرة العربية فى مصر أن يستشير البطريرك بنيامين فى خير وسيلة لحكم مصر وجباية أموالها فأشار عليه البطريرك بالشروط التالية :

١ ـ ان يستخرج خراج مصر فى أوان واحد عند فراغ الناس من زرعهم.

٢ ـ أن يرفع خراجها فى آوان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم.

٣ ـ أن تحفر خلجاتها كل عام.

٤ ـ ان تصلح جسورها وتسد ترعها.

٥ ـ ألا يختار عامل ظالم ليلى أمور الناس.

هذه ملامح العلاقات الاجتماعية والإيجابية التى سادت بين المصريين فى ظل عسكرة الفتح العربى التى صاحبها وللأسف علاقات سلبية تبدو فى التشدد فى تحصيل الضرائب من المصريين إلى حد قتل أحد المصريين أخفى ثروته بأمر من عمرو بن العاص. كما يقول المقريزى بألاضافة إلى إشاعة السخرة فى صفوف الفلاحين المصريين لشق الترع والقنوات المائية.

ولكن اكبر السلبيات التى ارتكبتها العسكرة العربية حرق مكتبة الاسكندرية التى كانت تعتبر أعظم مكتبة فى العالم وان كان يقال آن حرق تلك المكتبة قد حدث قبل الفتح العربى.

إن هذه اللمحات من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والانسانية التى مارستها العسكرة العربية تجاه الشعب المصرى القبطى المضياف وغير المحارب لم تلتزم ولم تتطابق مع ميثاق الفتح العربى وعسكرته فى مصر.. ذلك الميثاق العربى الذى ألقاه عمرو بن العاص فى مسجده المشهور بالفسطاط فى خطبة يوم الجمعة من أيام عيد الفصح من سنة ٦٤٤ ميلادية حيث قال: واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيراً.. حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول.. «إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً. فإن لكم منهم صهرا» وفى رواية أخرى فإنهم أخوال وأصهار وحدثنى كذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول.. «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا منهم جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض».

فالعسكرة العربية عموماً لم تراع إلى حد ما إن المصريين أخوال وأصهار لأجناد العسكرة العربية وأفرادها وقبائلها التى استوطنت مصر بدليل التشدد فى الحصول على الخراج والجزية من الأصهار والأخوال المصريين الذين لم يكونوا طرفا فى الحرب بين الروم والفتح العربى.. كما لم تبادر العسكرة العربية بتجنيد المصريين وتجيشهم فى جيش العسكرة العربية سواء الذين أسلموا أو الذين لم يسلموا مما يعنى تعطيل وصية الرسول محمد ﷺ التى وصفتهم بالأصهار والأخوال المصريين بأنهم خير أجناد الأرض.

ومما يذكر ان علاقة العسكرة العربية مع المصريين فى ظل الظاهرة العمرية الفريدة ذات الدولة القوية والسوية والعادلة كانت علاقات طيبة يؤكد ذلك انتشار اللسان العربى بين المصريين مما جعل الكثير منهم يعتنق الإسلام دينا لما قرأوه من آيات الحرية فى الكتاب المبين ولما شاهدوه من عودة البطريرك الوطنى بنيامين وأحباره وأساقفته إلى كنائسهم وأديرتهم بعد هروبهم وتشردهم فى عهد المقوقس البطريرك الملكانى والحاكم الرومانى فى مصر.

ولكن هذه العلاقات تراجعت تراجعاً ملحوظاً فى ظل خلافة عثمان بن عفان وورثته الأمويين.. مع العلم ان العلاقات بين المصريين والعسكرة العربية كادت تعود إلى سيرتها الأولى وكادت تحقق الميثاق النبوى بشأن وصايا الرسول ﷺ شأن مصر والمصريين خلال خلافة الامام على بن أبى طالب الذى خط الميثاق الرائع بشأن تنظيم علاقة العسكرة

العربية بالمصريين الذى جاء فيه أن الناس طبقات كما يقول محمد عماره حيث حدد منهم الفلاحون أهل الزرع والضرع حيث قال بشأنهم لواليه على مصر الأشتر النخعى.

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله.. وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة.. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد. ولم يستقم أمره إلا قليلا. فإن شكوا ثقلا أو علة خففت عنهم بما ترجو ان يصلح من أمرهم فلا يثقلن عليك أى شىء إن خففت المؤونة عنهم.. وانما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها. وانما يعوز اهلها إسراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر.

وحدد ايضا طبقة التجار والصناع وستوصى بهم خيرا المقيم منهم والمضطرب بأمله.. أى المتجول فى البلدان والمترفق ببدنه على حد قول الدكتور محمد عماره.. فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجاء بها من المباعد والمكادح فى برك وبحرك وسهلك وجبلك حيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فتفقد أمورهم بحضرتك وفى حواش بلادك وأعلم مع ذلك ان فى كثير منهم ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع وتحكما فى البياعات. وذلك باب مقصرة للعامة، وعيب على الولاة، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله منع منه. وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل وأسعار لا تحجف بالفريقين. من البائع والمتباع. فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكل به وعاقبه فى غير اسراف.

كما حدد ذلك الميثاق العلوى الطبقة السفلى من المجتمع المصرى وهم الذين لا قدرة لهم على الكسب والعاجزين عن العمل من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والمرض وأصحاب العاهات والأيتام وكبار السن ونص على ضرورة تخصيص قدر من أموال الدولة لإعالتهم وعلى والى مصر أن يرعى أمرهم وشئونهم وان يخصص جزءا من وقته لسماع مظالمهم وشكاياتهم بعد ان يبعد عنهم جنوده وحراسه واعوانه حتى يتحدثوا للوالى بدون خوف ورهبة وحتى يتكلم المتكلم منهم غير متخوف حيث يقول الإمام على فى ميثاقه هذا فاننى سمعت رسول الله يقول فى غير موطن.. لن تقدس أمه لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متعتع.

وأروع مـا ورد فى سطور ذلك الميثاق العلوى بشأن مصر والمصريين هو آداب تحصيل الخراج من المصريين ومراعاة السلوك الإنسانى والأخلاقى خلال ممارسة وظيفة تحصيل الخراج حيث يقول الميثاق لموظفى الخراج.. انصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم إذا حل أجل خراجهم ولم يتيسر لهم الآداء. فإنكم خزان الرعية. ولا تحشموا أى تغضبوا أحدا عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته. ولا تبيعن الناس فى الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يفلحون عليها. ولا تضربن احداً سوطا لمكان درهم ولا تمسن مال أحد من الناس. مصل ولا معاهد إلا ان يجدوا فرسا أو سلاحا يعدى به على أهل الإسلام..

ويطلب الميثاق العلوى من عامل الخراج ان لا يفزع الناس ولا يروعهم ولا يظهر لهم الكراهة.. وإذا دخل لجباية ضرائبه فلينزل بعيدا عن موضع أموال الناس ولا يذهب إلى مكان ثرواتهم إلا بإذنهم ودعوتهم. ولا يطلب خراجا إلا ممن يقترف راضيا بأن لديه النصاب الذى يحسب فيه الخراج وعند القسمة وتحديد نصيب بيت المال. يقسم عامل الخراج ويدع الاختيار لصاحب المال.

إن ذلك الميثاق العلوى الذى أصدره الإمام على بن ابى طالب باعتباره ميثاقا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وانسانيا للعسكرة العربية فى مصر قد تعرض للاغتيال على حدود مصر مع اغتيال حامله الفارس الشجاع الأشتر النخعى والى مصر فى عهد الخليفة الامام على بن ابى طالب الذى اغتاله معاوية بن أبى سفيان بواسطة وجبة طعام كان غموسها من العسل المسموم.. ثم أغتيل ذلك الميثاق مرة أخرى باغتيال صاحبه الامام على بن أبى طالب فى الكوفة.

ومن هنا توحشت العسكرة العربية فى العهد الأموى الذى لم يراع تداول اللسان العربى بين المصريين واعتناق بعضهم للإسلام مما جعلها تتخذ شعاراً يقول.. احلب الدر حتى ينقطع.. واحلب الدم حتى ينصرم.

وفى مواجهة ذلك الاستغلال التى مارسته العسكرة العربية الأموية التى حكمت مصر من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٧٥٠ تفجرت الثورية الكامنة لدى المصريين الأقباط بسبب زيادة الخراج مما أدى إلى اشتعال صراعهم الوطنى والطبقى يقول المقريزى.. وفى امرة الحر بن يوسف أمير مصر كتب عبد الله بن الحجاب صاحب خراجها إلى هشام بن عبد الملك بأن أرض

مصر تحتمل الزيادة فزاد على كل دينار قيراطا فانتفضت قرية بنو ونحى وقربيط وطرابيه وعامة الحوف الشرقى فبعث إليهم الحر بأهل الديوان فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير وذلك أول انتفاض القبط بمصر. ثم انتفض أهل الصعيد واهل سمنود واهل رشيد واهل سخا وقرى شبرا وسنباط والبشر والبشرود والنجوم وقتلوا من عساكر العسكرة العربية الأموية الكثيرين.

ان هذه الانتفاضات الشعبية تثبت ان الشعب المصرى يحظى بثورية كامنة تتفجر بشكل عفوى إذا ما توافرت أسباب انفجارها وكان من الممكن ان تتفجر بشكل صارخ ومتزايد لوان ذلك الشعب العظيم قد احترف حرفة العمل القتالى والحربى والعسكرى فى زمن الغزاة.

ولكن الشعب المصرى وقتئذ كان شعباً فالحاً صانعاً عابداً وليس شعباً محارباً ولهذا كان بينه وبين العسكرة العربية صلح ملحوظ يؤكد ذلك رواية ان البطريرك المصرى بنيامين سأل عمر بن الخطاب فقال :

١ - الا تبذل للروم من شروط الصلح مثل ما بذلت لى.

٢ - الا تسئ والى القبط لان نقض العهد لم يأت من قبلهم.

٣ - إذا مت فأمر بدفنى فى كنيسة القديس يوحنا.

وكان ذلك بمناسبة عوده العسكرة الرومية إلى الأسكندرية واحتلالها وطرد العسكرة العربية..

عسكرة الشراسة التركية

لقد سقطت العسكرة العربية والأموية فى مصر وغيرها من بلاد الخلافة الأموية وذلك دون ان تسقط ثلاثة أسماء من قادة العسكرة العربية أولهم الخليفة العادل عمر بن الخطاب الذى استشار البطريرك القبطى بنيامين اكثر من مره وثانيهم الامام على بن أبى طالب وميثاقه للمصريين وثالثهم عمرو بن العاص الذى عرف مصر وشعبها خلال ممارسته التجارة مما جعله يجادل عن المصريين فى مسألة الخراج ويدفع عسكرته العربية إلى معاملتهم معاملة طيبة يؤكد ذلك دعوته للبطريرك المصرى القبطى بنيامين للعودة إلى كنيسته الوطنية بعد هروبه وتشرده.

وجاء السقوط على يد العسكرة العباسية ذات الطبيعة العربية والفارسية والتركية فى سنة ٧٥٠ ميلادية يقول السيوطى:

فى دولة بنى العباس انقرضت كلمة الإسلام وسقط اسم العرب من الديوان وأدخل الأتراك فى الديوان واستولى الديلم ثم الأتراك وصارت لهم دولة عظيمة وانقسمت ممالك الأرض من عدة أقسام وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر.

هكذا كانت العسكرية التركية الشرسة والعنصريه التى انبثقت من عسكرة العباسيين التى تبوأ خلافتها الأولى أبو العباس المشهور بالسفاح يقول السيوطى عنه انه كان سريعا إلى سفك الدماء فاتبعه ذلك عماله فى المشرق والمغرب وكذلك فى مصر ايضا وكان السفاح يقول عن نفسه أنا السفاح المبيح والثائر المبير وفور وصول السفاح إلى السلطة وظف عسكرته الوحشية والدموية فى نبش قبور الخلفاء الأمويين واخراج رفاتهم وجلدها وصلبها لأول مرة فى التاريخ السلطوى.. وفى جمع الأمويين وقتلهم بالجملة وخلال احتضارهم فرشت الأبسطة على أجسادهم المنتفضة والذبيحة واقيمت الموائد الشخصيات العسكرة العباسية الجديدة بينما كانت أجساد القتلى تنتفض وتحتضر على مسمع ومرأى الآكلين ومنهم الخليفة السفاح العباس الذى قال بفخر ووحشية ووقاحة انها ألذ وجبة طعام تناولتها.

وخلفة أخاه أبو جعفر المنصور الذى قتل خلقا كثيرا فهو الذى ضرب الامام أبو حنيفة ثم سجنه ومات فى السجن وقتل قائده العسكرى الفذ أبو مسلم الخرسانى الذى هزم جيوش الدولة الأموية لصالح الدولة العباسية كما قتل بن المقفع قتلة شنيعة حيث أمربقطع ذراعية وشيهما بالنار واجباره على أكل لحمه المشوى حتى مات.

هكذا كان الخليفة السفاح واخوه الخليفة المنصور يمثلان رموز وحشية العسكرة العباسية التى بادرت بتغليب العساكر الاتراك على العساكر العرب وكثر ولاتها على العسكرة العباسية فى مصر فتولى للمنصور العباسى ثمانية وللمهدى تسعة وللرشيد ثلاثة وعشرون وللمأمون سبعة عشر واليا. وقد تميزت تلك العسكرة العباسية ذات الطبيعة التركية والعنصرية بعدم توظيف الكتبة من المصريين الأقباط وطردهم من وظائف الديوان حتى ان الخليفة المهدى العباسى أمر بقطع يد كل من يوظف شخصا نصرانيا فى مصر.

وأخطر ما فعلته العسكرة العباسية والتركية فى مصر فى القرن العاشر الميلادى يتمثل فى الشروط العنصرية والاستبدادية بشأن الجزية التى تحدث عنها بتلدد ونقلها عن الماوروى الذى قسم هذه الشروط إلى مستحق ومستحب أما شروط المستحق فهى :

الأول: أن لا يذكر كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له.

الثانى: ان لا يذكر رسول الله ﷺ بتكذيب له ولا إزدراء.

الثالث: ان لا يذكروا دين الإسلام بذم له ولا قدح فيه.

الرابع: ان لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح.

الخامس: أن لا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دينه.

السادس: ان لا يعينوا أهل الحرب ولا يؤذوا أغنياءهم.

وأما شروط المستحب فهى :

- تغيير هيآتهم بلبس الغيار وشد الزنار.
- ان لا يعلوا على المسلمين فى الأبنية ويكونوا إن لم ينقصوا مساويين لهم.
- أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم ولا قولهم فى عزير والمسيح.
- ان لا يجاهروهم بشرب خمورهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم.
- أن يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروهم بندب عليهم ولا نياحة.
- ان يمنعوا من ركوب الخيل. ولا يمنعون من ركوب البغال والحمير.

وذكر ابو يوسف الفقيه العباسى أنه فى وقت جباية الجزية كانت تختم رؤوس أهل الذمة وذلك حتى يفرغوا من غرضهم.

ومن جراء ذلك الاستبداد العنصرى فى تحصيل الخراج تفجرت الثورات المحلية للأقباط المصريين والعرب المستوطنين يقول المقريزى فلما كان فى جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين انتفض أسفل الأرض بأسره يعنى الوجه البحرى غرب البلاد وقبطها وأخرجوا المال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة السلطان فيهم.

ولذلك اضطر الخليفة المأمون العباسى إلى الحضور إلى مصر لقيادة عساكره وعسكرته حيث سخط على قائد عساكره وحل لواءه وقال له.. لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس مالا يطيقون وكتمتنى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد.. يقول المقريزى ثم عقد المأمون على جيش بعث به إلى الصعيد. وارتحل هو إلى سخا وبعث بالأفشين أى قائده التركى إلى القبط وقد خلعوا الطاعة فأوقع بهم فى ناحية البشر وحصرهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين فحكم فيهم المأمون بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال فسبى اكثرهم..

وهذا لم يحدث فى مصر من قبل..

وان ما حدث كان بسبب الخراج الذى بلغ مقداره فى عهد المأمون أربعة آلاف ألف دينار ومائتى ألف دينار وسبعة وخمسين ألف دينا، وبعد خلافة المأمون زاد من تراجع العسكر العرب فى العسكر العباسية مما أدى إلى تغليب العساكر الترك تغليبا مطلقا حيث ترتب على ذلك سيادة العسكرة التركية التى انبثق منها الدولة الطولونية وعسكرتها المستغله فى سنة ٨٦٨ ميلادية ثم الدولة الاخشيدية وعسكرتها المستقله ايضا عن دولة الخلافة العباسية فى بغداد فى سنة ٩٣٥ ميلادية.

كل هذه التطورات والتغييرات قد حدثت على ضفاف النيل دون ان يشترك فيها الإنسان المصرى سواء كان هو ابو شادوف المسلم المصرى أو بو عوكل المصرى المسيحى والقبطى بسبب اجباره على الابتعاد عن صنعة العسكرة وحرفة الحرب والقتال مما جعل أرضه مباحة ومنهوبة للعسكرة والعساكر من كل صنف ولون ولذلك كان الإنسان المصرى غريبا فى أرضه مجبرا على الانتاج ومحروما من استهلاك ما ينتجه فى ظل عسكرة سائده ومتفشية إلى درجة انشاء مدينة تسمى بالعسكر.

. ولما كان هدف هذه العسكره نهب الشعب المصرى فإن ثروة أحمد بن طولون الذى جاء من العراق وحكم مصر بعساكره التركية والشركسية بلغ مقدارها عند وفاته كالآتى :

مبلغ عشرة ملايين دينار ومن المماليك ٧٠٠٠ ومن الغلمان ٢٤ ألف غلام، قد بنى لهم مدينة القطائع ومن الخيل ٧٠٠٠ ومن البغال والحمير ٦٠٠٠، وقالوا انه كان يدخر فى كل

يوم مليون دينار.. وربما كانت هذه الثروة مبالغ فى تقديرها إلا ان نفقات فرح حفيدته قطر الندى بنت خمارويه على المكتفى الخليفة العباسى تثبت حقيقة ذلك الثراء المنهوب من المصريين حيث جهزها والدها جهازاً ضاهى به نعم الخلافة كما يقول المقريزى فلم يبقى خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس الا حمله معها فكان من حملته دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لا يعرف لها قيمة ومائة هون من ذهب ـ كما أن خمارويه قد بنى لمحظيته بوران بيتا من ذهب.

هذه الثروات الخرافية جاءت من كد الشعب المصرى وعرقه حيث انتزعتها العسكرة التركية وعساكرها الكثيرة يقول المقريزى:

فانقرضت دولة العرب فى مصر وصار جندها العجم والموالى من عهد المعتصم إلى ان ولى الأمير احمد بن طولون مصر فاستكثر من العبيد وبلغت عدتهم زيادة على أربعة وعشرين الف غلام تركى وأربعين الف أسود وسبعة آلاف مرتزقة. فلما كانت إمارة الأمير ابو بكر محمد بن طغج الاخشيد على مصر زادت عسكرته وبلغ عدد عساكره بمصر والشام أربعمائه ألف تشمل على عدة طوائف. ثم ان الاستاذ ابا المسك كافور الاخشيدى استجد عدة من السودان فى أيام تحكمه بمصر.

وهنا نكرر ونعيد مؤكدين ان الشعب المصرى المسلم والمسيحى لا شأن له بالعسكرة وعساكرها حيث ظل شعبا كادحا منتجا لغيره من الحكام الغزاه وعسكرتهم وعساكرهم التى تتبدل وتتغير والآتية من كل فج عميق.

عسكرة السيف والذهب

بينما كان المصريون مشغولين فى زرعهم وحرثهم وتربية أنعامهم وتأدية حرفهم ومهنهم وممارسة عبادتهم فى المساجد والكنائس، فإذا هم يفاجئون بعسكرة غازية تأتيهم من جهة الغرب على غير العاده بهدف مباغتة العسكرة الأخشيديه الحاكمة وطردها والحلول محلها فى احتلال مصر واستيطانها.. ومن ثم عرف المصريون أنها عسكرة الفواطم وعساكرهم بقيادة قائدهم جوهر الصقلى.. ومن ثم ظل المصريون فى مطارحهم يتفرجون على العسكرة الجديدة وعساكرها الكثيرة التى حطت بمصر سنة ٩٦٩ ميلادية حيث تعرفوا عليها وعرفوا

صاحبها المعز لدين الله الفاطمى وانها عسكرة الفواطم الآتية من بلاد المغرب يقول بن إياس:

ولما تولى المعز على مصر قام لها حرفة واستكثر فيها من العساكر ما بين كتانة وروم وصقالبة ومغاربه وعبيد سود وطائفة يقال لهم زويلة حتى قيل لم يطأ الأرض بعد جيوش الاسكندر المقدونى اكثر من عساكر المعز الفاطمى.

وبلغ خراج مصر فى أيامه ألف ألف دينار ومأتى ألف دينار وكان خراجها قد انحط قبل ذلك للغاية فجدد بها الأمير جوهر ما فسد من جسور وقناطر.

وقيل لما دخل المعز إلى مصر. سأله ابن طبطابا العلوى عن نسبه فجذب نصف سيفه من غمده وقال هذا نسبى ثم احضر اكياسا فيها ذهب وفرقها على الجند وقال هذا حسبى.

ويقال إن العسكرة الفاطمية زحفت على مصر بقصد إعزاز المصريين وحمايتهم والجهاد عنهم. ونشر الأمن وتأمين طريق الحج الذى تعطل بسبب غارات القرامطة الشيوعيين الذى كان يقودهم الثائر الشيوعى الأحمر احمد بن قرمط الذى كان فلاحا عراقيا وقاد جيشا بفرض اقامة ولايات شيوعية للكادحين كما كانت عسكرة الفواطم كما تدعى تهدف ايضا إلى معالجة الحالة الاقتصادية فى مصر وتجديد السكة وتنظيم أمور المواريث.. وترميم المساجد وتزيينها بالفرش والإيقاد وان تصرف للمؤذنين وقوة المساجد أرزاقهم من بيت المال. وان تكفل الحرية الدينية للمصريين يمتنقون المذهب الذى يريدون ويؤدون فرائضهم فى المساجد فى حرية تامة.

ولقد حققت العسكرة الفاطمية أهدافها تقريبا وذلك بالاضافة إلى بناء جامع الأزهر ومدينة القاهرة ومكتبة الأزهر وزادت الزراعة وراجت التجارة والصناعة.

وقد لوحظ ان القاهرة والأزهر والمنشآت المعمارية الهامة قد شيدت بواسطة العسكرة الفاطمية وقائدها العسكرى جوهر الصقلى وان كبير وزراء هذه العسكرة وهو اليهودى يعقوب بن كلس الذى قد أسلم وكان بجانبه عدد من الوزراء المسيحيين.

ولما مات جوهر الصقلى ترك ثروة خرافية جمعها من نهب الشعب المصرى كانت مفرداتها من الذهب الفين وستمائه ألف ألف دينار ومن الدراهم أربعة آلاف درهم ومن اللؤلؤ الكبار والياقوت أربعة صناديق مجلدة ومن القصب الزمرد ألف قصبة ومن الثياب

الديباج خمسة وسبعين ألف قطعة ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع وهى مرصعة بالدر والياقوت فقوّم ما عليها من الجواهر باثنى عشر الف دينار.. ووجد عنده لعبه من المسك والعنبر الخام فكان إذا نزع أثوابه ألبسها عليها ووجد فى داره مائة مسمار من الذهب على كل مسمار منها عمامه لون. ووجد عنده من المعالق الذهب والفضة ألف معلقة ووجد عنده عشرة آلاف زبدية صينى ومن الأوانى البللور مثلها ولمامات خلفه فى الوزارة وقيادة العسكرة الفاطمية ترك ثروة مماثلة ولهذا كانت العسكرة الفاطمية رغم اصلاحاتها نهابه ومستبدة ايضا يؤيد ذلك ان الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله كان يتولى بنفسه وظيفة الحسبة بالقاهرة حيث كان يلبس جبه من الصوف الأبيض ويركب على حمار أشهب قدر بغل يسمى القمر ويطوف أسواق مصر والقاهرة ومعه عبد أسود طويل عريض يمشى فى ركابه يطلق عليه مسعود فإذا وجد احدا من السوقه غش فى بضاعته أمر ذلك العبد الأسود مسعود بأن يفعل به الفاحشة العظمى وهو اللواط فيفعل به على دكانه والناس ينظرون إليه حتى يفرغ من ذلك والحاكم واقف على رأسه وقد صار مسعود هذا مثلا عند أهل مصر. إذا مر بعضهم مع بعض يقولوا أحضر له مسعود وفيه يقول القائل :

إن لمسعود آله عظمت ... كأنها فى صفات طومار

تشق أدبار من لهم جرم ... أصعب من دره بمسمار

. هكذا كان يهان الإنسان المصرى ويتعرض للقتل بالجملة والقطاعى ويزيد ابن اياس على ما قال بشأن الاستبداد وجنونه فى أيام العسكرة الفاطمية فيقول ان الخليفة الظاهر الفاطمى قتل ألفين وستمائة وستين جارية حرقا بالنار مرة واحدة.. كما قتل عدداً من العلماء ومن جراء تفشى الفساد والاستبداد بواسطة العسكرة الفاطمية انتشرت المجاعات التى استقرت سبع سنوات حيث أكل الناس بعضهم بعضا وأكلت الناس الميتة والكلاب والقطط حتى قيل ان الكلب بيع بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير وهلك ثلث المصريين من الجوع فى كل عسكرة سيف المعز وذهب المعز التى بدأت تتدهور رويدا رويدا فى سنواتها الأخيرة حيث حكمت مصر حكما مذهبيا فاطميا شيعيا من سنة ٩٦٩ إلى ١١٧١ ميلادية.. وفى آخر أيامها هاجم الفرنج الأوروبيون مدينة دمياط بعسكرة بحرية وبرية زحفت على مصر مما اضطر الخليفة الفاطمى ان يستنجد بعسكرة الدولة النورية السنية التى حضرت

إلى مصر بجيش كبير كان من بين قادته اسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى الذى قاد انقلابا عسكريا ومذهبيا على العسكرة الفاطمية ودولتها فى مصر سنة ١١٧١ ميلادية دون ان يتدخل الشعب المصرى كعادته فى ذلك الانقلاب العسكرى وما ترتب عليه من حرب بين عسكرة العواصم الشيعية وعسكرة الأيوبيين السنية بل ظل متفرجا على عسكرة مهزومة وعسكرة منتصرة.

العسكرة القراقوشيه والأيوبية

فوجئ الشعب المصرى بحرب عسكرية شرسة تدور رحاها بين عسكرة الفواطم وعساكرها من الروم والصقالية والسودانيين وبين عسكرة الأيوبيين وعساكرها الأكراد فى قلب القاهرة حيث بادر صلاح الدين الأيوبى بتحقيق انقلابه العسكرى فأصبح رئيسا للوزارة الفاطمية مما مكنه من الإطاحة بالحكم الفاطمى، يقول ابن إياس.

فيما بلغ الناصر صلاح الدين بن ايوب ان جماعة من أعيان القاهرة ومن جملتهم عمارة اليمنى الشاعر اتفقوا على إعادة الدولة الفاطمية فلما تحقق صلاح الدين ذلك أمر بشنقهم.. ثم قبض على مؤتمن الجيش من أنصار الخلافة الفاطمية. فقتله. فلما قتل ثارت على صلاح الدين العبيد الذين كانوا بمصر وكان عددهم خمسين ألف عبد من أجناس شتى.

ويقول على باشا مبارك وقد انضم إليهم الكثير من الأنصار ولكن الأيوبيين الأكراد وجنودهم الغز تمكنوا من هزيمة الفواطم واتباعهم وتمكن صلاح الدين من الديار المصرية وصار هو الحاكم المستبد وتتبع عساكر الفواطم وأخذ دور أمرائهم واقطاعاتهم فوهبها لأتباعه وبعث إلى أبيه واخوته فقدموا إليه من الشام ومما يذكر ان الأيوبيين الأكراد كانوا يمثلون ذروة العسكرة المحترفة والمرتزقة فى العراق وحلب والشام حيث كانوا يعتبرون الصفوة العسكرية المحترفة لحكام هذه البلاد مما جعلهم يقدمون لهم خدمات عسكرية وأمنية فى حرب الداخل وفى حرب الخارج فى هذه البلاد ولهذا حضروا إلى مصر لمساعدة الخلافة الفاطمية فانقلبوا عليها انقلابا عسكريا دمويا مكنهم من حكم مصر فى سنة ١١٧١ ميلادية.

وقد استهلت عسكرة صلاح الدين حكمها بإغلاق الأزهر وتعطيل دروسه وحرق مكتبته وغير صيغة الآذان وصيغة خطبة الجمعة كما كان يعادى الفلسفة حيث قتل الفيلسوف

السهرودى أستاذ الفقيه الإسلامى المشهور العز بن عبد السلام.. ويبدو ان قتل الفيلسوف السهرودى ليس بسبب تجلياته الصوفية ولكن بسبب علاقته بالثوار القرامطه الشيوعيين.. مثلما قتل بنفس السبب الحلاج عميد الصوفيه العربية.

ولما كانت العسكرة الأيوبية ذات طبيعة استبدادية فقد أفرزت القراقوشيه كظاهرة سلطوية فى إدارة مؤسسات العسكرة الأيوبية فى مواجهة الشعب المصرى الزارع والصانع.. والظاهرة القراقوشيه كمنهج استبدادى ينتسب إلى أحد امراء الحرب الأيوبيين اسمه بهاء الدين قراقوش الذى كان بمثابة وزير الوزراء لعسكرة صلاح الدين الأيوبى فهو الذى سخر المصريين فى بناء القلعة ونقل أحجارها ولو استطاع ان يهدم أبا الهول والأهرام ونقل أحجاره لفعل ويقال انه قد سخر خمسين ألف شحص فى بناء سور القاهرة والقلعة لكى تتحصن فيها العسكرة الأيوبية ضد الشعب المصرى.. هكذا شيد قراقوش عميد العسكرة الأيوبية ومهندسها الإدارى والمعمارى كعبة العسكرة والاستبداد فى مصر التى ظلت كعبة للعسكرة والاستبداد طوال العصر الوسيط والعصر الحديث حيث قتل وسجن بداخلها آلاف لآلاف من المصريين وغيرهم.

وأخطر ما فعلته العسكرة الأيوبية بقيادة قراقوش تقسيم مصر كلها إلى اقطاعات عسكرية بحيث هيمن الاقطاع العسكرى على مجمل الزرع والضرع فى مصر كلها.

يقول الدكتور إبراهيم على طرخان نقلا عن القاضى الفاضل.. استمر صلاح الدين فى النظر فى أمور الاقطاعات ومعرفة غيرها إلى أن استقرت العدة على ٦٤٨ ألف فارس. والمستقر لهم من المال ثلاثة ملايين وستمائة ألف ديناراً.. ويقول المقريزى .. وأما منذ كانت أيام صلاح الدين بن أيوب إلى يومنا هذا فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وامرائه وأجناده.

ويقول القلقشندى فى عهد الأيوبين كانت تجرى الأرزاق على نوعين من الاقطاعات وتجرى فى مصر على الأمراء والجند.. وجرت العاده. ان يقدر دخل البلاد على أساس التقدير والتخمين وتوزع البلاد إقطاعات بين السلطان وأمرائه وأجناده.. وعندما تصارع الأيوبيين مع بعضهم البعض كان الإقطاع العسكرى والحربى وسيلة للرشوة لجلب الأنصار.

والجدير بالذكر ان العسكره القرقوشيه الأيوبيه قد عسكرت الحياة المصرية إلى حد أن النقود قد تم عسكرتها حيث ظهر الدينار الجيشى الذى كان يستخدمه ديوان الجيش فى تقدير إيرادات مختلف الإقطاعات الزراعية التى تم تعميمها على ضباط الجيش وعساكره.. وذلك بالاضافة إلى تشييد مدن عسكرية للعسكرة الأيوبية مثل مدن المنصورة والصالحية والعادلية لإقامة الأمراء العسكريين والاجناد.

وبجانب تفشى الاقطاع الحربى والعسكرى فى الأراضى الزراعية المصرية فقد ارتكبت العسكرة الأيوبية ذنبا لن يغفر لها حيث فتحت باب مصر للهجرة البشرية المغولية وذلك من خلال شراء المماليك وجلبهم إلى مصر يقول ابن إياس.. ان الملك الصالح نجم الدين أيوب هو أول من جلب المماليك الأتراك إلى مصر حتى ضاقت بهم القاهرة وصاروا يشوشون على الناس وينهبون البضائع من فوق الدكاكين فضج الناس منهم وكثر الدعاء على الملك الصالح الأيوبى بسببهم وقال قائل :

الصالح المرتضى أيوب اكثر من ... ترك بدولته يا شر مجلوب
لا سامح الله ايوباً بفعلته ... فالناس قد أصبحوا فى صبر ايوب

وبواسطة هؤلاء المماليك الجلبان زادت سطوة الملك الصالح الأيوبى حيث قوى ودعم بهم عسكرته التى باتت عسكرة أيوبية مملوكية متوحشة لما ارتكبته من أهوال كان منها قتل الملك العادل «الثانى» الأيوبى الذى كان فى السجن وقد قتل من غير ذنب بأمر من شقيقه الملك الصالح الأيوبى ومن جراء مظالم العسكرة الأيوبية واقطاعاها العسكرية وعدم زيادة مياه النيل وقع القحط وانتشرت المجاعات وعدمت الأقواب ولهذا قال ابن إياس فصار الناس من شدة الجوع يأكلون الكلاب والقطط والحمير والبغال والخيل والجمال حتى لم يبق بمصر دابة تلوح ثم تزايد الأمر حتى صار الرجل يذبح ابن جاره أو عبده أو جارته ويأكلهم ولا ينكر عليه ذلك وقد تناهى سعر القمح فى أواخر هذه السنين المجدبة إلى مائة دينار كل أردب ولا يوجد تلك هى العسكرة الأيوبية التى انبثقت فيها ظاهرة القراقوشيه وأهوالها التى تصدى لها الكاتب المصرى ابن مماتى فكتب فيها كتابه المشهور الفاشوش فى حكم قراقوش ويبدو ان ابن مماتى كان وراء الاشاعات التى كانت تقول.. ان قراقوش كان يمارس القضاء بجانب وظائفه الأخرى حيث عرضت عليه قضية اعتداء مصرى مسلم على مصرى مسيحى بفقأ إحدى عينيه فأصدر قراقوش حكما قضائيا يقضى بأن عين المسلم تساوى عينين للمسيحى

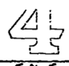
وعلى المصرى القبطى ان فقأ عينا واحدة للمصرى المسلم أخذاً بثأره أن تفقأ عينه الثانية..
وفى قضية امرأة مصرية اعتدى عليها رجل بالضرب الذى أدى إلى اجهاضها فاصدر قراقوش حكما قضائيا يقضى على الرجل الذى أفرغ هذه المرأة من حملها عليه ان يعيد إليها حملها كما أفرغها.

ولقد كانت هاتان الشائعتان تعبران عن مدى ضيق الشعب المصرى الفالح والصانع والكادح عن سخطه على مظالم العسكرة الأيوبية والقرقوشية وهذه عادة الشعب المصرى فى ترديد الاشاعات والنكات ضد حكاية الظالمين حتى يومنا هذا وذلك تعويضا عن عدم مقاومتهم واعلان الحرب عليهم.

هكذا مارست العسكرة القرقوشية الأيوبية استبدادها وحكمها للشعب المصرى من عام ١١٧١ إلى عام ١٢٥٠ ميلادية حتى سقطت على يد المماليك البحرية وعسكرتهم الذين قد جلبوا لتدعيم سطوتها وتسلطها على المصريين وفى مواجهة اعداء الأيوبيين حيث لعبت هذه العسكرة المملوكية دوراً هامة فى هزيمة الصليبيين فى معركة المنصورة التى قامت خلال حكم الملك الصالح ايوب وخلفه ولده توران شاه الأيوبى الذى لم يمكث ملكا للعسكرة الأيوبية إلا شهور معدودات حيث قتله مماليك أبيه بتدبير من زوجة أبيه المملوكة الأرمنية شجرة الدر ومن هنا انبثقت العسكرة المملوكية بقيادة الملكة شجرة الدر مما أدى إلى زحف الهجرة البشرية والمغولية على مصر باعتبارها آخر الهجرات البشرية التى استوطنت مصر وحققت سلطانها وعسكرتها الشرسة والمظلمة.

ومن هنا تكون قد عرضنا ملامح الهجرة البشرية العربية وتوابعها وما تلاها من عسكرة فى إثر عسكرة إصطلى بنارها وجحيمها الشعب المصرى مما أدى إلى نهب أرضه وإهدار عرضه ودمه وشخصيته الإنسانية من سنة ٦٤٠ ميلادية إلى سنة ١٢٥٠ ميلادية أى ستمائة وعشرة أعوام عاش خلالها غريباً ومغترباً فى زرعه وضرعه وحرفته وصفته يكدح وينتج ولم يظفر منها إلا بلسان وقرآن ومع هذا فقد وقف صامتا يتفرج على ذهاب عسكرة ومجئ عسكرة أخرى وهزيمة عسكرة وانتصار عسكرة أخرى مما جعل ماضية وحاضرة ومستقبله عساكر فى عساكر قطعوا اللسان العربى وأسكتوه وأخرسوه وغفلوا عن القرآن وتناسوه أى تناسوا آياته البينات الداعية إلى الخبز والحرية لكل الناس وكل البشر.

■■■



حكم العكسر
فى مصر المحروسة
من الدولة الفرعونية
حتى حكم مبارك

الهجرة البشرية الثالثة

هجرة مغولية عسكرية متوحشة

- الهجرة المغولية عسكرة وفحش
- عسكرة السيف والقبقاب
- عسكرة وألقاب واقطاعيات ومجاعات
- العسكرة التى باضت الفساد
- عسكرة قتل وتعذيب
- عسكرة الخازوق والمشنقة
- عسكرة المماليك والعثمانلية
- إن كان ذراعك عكسرى اقطعه
- الذل مصرى الجنسية

الهجرة المغولية عسكرة وفحش

لقد ظل الإنسان المصرى مكروباً فى زرعه وضرعه ومهموماً فى حرفته وصنعته حيث ينتج ويعرق ويكدح لإطعام عساكر لا يحصى عددهم عساكر تفوق كثرتهم كثرة بغاث الطير فوق المستنقعات. عساكر لا حرفة لهم إلا الغدر والنهب وسفك الدماء. عساكر لا يحملون قلوبا أو عقولا بل يحملون سيوفا لامعه. عساكر من كل الملل والنحل والأديان المختلفة. عساكر من كل لون وجنس منهم المغولى والرومى والصقلى والبربرى والسودانى والتركى والكردى والتركمانى والشركسى. عساكر تسودهم غرائز وحشية وحيوانية منحطة. عساكر يغدر بعضهم ببعض ويقتل بعضهم بعضا ويشهرون سيوفهم على بعضهم البعض بقصد الغلبة. كما يشهرونه دوما ضد المصريين بغرض النهب والسلب وهتك العرض. عساكر استوطنت مصر رغم أنف أهلها هؤلاء العساكر الذين هبطوا على مصر كليل معتم وجراد منتشر.. جلبوا إلى مصر فى أول الأمر كجنود مرتزقة بواسطة العسكرة الطولونية والأخشيدية والفاطمية والأيوبية حيث سكنوا فى مدن عسكرية خاصة مثل مدينة العسكر وجزيرة الروضة بالقاهرة مما جعلهم يشكلون بدايات الهجرة البشرية الثالثة.. أى الهجرة المغولية التى اجتاحت مصر.

ومن هذه الهجرة البشرية المغولية ذات الطبيعة العسكرية طفحت عسكرتها المملوكية المشتعلة. هذه العسكرة التى وظفها الملك الصالح الأيوبى فى قتل شقيقة الملك العادل الثانى الأيوبى وفى حروبه وبالذات حرب الصليبيين فى المنصورة.

وفور وفاة الملك الصالح الأيوبى انقلبت العسكرة المغولية على الحكم الأيوبى من خلال

قتل ولده وولى عهده الملك توران شاه الأيوبى.. ومن ثم حققت تلك العسكرة استقلالها التام وسلطتها السياسية المستقلة من خلال حكم المماليك البحرية تحت قيادة الملكة أم خليل شجرة الدر فى سنة ١٢٥٠ م حتى سنة ١٣٨٢ ميلادية أى مائة وثلاثين سنة حيث قامت وانتهت عسكرة دولة المماليك البحرية.. ثم حلت محلها دولة المماليك الجراكسة (الشراكسة) وعسكرتها من سنة ١٣٨٢ حتى سنة ١٥١٧ ميلادية أى مائة وخمسة وثلاثين سنة وقد بلغ عدد سلاطين المماليك البحرية والجراكسة ٤٩ سلطانا كلهم من العساكر المملوكية ٢٤ للعسكرة المملوكية الأولى و٢٥ للعسكرة المملوكية الثانية.

وكل سلطان من هؤلاء وكل أمير من أمرائهم العساكر يملك المئات والألوف من المماليك الشبان والصبيان ذكراناً واناثاً قد تم جلبهم من أواسط آسيا واصقاعها حيث كانت جيوش المغول تجول وتصول وتنتصر وتنهزم فى سهوب آسيا مما جعل مصر أكبر سوق للنخاسة وتجارة الرقيق والجوارى وكان ذكران هؤلاء المماليك والعبيد يلحقون بدور السلاطين والأمراء حيث كانوا يعيشون عيشة جماعية يفتك بعضهم ببعض جنسياً كما يفتك بهم الأمراء المماليك وعساكرهم بالاضافة إلى عبوديتهم وضعفهم الإنسانى وخلال ذلك يتم تعليمهم فك الخط وقراءة بعض آيات القرآن الكريم وذلك بجانب اطلاعهم على العادات والأعراف المملوكية ثم يتعاطون تدريبات عسكرية من خلال ركوب الخيل واستخدام السيف. وعندما يصبح المملوك شابا يافعا يتم إلحاقه بالعسكرة المملوكية حيث يصبح وحشا عسكريا تحركة غريزته الوحشية للنهب والغدر وسفك الدماء كتعويض مزاجى ونفس لظروفه الصعبه التى مرت بها حيث يرى نفسه عبدا مملوكا ليس له دين أو وطن أو عائلة مما عرضه إلى إذلاله وإهدار رجولته وخدش حيائه كإنسان.

اما الإناث والجوارى المملوكيات فيلحقن بالخدمة المنزلية وما يترتب عليها من تسخير فى تفريغ شهوات الأمراء والعساكر المماليك وفى التوالد الحلال والحرام حيث كان العسكرى المملوكى مجنونا بسيفه اللامع وفخذ جارية بيضاء على حد تعبير د/حسين فوزى فى كتابه سندباد مصرى. كان ذلك كله مصدرا من مصادر الهجرة البشرية المغولية المظلمة والسوداء التى طفحت فى مصر بالسلاطين والأمراء والأجناد والمماليك الذين شكلوا العسكرة المملوكية البحرية والجركسية التى استوطنت مصر ونهبت خبراتها.

وتأكيدا لحقيقة تلك الهجرة البشرية المغولية ذات الطبيعة العسكرية فلابد ان نكرر ونعيد بان هذه الهجرة قد بدأت فى ظل العسكرة العباسية عندما تغلب الأجناد الترك فى سنة ٨٢٣ ميلادية ثم استقرت فى ظل عسكرات الطولونيين والأخشديين والفاطميين والأيوبيين وفى عهد دولة المماليك البحرية ودولة المماليك الجراكسية حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ ميلادية مما يعنى ان تلك الهجرة البشرية المغولية قد ظل جلبها إلى ضفاف النيل طوال تسعمائه وأربعة وثمانين سنة مما جعلها تحمل صفات الهجرة البشرية الاستيطانية.

ومن أضخم موجات هذه الهجرة البشرية المغولية موجة الأويراتية المغولية الذى قال عنهم المقريزى.. وكان من خبر هذه الطائفة ان بيدو بن طرغاى بن هولاكو المقتول فى ذى الحجة سنة أربع وتسعين وسبعماءة وقام فى الملك من بعده على ؟ الملك غازان محمود بن خر نبده بن إيفانى. تخوف منه عدة من المغل يعرفون بالاويراتيه وفروا من بلاده إلى نواحى بغداد فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاى.

وجرت لهم خطوب آلت بهم إلى اللحاق بالفرات فأقاموا بها هنالك وبعثوا إلى نائب حلب يستأذنونه فى قطع الفرات ليعبروا إلى ممالك الشام. فأذن لهم ومروا بالفرات إلى مدينة بهنسا فأكرمهم نائبها وقام لهم بما ينبغى من العلوفات والضيافات.

وطولع الملك العادل زين الدين كتبغا وهو يومئذ سلطان مصر والشام بأمرهم. فاستشار الأمراء فيما يعمل بهم. فاتفق الرأى على استدعاء أكابرهم إلى الديار المصرية وتفريق باقيهم فى البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام. وخرج إليهم الأمير علم الدين سنجر الدوادارى. والأمير شمس الدين سنقر الأعسر إلى دمشق فجهزوا من أكابر الأويراتيه نحو الثلثمائه للقدوم على السلطان وفرقوا من بقى منهم بالبقاع العزيزه وبلاد الساحل.

ولما قرب الجماعة من القاهرة خرج الأمراء بالعسكر إلى لقائهم واجتمع الناس من كل مكان حتى امتلأ الفضاء للنظر إليهم فكان لدخولهم يوم عظيم. وصاروا إلى قلعة الجبل. فأنعم السلطان على طرغاى مقدمهم بأمره طبلخانه ـ رتبه عسكرية ـ وعلى اللوهى بأمره عشرة ـ رتبه عكسرية أيضا.. وأعطى البقية تقادم فى الحلقة واقطاعات وأجرى عليهم الرواتب ـ وانزلوا بالحسينية.

وكانوا على غير الملة الإسلامية. فشق ذلك على الناس وابتلوا مع ذلك منهم بأنواع من البلاء لسوء أخلاقهم ونفوسهم وشدة جبروتهم.

وكان إذ ذاك بالقاهرة ومصر غلاء كبير وفناء عظيم فتضاعفت المضرة واشتد الأمر على الناس وقال فى ذلك الأديب شمس الدين محمد بن دينار..

ربنا اكشف عنا العذاب فإنا ... قد تلفنا فى الدولة المغلية

جاءنا المغل والغلا فانصلقنا ... وانطحنا فى الدولة المغلية

ولما دخل رمضان من سنة خمس وتسعين وستمائه لم يصم أحد من الاويراتيــه وقــيل للسلطان ذلك فأبى ان يكرههم على الإسـلام ومنع من معارضتهم. ونهى أن يشوش عليهم أحد. وأظهر العناية بهم. وكان مراده أن يجعلهم عوناً له يتقوى بهم فبالغ فى اكرامهم حتى أثر فى قلوب الامراء منه إحنا. وخشوا ايقاعه بهم.. فإن الاويراتيـه كانوا أهل جنس كتبغا وكانوا مع ذلك صورا جميلة.. فافتن بهم الأمراء. وتنافسوا فى اولادهم من الذكور والإناث. واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم وتعشقوهم. فكان بعضهم يستتشد من صاحبه من اختص به وجعله محل شهوته.

ثم ما قنع الامراء بما كان منهم بمصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشامية واستدعوا منهم طائفة كبيرة فتكاثر نسلهم فى القاهرة واشتدت الرغبة من الكافة فى اولادهم. على اختلاف الآراء فى الإناث والذكور. فوقع التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة إلى أن آل الأمر بسببهم وبأسباب أخرى إلى خلع السلطان الملك كبتغا من الملك.

فلما قام فى السلطنة من بعده الملك المنصور لاجين قبض على طرغاى مقدم الاويراتيه وعلى جماعة من أكابرهم. وبعث بهم إلى الاسكندرية فسجنهم بها وقتلهم. وفرق جميع الاويرانية على الأمراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن والجمال البارع وكان للناس فى نكاح نسائهم رغبة وللآخرين شغف باولادهم. وما برحوا يوصفون بالزعارة والشجاعة وكان يقال لهم البدورة. فيقال البدر فلان. والبدر فلان ويعانون لباس الفتوة وحمل السلاح.

وهكذا كانت الهجرة البشرية المغولية سلاح عسكرة وفجر وفحش فى الحياة المصرية.

ومن ملامح تلك الهجرة البشرية المغولية ان السلطان قلاوون قد اشترى وحده أربعة وعشرين ألف مملوك تحولوا إلى عسكر وحكام وسلاطين.. والسلطان برقوق قد اشتراه بعض النخاسين من والده بإحدى قرى شاطئ البحر الأسود وأتى به إلى مصر فباعه فى سوق النخاسة. وبعد عشرين سنة أصبح برقوق سلطانا على مصر وقائدا أعلى للعسكرة المملوكية.

يقول العلامة أميل لودفيج.. ومع ذلك يقع فى مصر أمر لا مثيل له سابقا. فللمرة الأولى يقبض العبد لا الفلاح على زمام أمور مصر. ويظل ابن البلد التعس تابعا مصريا ويظل المماليك أى العبيد البيض من آسيا التى يجلب منها رجال أصحاء وملاح ولم يحدث ان رأى النيل فى جريانه الطويل مثل ذلك المنظر.

وكثير من المماليك الذين ملكوا مصر نحو ثلثمائه سنة ولدوا عبيداً.

وان هؤلاء العبيد المماليك التى جلبتهم الهجرة المغولية قد احتكروا وحدهم السلطة والعسكرة.. يقول المقريزى عندما مات السلطان قلاوون قال المملوك قوصون لزميله المملوك بشتاك وكانا يتنازعان على السلطة.. (انا ما بيجى منى سلطان لأننى كنت أبيع الخضر والنبيذ وأنت اشتريت منى وأهل البلد يعرفون ذلك. وانت ما بيجى منك سلطان لأنك كنت تبيع البوظة وانا اشتريت منك وأهل البلد يعرفون ذلك).

حدث ذلك بينما المصريون أهل البلد يفلحون ويزرعون ويمارسون صناعاتهم وحرفهم فى حقولهم وفى دكاكينهم..

عسكرة السيف والقبقاب

خلال مناقشة بشأن العسكرة مع المؤرخ الأستاذ محمود السندبسطى أحد مراجعى فى المسائل التاريخية تعرضت المناقشة للملكات الثلاث اللاتى تبوأن عرش مصر. الأولى الملكة المصرية الصعيدية العظيمة حتشبسوت على حد تعبير حسين فوزى هذه المرأة الرائعة التى تفوقت على الرجال فى زمانها وقادت مؤسسات مصر المدنية والعسكرية بجدارة ثم الملكة البطلمية الأغريقية كليوباترا التى دفعها غرامها الجنونى بالقائد الرومانى أنطونيوس إلى الحرب مع روما التى خسرت خلالها دولتها وعرشها البطلمى وعشيقها وحياتها مما أدى

إلى احتلال الرومان لمصر ثم الملكة أم خليل شجرة الدر هذه المملوكة الأرمنية التى أهداها الخليفة العباسى إلى الملك الصالح الأيوبى فأنجب منها ولدها خليل الذى مات مبكراً. وكان يحبها حيث جعلها مستشارته الخاصة فى إدارة شئون عسكرته وعساكره المماليك الذين كانوا يتسمون بالمماليك الصالحية البحرية نسبة إلى أستاذهم الملك الصالح أيوب ونسبة إلى مسكنهم ومحل إقامتهم بجزيرة الروضة على النيل.

ولقد بادر الأستاذ السندبسطى بضيقه من لصق تعبير العسكرة على كل شىء وبما فى ذلك شجرة الدر الذى قد وصفها بأنها ملكة ذات دهاء سياسى ملحوظ فهى التى استطاعت مثلا ان تفرق بين القائدين العسكريين للعسكرة المملوكية وهما الأمير اقطاى وزميله الأمير عز الدين أبيك وقد ترتب على ذلك قتل الأمير المملوكى أقطاى بتآمرها.

وهنا قلت لقد كانت الملكة شجرة الدر محبوبة ومستشارة لزوجها واستاذها الملك الصالح الأيــوبـى بدليل أنها قد صاحبته إلى مدينة المنصورة لمواجهة غزو الفرنجة الصليبية ولا جدال فى انها قد سمعت وشاركت وتداولت فى شئون المعرك الحربية اليومية التى دارت رحاها بين العسكرة الأيوبية وعسكرة الفرنجة الغزاة.. وعند مرض زوجها واستاذها الصالح الأيوبى القائد العام للعسكرة الأيوبية قامت بالسفارة بين القائد العام وقواده الميدانيين بشأن التوجيهات والمتابعة اليومية للأعمال القتالية والعسكرية.. ولما مات زوجها وأستاذها بادرت بإخفاء خبر موته عن الجيش الأيوبى المحارب ثم بادرت باستدعاء ابن زوجها وولى عهده الأمير توران شاه الذى حضر من الشام بجيوشه ومماليكه ليتولى حكم مصر بقصد بقاء الدولة الأيوبية وعسكرتها. ومن مواقفها اللماحة ما قررته من منع قتل ملك الفرنجة وما معه من الأسرى الفرنسيين وذلك مقابل فدية تدفع للعسكرية الأيوبية وجيشها المنتصر.

أليس ذلك بكاف لاثبات ان الملكة شجرة الدر تأثرت بسياسات العسكرة الأيوبية وأصبحت أحد عقولها الجبارة إلى حد أنها كانت تطمع فى التسلطن وحكم الدولة وعسكرتها سواء كانت أيوبية أو مملوكية.. كما تسلطنت وتفرعنت الملكة المصرية الصعيدية العظيمة حتشبسوت.

ولقد كان قصدها من استدعاء الملك توران شاه وعساكر ومماليكة إلى مصر هو وقف طموح العسكرة المملوكية المنتصرة فى المنصورة من محو وازاله الدولة الأيوبية والحلول

محلها من خلال وجود حالة من المواجهة والاستنفار العسكرى بين عسكرة الملك الجديد توراه شاه الأيوبى وعسكرة والده الملك الصالح وذلك لكى تظل هى وحدها الملكة الأيوبية أم خليل شجرة الدر.

ولكن الملك الأيوبى الجديد توران شاه هيمن على كل شىء فأسرعت بالتآمر عليه وقتله ومن هنا قد قضت نهائيا على الدولة الأيوبية.. ولم يبق غير العسكرة المملوكية التى كانت تعتبر عسكرة أيوبية تتسمى بعسكرة المماليك الصالحية والبحرية.

عندئذ بادرت شجرة الدر بتمزيق هذه العسكرة المملوكية التى سيطرت على الحكم فى مصر من خلال بذر الخلاف بين الأمير المملوكى آقطاى وزميله الأمير المملوكى عز الدين ايبك ذلك الخلاف الذى تسبب فى مقتل الأمير آقطاى بتحريض وتدبير من شجرة الدر التى انحازت إلى زميله وغريمه عز الدين أيبك الذى أصبح قائدا ميدانيا للعسكرة المملوكية التى تولت أمور مصر تحت قيادة الملكة شجرة الدر.

يقول ابن إياس قال الشيخ عز بن عبد السلام لما تولت شجرة الدر على الديار المصرية عمل فى ذلك مقامة ذكر فيها ما ابتلى الله المسلمين بولاية امرأة عليهم.. فلما تم أمرها فى السلطة انعمت بالوظائف السنية على الأمراء وفرقت الاقاطيع الثقال على المماليك البحرية واغدقت على الجند بالأموال والخيول حتى أرضت الكبير والصغير منهم بكل ما يمكن وساست الرعية أحسن سياسة.. وكان الخطباء تخطب باسمها على منابر مصر وأعمالها وتقول بعد الدعاء للخليفة العباس ـ الخليفة الرمزى ـ وأحفظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجليل والستر الجميل والدة المرحوم خليل.. وكان خليل بن الملك الصالح توفى فى حياة والده.. وكان الأمير أيبك التركمانى مدبر المملكة ما كان يتصرف فى شىء من أمور المملكة إلا بعد مشوراتها وكانت علامتها أى ختمها على المراسيم بخطها.. والدة الخليل..

كل هذا السرد أثير فى مناقشة أستاذ التاريخ محمود السندبسطى الذى وصف العسكرة المملوكية فى مصر بأنها العسكرة فى ذروتها ولهذا قلت ان كل هذا السرد المحقق ان الملكة شجرة الدر دون غيرها من الملكات اللاتى تبوأن عرش مصر قد تعلمت وتدربت وتأثرت

بعسكرة الأيوبيين والمماليك فى سياساتها التآمرية والعدوانية بحيث يمكن وصفها بالملكة المرأة ذات الطبيعة العسكرية والتآمرية بهدف الحفاظ على سلطانها الملكى ان هذه الملكة التى تعرف جيدا مزاج العسكرة المملوكية ونفسيتها.. كانت تتقدم وتتأخر بحساب فلما عرفت أن شيوخ العسكرة المملوكية قد اشاعوا فى مصر ان النساء ناقصات عقل ودين بقصد التشكيك فى شرعية وجود الملكة شجرة الدر أمام أجناد العسكرة المملوكية.. وهذا ما اضطرها إلى الزواج من مساعدها ومدبر شئونها الأمير المملوكى عز الدين ايبك ثم القيام بخلع نفسها بطريقة اختيارية حتى تستطيع ممارسة سلطانها الملكية من خلال زوجها الأمير المملوكى ومن ثم فإن شجرة الدر هى الملكة الأولى للهجرة البشرية المغولية وعسكرتها المملوكية والأمير المملوكى عز الدين أيبك هو الملك الثانى.. ويبدو ان شجرة الدر قد أحست وأدركت ان السلطة قد طارت من يديها بزواجها وخلع نفسها مما أدى إلى استنفار طبيعتها العسكرية والعدوانية تجاه زوجها الملك عز الدين ايبك الذى كان يصغرها سناً والذى طلق زوجته الأولى أم على تقديرا لشجرة الدر.

ومن هنا باتت شجرة الدر تتميز غيظا وتشتعل حقدا على زوجها الذى منحها علاقات زوجية وحرمها من السلطة والسلطان فدبرت قتله بذريعة أنه يفكر بالزواج من غيرها حيث حضر اليها كعادته وقضى معها لحظات شاعرية ثم ذهب إلى الحمام فإذا بالخدم يدخلون عليه ويقتلونه بالسيوف تحت نظرها وبصرها ما معنى هذا من حيث التوقيت الحرج والفعل الآثم إلا ان المرأة الرقيقة شجرة الدر قد توحشت بفعل العسكر والعسكرة حيث فقدت عقلها المدبر وانوثتها الرحيمة.

ثم يأتى الدور عليها فتقبض عليها العسكرة المملوكية وتدفعها إلى ضرتها أم على فتعاقبها بالقتل بالقباب.

يقول بن إياس.. ثم ان الأمير عليا قبض على شجرة الدر وسلمها إلى أمه فأمرت جواريها ان يقتلوها بالقباقيب، فلما ماتت سحبوها من رجليها ورموها فى الخندق وراء القلعة وهى عريانة ليس فى وسطها غير اللباس فقط. فاستمرت فى الخندق ثلاثة أيام لم تدفن. وقيل ان بعض الحرافيش نزل فى الليل إلى الخندق وقطع تكة لباسها وكان فيها أكرة لؤلؤ ونافحة مسك.. هكذا كان مصير آخر ملكة مملوكية متمصرة تبوأت عرش مصر

وقضت على دولة الأيوبيين وعسكرتهم وأسست دولة المماليك وعسكرتهم فيما كان الشعب المصرى الكادح والمنتج لا شأن له بهذا ولا بذاك حيث كان غارقا حتى أذنيه فى متابعة الشهور القبطية انتظارا للبذار والحصاد وعشار بهائمه من جاموس وبقر وأغنام وحمير.

عسكرة وألقاب واقطاعيات ومجاعات

ولما ملك العساكر المماليك الذين قد طفحت بهم الهجرة البشرية المغولية مصر وأقاموا سلطتهم السياسية ودولتهم المغلقة بالضبة والمفتاح فى وجه المصريين حيث عاشوا وحدهم فى القلعة وفى بيوتهم وقصورهم بعيدا عن الرعية المصرية وكانوا يرطنون لغاتهم ولهجاتهم الأعجمية ولا يتداولون اللسان العربى المبين إلا اضطرارا لحفظ بعض آيات القرآن الكريم وتأدية الصلاة المظهرية والتعامل مع رعاياهم من المصريين الفلاحين والصناع والمشايخ كما كانوا يتلقبون بألقاب أعجميه ولا يوجد مخلوق إلا وله لقبه العسكرى والسلطوى.

فالسلطان المملوكى ونائبه لقبان عسكريان سلطويان ويليهما كما يقول الدكتور إبراهيم طرخان ما يلى :

رتبة الأمرة العسكرية رقم واحد وهم مقدموا الألوف ويندرج تحت ذلك اللقب العسكرى العام، أمير كبير، أمير سلاح، أمير مجلس، أمير دوادار كبير، أمير آخور كبير، أمير رأس نوبة النواب، أمير حاجب الحجاب، أمير خازندار كبير، أمير الحاج الشريف.

رتبة الإمرة العسكرية رقم اثنين هم أمراء الطبلخاناة ويندرج تحتها الألقاب العسكرية التالية، شاد الشرابخاناه، خازندار الثانى، الدودار الثانى، أمير آخور الثانى، رأس نوبه الثانى، الحاجب الثانى، نائب القلعة المنصورة، الزردكاش، أمير شكار، أمير جاندار.

رتبة الإمره العسكرية الثالثة وهم أمراء العشرينات والعشرات ويندرج تحتها وظيفة الدودار الثالث، وأمير آخور الثالث، وراس نوبة الثالث، والحاجب الثالث، استادار الصحبة وسبعة حجاب وعشرة رؤوس نوب.

وتتوضح تلك الرتب وما يندرج تحتها فى الوظائف الآتية : أمير كبير هو أتابك العساكر.

أمير مجلس، من يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير فى الترتيب.

أمير دودار.. الدودار ماسك الدواة

أمير آخور كبير.. المشرف على اصطبل السلطان.

أمير رأس نوبه.. المشرف على مماليك السلطان أو الأمير.

أمير حاجب.. كبير الحجاب وهو من يبلغ أخبار الرعية للسلطان.

أمير حازندار.. كبير المشرف على الخزانة.

أمير الحجاج.. من يتولى رئاسة بعثة الحج والمحمل.

أمير سلاح.. من يحمل سلاح السلطان ويتاوله إياه فى الحرب.

شاد الشرابخاناه.. المشرف على مخزن الأشربه والحلوى والفاكهة.

أمير شكار.. المتحدث على جوارح الطير وسائر أمور الصيد وشكار كلمة فارسيه بمعنى الصيد.

أميرجاندار.. الذى يستأذن للأمراء فى أيام المواكب عند الجلوس بدار العدل.

استادار الصحبه.. من يتولى قبض مال السلطان والأمير وصرفه.

ومن هنا يتضح لنا أن كل مناصب الدولة المملوكية مناصب عسكرية وان كل شاغلى تلك الوظائف ينتسبون إلى العسكرة المملوكية.

يقول الدكتور إبراهيم طرخان.. أما رجال العسكرة المملوكية فهم عناصر مختلفة من ترك وجركس وروم واكراد وتركمان ومغول والمان وايطاليين وروس واكثرهم مشترى بالمال. وأقسام هذا الجيش ثلاثة هى أجناد الحلقه. والمماليك السلطانية ومماليك الأمراد والفريق البارز فى هذه الأقسام هو فريق الحلقة من حيث حيازة الاقطاع، العسكرى، فهم قلب الجيش المملوكى والأصل فى التوزيع الاقطاعى، والمماليك السلطانية هم أصحاب الحوائج الراتبه من السلطان، أما مماليك الأمراء فيتبعون اساتذتهم ويحوزون اقطاعاتهم بحسب مراتبهم من بطن اقطاعات الأمراء، وقد بلغ على ما استقر فى جرائد ديوان الجيش المملوكى قرابة أربعة وعشرين الف فارس تقوم الدولة والسلطة وعسكرتها على أكتافهم باعتبارهم حمله السلاح.

وبالتالى فقد كانت الأرض المصرية ملكا للسلطان وعساكره. وقد ذكر المقريزى وابن إياس أن أرض مصر زمن المماليك كانت تقسم على سبعة أقسام :

القسم الأول: يجرى فى ديوان السلطان وهى ثلاثة أولها ما يجرى فى ديوان الوزارة وثانيها ما يجرى فى ديوان الخاص وثالثها ما يجرى فى الديوان المفرد.

والقسم الثانى : قسم أقطعة السلطان للأمراء والأجناد.

والقسم الثالث : جعل وقفا على الجوامع وعلى المدارس وعلى البر.

والقسم الرابع : أرض الأجناس أى الأوقاف.

والقسم الخامس : ملك يباع ويشترى.

والقسم السادس : قسم لا يزرع للعجز عن زراعته.

والقسم السابع : لا يشمله ماء النيل.

يقول القلقشندى.. كانت البلاد بجملتها جارية فى الدواوين السلطانية واقطاعات الأمراء وغيرهم من سائر الجند إلا النزر اليسير مما يجرى فى وقف مملوك على الجوامع والمدارس مما لا يعتد به لقلقه.

ان ذلك التقسيم الاقطاعى والعسكرى قد انتهى فى زمن العسكرة المملوكية إلى أن اختص السلطان وحده بأربعة قراريط من مجمل الأرض الزراعية المصرية واختص الأمراء بعشرة قراريط، أما العشرة الباقية فهى للتوزيع على العساكر والأجناد.

ولا يعنى ذلك إلا ان الفلاح المصرى كان مبعدا عن ملكية أرضه المصرية التى هيمن عليها المماليك الجلبان وعسكرتهم ومع هذا فقد كان الفلاح المصرى مجبراً على دفع الخراج نقدا أو عينا على الأراضى التى يفلحها مقابل إيجار مرتفع أو مقابل تقاسمه مع الأمراء والعساكر المماليك وذلك بالاضافة إلى اجباره على السخره المستمرة فى إصلاح الجسور وشق القنوات والفلاحة الاكراهية فى إقطاعات العسكرة المملوكية. ان هذه العسكرة وإقطاعها وشعبها المصرى قد دفعها إلى فرض الضرائب على الحرف والصناعات والأسواق والدكاكين والمعديات والأسواق ومراسى السفن. .

ولقد ترتب على هذه المظالم ذات الطبيعة العسكرية والسلطوية إلى تفشى المجاعات كما تفشت فى ظل العسكرة الأخشيدية والفاطمية والأيوبية.

يقـول المقـريزى.. ثم وقع غـلاء بالدولة التركية فى سلطنة العادل كتبغـا فى سنـة ست وتسعين وستمـائه، واشتـد الأمـر بمصـر وكثـر الناس بها من أهل الآفـاق. وانتهب الخبـز من الأفـران حتى كان العجين إذا خـرج إلى الفـرن انتهبه الناس فـلا يحمل إلى الفرن ولا يخـرج منه إلا ومـعه عـدة يحمونه بالعصى من النهـابة فكان مـن الناس من يلقى نفسه على الخبـز ليخطف منه ولا يبالى بما ينال رأسـه وبدنه من الضـرب لشـدة ما نزل به من الجـوع وتفشى المرض بسبب الجـوع حتى أصبح الطرحـاء من المرض لا حصر لهم بحيث ضاقت الأرض بهم وحفرت لهم الآبار والحفـائر والقوا فيهـا وجافت الطرق والنواحى والأسـواق من الموتى وكثـر أكل لحـوم بنى آدم وخصـوصـا الأطفـال فكان يوجـد الميت وعند رأسـه لحم الآدمى ويمسك بعضهم فيوجد معه كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه.

وخلت الضيـاع من أهـلهـا حتى أن القـرية التى كان بها مـائه نفس لم يتـأخـر بهـا الا نحـو العشرين.

وفى أول شـهـر رجب سنة ست وثلاثين وسبـعـمـائه وقع الغـلاء بـالديار المصـرية فى أيام المالك النـاصـر محـمد بن قلاوون وعز القـمح ووصل كل أدرب إلى سبعين درهـمـا والفول إلى خمسين والخبـز كل خمسة أرطال بدرهم ولا يكاد يوجد. ورتب الوالى على كل حانوت للخبز أربعة من عساكره ومعهم المطارق لدفع النـاس عن حوانيت الخبـز لكيـلا تنهب. ثم وقع الغلاء فى أيام الأشرف شعبان فى سنة ست وسبعين وسبعمائه وعزت الأقوات وقل وجودهـا فمات الكثير من الجوع حتى امتلأت الطرقات وأعقب ذلك وباء مات فيه كثير من الناس.

يقـــول المقـــريزى وسبب ذلك كله ثلاثة أسبـاب لا رابع لهـا الســبب الأول هـو أصـل هـذا الفسـاد ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينيـة بالرشـوة كالوزاره والقضـاء ونيـابه الاقاليم وولاية الحسبه وسـائر الأعمال.

السبب الثانى غلاء الأطيان وذلك ان قوما ترقوا فى خدم الأمـراء يتولفون اليهم بما جبوا من الأمـوال إلى ان استولوا على احوالهم. فـأحبـوا مزيد القـربة منهم ولا وسيلة أقـرب اليهم من المـاء فـتعـدوا إلى الأراضى الجـارية فى اقطـاعات الامـراء وآحضـروا مسـتـأجـريهـا من الفلاحين وزادوا فى تقدير الأجر.

وجعلوا الزيادة ديدنهم كل عام حتى بلغ الفدان بهذا العهد نحوا من عشرة أمثاله قبل هذه الحوادث.

السبب الثالث رواج الفلوس وما طرأ عليها من غش من خلال تطعيم النحاس بالذهب الذى يصنع منه العملة.

وإذا تأملنا هذه الحوادث.. كما يقول المقريزى عرفنا انه ليس بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد.. الامر الذى يدلنا على ان العسكرة المملوكية قد أفرخت فى مصر الرشوة والفساد والاستبداد بغير حدود فالقاضى كان بعين بالرشوة وكذلك المحتسب وحكام الاقاليم والفقهاء والجباه والصيارفه ولهذا قال بعض المصريين يا ليت هاء الفقيه تنقلب راءُ.. نظرا لانهم كان أثرياء من الرشوة والبرطلة التى كانوا يجبرون الناس على دفعها بينما قد عينوا فى مناصبهم برشوة وبرطلة امراء العسكرة المملوكية.

العسكرة التى باضت الفساد

يقــول المقــريزى فى وصف المملوك سواء كان سلطانا أو أميراً أو أحداً من الأجناد المماليك.

انه أشرس من ذئب وازنى من القرد والص من الفأره..

وكان هؤلاء المماليك الزبانية يخطفون بناتنا ونساءنا المصريات على مرأى من الناس وذلك للفسق بهن وحتى الصبيان المصريين لم يسلموا من فجورهم فقد دأب مملوك من أجنادهم الفجار على مطاردة صبى مصرى فى ذهابه وايابه وفى احدى المرات قبض على الصبى ودفعه إلى خرابه لكى يلوط به غصبا وكرها فإذا بالصبى المصرى يستل سكينا كانت مربوطة على فخذه فيقطع بها عضو الذكورة لذلك الجندى المملوك السافل.

هكاذا باضت العسكرة المملوكية الفسق والفجور. كما باضت الفساد والبرطله والرشوه.. فقد كان التعيين فى وظائف الوزراء قاصرا فى أغلب الأحيان على العسكريين وبعض المشايخ ومن أسلم من المصريين الأقباط. وكانت وظيفة الوزير أول الوظائف يليها وظيفة

ناظر الجيش ثم ناظر المال المسئول عن نهب الداخل المصرى يليه ناظر الخاص المعهود له بالشئون العامة وبعد ذلك وظيفة المباشر وكاتب السر أو الدست وكاتب الدرج.

وكانت هذه الوظائف تتعاطى بالرشوة والبرطله ثم يستخدمها شاغلها فى الحصول على الرشوة مما ثبت وجود علاقة جدليه وتبادليه بين السلطة والثروة فى تلك الأيام.

فالسلطان برقوق خلع على بدرالدين محمود الكستانى فى وظيفة الوزير لكفاءته وقدرته بعد ان ترجم له رسالة من تيمور لنك باللغة الفارسية عجز عنها بدرالدين محمد بن فضل الله مما يوحى انه قد عينه بدون برطله ومع هذا لم يدخر هذا الوزير وسعا فى سبيل الثراء السعيد وبشتى الطرق غير المشروعه إذ يقول السخاوى فى ترجمته ما أمسى إلا وعنده من الخيل والبغال والمماليك والآلات مالا يوصف.

ويحدثنا المؤرخ ابن تغرى بردى انه عندما دخل عليه ابنه كريم الدولة بخلعة الوزارة أصابته الدهشه وسأله متعجبا أنا وليت هذه الوظيفة ومعى خمسة وخمسين ألف دينار ذهبت فيها ولم أسد اتسدأنت من أين فقال كريم الدين لأبيه ابن تغرى بردى من اضلاع المسلمين.

ويذكر الصيرفى ان برطلة تاج الدين عبد الرازق الشهير بابن كاتب المناخات سنة ١٤٢١م على الوزارة بلغت نحو ستين الف دينار ومع هذا فلم يمكث فيها اكثر من عام.

ويسجل ابن حجر أول اشارة للرشوة والبرطلة لمنح هذه الوظيفة سنة ١٣٨٢م عند حديثه عن هروب ابن نبهان من كتابه السر بسبب عدم مقدرته على الوفاء بما التزم به من مال.

وقد لاحظ المستشرق فنيت بين سنتى ٩٢٢ ــ ١٥١٧م قد شهدت سبعة وثلاثين كاتبا من بينهم سبعة عشر لم يمكثوا فى وظيفة كاتب السر بضعة أشهر نتيجة جشع السلاطين وحاجتهم للمال مما جعل التعيين فى هذه الوظيفة لا يمنح إلا بالبرطلة والرشوة.. وحتى الوظائف الأخرى كان يتم التعيين بالرشوة فقد روى ابن إياس من ان السلطان قنصوة الغورى خلع على القاضى فخر الدين كاتب المماليك واعاده إلى وظيفته بعد ان ورد نحو ألفى دينار وكسور. وكذلك وظيفة ناظر الاصطبلات فقد عين بها زين الدين يحيى المعروف بالأشقر فى سنة ١٤٢٨م على مال دفعه بعد سعى شديد ولكنه لم يعمر طويلا. إذ حل محله

ابو المنصور القيرطى المعروف بابن كاتب الورشه بعد ان برطل السلطان جقمق بسبعمائه دينار. ثم فصل وعين آخر بدلا منه.

وفى سنة ١٤٠٥م عين فخر الدين بن غراب بوزارة مصر برشوة قدرها عشرين ألف دينار.. وفى سنة ١٤١٩م عين بدر الدين حسن نصر الله بوزارة برشوة قدرها مائة ألف دينار وفى سنة ١٤٢١ عين تاج الدين بن عبد الرازق بوازرة مصر نظير رشوة قدرها ستمائة ألف دينار.. وفى سنة ١٤٧٠م عين قاسم القرافى بوزارة مصر نظير رشوة قدرها عشرين ألف دينار وفى سنة ١٤٢٠م عين كمال الدين البارزى بوظيفة كاتب السر نظير رشوة قدرها عشرة آلاف دينار.

وحتى وظائف الفقهاء من قضاة ومحتسبين وأئمة صلاة ونظار وقف وقد كان اغلبهم من المصريين قد تم توظيفهم بواسطة العسكرة المملوكية لنشر الفساد وظلم العباد من المصريين لصالح السلطة المملوكية وعساكرها حيث كانوا يعينون بالبرطلة والرشوة ولهذا فقد غرقوا فى وحل الفساد حتى العمائم.

فالقاضى ابن أبى البقاء قد عاد ثانية للقضاء فى سنة ١٣٩٤م بدلا من القاضى صدر الدين المناوى الذى رفض ان يتصرف السلطان برقوق فى ما فى المودع من أموال الأيتام. فاستغل ابن أبى البقاء الفرصة وقدم الرشاوى للسلطان وتعهد بقرضة خمسمائة وستين ألف درهم.

والقاضى أحمد عبد الله الأموى الذى استقر فى قضاء المالكية بالرشوة والبرطلة رغم شهرته بسوء السيرة ومزيد الجهل والتجاهر بأخذ الرشوة حتى استطاع ان يكون ثورة طائلة.

والقاضى ناصر الدين الصالحى الشافعى عين سنة ١٤٠٣م برشوة قدرها ستة آلاف دينار.

والقاضى صالح بن عمر العسقلانى الشافعي عين بقضاء مصر سنة ١٤٦٣م برشوة قدرها ثمانية آلاف دينار.

هكذا كان أغلب قضاة الشرع فى زمن العسكره المملوكية يعينون بالرشوة ويتسلطون على المصريين بالحصول على البرطلة والرشوة.

ويقـول بن إيـاس ان الشـاعر المصرى الثائر جمال الدين السلمونى قد هجا القاضى عبدالبر بن الشحنة هجواً فاحشاً بقصيدة مطوله فيها ألفاظ فاحشة إلى الغاية وإساءة مفرطة ومما يذكر ان ذلك الشاعر المصرى كان يتمتع بشعبية واسعة فى صفوف العوام والصناع المصريين وهذه بعض أبيات قصيدته :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ... ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها

اينكر فى الأحكام زور وباطل ... وأحكامه فيها بمختلفاتها

إذا جاءه الدينار من وجه رشوة ... يرى أنه حل على شبهاتها

فإسلام عبد البرليس يرى سوى ... بعمنه والكفر فى سنماتها

ولو أمكنته كعبة الله باعها ... وأبطل فيها الحج مع عمراتها

ولو يعط دينارا وطاوعه الورى ... لأسقط عنها صومها وصلاتها

وقد خان قاض خان فى فتواته ... بتغييرها عن مقتضى موجباتها

فلا تخش اثما أن تخوض بعرضه ... فغيبته للناس خير تقاتها

وكذلك كان شأن المحتسب ومتولى الحسبه وهى الوظيفة ذات الأهمية للقضية وتماثل وظيفة القاضى ولكنها وظيفة تنفيذية تتابع وتراقب حركة الأسعار والأسواق والمكاييل والموازين ونظافة المأكولات وأعمال الهدم والبناء وهى من أهم وظائف العسكرة المملوكية.

وخلال القرن التاسع الهجرى تربع على عرش الحسبة بالقاهرة المملوكية مائة وثلاثة وعشرين محتسب اتهم اغلبهم بالرشوة والبرطلة ودفع المال رغم جهلهم وسوء سلوكهم.

ذلك هو نظام العسكرة المملوكية وعساكرها الذى جثم على صدر مصر مئات السنين حيث باض خلالها الفساد والاستبداد والرشوة والبرطلة على الشعب المصرى الفالح والصانع والمنتج.

عسكرة قتل .. تعذيب .. سجون

لم تكن العسكرة المملوكية وسلطنها وطغيانها إلا مؤسسة وحشية افتراسية عقابية جثمت على صدر الشعب المصرى القابع فى الغيطان والحقول والقابع فى دكاكين التجارة والصناعة والحرفة.

يقول صبحى وحيدة فى كتابه «فى أصول المسألة المصرية» ونحن ننظر إلى مصر فى هذه الفترة فنجد مجتمعا غريبا لا سابق عهد لها به. مجتمعا تغلب على حياته فكرة الحرب.

حرب المسلمين للنصارى، وحرب المغول للمسلمين، وحرب المماليك بعضهم بعضا وكل هذا فى وحشية كئيبة وسط فوضى بدوية لا توصف. وبكثرة عجيبة حقا، ونجد فى مناصب الحكم الذى كان يقوم بشئون هذا المجتمع اولئك الأمراء الغلاظ من الأيوبيين والمماليك الذين كانوا ينفقون حياتهم فى الحروب، وحولهم فرق من العسكر تخضع لإرادتهم أو تخضعهم لإرادتها. وتوجه أمور الحكم كما نشاء. نجد دولة عسكرية من نوع الدول البدائية.

ونحن نجد فى تكوين الدولة المملوكية هذا ايضا بعض تقاليد المغول فمعروف ان الحكم المغولى يقوم على أكتاف حملة السلاح ولا يعترف بحقوق سياسية لسواهم. وهو يدير الدولة كما تدار الضياع ويجهل حدود القانون العام ولا يفرض على من يتولونه غير ان يضمنوا الغذاء والشراب والكساء لرعاياهم. وهذا هو نفس المنهج السلطوى الذى كان يمارسه الرئيس المقتول قائمقام انور السادات ويمارسه الآن الجنرال الرئيس حسنى مبارك وكلاهما يتزعمان حكومة عسكرية تشبه حكومة المماليك.

ويزيد صبحى وحيده فيقول:

ولكن الذى لاشك فيه هوان طابع القسوة الرهيبة هذا الذى امتاز به الحكم المملوكى كان من خواص أهله. وان هذا الحكم كان أول حكم دفع بالدولة فى مصر إلى هذا المستوى البدائى وجعل فيها مرتعا خصبا تضرب فى أرجائه بضعة آلاف من جند مستجلبين لا يحسنون سوى الفتك والغدر والتعذيب فى غير هوادة».

وكان الحكم المملوكى إذا فى جوهره حكما بدائيا نشأ لظاهرة طبيعية من ظواهر الحروب الضروس التى توالت على مصر.. مما يعنى انه كان حكم العسكر والعسكرة فى ذروة بشاعتها ووحشيتها.. ومما يذكر ان هؤلاء العساكر المماليك كانت لهم قوانين خاصة وان علاقتهم ببعضهم كانت تخضع لهذه القوانين دون ان تخضع للشريعة الإسلامية.. ومن هنا فقد كان لهذه الدولة العسكرية والبدائية مؤسسات عقابية وآليات للعذاب والتعذيب مثل السجون وغيرها.

يقول المقريزى:

وأما سجون الولاه فلا يوصف ما يحل بأهلها من البلاء.. واشتهر أمرهم أى المساجين أنهم يخرجون مع الأعوان فى الحديد حتى يشحذوا.. وهم يصرخون فى الطرقات الجوع.

فما تصدق به عليهم لا ينالهم منه إلا ما يدخل بطونهم وجميع ما يجتمع لهم من صدقات الناس يأخذه السجان وأعوان الوالى. ومن لم يرضهم بالغوا فى عقوبته كما تحدث فى السجون المصرية فى العصر الحديث.

ويرغم المساجين على العمل فى الحفر والشغل فى العمائر ونحو ذلك من الأعمال الشاقة، وأعوان الوالى تستحثهم. فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن فى حديدهم من غير ان يطعموا شيئا. وقد قيل ان الكثير قد ماتوا فى السجون المملوكية من الجوع. وان بعض أمراء العسكرة المملوكية قد سجن ومات من الجوع بعد ان آكل نعاله.

وقد كان بمصر فى زمن العسكرة المملوكية عدة سجون وهى حبس المعونة وحبس الصبار. وحبس خزانة البنود وحبس خزانة شمائل. وحبس الديلم. وحبس الرحبه وحبس الجب بقلعة الجبل. وحبس المقشرة.

وكان سجن المعونة سجنا حرجا يشم من قربه رائحة كريهة، وسجن المقشرة هو من أشنع السجون وأضيقها. يعانى فيه المسجونون من الغم والكرب مالا يوصف. وسجن خزانه شمائل كان ايضا من أشنع السجون وأقبحها منظرا بحبس فيه من وجب عليه القتل أو القطع ومن يريد السلطان اهلاكه من المماليك وأصحاب الجرائم العظيمة.

ومن السجون إلى التعذيب الذى كان يعتبر مقدمه للموت والقتل حيث يقول المقريزى إن الوزير جمال الدين قتل فى القلعة حيث أمر السلطان بخنقه فخنق ثم امر بقطع رأسه فقطعت واحضر بين يديه وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ١١٢ هـ.

ويقول بن اياس:

فى جمادى الآخر من نفس العام حضر الشيخ شهاب الدين الزعبقرينى بين يدى السلطان فى الحوش فامر بقطع لسانه.

وفى ذى الحجة ٨٢٨ هـ رسم السلطان بقطع أصابع الخطاط المصرى القدير عبدالقدوس بن الجيعان.

وفى شوال سنة ٨٠٢ هـ قبض والى القاهرة على جماعة من العامة وضربهم وشهرهم ونودى عليهم بقوله هذا جزاء من يكثر فضوله ويتكلم فيما لا يعنيه. ثم نودى من الغدبالأمان

وأن من تحدث فيما لا يعنيه ضرب بالمقارع.. هكذا كانوا يفرضون السكوت الجبان على المصريين كما تفعل عسكرة مصر الحديثة.

وفى عهد السلطان الناصر محمد قبض على الحاج على بن فضل شيخ مدينة ملوى وصادر ممتلكاته من معاصر العسل الأسود. وفى ربيع الأول ٨١٤ هـ وفيه بعث السلطان بقتل جماعة من الأمراء ممن كانوا بالسجن بثغر الاسكندرية ثم ان الملك الناصر استدرج إلى ذبح جماعة من مماليك أبيه فصار يذبح المماليك بيده مثل الغنم.. وفى نفس العام قبض السلطان على أقارب جمال الاستادار وصادرهم وعاقبهم حتى مات تحت العقوبة ناصر الدين اخو جمال الدين.. وفى نفس العام كذلك ذبح السلطان عشرين مملوكا.. ووسط تحت القلعة خمسة عشر مملوكا أى قطعهم بالسيف نصفين، ثم ذبح فى تلك الليلة مائة مملوك من جنس الجراكسة.. وفى شوال من العام نفسه ذبح السلطان فى ليلة واحدة مائة وعشرين مملوكا وفى ذلك الشهر أحضر السلطان احمد بن الطبلاوى وضربه علقة بيده ثم ضرب عنقه بالسيف بسبب إشاعة على وجود علاقة بينه وبين خوند بنت حرق زوجة السلطان.

وفى شعبان سنة ١٧٤ هـ.. عاد الأمير يشبك الدوادار وعساكره من الوجه القبلى وكانت مدة غيبته نحواً من سبعة أشهر. ففعل ببلاد الصعيد من المظالم مالا يسمع بمثله. قيل أنه شوى بالنار محمود شيخ بنى عدى. وخوزق من العربان جماعة. وسلخ جلد جماعة. ودفن جماعة فى التراب وهم أحياء وفعل بالعربان من أنواع هذا العذاب لم يفعله أحد من قبله فدخل الرعب فى قلوب العربان.

ومن الوقائع الغريبة فى شهر محرم ـ صفر ٨٩٢ هـ أن محب الدين أبو الطيب الأسيوطى بلغه أن السلطان تغير خاطره عليه وقصد الإخراق به. فلما تحقق ذلك ذهب إلى المقياس أى مقياس النيل والقى نفسه فى البحر عمداً فغرق ومات وكان عالما فاضلا من ذوى العقول.

تلك دولة المماليك وعسكرتها وسجونها وما أشاعته فى مصر من تعذيب وقتل لم يسلم منها سلاطين هذه العسكرة الوحشية حيث تولى عرش هذه العسكرة ٤٩ سلطانا منهم ٢٤ للدولة المملوكية الأولى و٢٥ للدولة المملوكية الثانية مات منهم على عرشه ١١ سلطانا وخلع أو

خلع وسجن ٢٤ سلطانا وقتل ١٣ سلطانا ومن تولى بالوراثة ٢٦ سلطانا ومن تولى أغتصابا ٢٢ سلطانا وان من قتل وخلع وسجن من هؤلاء السلاطين كان وراء قتله أو خلعه أو سجنه أمراء عسكرته المملوكية طمعا فى السلطة والسلطان حيث كان الغدر هو المنهج السائد فى صفوف العسكرة المملوكية وكان من أبرز وقائع الغدر هذه واقعة قتل السلطان قطز الذى استطاع بعسكرته ان يهزم التتار ثم كوفئ من أعوانه بالقتل غيلة وغدرا فى صحراء التل الكبير.

وجميع هؤلاء السلاطين قد وظفوا العسكرة المملوكية فى فرض عقوبات وحشية وبشعة مثل ضرب الرقاب بالسيف وإحراق الجثث وقطع الأيدى والأرجل والتوسيط بالسيف أى قطع جسد الإنسان نصفين ووضع السموط الحريف فى الأنف وقطع اللسان والضرب بالدبوس وعصر الرجلين حتى الكسر.

. وإسقاء الجير بالملح. وكحل العينين بالنار والشنق ولقد ظل ذلك الشر المسيطر الذى فرضته الهجرة البشرية المغولية المظلمة وعسكرتها الوحشية مسلطا على مصر والمصريين الأقباط والمسلمين الصناع والفلاحين من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٥١٧ م حتى غشيتهم عسكرة جديدة تضاهى فى وحشيتها وتماثل فى بشاعتها عسكرة المماليك القديمة وكأن شعبنا المصرى مكتوب عليه ان تدوس أرضه على ضفاف النيل عسكرة تتبعها عسكرة إلى ما شاء الله وكأنه لا شأن له بهذه الأرض العزيزة التى انجبته وولدته من بطنها ومع هذا فقد ترك أمرها للغزاه والجلبان يجوسون خلالها دون ان تصدهم وطنية مصرية ذات ثورية تدفع عسكرة الغزاة والجلبان على أعقابها.

عسكرة الخازوق والمشنقة

كان ومازالت مصر مسرحا للعسكرة ودولة العساكر وفسادها واستبدادها ونهبها للشعب المصرى الكادح والمنتج والمكتوب عليه ان تتسلط على حياته عسكرة فى إثر عسكره مما جعله دون الشعوب الأخرى يعيش ليلا أبدياً سرمديا ليلاً لا ينتهى. ليلاً يتبعه ليل اكثر ظلاماً بحيث لم يشهد فجراً ولا صبحاً ولا ضحاً ولا نهاراً ولا شمساً.

هذا هو واقع حال الشعب المصرى الذى شهد صراعاً وحشياً ودموياً وعسكرياً يدور على أرضه بين عساكر وأجناد ابناء العمومه المغل والأسيويين على أرض مصر طمعاً فى أرضها الخضراء ونيلها الفياض وحرفها وصناعاتها المبدعه وشعبها الصانع والفالح.

إن ذلك الصراع كان حربا شرسة بين عسكرة المماليك ودولتهم فى مصر بقيادة السلطان المملوكى طومان باى وبين عسكرة الدولة العثمانلية بقيادة السلطان العثمانى سليم الأول فى سنة ١٥١٧م وقد انتهت تلك الحرب بانتصار عسكرة السلطان سليم الأول العثمانى واحتلاله مصر.. وهزيمة عسكرة المماليك وسقوط دولتهم المملوكية وشنق سلطانهم طومان باى.

لقد حدثت هذه الحرب على ضفاف النيل بين عسكرة مستوطنة وعسكرة غازية دون ان يأبه المصريون بهذه الحرب وأهوالها التى لا تعتبر شأنا مصريا ولكن بعض الفقهاء المصريين ممن كانوا جزءاً هامشياً وذليلاً من سلطة العسكرة المملوكية قد نقلوا ولاءهم المظهرى للعسكرة الجديدة والمنتصرة أى عسكرة العثمانلية من خلال خطبة الجمعة فى المساجد حيث رددوا دعاء يقول :

انصر اللهم السلطان ملك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وامام الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه، اللهم نصره نصراً عزيزاً وافتح له فتحاً مبيناً يا ملك الدنيا والآخرة يا رب العالمين..

هكذا دعا المشايخ المصريون لسلطان العسكرة العثمانية التى كانت اكثر بدائية ووحشية غريمة من عسكرة المماليك. هذا السلطان الدموى الذى شنق غريمة السلطان طومان باى سلطان العسكرة المملوكية ودولتها. وفى نفس الليلة أحتفل السلطان العثمانى المنتصر بشرب الخمر وسط جمع من الصبيان المرد وأمراء عساكر الانكشاريه والفرجه على الفانوس الظل الذى عرض مناظر واقعة شنق السلطان المملوكى طومان باى.

وبذلك استقرت سلطة العسكرة العثمانية فى مصر وقد عاونها فى ذلك عدد من الخونة من أمراء العسكرة المملوكية كان أبرزهم خايربك الذى كان يسميه المصريون باسم خاين بك الذى قد عينه السلطان سليم الأول العثمانى ملكاً على الأمراء وواليا على مصر حتى مات.

يقول بن إياس:

فكانت مدة اقامة بن عثمان بمصر ثمانية أشهر إلا أياماً.. وفى مدة اقامة بن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاماً ولا رآه أحد. ولا أنصف مظلوما من ظالم فى محاكمه. بل كان مشغولا بلذته وسكره واقامته فى المقياس.. أى مقياس النيل.. بين الصبيان المرد وكلامه ناقص ومنقوص لا يثبت على قول واحد.

وأما عساكره فكانوا جيعانين العين نفسهم قذره يأكلون الأكل وهم راكبون خيولهم فى الأسواق وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة وقلة دين يتجاهدون بشرب الخمر فى الأسواق بين الناس. ولما جاء شهر رمضان فكان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجوامع ولا صلاة الجمعة إلا قليل منهم. ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة، وليس لهم نظام يعرف لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم وهم جميع كالبهائم.

ويقول بن إياس ايضا..

ولكن بن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها وقتل أبطالها ويتم أطفالها وأسر رجالها وبدد أحوالها. وأظهر أهوالها. ولا جرى عليها قتل ما جرى من بن عثمان. وتزايد الضرر من العساكر العثمانية فى حق الناس وصاروا يخطفون النساء من الطرقات وكذلك الصبيان المرد للواط بهم حتى قيل انهم خطفوا إمرأة عند سلم جامع المؤيد تحت دكان الذى يبيع الكعك والناس ينظرون إليهم وهم يفسقون فلم يجرؤ أحد أن يخلعها منهم، وان بن عثمان دخل مصر وأخربها عن آخرها وقتل من أهلها ألف ألف إنسان.. وضرب العثمانية فى يوم واحد مئتى وثلاثين رأسا.. ثم ان العثمانية طفشت فى العوام والعلمان من الزعر ولعبوا فيهم بالسيف وراح الصالح بالطالح فصارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة إلى الرملة ومن الرميلة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى الناصريه إلى مصر العتيقة فكان مقدار من قتل فى هذه الواقعة فوق العشرة آلاف إنسان فى مدة هذه الأربعة أيام.

وفى هذه الأيام تزايد الأذى من عسكر بن عثمان فكانوا يخرجون وقت صلاة الصبح ويتوجهون إلى الغيطان التى حول الخانكة فيحشون ما فيها من الزروع من البرسيم والفول فيطعمونه إلى خيولهم فى كل يوم. ثم صاروا يأخذون دجاج الفلاحين وأغنامهم وأوزهم حتى أبواب وسقوف منازلهم.

وكان خايربك ملك الامراء قد اشاع عقوبة الخوزقة بجانب عقوبة الشنق ففى شهر ذو القعدة ٩٢٦ هـ رسم بخوزقة الكثير من المصريين مما دفع الصبيان الصغار إلى ممارسة لعبة الخوزقه بوضع خازوقة فى الأرض آقعدوا عليه واحاد من زملائهم الصبيان فمات فى الحال.

ومن محاكماته ان شخصا من الفلاحين قد سرق ثوراً فحكم عليه بالخوزقه. فقطع أنفه وآذانه واركبه على الثور وأشهره فى القاهرة ثم خوزق. ويقول بن إياس كان ملك الأمراء عجولاً فى أمر القتل وقد شنق وخوزق ووسط فى أيام ولايته على مصر مالا يحصى عددهم من الناس.. فانه كان جبارا عنيدا عسوفا وشنق رجلا على عود «خيار شنبر أخذه» من جنينه وشنق ووسط وخوزق من الناس جماعة كبيرة. واقترح لهم أشياء فى عذابهم فكان يخوزقهم من أضلاعهم ووبسيخ شك البادنجان فقتل بمصر وحلب فوق العشرة آلاف إنسان وغالبهم راح ظلما.

هكذا فعلت الخلافة العثمانية بمصر والمصريين. هذه الخلافة التى كانت تزعم أنها ظل الله فى أرضه ومع هذا فقد ثار عليها الشعب المصرى ثورات محدوده ومتفرقة هنا وهناك تحت شعار.. يا رب يا متجلى. إهلك العثمانلى.

عسكرة المماليك والعثمانلية

ولم تستطع العسكرة العثمانية وجبروتها القضاء على العسكرة المملوكية المنتشرة فى الريف والمدن والبنادر المصرية، فقد تضاءل شأن العسكرة العثمانلية رويدا رويدا فى مواجهة عسكرة المماليك التى أصبحت سلطة حاكمة تفوق سلطة العسكرة العثمانلية.

ولكن الأمر الغريب حقا ان سلطة العسكرة العثمانية الغازية قد تفككت إلى عدة سلطات عسكرية تبدو فى سلطة عساكر الينكجرية وآغاتهم وسلطة عساكر طائفة المتفرقة. وسلطة عساكر الاسباهية وسلطة عساكر العزبان وسلطات عسكرية أخرى يتولى أمرها ضباط برتبه قائمقام وصناجق وآغات.

وكذلك فقد تفككت العسكرة المملوكية التى استوطنت مصر إلى سلطات عسكرية مملوكية مثل سلطة العسكرة القاسمية التى تنتسب إلى قاسم بيك الدفتار ذو أحد قادة العسكرة المملوكية وسلطة العسكرة الفقارية نسبة إلى ذى الفقار بيك الكبير من قادة العسكرة المملوكية ايضا وذلك بالاضافة إلى سلطات عسكرية متعددة يتزعمها آغات المماليك الجراكسة.

كل هذه السلطات العسكرية العثمانية والمملوكية التى تفشت كالوباء فى مصر كانت خاضعة من الناحية المظهرية لقائد العسكرة العثمانية ممثلا فى الباشا العثمانلى القابع فى

القلعة مثل على باشا قلج وحسين باشا الوزير ومحمد باشا البستانجى ثم عبد الله باشا على تعبير على باشا مبارك فى خططه التوفيقيه.

ثم استقل المملوك على بيك الكبير بشئون مصر وطرد الباشا العثمانى. ولكنه كوفئ بقيام انقلاب عسكرى ضده قام به كبير أعوانه محمد بيك أبو الذهب الذى ورث سلطانه المملوكان إبراهيم بك ومراد بيك يقول حسين فوزى.. على بيك الكبير البروفة الأولى لمحمد على باشا.. مملوك استقل تماما بحكم مصر عن السلطة العثمانية واستولى على سوريا سنة ١٧٦٨م حتى خانه مملوكه محمد بيك أبو الذهب ونجح فى القضاء عليه واستولى على الحكم وعاد إلى الحظيرة الشاهانيه.. وبعد موته تقاسم السلطة زعيمان كبيرات وشيخان من شيوخ المنسر المملوكى مراد بيك المحمدى.. وإبراهيم بك المحمدى. نسبة إلى محمد بيك أبو الدهب وذلك حتى جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ م.

هذه هى السلطة العثمانية والمملوكية وعسكرتها التى تكاثرت فرقها وجماعاتها وعصاباتها العسكرية والمسلحة والتى حكمت مصر وشعبها من سنة ١٥١٧ حتى سنة ١٧٩٨ أى مائتين وواحد عاما وفى سياق حكم هذه العسكرة المتعددة والمتشعبة تعرض الشعب المصرى للقتل والنهب وهتك العرض أضعافا مضاعفة فكل سلطة من هذه العسكرة تقتل ما تشاء من المصريين وتنهب كل ما لدى الفلاحين والصناع والتجار وتهدر أعراض المصريات بغير حدود وتلوط بالصبيان والرجال المصريين بقوة السلاح.

واكثر من هذا فقد حضر من الاستانه فى سنة سبع وعشرين وألف أربعة آلاف عسكرى من العساكر الأوباش والبلطجه قد أبعدتهم الدولة العثمانية وطلبت من والى مصر العثمانى ان يبعث بهم إلى اليمن عند حلولهم بالديار المصرية. فلما أراد الباشا التركى ارسالهم إلى تلك الجهة قاموا بالعصيان وقفلوا باب الفتوح وباب النصر وعملوا متاريس بالطرق والشوارع واستولوا على منازل المصريين ووصلوا بعضها ببعض فوجه إليهم الباشا عساكره ووقع بين الفريقين القتال عدة أيام حتى انتهى بخراب جهة الجمالية والحرنفش وباب الشعرية والحسينية وما جاور ذلك. واستمرت الفتن بين العساكر إلى سنة خمس وثلاثين بعد الألف بما يتخلل ذلك من كالغلاء الفاحش الذى حصل فى زمن إبراهيم باشا السلحدار فقد لقى الناس هولا كبيرا. هكذا كتب على باشا مبارك فى خططه التوفيقية التى أخبرتنا

ايضا. انه فى سنة سبع وثلاثين والف زمن الوزير محمد باشا عين العساكر للسفر إلى بلاد الحبشة صحبة الأمير قانصوه فعسكروا فى العباسية. وجعلوا يخطفون الاولاد والبنات ويفتكون بالمارين ويسلبون وينهبون حتى انقطعت الطرق وضاق ذرع الناس. وحل بهم الكرب من كل مكان ولم يجدوا مغيثا.

ولم تكن المصائب قاصره على ما يحصل من العسكر بل كثير من الأمراء المماليك والعثمانليه لا فكرة لهم إلا فيما يجلب به الضرر للمصريين وجمع أموالهم. كما فعل احمد باشا الذى كان يلقب برامى النحاس حيث جلب نحاسا كثير واراد عمله فلوسا فجمع الصناع لعمل هذه الفلوس فلم يتحصل على ما أراد من الفائدة فرماه أى النحاس على التجار وسائر آرباب الحرف فلحق بالناس الكثير من الضنك.. وكان اكثر الحكام من المماليك والعثمانية يقرر الرشوة على الناس ثم يستعملها من بعده حتى عدة أنواع من الفرض والبلص وتلاتين نوعا منها.

وخلال هذه الأيام السوداء استطاعت عصابات العساكر العثمانية والمملوكية فرض حمايتهم على التجار والصناع والفلاحين والملاحين المصريين مقابل مشاركتهم فى دخلوهم وآرباحهم.

وفى عهد عسكرة مراد بيك وعسكرة إبراهيم بك تفشى الطاعون وانتشر الغلاء فزادت المصادرات والمظالم وتعدى الامراء وعساكرهم الذين انتشروا فى النواحى لجلب الأموال من القرى والبلدان واحداث كل أنواع المظالم حتى اهلكوا الحرث والنسل وقل الزرع وضاق الذرع واشتد الكرب وتشتت الفلاحون من بلادهم فخربت أغلب بلاد الأرياف. وطمع إبراهيم بك فى مواريث المصريين.

وانتشر الفلاحون فى المدينة بنسائهم واولادهم يضجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشر البطيخ وأوراق الشجر حتى لا يجد الزبال شيئا يكنسه. واشتد الكرب حتى اكلوا الميته من الخيل والحمير والبغال والجمال. فكان إذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه فمنهم من يأكل ما آخذ نيئا من شدة الجوع. ومنهم من هو على خلاف ذلك. ومات الكثير جوعا.

هذا والغلاء مستمر والأسعار فى نمو والدرهم والدينار عزيز من أيدى الناس والتعامل قليل إلا فيما يؤكل إلى آخر ما قاله الجبرتى. ومع ذلك كانت الأمراء وعساكرهم تنهب فى المدينة وعساكرهم تنهب فى بلاد الأرياف وما من مجير.

ومهما يكن من أمر فقد ضج الأهالى من كثرة نهب القرى وسبى نسائهم واولادهم وهدمها وحرقها يؤكد ذلك ما جاء على لسان الأمير المملوكى حسين بك المشهور بشفت عندما أحضره إبراهيم بك لإعادة الأشياء التى نهبها من أهالى الحسينية فقال له:

كلنا نهابون أنت تنهب ومراد ينهب وأنا أنهب كذلك.

ويتحدث الرحالة فولنيه عن أحوال القاهرة فى هذه الأيام فيقول.. ان القادم إلى القاهرة نفسها لتأخذه الدهشة إذ يرى مظهراً عاماً للشقاء والبؤس فالجماهير التى تحتشد فى الشوارع لا تبدو له إلا فى أسمال قذرة أو عرايا تشمئز من منظرهم النفس وكل ما يقع تحت بصره وسمعه يذكر بأنه فى بلد تغشاها العبودية والظلم ولا حديث للناس إلا عن البؤس وابتزاز الأموال وأنواع التعذيب والتقتيل فلا أمان للإنسان على حياته وعلى ما يملك والقضاء يقضى على الإنسان بالإعدام من غير أى جرم والشرطى فى تجواله بالليل أو فى دركه بالنهار يحكم وينفذ فى لمح البصر ولذلك كانت القاهرة تموج بالعفن والعفونة.

يقول حسين فوزى:

لاشك ان القاهرة كانت شديدة القذارة مرتفعة العثير وان كلا بها السائمة كانت كثيرة. والأوخام والطواعين كانت متقاربة الوقوع. وكانت روائح القاهرة العفنة بحاجة إلى حرق الكثير من البخور والتطيب بالإعطار. والا فكيف يمكن تصور تلك الرؤوس المقطوعة تعلق بالأسبله والأسوار والأبواب وتلك الرمم الموسطة أو المكبلة أو المصلوبة أو المشنوقة تترك أياما فى عرض الطرقات امام الرائح والغادى ويقول عنها المؤرخ فى برود عجيب. وبقيت رقبة بلا رأس ثلاثة أيام وقد جافت وولغت فيها الكلاب.. كيف يمكن تصور هذا فى جو القاهرة الحار سبعة أشهر فى العام دون التيقن بأن أنوف أجدادنا زكمتها روائح القمامة والعفونة والجيف.

وفى ذلك السياق الجهنمى فقد حملت السلطة العثمانية إلى مصر هدية تهدى على حد تعبير حسين فوزى الذى حدثنا عنهم بقوله.. طغمة الدلاة ذوى الصراصير السوداء.. جماعة

من الأبالسة سابت من جهنم شرذمة من العسكر جمعت فأوعت من حثالات المتاوله والاكراد ومن مناسر القتلة وقطاع الطرق ومن كل عات فاسق لقظته مجتمعات الشرق الأدنى التى لم تكن هى ذاتها نماذج باهرة للفضائل.

ويقول حسين فوزى ايضا:

وانى اعتذر هنا اذا اغتم على ذلك الشعب المصرى بأنكى وأفظع الوصمات فأمر هؤلاء الدلاة لن يقف عند السطو والنهب والسبى والفسق العلنى. بل ستسمع ان اولئك البلطجية كانوا يلوطون فى الرجال الاختيارية ولعلك تعرف معنى تصرف الرجل الاختيار فهو شيخ جاوز الخمسين أو قارب الستين اختلط البياض بسواد لحيته وطلعت على جبينه زبيبة الصلاة سمراء من غير سوء أليس ذلك كله بكاف ليعرف الإنسان المصرى المعاصر ان أجداده المصريين سواء كانوا أقباطا أو مسلمين قد حملوا إليه من خلال ذراريهم وأعقابهم مقتا شديدا وكراهية غير محدودة للعسكر والعسكرة إلى حد الصراخ بعبارة إذا كان ذراعك عسكرى اقطعه.. كما حملوا إلى حفيدهم الإنسان المصرى المعاصر ايضا عبر نفس الطريق الوراثى الذل ومظاهره مما جعل الذل مصرى الجنسية. ذلك الذل الذى طفحت به العسكرة وعساكرها الغزاة والمستوطنين والمصريين من بعد.

إن كان ذراعك عسكرى اقطعه

إذا كان ذراعك عسكرى اقطعه.. حتى ولو هو اليمين إرميه واخلعه هكذا عبر الشعب المصرى عن خصومته الشديدة واللدودة للعسكرى أى النظام العسكرى سواء كان غازيا استوطن أو مصرى الأب والأم.

ان هذه الخصومة هى أطول خصومة فى التاريخ حيث بدأت تقريبا من حكم الفرس فى عام ٥٢٥ قبل الميلاد إلى عام ألفين أو يزيد من الميلاد أى أن عمر هذه الخصومه قد بلغ ألفى وخمسمائه وخمسة وعشرين سنة قابله للزيادة. ولهذا فهى خصومه تغطى التاريخ المصرى وتحتل العقل المصرى وتملأ القلب المصرى وتشغل الوجدان المصرى مما دفع الشعب المصرى إلى اعلانها بصراحة ولو كره الكافرون بحقيقة الجرائم البشعة التى ارتكبها العسكرى الفارسى ثم العسكرى البطلمى ثم العسكرى الرومانى ثم العسكرى الأموى والعباسى

والطولونى والأخشيدى ثم العسكرى الأيوبى والمملوكى والعثمانلى ثم العسكرى الأسود فى عهد الملك فاروق ثم العسكرى حمزه البسيونى قائد السجن الحربى والعسكرى صفوت الروبى فى السجن الحربى ايضا ثم العسكرى فى اوردى أبو زعبل وفى سجن القلعة وفى سجن العقرب بليمان طره وفى سجن المحاريق بالواحات وفى السجون المصرية المعاصره.

ولقد انصبت جرائم ذلك العسكرى على الشعب المصرى طوال اكثر من نصف الف من السنين قبل الميلاد وطوال ألفين من السنين بعد الميلاد ولهذا ينبغى طرح السؤال التالى :

كم مليونا من المصريين قتله ذلك العسكرى.. ثم كم مليونا من المصريين عذبه وسجنه ذلك العسكرى.. ثم كم مليونا من النساء المصريات تعرضه لهتك العرض بواسطة ذلك العسكرى.

وكم صبى ورجل وشيخ تعرض للواط الاكراهى بواسطة ذلك العسكرى.

وكم مليونا من المصريين تعرضوا للسخرة والعمل الاكراهى فى اشغال الحفر والردم والاساءات بواسطة ذلك العسكرى.

وكم مليونا من المصريين تعرضوا للنهب والسلب والطرد من أرضهم أو الهروب منها بواسطة ذلك العسكرى.

وكم مليونا من المصريين أهدرت آدميتهم وشخصيتهم الإنسانية فى السجون وفى استنطاقات ذلك العسكرى.

يقول الدكتور جمال حمدان:

إن مصر أقدم مستعمره فى التاريخ..

ولكن كان يجب عليه أن يقول.. إن مصر أقدم قشلاق عسكرى فى التاريخ. وأوسع قشلاق عسكرى فى التاريخ.

قشلاق عسكرى قماشه كل مصر بطولها وعرضها وبمدنها وبنادرها وقراها وكفورها.

قشلاق طفح بأقدم دستور عسكرى وسلطوى يقول يا أيها العسكرى وكل عسكرى تسلطن على مصر وحدك وأحكم مصر وحدك حيث لا يحكمها ولا يقوم حكمها الا على أكتاف حمله السلاح من العساكر المحاربين.

يا أيها العسكرى وكل عسكرى احبس المصرى حبسا مطلقا فى الزرع والضرع والحرفة والصنعة. اجعله فلاحا قراريا وصانعا مبدعا ولا تجعله محاريا ابدا. احرمه حرمانا مطلقا من ركوب فرس أو حمل سلاح. اقطع رجليه حتى لا يخرج من بيته ليدخل فى شئون غيره أو فى شئون مصر. وأقطع لسانه حتى لا يجهر بقول السوء ضد السلطة وضد السلطان.

يا أيها العسكرى وكل عسكرى.. اصفع المصرى بسبب أو بغير سبب على الوجه والقفا ولا تجعله يتجاهر أو يتظاهر أو يشكو أو يتأفف يآهه أو يحرض غيره حتى لا يتحول إلى فرعون متمرد على ضفاف النيل.

ذلك هو الدستور السلطوى والعسكرى الأبدى الذى لم ولن يتوارى الا بموت العسكرى ولهذا فقد نفذه بحذافيره العسكرى الغازى والعسكرى المستوطن والعسكرى المتحضر والعسكرى المصرى القح.

فالعسكرى الفارسى قد نفذه فى المده من سنة ٥٢٥ قبل الميلاد حتى سنة ٣٢٨ قبل الميلاد أى طوال ١٨٧ سنة.

والعسكرى الأغريقى والبطلمى نفذه من سنة ٢٣٢ قبل الميلاد حتى سنة ٣٠ قبل الميلاد أى طوال ٢٠٢ سنة.

والعسكرى الرومانى نفذه من ٣٠ سنة قبل الميلاد إلى سنة ٦٤٠ سنة ميلادية أى ٦٧٠ سنة.

والعسكرى العربى والأموى والعباسى والطولونى والأخشيدى نفذه من سنة ٦٤٠ ميلادية إلى سنة ٩٦٩ ميلادية أى طوال ٣٢٩ سنة.

والعسكرى الفاطمى والأيوبى نفذه من سنة ٩٦٩ ميلادية إلى سنة ١٢٥٠ ميلادية أى طوال ٢٨١ سنة، والعسكرى المملوكى والعثمانلى نفذه من سنة ١٢٥٠ ميلادية إلى سنة ١٧٩٨ ميلادية أى ٥٤٨ سنة.

والعسكرى الفرنسى نفذ بعض بنود الدستور من سنة ١٧٩٨ ميلادية حتى سنة ١٨٠١ ميلادية أى طوال ثلاث سنوات فقط.

والعسكرى فى عهد أفندينا محمد على وأسرته قد نفذ الكثير من بنود ذلك الدستور من سنة ١٨٠٥ حتى سنة ١٩٥٢ أى طوال ١٤٧ سنة.

والعسكرى المصرى قد نفذ ايضا الكثير من بنود ذلك الدستور العسكرى والسلطوى من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ٢٠٠٠ اى سنوات حكم الرئيس مبارك وما بعدها أو قل إلى ما شاء الله أى طوال ٤٨ سنة قابله للزيادة الموغله فى الألفية الميلادية التالية.

ولا يعنى ذلك إلا ان مصر المحروسة كانت ومازالت وسوف تظل قشلاقا عسكريا يصول فى جنباته العسكرى ويجول فى أرجائه باعتباره ملكا اقطاعيا لا يوجه إليه نقد ولا يسرى عليه قانون حيث يعبث فى المجتمع المصرى ويشكله وفق ارادته العسكرية والسلطوية التى تصبح إرادة فاشية وحدانية مركزية شمولية مما أدى إلى ترسيخ علاقات الخصومة الظاهرة والمنتشرة بين العسكرى المصرى والشعب المصرى الذى أصبح مجرد رعية لفخامة ذلك العسكرى الأزلى الجاثم على صدر المصريين فى رحاب الألفية الثالثة للميلاد.

ولم ولن يتم هدم ذلك القشلاق العسكرى الذى يضم كل مصر إلا بإزاحة العسكرى المتربع على عرش ذلك القشلاق المصرى الذى جعل من الشعب المصرى الكادح والمنتج والأجير والفقير حشد من الرعية المحكومين الذين اعتادوا أكل خبزهم بلا غموس أو بالمش والمخلل والفول والطعمية والدعاء للسلطان بالنصر إذا وجد الخبز وغموسه. تعبيرا عن الذل المصرى.

إذن فإن مصر كانت ومازالت وحتى الآن هى قشلاق. وعسكرى. ورعيه. وذل فالقشلاق للعسكرى الحاكم والمالك. والذل للرعيه المحكومة والمستعبدة.

هذه الوضعية المصرية الظالمة وغير المنطقية سوف تظل قائمة حتى تغيرها وتعصف بها العبقرية المصرية وثورتها العظيمة فتتيقظ الوطنية المصرية وتتفجر ثورية الشعب المصرى الكامنة مثلما حدث فى مواجهة الحملة الفرنسية.

إن هذه العبقرية الثورية المصرية قادمة. قادمة. قادمة لمحو وإزالة القشلاق المصرى والعسكرى واستبداله بمجتمع ديمقراطى مدنى وابعاد العسكرى الازلى والمصرى وانهاء دورة السلطوى والاستبدادى إلى غير رجعه ليحمل محله حاكم مدنى شعبى ديمقراطى قابل للتغيير والتبديل تبعا للإرادة الحره للشعب المصرى التى تعبر عنها الانتخابات الديمقراطية الحرة.

وفى سياق هذه العبقرية وتورثها التى تعبر عن تنمية الحس الوطنى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى للشعب المصرى الكادح والأجير الذى فقد قيادته الوطنية والثورية الفعاله يبادر الإنسان المصرى بالتمرد والعصيان من خلال خلع توب الرعيه المهلهل من على بدنه وتحرير روحه من الذل حيث يرتدى ثوب المواطنه المصرية ويستعيد عافيته الروحية وكرامته الإنسانية والوطنية.

وعندئذ فقط يصبح المصريون الكادحون والمنتجون مواطنون لا رعايا على حد تعبير خالد محمد خالد، كما يصبح الذل المصرى معدوما ومشلوحا من جنسيته المصرية مما يدعونا إلى الهتاف بصوت عال:

إذا كان ذراعك عسكرى اقطعه وحتى لو اليمين ارميه واخلعه.

من أجل مجتمع ديمقراطى مدنى تتوافر فيه الخبز والحرية.

حتى تأتينا الاشتراكية الديمقراطية والثورية.

الذل مصرى الجنسية

مصر القشلاق. مصر العسكرى، مصر الرعيه، مصر الذل من فعل بها ذلك ؟ ودفع بها إلى الدرك الأسفل وألقى بها فى مستنقع العبودية والقناعة والفساد والاستبداد.

إن الفراعنة لم يفعلوا ذلك رغم ان الفرعون كان يلقب بالفرعون الملك والإله لا لأنهم مصريون دما ولحماً ولكن لأنهم أول من طلع عليهم فجر الضمير الإنسانى فى غسق التاريخ مما جعلهم يرفضون عبودية الإنسان المصرى لأخيه المصرى فتطور الزرع والضرع والحرفة والصنعة فأصبحت مصر مجتمعا خاليا من العبودية التى كانت تعم البشرية مجتمعا اقطاعيا تقدميا جدا وقتئذ. مجتمعا مدنيا خاليا من شوائب العسكر والعسكرة، مجتمعا ينقسم إلى ريف زراعى ومدن حرفيه، مجتمعا يموج بالصراع الطبقى والاحتجاجات الاجتماعية، مجتمعا يبحث عن الله ويجرى وراء معرفة الكون مما جعله مجتمعا مدنيا متحضرا يعيش فى رحابه المصريون مواطنين لا رعايا.

ولكن عسكرة الغزاة وعساكرهم قد قلبوا المجتمع المدنى المصرى رأساً على عقب فأصبح المجتمع المصرى قشلاقاً، وعسكرى ورعيه وذل إلى يومنا هذا وعصرنا هذا إلى حد ان الذل قد بات مصرى الجنسية.

يقول المقريزى:

ومن أجل توليد أرض مصر الحبن والشرور الدنيئة فى النفس لم تسكنها الأسد. وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل وكلا بها أقل جراة من كلاب غيرها من البلدان، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الآخر ما خلا ما كان فيها فى طبعه ملاءة لهذه الحال كالحمار والأرنب.

ويقول المقريزى أيضا:

وقد روى عن عمر بن الخطاب ﷺ انه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها فقال. إن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شىء لشىء فقال العقل أنا لاحق بالشام فقالت الفتنة وأنامعك. وقال الخصب أنا لا حق بمصر. فقال الذل وأنا معك وقال الشقاء أنا لا حق بالباديه فقالت الصحة وأنا معك ويقال لما خلق الله الخلق خلق معهم عشرة أخلاق، الإيمان والحياء والنجدة والفتنة والكبر والنفاق والغنى والفقر والذل والشقاء... فقال الإيمان أنا لا حق باليمن فقال الحياء وأنا معك. وقالت النجدة أنا لاحقه بالشام. فقالت الفتنة وأنا معك. وقال الكبر أنا لاحق بالعراق. فقال النفاق وأنا معك، وقال الغنى أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك. وقال الفقر أنا لاحق بالبادية فقال الشقاء وأنا معك ولقد كرر السيوطى نفس المعانى السابقة وأضاف عليها قوله عن الحجاج عن بن القرية.. إن أهل مصر عبيد لمن غلب وتبدو لنا مظاهر الذل المصرى الذى تفشى كالوباء القومى بين المصريين عامة والفلاحين خاصة فيما كتبه الشيخ يوسف الشربينى فى كتابه.. هز القحوف فى تفسير قصيدة أبى شادوف حيث يقول فى وصف أحوال الريف المصرى الذى يضم الفلاح المصرى المسلم أبا شادوف وشقيقه الفلاح القبطى أبا عوكل.

لا تسكن الأرياف إن رمت العلا.. إن المذلة فى القرى ميراث

تسبيحهم هات العلف حط الكلف .. علق لثورك جاءك المحراث

والساكن فى الريف معدوم اللذات لأنه دائما فى انقباض وطر وضرب ولعن وهوان وشجار وشيل تراب وحفر آبار وخروج للعونه إلى جهة السخرة وتعب شديد بلا أجر.

ويحكى أن أحد الملوك خرج مع وزيره للنزهة قمرا على فلاح يحرث فى الأرض وقد وضع على رأسه لبدة بالية ولبس ملابس مهلهلة وقد أسود قفاه من الحر وتشققت قدماه

من الحفر ومن شده البرد وكان حاله فى كرب.

فقال الملك لوزيره ما حال هذا الرجل - أى الفلاح المصرى - فقال يا ملك هذا من فلاحى الريف - المصرى - وينشأ الشخص منهم على التعب والنصب والهم والغم والطرد والجرى وقلة معرفة بالدين.

فقال الملك لوزيره هل ترى اذا أخذناه وعلمنا القرآن وأشغلناه بالعلم وألبسناه ملابس النعم يتغير طبعه.

فقال الوزير أيها الملك أما سمعت قول الشاعر:

لا يخرج الإنسان عن طبعه حتى يعود الدر فى ضرعه.
من كان من جميزه أصله لا ينبت التفاح من جذعه.

ويواصل الشيخ يوسف الشربينى عرض لوحات الحال المصرى فيقول :

واتفق ان ثلاثة أنفار من أهل الريف طلعوا إلى المدينة فساروا حتى اقتربوا منها فقال كبيرهم. اعلموا أن مدينة مصر كلها جنادى وعساكر يقطعوا الرؤوس واحنا فلاحين إن لم نعمل مثلهم. ونوطن عليهم بالتركى، والا قطعوا رؤوسنا.

وصلى رجل من الفلاحين فأحرم بالصلاة وقال.. يا رب خل لنا بهايمنها وكلابنا وقططنا وحميرنا. وطلع لنا زرعنا وخلى ولدى عنطوز.

ومن مظاهر الذل المصرى غرامة الأكل الاجبارية التى كان يتعرض لها الفلاح المصرى عند نزول الملتزم المملوكى أو العثمانلى وعساكره والمشد - الخفير - والصراف النصرانى لجباية المال حيث يضطر الفلاحون الفقراء من أهل القرية أو الكفر إلى توزيع وجبات طعامهم اليومى على بعضهم البعض بالاضافة إلى اعداد علف المواشى الخاصة بالملتزم. وعساكره ورجال وذلك حسب مقدار حيازتهم للأرض الزراعية فمنهم من يقدم الوجبات كل ثلاثة أيام ومنهم من يقدمها كل أسبوع ومنهم من يقدمها كل شهر.

وكانت طفاسة الملتزم وعساكره وشراهتهم تجبر الفلاحين على تقديم هذه الوجبات محمله باللحوم والفراخ وحتى لو كان الفلاح معدما وفقيرا ألزموه بذلك قهرا وإلا حبسه

المشد وضربه ضربا موجعا.. وفى حالة هرب الفلاح من تقديم هذه الوجبات وعلف المواشى فيرسل المشد إلى اولاده وزوجته ويهددهم فتلجأ الزوجة التعسة إلى رهن مصاغها أوملبوسها على دراهم من أجل إعداد اللحم والدجاج لاطعام الملتزم وعساكره ورجاله، وقد يربى الفلاح الدجاج فلا يأكل منه شيئا ويحرم نفسه واولاده خوفا من الضرب والحبس.

ويبدو الذل وما يصاحبه من خوف ورعب وفزع عند وصول الكشاف المملوكى أو العثمانلى ومعه عساكره واكثر من مشد أى عدد من خفراء القرى والكفور لتقدير العوايد والضرائب والإتاوات على الفلاحين تنفيذا لأوامر الملتزم حيث يقول الفلاح :

ومن نزلة الكشاف شابت عوارضى .. وصار لقلبى لوعة ورجيف

وتكرر هذه الحالة المرعبة اكثر واكثر يوم نزول الديوان أى الملتزم وأجناده لجباية الضرائب من الفلاحين بالقرى والكفور حيث يصاب الفلاح بالاسهال وانقلاب أمعائه مما يجعله يقول بصراحة:

ويوم يجى الديوان تهتز مفاصلى.. وأهر على روحى من التخويف

وعندما ينادى المنادى فى القرية على العونه أى السخرة قائلا العونه بكرة يا بطالين يهرول الفلاح هربا ويقول :

ويوم تجى العونه على الناس فى البلد .. تخبينى جوا فى الفرن أم طيف

كل هذا الذل وما ولده فى مصر من خوف ونفاق وتزلف ومكر قد حدث بفعل المسكرة التى حولت المجتمع المصرى إلى قشلاق يتربع على عرشه العسكرى الواحد الأحد الذى استعبد مصر ونهبها وجعل شعبها المصرى أمه من الصناع والفلاحين وليست أمه من المحاربين كان من الممكن ان تحارب وتحافظ على مصر أرضا وعرضا ولكن تسرى الرياح بما لا تشتهى السفن. ولهذا فقد شهد قادة العسكر الفزاة ما حاق بمصر.

يقول الأمبراطور الرومانى تيباريوس لقائد عساكره فى مصر.. لقد أوفدتك لتجز صوف الشاه.. لا لتسلخها.. ويقول الخليفة عثمان بن عفان لقائد عساكره السابق عمر بن العاص منددا بسياسته المعتدلة فى جباية الضرائب من المصريين بعد ان تولاها عبد الله بن سعيد

بن أبى سـرح. لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو. فيجيبه عمرو قائلا ولكنها أضرّت بوليدها ويقـول الخليفـة الأموى سليمـان بن عبـد الملك لقائد عسـاكره فى مصـر أسـامـة بن زيد التنوخى.. إحلب الدر حتى ينقطع. واحلب الدم.. أى مصر.. حتى ينصرم.

ويقول الأمير المملوكى محمد بك الألفى لعساكره ومماليكه

الإنسـان الذى يكون عنده مـاشيـة ـ أى مصـر ـ يقتـات هو وعيـاله من لبنهـا وسـمنهـا وجـبنهـا يلزمـه أن يرفق بهـا فى العلف حتى تدر وتسـمن وتنتج له النعـاج. بخـلاف إذا مـا أجاعها وأحجفها وأبقها وأشقاها وأضعفها حتى إذا ذبحها لا يجد بها لحما. ولا دهنا.

فتجيبه عساكره المماليك هذا ما اعتدناه وربينا عليه.

هكذا كانت مصر فى نظر العسكر والعسكرة الغازية مجرد بقرة حلوب وبقرة لحوم بعد ان تحول مجتمعها إلى قشلاق عسكرى وشعبها إلى حشد من الرعية يتسلط عليها العسكرى سـواء كـان إمبـراطورا أو خليفـة أو ملكا أو سلطانا أو رئيس جمهـورية. فـهـذا العسكرى لا يستطيع ان يظل متربعا على عرشه مـا لم يجعل الذل مصرى الجنسية. بدليل ان الذل قد بات ظاهرة متفشية فى الحياة المصرية رغم ولوجها إلى سنوات الألفية الثالثة للميلاد حيث يظهر الذل بشكل صـارخ فى توابعـه النفـاق والذل والخـوف ذلك الثـلاثى الذى يشـاهده الإنسـان المصرى بوضوح فى عـلاقة الرعية المصرية مع الحاكم المحلى والعام وخاصة ضابط المباحث والشـرطة الذى يخاطبه عوام المصريين وبسـاؤهم بالبـاشا بينمـا يرد عليهم بالحبس والصفع على الوجه والقفا وتلفيق التهم الجنائية بدون حق وبغير قانون لأنهم شعب من الرعية.

كمـا يبدو الذل وتوابعه من نفاق وتزلف وخـوف فى عـلاقة مـجمل المثقفين المصـريين ومجمل كبار الموظفين فى علاقتهم بالعسكرى الأوحد الذى يعز من يشاء ويذل من يشاء فى دولته مما يدعـو كل مصـر إلى القول.. ارقصى للقرد فى دولته، إن دولة القـرد هذه هـى دولة القشـلاق والعسكرى والرعية وذل الرعية المصرى. هذا الذل الذى أصبـح مسـألة مصـرية ينبغى مواجهتهـا فى الألفية الميلادية الثالثة ولكن من أين تـأتى المواجهة ومـا يصاحبهـا من عصيـان شعبى وتمرد جماهيـرى وثورة عامـة.. ولـلأسف فإن مثل هذه المواجهـة الشعبيـة والثورية غيـر واردة بسـبب الذل المصـرى وحصـاره للعقل المصـرى والإرادة المصـرية والروح

المصرية. ومن هنا ينبغى تكرار القول بأن المواجهة المشار إليها مواجهة ممنوعة لا بسبب حصار الذل المصرى لها ولكن ايضا بسبب غياب قيادتها الوطنية والثورية مما يعنى ان الوعى الوطنى والاجتماعى غير موجود ايضا.

ومع هذا فسوف تحدث هذه المواجهة التى سوف تقهر الذل المصرى وتخترقه وتقضى على حصاره للرعية المصرية من خلال نهوض الحس الاجتماعى للرعايا المصريين من عمال وفلاحين وصغار موظفين وحرفيين وتجار الذين قد سيطر عليهم نهوض حس اجتماعى ووطنى تتفجر منه حتما العفوية وثورتها التى سوف تقضى على الذل المصرى المزمن بعد ان تقضى على مصادره.

■■■



حكم العكسر
فى مصر المحروسة
من الدولة الفرعونية
حتى حكم مبارك

مصر والعسكرة الحديثة

احتلال . سخرة . ثورات . اغتيالات

- شروق من الغرب
- غروب من الشرق
- عسكرة أفندينا واشتراكيته
- عسكرة السخر ورأس المال الأجنبى
- العسكرة الوطنية وثورتها
- الوطنية المصرية تواجه عسكرة الاحتلال
- ثورة المجتمع المدنى
- عسكرة ملكية متوحشة
- صراع الفاشية والمجتمع المدنى
- تحالف الفاشية الملكية وفاشية الإخوان
- نضال الوطنية المصرية وجنون الفاشية
- جذور الفاشية الصهيونية المجاورة
- الفاشية الصهيونية فى مصر
- اليسار يفضح الصهيونية

شروق من الغرب

حقا فإن الحملة الفرنسية وعسكرتها كانت بمثابة شروق من الغرب رغم انها كانت عسكرة استعمارية بكل المعايير ومع هذا فإنها توصف بعسكرة المدفع والمطبعة وعسكرة الثورة الفرنسية ثورة الحرية والآخاء والمساواة. وعسكرة العلم والمكتبة. وعسكرة الديوان وحجر رشيد، وعسكرة الموت للمقاومة المصرية.

ولذلك فإن تلك العسكرة الفرنسية والاستعمارية قصيرة العمر لا شأن لها بوجود القشلاق المصرى بدلا من المجتمع المصرى ولا بوجوب العسكرى الحاكم الفرد المستبد ولا بالشعب المصرى الذى فقد مواطنته وأصبح مجرد رعية ولا بظاهرة الذل المصرى الذى أصبح يمثل العلاقة السرمدية بين الحاكم والمحكوم فى مصر ولهذا فقد وصفت تلك العسكرة الفرنسية بأنها شروق من الغرب للأسباب التى تناولتها ولسبب آخر اكثر أهمية يتجلى فى ان مقاومتها كانت بعثا محققا للوطنية المصرية وثورتيها الكامنة كما سنتحدث فيما بعد.

وصلت الحملة الفرنسية وعسكرتها ومطبعتها إلى الاسكندرية فى يوم ٢٧ مارس ١٧٩٨ حيث لم نجد أية مقاومة مما أدى إلى اعطاء الامان للأهالى الذى قد اجتمع بعضهم بقائد العسكرة الفرنسية نابليون بونابرت الذى وصفه هيجل فيما بعد بأنه العقل يركب حصانا ويقال عنه أنه الخليفة الأول للإسكندر المقدونى وانه عبقرية عسكرية وسياسية وحضارية فهو مؤسس باريس الحديثة ومنشئ القانون المدنى وفى عهده تفجرت نهضة الموسيقى والفنون المختلفة.

وفى قرية شبراخيت التقت العسكرة الفرنسية بعسكرة المماليك بقيادة مراد بك التى هزمت شر هزيمة بعد ربع ساعة من القتال تاركة وراءها كل مدافعها ومعداتها.

وفى يوم السبت ٢١ يوليو ١٧٩٨ وقعت عند إمبابة المعركة الفاصلة بين عسكرة الفرنسيس وعسكرة المماليك وطبولها ورموزها حيث استمرت هذه المعركة الحربية ثلاثة أرباع الساعة هزمت خلالها العسكرة المملوكية الهزيمة النهائية حيث هرب الأجناد المماليك وقادتهم كالجرذان المذعورة تاركين أرض وعرض مصر بغير حماية.

ومما يذكر ان هروب أجناد العسكرة المملوكية الشرسة كان محزنا للغاية. فالخيول المملوكية داست أصحابها وولت هاربة وجثث عساكر المماليك بالمئات على الأرض أو فى النيل وعمائم الاجناد القتلى المدحورين فرشت الأرض والنيل معا عند بر إمبابة ويقال إن الجبرتى لم يذكر الوصف الحقيقى للعسكره الفرنسية خلال حربها للأجناد المماليك خوفاً من اتهامه بالتحيز للعسكره الفرنسية.

ولما وقعت هذه ألهزيمة المنكرة بادر القائد المملوكى إبراهيم بك والباشا العثمانلى وكبار المشايخ المصريين بالهروب من القاهرة إلى قرية العادلية بجوار مدينة بلبيس وقد علق الجبرتى على كل ذلك بقوله.. وخابت فى عسكر مصر الظنون ـ بقصد العساكر المملوكية ـ أولا وثانيا. وولوا الادبار وجمعوا بين النار والعار. والحكم لله الواحد القهار ولهذا فقد اعتبر الجبرتى الحملة الفرنسية وعسكرتها عقابا للماليك والعثمانيين بسبب مظالمهم لأهل مصر.

وتأكيدا لذلك فقد طبعت الحملة الفرنسية فى مطبعتها منشورا باللغة العربية يوضح فى سطوره سياسات هذه العسكرة المعادية فقط لعسكرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازه والجراكسه الذين يفسدون فى أرض مصر.. فإذا كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم.. ولكن بعون الله تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية. وعن اكتساب المراتب العالية. فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها.

وبعد انتصار العسكرة الفرنسية ودخولها إلى القاهرة وفرض سلطتها حدثت عدة أمور بالغة الأهمية.

الأمـــر الأول.. ان أهالى القاهرة قد هجموا على بيوت عساكر المماليك وقادتهم وفى مقدمتهم بيت إبراهيم بك ونهب ما فيها من متاع. ولقد استنكرت العسكرة الفرنسية هذه الأعمال.

الأمر الثانى.. ان نفس أهالى القاهرة استقبلوا عساكر العسكرة الفرنسية قبولا حسنا.. يقول الجبرتى:

ولما عدى كبيرهم أى قائد العسكرة الفرنسية نابليون بونابرت وسكن الازبكية، استمر غالب الفرنسيين بالبر الآخر ولم يدخل المدينة إلا القليل منهم.. ومشوا فى الأسواق بغير سلاح ولا تعد .. بل صاروا يضاحكون الناس. ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن.. فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها ثمنها ريال ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسا على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم.

فلما رأى العامة منهم ذلك آنسوا بهم. واطمأنوا لهم. وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك مثل السكر والصابون والدخان والبن وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار. وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى.

الأمر الثالث.. وطلب نابليون المشايخ فاجتمعوا به وأخبروه ان كبار المشايخ قد هربوا فلاطف المشايخ الحاضرين وضحك معهم وقال لهم لأى شىء يهربون.. اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعيه واجراء الشريعة ولذلك حضر بعض المشايخ ومن انضم إليهم من الفارين وكانوا فى وجل وخوف. واما عمر افندى مكرم نقيب الاشراف فانه لم يطمئن ولم يحضر.

الأمـر الرابع.. يذكر الدكتور محمد فؤاد شكرى فى كتاب عبد الله جاك مينو. ان بونابرت أصدر امره بتأسيس الديوان فى ٢٥ يوليو ١٨٩٨. وان المجلس تألف من عشرة من المصريين منهم الشيخ الشرقاوى رئيسا والشيخ البكرى والشيخ الصاوى نائبين للرئيس والجبرتى والشيخ المهدى سكرتيرا للديوان الخصوصى.. وذلك بجانب الديوان العمومى الذى تأسس من أصحاب الحرف والتجار وممثلى الطوائف غير الإسلامية.

الأمـر الخـامس.. لقد كان الغرض من تشكيل الديوان الخصوصى والديوان العمومى تحقيق وجود وزارة أو سلطة مدنيه فى مصر لأول مرة. ولكن المشايخ رفضوا المناصب التى كان يتقلدها البكوات المماليك قائلين ان سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم وفى مناقشة مسألة نهب البيوت فى الديوان اعترف المشايخ بعدم قدرتهم على منع ذلك لأن ذلك من وظيفة الحكام.

الأمـر السادس.. قام الفلاحون والعربان فى الشرقية والدقهلية بنهب عساكر المماليك وقادتهم ومنهم إبراهيم بك أثناء هروبهم من عسكرة الحملة الفرنسية كما تم نهب المشايخ والتجار المصريين الذين كانوا يصاحبونهم وكان من بينهم التاجر الكبير والمعروف السيد احمد المحروقى الذى أستنجد بسارى عسكر نابليـون حيث شكا له ما حل به وبإخوانه المصريين. فلامهم على هروبهم وانضمامهم إلى المماليك. ثم قبض على أبى خشبه شيخ قرية القرين وقال له عرفنى عن مكان المنهوبات.

إن هذه الأمـور الخمسـة تكشف لنا عن الكيفيـة المهينة التى ودع بها أهالى القاهرة والأرياف أجناد المماليك وقادتهم من البكوات أثناء هروبهم.. كما تبين لنا كيف عومل الهاربون من المشايخ والتجارالمصريين. وفى ذات الوقت تكشف لنا كيف استقبل المصريون فى القاهرة عساكر الحملة الفرنسية قبولا حسنا.

وبجانب ذلك فقد رغبت عسكرة الحملة الفرنسية فى دعوة المصريين إلى تأليف وزارة مدنية أو إدارة مدنية من خلال الديوان الذى قد أمر بتأسيسه قائد المسكرة الفرنسية نابليون بونابرت. وهذه أول عسكرة غازية تطلب من المصريين ومشايخهم وعلمائهم المشاركة المدنية فى إدارة شئون مصر.. وللأسف يقابل ذلك المطلب الحيوى بالرفض من جانب المشايخ والعلماء المصريين لأنهم قد اعتادوا للأسف على حياة الرعية المحكومين. وهكذا فقد فشلت أول بادرة من بوادر المجتمع المدنى فى مصر الحديثة، ومع هذا فقد كان ذلك الديوان مظهرا من مظاهر المجتمع المدنى فى مصر وكل بلدان الاستبداد الشرقى.. بالاضافة إلى أنه كان يعتبر أول مؤسسة مدنية مصر تقام على ضفاف النيل منذ عهد الفراعنة حيث كان يرى نابليون فيما بعد ان القوى المدنية والحكم المدنى خير وأبقى من

حكم العسكر والعسكره حتى فى إدارة شئون الحرب حيث قال قولته المشهورة.. لا تسمحوا للعسكريين بإدارة شئون الحرب فإنها مسألة أكبر منهم.

ومن عجائب هذه العسكرة الاستعمارية الغازية أنها لم تحمل معها فى غزوها المدفع فقط بل عملت معها المطبعة والكتاب والمكتبة والعلم والعلماء والفكر والمفكرين بقصد محو الظلام المملوكى والعثمانلى وجهالته.

ولقد تجلت حمولتها العلمية إلى مصر فى اكتشاف حجر رشيد وفك طلاسمه وما فيه من مكتوب باللغة المصرية القديمة ـ الهيروغليفية ـ واللغة الديموطيقية. واللغة اليونانية بواسطة العالم الفرنسى شامبليون مما أدى إلى فتح آفاق واسعة على التاريخ الفرعونى كما أسست العسكرة الفرنسية مكتبة علمية فى مقر قيادتها حيث كانت العساكر الفرنسية ترحب بشيوخ الأزهر وعلمائه خلال زيارتهم للمكتبة وفروع المجتمع العلمى الذى أقيم فى القاهرة أيضاً..

ومما يذكر أن مشايخ الأزهر قد تخوفوا من الكتب الفرنسية مع أن الشيخ الجبرتى قد سجل إعجابه بالاطلاع فى المكتبة وكذلك بالتجارب العلمية التى أجريت أمامه فى المجمع العلمى. وكانت آلات الرصد الفلكى من أكثر الأقسام التى توقف أمامها طويلا. وهذا هو وصفه لنظام العمل فى المكتبة الفرنسية.. فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر ساعتين. ويجلسون فى فسحة المكان المقابل لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاه عريضة. فيطلب من يريد المراجع ما يشاء منها. فيحضرها الخازن فيتصفحون ويراجعون حتى أسافلهم من العسكر. وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدون الفرجة لا يمنعونه من الدخول إلى أعز أماكنهم. ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئة إليهم. وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة للنظر فى المعارف. بذلوا له مودتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع المعارف.

وكان مؤرخنا الشيخ الجبرتى وزميله الشيخ الخشاب يعقدان جلسات علميه مع العالم الفلكى ـ توت ـ والعالم الحكيم ـ رويا ـ والمصور الفنان ـ أريجو.

ويصف الجبرتى مقر المجمع العلمى الذى انشأته العسكرة الفرنسية فيقول:

وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم والرياضة كالهندسة والنقوشات

والرسومات والمصورين والكتبه والمنشئين أفردوا لهم حارة الناصرية جهة الدرب الأحمر الجديد وما به من بيوت منها بيت حسن كاشف جركس القديم ووضعوا فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها.

ولقد صاحب هذه التجليات العلميه للعسكرة الفرنسية تجليات أخرى فكرية تمثلت فى فكرة زواج الشرق من الغرب من خلال نشر الصناعة الحديثة ومواجهة المسألة الزراعية فى مصر بتحقيق إصلاح زراعى يقضى على سطوه الملتزمين الاقطاعيين من مماليك وعثمانلية ومشايخ مصريين وقد ثار جدل فى هذه المسألة بين ضباط العسكرة الفرنسية الاشتراكية بقيادة الجنرال الاشتراكي الاعرج قائد سلاح المهندسين فى العسكرة الفرنسية (كافاريللى) وبين الضباط الفرنسيين الليبراليين حيث كان ينادى الجنرال الاشتراكى بتحقيق إصلاح زراعى يعطى الأرض للفلاحين الفقراء.. ولكن قادة العسكرة الفرنسية الآخريين كانت تميل إلى وجود طبقة متوسطة من الفلاحين المصريين من الممكن أن تصبح قوة اجتماعية مدنية تساعد الوجود الاستعمارى للعسكرة الفرنسية فى مصر ونظرا لأن عسكرة هذه الحملة الفرنسية قد انبثقت من الثورة الفرنسية، ثورة الحرية والآخاء والمساواة فقد بادرت باحترام المرأة المصرية وتقديرها إلى حد ان قائدها العسكرى الجنرال مينو قد اعتنق الإسلام وتزوج بفتاه مصرية حسناء من أهالى رشيد. وهذا ما دفع بعض عساكر العسكرة الفرنسية إلى اعتناق الإسلام والزواج من مصريات.ولهذا فقد هرب الكثير من الجوارى السود المستعبدات فى بيوت البكوات المماليك والعثمانلية للزواج من الجنود الفرنسيين.

وفى مجال العمل والتشغيل الذى قد باشرته العسكرة الفرنسية فى مصر لم تظهرالسخرة ولم يتواجد العمل الإكراهى المعتاد بل ظهر العمل الحر والمأجور لأول مرة فى الحياة المصرية حيث تقاضى العمال والاجراء أجورهم فوراً مقابل أشغالهم.

يقول الجبرتى عن الجسور والقناطر التى شيدت فى عهد العسكرة الفرنسية بقصد الخدمة العامة.

إنهم كانوا بينونها علشان يوصلوا المحروسة ببعضها زى الجسر اللى قاموه بين الازبكية وبولاق وفرعوه بعد بولاق إلى فرعين فرع لطريق أبو العلا. والثانى نازل هناك على ساحل

النيل. وفعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى أقرب زمن ولم يسخروا أحداً فى العمل. بل كانوا يعطون الرجال زيادة فى أجرتهم المعتادة ويصرفونهم من بعد الظهيرة ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات الغريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل وقلة الكلفة. وكانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربيات صغيرة ويداها ممتدان من خلف يملأها الفاعل ترابا أو طينا من مقدمها بسهولة له بحيث تسع مقدار غلقين ثم يقبض بيديه الخشبتين ويدفعها أمامه فتجرى على عجلاتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل فيميلها بإحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة. وكذلك لهم فؤوس وإزم محكمة الصنع سهلة الحمل والوضع. وغالب الصناع كانوا من جنسهم.. ولا يقطعوا الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية.

هذه لمحة من العلاقات الاجتماعية الراقية والمتقدمة لعسكرة الحملة الفرنسية. هذه العلاقات التى جاورها انصاف فى الحقوق والعدالة. ولقدتجلى ذلك الانصاف المصحوب بالحياد فى حادثة مقتل الجنرال كليبر الذى استخلفه نابليون بونابرت بعد سفره إلى فرنسا.

ينوه الجبرتى بإعجاب شديد بأن الشهيد سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر سارى عسكر الفرنسيين قد ضبط متلبسا بتهمة القتل حيث كانت الدماء تغطى ملابسه واله القتل مضمخة بدماء سارى عسكرهم وأميرهم.. ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم. بل رتبوا حكومة ومحاكمه وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين.. ثم نفذوا العقوبة فيهم بما اقتضاه التحكيم وأطلقوا مصطفى افندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص.

ومن هنا فقد توثقت العلاقة بين مشايخ مصر ومثقفيها وبين عسكرة الحملة الفرنسية يؤكد ذلك رسالة التهنئة التى بعث بها المشايخ المصريين إلى نابليون بونابرت بمناسبة توليه القنصلية فى فرنسا حيث اكدوا فيها ولاءهم واستعدادهم لربط مصر بفرنسا وهذه هى الرسالة.

ونحن إذا قلنا ان المصريين يؤلفون مع الفرنسيس أمة واحده لأصبنا فى هذا القول كبد الحقيقة. ويرجع الفضل فى توثيق هذا الاتحاد يوما بعد يوم إلى ما أبداه من عناية فائقة

بأمر هذا التآلف صديقنا عبد الله منو صاحب الصيت الذائع والمقام الرفيع الذى حباه المولى بالحكم وسداد الرأى رعاه الله بمين عنايته وأثابه خيراً على ما يفيض به من رأفة وحنان.. وشكر العلماء المولى سبحانه وتعالى الذى ألهم بونابرت اختيار عبد الله منو حاكما على مصر ثم قالوا فى ختام رسالتهم ما يلى :

ونحن نطلب اليكم ألا تهملوا أمر مصر فيسد النسيان عليها حجاباً. ذلك أن مصر هى بلادكم وأما أهلها فهم يكنون لكم كل محبة وتقدير ويترقبون عودتكم إليهم بفارغ الصبر. إن الدين الإسلامى الذى ظفر بتقديركم ليدعوكم إلى المجئ إلى هذه البلاد مرة أخرى. ولقد وعدتم أنتم بذلك فلا تخلفوا وعدكم ولن يطول الأمر على تمام الاتحاد بين الأمتين فلا مناص من حدوث ذلك فى يوم قريب. وان هذا اليوم آت لا ريب فيه لأن المولى عز وجل قد أراد ذلك ولا مناص من تنفيذ إرادته.

تلك هى سياسات عسكرة الحملة الفرنسية قصيرة الأجل فى مصر التى قد أفرزت إلى حد ما علاقات تقدميه خالية من الاستبداد والفساد مع المشايخ المصريين مما جعلها تفوق بكثير وكثير عسكرة المماليك والعثمانلية ذات الطبيعة الوحشية. ولهذا توصف عسكرة الحملة الفرنسية بأنها شروق من الغرب رغم طبيعتها الاستعمارية واستخدام مدافعها ضد الثورة المصرية الفريدة فى نوعها.

حقاً لقد كانت ثورة الشعب المصرى ضد الحملة الفرنسية وعسكرتها لا نظير لها منذ ثورات المصريين ضد الاقطاع فى زمن الفراعنة حيث تميزت بطبيعة قومية حيث اشترك فى أحداثها أهالى القاهرة وقرى مصر وبنادرها من صناع ومشايخ وتجار وفلاحين فى حين ان الثورات التى سبقتها فى عهد الغزاه وعساكرهم كانت ثورات محلية محدودة ومتفرقة ومتناثرة فى الزمان وفى المكان وبالتالى كانت لا جدوى منها لخلوها من الوطنية المصرية وصحوتها هذه الوطنية الجامعة والشاملة والموحدة للمصريين، واذا دققنا النظر مرة ثانية فى عسكرة هذه الحملة الفرنسية التى كانت تضم أعظم الجنود والجنرالات الذين حاربوا وانتصروا فى ايطاليا والمانيا والتى كانت تضم ١٤٦ عالما فى كل فروع المعرفة منهم ٢١ عالما فى الرياضيات وثلاثة فى الفلك و١٥ فى العلوم الطبيعية وهندسة المناجم و١٧ مهندسا مدنيا و١٥ جغرافيا وأربعة مهندسين معماريين وثلاثة مهندسين انشائيين وثمانية رسامين

ونحات واحد وعشرة ميانيكيين وثلاثة متخصصين فى البارود والمتفجرات وعشرة أدباء وسكرتيران و١٥ قنصلا ومترجما و٩ شئون صحية وتسعة حجر صحى و٢٢ فنى طباعة واثنين موسيقيين ومن بين هؤلاء بعض المشاهير.. جاسبار مونج.. المعتبر أفضل عالم فى الرياضيات فى عصره والعالم.. كولود لوى.. بير توليه.. الذى اخترع مادة الكلور والعالم سان هيلير، أستاذ كرسى فى علم الحيوان.. وبجانب هذه الكوكبه من العلماء كانت توجد مكتبة تضم ٥٥٠ كتاباً ملحقة بجيش الشرق أى جيش عسكرة الحملة الفرنسية على مصر ولهذا فقد ورد فى كتاب مصر ولع فرنسى للكاتب الفرنسى روبير سوليه أن فرانسوا شارل - رو كتب يقول.. لم يحدث من قبل اطلاقا لجيش ذاهب لغزو أحد البلدان أن أخذ معه دائرة معارف حيه مثل هذه.. مما يعنى أن عسكرة الحملة الفرنسية إلى مصر كانت غزوة عسكرية وثقافية بقصد احتلال مصر ومحو تخلفها كخطوة لتهديد مصالح انجلترا فى الهند والشرق عموما.

وقد كان مظاهر محو التخلف فى مصر هو محاولة تصنيعها بالصناعة الحديثة حيث بادر العالم كونتيه الذى كان يوصف بانه يمتلك جميع العلوم داخل رأسه بانشاء طواحين الهواء ومغازل الصوف والقطن وصناعة النسيج ومصانع الورق ــ والقبعات ومسابك الحروف وآلات لدبغ الجلود وسك النقود وصنع النقالات لنقل الجرحى وحمالات نقل المدافع وصنع التلسكوبات والطبول وأبواق الموسيقى.

هكذا كانت العسكرة الفرنسية وحملتها على مصر يضاف إلى ذلك ان علاقتها بالشعب المصرى علاقات غير عدوانية وغير وحشية مثل علاقات المماليك والعثمانليه بالمصريين فخلال زحف العسكرة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت إلى غزه واستيلائها على مدينة العريش أمر نابليون بقتل جميع الأسرى باستثناء المصريين.

إذن فما هى الأسباب الرئيسية لثورة الشعب المصرى فى القاهرة وفى الأقاليم ضد عسكرة الحملة الفرنسية مع العلم ان المصريين لم يحاربوا الغزاه كل الغزاه وظلوا يتفرجون على عسكرة غازية تحارب عسكرة مستوطنة لا شأن لهم بالحرب كما لا شأن لهم بالغالب والمغلوب اللهم قليل من العواطف الهاشه التى لا تنفع ولا تشفع وتأكيدا لذلك كتب الدكتور حسين مؤنس يقول:

لم يخرج المصريون لمحاربة الاسكندر ولا لمقاتلة أغسطس قيصر ولا لصد عمرو بن العاص ولا لصد جنود هولاكو ولا لمحاربة الصليبيين ولا الفاطميين ولا العثمانيين ولكنهم امام كل غزوة بكوا ضياع الحرية وأحسوا وهم الشعب المتحضر العريق بزوال سؤددهم وانحطاط دولتهم.

ومن هنا يحاور المرء نفسه هل تتجلى تلك الأسباب فى فرض الضرائب الثقيلة على المصريين وخاصة بعد تدمير أسطول العسكرة الفرنسية فى معركة أبى قير البحرية بواسطة الأسطول الانجليزى وفى هدم بوابات الحارات ونقل المقابر وتوسيع الشوارع مما اعتبره المصريون أنهم يهدمون نمط حياتهم العامة أو فى استفزاز المصريين المسلمين بتعيين أفراد الجباه والشرطة من الأقباط المصريين والروم المسيحيين أو تحريضهم بواسطة المماليك والعثمانيين تحريضا دينيا يدعو إلى قتل النصارى الفرنسيين حتى يعود حكم الإسلام وحكم السلطان العثمانى.

كل هذه أسباب واردة ولكنها لا تتضمن السبب الجوهرى والرئيس حيث تتميز ثورة الشعب المصرى ضد الحملة الفرنسية وعساكرها بصفات غير مسبوقة فى عفويتها الخالصة وقوميتها الملحوظة ووطنيتها الناجحة وتفجير ثوريتها الكامنة فى الشعب المصرى حيث قضى الإنسان المصرى ذاتياً على طبيعة الذل المصرى التى تستبد بحياته مما جعله يثور ويثأر من كل عسكرى ينتمى إلى أى عسكرة غازية أو مستوطنة ومن ثم فقد كانت هذه الثورة العفوية المجيده بعثا جديدا ومتأخراً جداً للوطنية المصرية واعلاناً لكل الدنيا بأن ثورية الشعب المصرى موجودة ولكنها كامنة بما يصاحبها من غضب وسخط وحقد وثأر فى صدور المصريين المتعاقبين ولهذا فإن ثورتنا هذه كانت ثورة ضد كل عسكرة الغزاة وعساكرهم بصرف النظر عن دينهم وجنسهم.

تلك هى طبيعة ثورة المصريين ضد العسكرة الفرنسية التى تحمل كل أسباب قيامها وعفويتها ووطنيتها وقوميتها حيث تعرض المصريون من عمال وصناع وتجار ومشايخ وفلاحين وعوام إلى صدمة مجتمعيه حادة وصارخه عندما شاهدوا بأعينهم الهزيمة المنكرة التى لحقت بالمماليك والعثمانلية وعساكرهم فى الإسكندرية وشبراخيت وامبابة حيث كان

العسكرى المملوكى والعثمانى الذى يُشبه الطاووس المدرع فى نظرهم جنديا لا يهزم. ومع هذا فقد شاهدوه قتيلاً أو غريقاً فى النيل أو هارباً كالفأر المذعور امام عسكر الفرنسيس.

ولقد زادت هذه الصدمة الجماعية والمجتمعية عندما رأى المصريون المماليك ومعهم كبار قادتهم المصريين من مشايخ وتجار يهربون خوفاً على حياتهم وأموالهم تاركين الأرض والعرض بلا حماية.

ولذلك فقد تحولت تلك الصدمة إلى زلزلة عنيفة فى صفوف المصريين نتج عنها هدم قيم الذل والخوف واليأس وعادات الاستسلام والخنوع اللتين كانتا تستبدان بالمصريين فبادرت العفويه المصرية العظيمة بإطلاق الوطنية المصرية من مرقدها السحيق وبالتالى قد فجرت الثورية الكامنة فى أعماق الشعب المصرى ومن ثم فقد أصبحت الثورة المصرية ضد عسكرة الحملة الفرنسية هى أم الوطنية المصرية الحديثة وثوراتها وانتفاضاتها ضد الاستعمار والاستغلال ولكن وللأسف والحزن معاً فإن ثورة الوطنية المصرية هذه لم تفرز قيادة وطنية وقومية فعالة ومؤثرة كما لم نضع فى هدفها وفى حسبانها قيام سلطة وطنية من المصريين تباشر حكم مصر بل كان هدفها مشوشاً وحساباتها تائهة لم يظهر منها إلا طرد الفرنسيس وعساكرهم وعودة السلطان العثمانى وعساكره والبكوات المماليك وعساكرهم وهذه خيبتهما الكبرى التى تبدو فى اشتياق المصريين ومشايخهم إلى ذل العسكرة المملوكية والعثمانية لمجرد أنها عسكرة إسلامية ولله فى خلقة شئون.

وقد أدت هذه الخيبه الكثيفه إلى مبادرة العسكرة الفرنسية إلى التحالف مع فلول العسكرة المملوكية بقيادة مراد بك مقابل سيطرة العسكرة المملوكية على صعيد مصر تحت سيادة العسكرة الفرنسية.

كما آدت بعد ذلك إلى رحيل العسكره الفرنسية من مصر وأفول ظاهرة الشروق من الغرب لتأتى عسكرة المماليك والعثمانيين مدعومة بقوة العسكرة الإنجليزية ومصحوبة بغروب مظلم ومعتم من الشرق يغطى مصر ويلفها إلى حين ولذلك فالعقل المصرى قد احتار دليله فى الوطنية المصرية وثورتها التى تعتبر لغزاً محيراً ومعقداً حال دون معرفة المد العفوى النادر الحدوث والجذر المعتاد للوطنية المصرية وثورتها مما أدى إلى استفزاز حكم الفرد المطلق وعبثه بالخبز والحرية والعمل على دوام الذل مصرى الجنسية.

ولكن لغز الوطنية المصرية وثورتها من المكن فك طلاسمه من خلال كشف وفضح حكم العسكر والعسكرة الأبدى فى مصر أمام الأجيال القادمة التى يجب ان تعرف جيداً ان الوطنية المصرية كانت ومازالت مغلولة وثورتها مكبوته وكامنه فى صدور المصريين بفعل العسكر والعسكرة المزمنة فى مصر مما أدى إلى تغليب حالات الجذر الثورى على حالات المد الثورى تغليبا شبه مطلق ولا مخرج لمصر من هذا التغليب السلطوى وطبيعته العسكرية الا بنهوض الحس الشعبى من خلال إحساس الجماهير الكادحة والأجيرة إحساساً مباشراً بالفقر والبطالة والاستغلال والفساد والاستبداد.

إن ذلك الأحساس الشعبى جدير بتغليب حالة المد الثورى على حالة الجذر الثورى المستقرة بإطلاق العفوية وثورتها القادرة على إفراز قيادتها الوطنية والثوريه التى تستهدف قيام مجتمع ديمقراطى مدنى يحل محل مجتمع العسكر والعسكرة وبالتالى دولة ديمقراطية مدنية تحل محل دولة العسكر والعسكرة حتى ولو كانت مستترة فى كسوةٍ مدنية. وذلك بغية الانتقال من المجتمع المدنى إلى مجتمع اشتراكى ديمقراطى ثورى يتوارى فى رحابه استغلال الانسان لأخيه الإنسان.

غروب من الشرق

وراحت العسكرة الفرنسية وما حملته إلى مصر من شروق من الغرب وما ارتكبته فى الأزهر من أوزار ضد الثوار المصريين.. راحت مرفوضة ومغضوبا عليها بثورة المصريين وهذه أول مرة يخرج المصريون عن حيادهم حيال حرب عساكر الغزاه بعضهم لبعض فيعادون عسكرة الفرنسيس وينحازون إلى عسكرة المماليك والعثمانلية التى استقبلوها بالطبول والزمور رغم علمهم بأهوالها التى تجعل الولدان شيبا هل لأنهم يدعون الإسلام. مع ان إسلامهم مظهرى فقط وفى حدود إسلامهم فقط بالاضافة إلى ان أعمالهم المنحطة والمجرمة يرفضها الإسلام شكلا وموضوعا فهم يلوطون ويزنون ويشربون الخمر وينهبون ويغدرون ويظلمون بغير حساب مما جعل مصر تعود مرة ثانية إلى قشلاق عسكرى تتعدد فيه العسكرة والعساكر، فالعساكر المماليك وفرقهم والعثمانلية وفرقهم الانكشاريه والدلاة وغيرهما.. وكان من هذه الفرق المملوكية والعثمانية فرقة عسكرية بقيادة سرشسة أى

بكباش محمد على وكانت هذه الفرق بمثابة حكومات تأمر وتنهى وتخطف وتنهب وتحيى وتميت ولم يكن فى مواجهتها إلا المشايخ بزعامة نقيب الأشراف عمر مكرم وشيوخ الأزهر.

يحدثنا الجبرتى عن الفوضى والنهب والسلب والقتل بعد رحيل عسكرة الفرنسيس فيقول.. وعندما وفد اولئك وهؤلاء ــ من عسكرة المماليك والعثمانيين ــ إلى مصر ليستلموها من الفرنسيس اعتبروا أن لهم حق الفتح وان مصر جميعا أصبحت دار حرب. وقد وفد إلى مصر قاض تركى كانت أولى فتاواه أن أرض مصر جميعا ملك للسلطان والعقارات جميعاً ملك للسلطان فإذا أراد أصحابها شراءها فليشتروها من السلطان.

وفى يوم الجمعة ١٧ يوليه ١٨٠١ نودى من قبل السلطة العثمانية بإبطال شرك العساكر لأرباب الحرف.. فلم يمثل العساكر لذلك وفى يوم الاثنين ٢٧ يوليه ١٨٠١.. طلب الوزير من النجار مائه كيس وعشرة سلفة من عشور البهار والزمهم بإحضارها فذهبوا إلى بيت الوزير واستغاثوا وبكوا. فرفعوا عنهم الطلب والزموا به المباشر.

وفى يوم الاثنين ١٠ أغسطس ١٨٠١.. فيه كثر استغلال طائفة العسكر بالبيع والشراء فى أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس بطلب المكلف ورتبوا على السوقه وأرباب الحرف والحوانيت دراهم يأخذونها منهم فى كل يوم ويأخذون من المخابز الخبز من غير ثمن. وكذلك يشربون القهوة من القهاوى/ ويحتكرون ما يريدون من الأصناف ويبيعونها بأغلى الأثمان. ولا يسرى عليهم حكم المحتسب وتسلطوا على الناس بالأذيه بأدنى سبب وتعرضوا للسكان فى منازلهم. فتأتى منهم طائفة ويدخلون الدار ويأمرون أهلها بالخروج منها ليسكنوها.. فإن لاطفهم الساكن واعطاهم دراهم ذهبوا عنه وتركوه وان عاند سبوه وضربوه ولو عظيما.. وإن شكا إلى كبيرهم فويل له ويقال له ألا تفسحون لاخوانكم المجاهدين الذين حاربوا عنكم وأنقذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ويأخذون أموالكم ويفجرون بنسائكم.

وفى يوم ١١ سبتمبر ١٨٠١.. تجمع النساء والفلاحون والملتزمون والوجاقليه بيت الوزير بسبب الالتزام والمنع من الصرف وحضور الفلاحين للضيق عليهم بطلب المال إلى ملتزميهم.

وفى يوم ٢٠ سبتمبر ١٨٠١.. وقع من طوائف العسكر عربدة بالأسواق وخطفوا أمتعة

الناس ومن باعة المأكل كالشواء والفطير والبطيخ فانزعجت الناس ورفعوا متاعهم من الحوانيت واخلوا منها وأغلقوها.

وفى يوم ٤ نوفمبر ١٨٠١.. مرت زفة عروس بسوق النحاسين.. وبها بعض عساكر الانكشاريه فحصلت فيهم ضجه فخطفوا ما على العروس وبعض النساء من المصاغ المزيتات به.

الأربعاء ١٦ مارس ١٨٠٢.. طلبوا ايضا خمسة آلاف كيس سلفة من التجار ثلاثة آلاف ومن الملتزمين الفا كيس.. فانزعج الناس وأغلق أهل الغورية حوانيتهم وهرب أهل وكالة الصابون والسكرية وأهل مرجوش. وفى يوم ٢٢ أبريل ١٨٠٣.. فحش الأمر جدا الأمر حد قبلى وبحرى حتى وقف حال الناس. ورضوا عن أحكام الفرنسيس.. ومنها تسلط العسكر على خطف الناس وسلبهم وقتلهم حتى امتنعت الناس عن المرور فى جهات سكنهم.

يوم السبت ٢٣ أبريل ١٨٠٣.. فى ذلك اليوم وقعت زعجة عظيمة فى الناس وحصلت كرشات فى مصر وبولاق وأغلق أهل الأسواق حوانيتهم. ورفعوا عنها ما خف من متاعهم من الدكاكين وبعضهم ترك حانوته وهرب والبعض سقط متاعه من يده ولم يشعر من شدة ما لحقهم من الخوف والارجاف ولم يعلم سبب ذلك.

يقول الجبرتى عن أحداث يوم الجمعة ٢٩ أبريل ١٨٠٣.. وأما المحروقى ومن معه فإنهم تشتتوا من بعضهم خلف العساكر والدلاة ولم يلحقو وانقطع جزام بغلته فنزل عنها فادركه العساكر المتلاحقة بالباشا فعروه وشلحوه هو اتباعه وابنه وأخذو منهم نحو عشرين الف دينار اسلامبولى نقدية.

وفى يوم ١٣ يناير ١٨٠٤.. وصل الباشا إلى ناحية منوف وفردوا له فردا. أى ضرائب على البلاد.. واكلوا الزروعات وما أنبتته الأرض.. وانقضى هذا الشهر وما حصل به من عربده الأرنوؤد وخطفهم عمائم الناس وخصوصا بالليل حتى كان الإنسان إذا مشى يربط عمامته خوفا عليها. واذا تمكنوا من أحد شلحوا ثيابه وأخذوا ما معه من الدراهم.

ويترصدون لمن يذهب إلى الأسواق لشراء الجبن والزبد والأغنام والأبقار فيأخذون ما معهم وينهبون ما يجلبه الفلاحون من ذلك البيع فامتنع الفلاحون عن ذلك إلا النادر.

وفى يوم ١٥ يناير ١٨٠٤.. وقعت مشاجرة بين العساكر الأرنؤودية جهة بيوت سوارى العساكر بسبب امرأة قتل فيها خمسة أنفار بالأزبكية.

وفى يوم ١٦ يناير ١٨٠٤.. أوقفوا على أبواب المدينة جماعة من العسكر بأسلحتهم فانزعج الناس وارتاعوا من ذلك وأغلقوا الدروب والبوابات ونقلوا أمتعتهم وبضائعهم من الدكاكين واكثروا من اللغط وصار العسكر الواقفون بالأبواب يأخذون من الداخل والخارج دراهم ويحشون جيوبهم ويقولون لهم معكم أوراق ـــ فيأخذون بحجة ذلك ما فى جيوبهم.

على هذا النحو اليومى قدم لنا مؤرخنا الجبرتى صورة واقعية للمجتمع المصرى فور رحيل العسكرة الفرنسية وعودة عسكرة المماليك والعثمانين حيث عاد كما كان قشلاقا عسكريا متعدد العساكر والعسكرة يطفح الذل من ممارساته الوحشية وحربه الدموية بين العساكر المماليك والعثمانية وبين هؤلاء العساكر وبين المصريين مسلمين وأقباط مما جعل الشعب المصرى يترحم على حكم عسكرة الفرنسيس كما يردد الجبرتى.

يقول الشيخ العروس لحسين باشا قبطان الأسطول العثمانى ـــ يا مولانا رعية مصر ضعاف.. ويعيب حسين باشا على المصريين استمراءهم عذاب وظلم المماليك فيرد عليه شيخ آخر قائلا ـــ يا مولانا هم عصبه شديدة البأس ويد واحدة.

ولذلك فقد أعاد مؤرخنا الجبرتى كتابه تاريخ العسكرة الفرنسية حيث حمل على الخلافة العثمانية واعتبرها مسئولة عن شقاء المصريين. ثم أثنى على عسكرة الحملة الفرنسية التى حاولت تحقيق إصلاح زراعى يجعل أرض الوسايا ملكا للملتزمين وأرض الفلاحة ملكا للفلاحين. وتوحيد الضريبة على الفلاحين واعطاء الفلاحين مطلق الحرية فى زراعة أرضهم.

ومن هنا فقد رحب العلماء والمشايخ المصريين بالمبعوث الفرنسى المسيو سباستيان الذى زار مصر فى هذه الفترة المظلمة سنة ١٨٠٢. حيث صارحوه بأنهم يتمنون عودة الحكم الفرنسى لمصر مرة أخرى.

وفى اجتماع عقده المبعوث الفرنسى مع العلماء والمشايخ المصريين دار الحديث حول اهتمام القائد بونابرت بمصر وأظهر العلماء والمشايخ فى كلامهم مقدار ما يكنونه لشخص

بونابرت من محبة وود.. وعلق المبعوث الفرنسى فى تقريره إلى حكومته بقوله أنه دهش مما ابداه الشيوخ المصريون من شجاعة فى اعلان رغبتهم فى ان يصبحوا مرة أخرى من أتباع القنصل الأول بونابرت.. وأنهم بدءوا يعيدون تقييمهم لفترة الحكم الفرنسى. وبدأوا يقرون أن العدل يمكن أن يأتى من غير المسلم وأن الحكام المسلمين ليسوا فى كثير من الأحوال عادلين.

وفى حوار بين المشايخ المصريين بشأن المفاضلة بين الإنجليز والفرنسيين يقول الجبرتى:

لا تصدقوا أقوال الانجليز فى ادعائهم بحماية مصر والدفاع عنها فإذا تملكوا البلاد لا يبقون على أحد من المصريين وحالهم ليس كحال الفرنساويه.. فإن الفرنساويه لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية.

ولكن لماذا انطفأت الوطنية المصرية وانطفأت معها الثورة الوطنية واختار الإنسان المصرى الرضوخ لوحشية العسكرة المملوكية والعثمانية التى فرضت من جديد على المصريين.

إن هذه الوضعية المصرية غير المنطقية تدعونا إلى التأمل بعمق فى المزاج المصرى والنفسية الاجتماعية للمصريين بعد رحيل عسكرة الحملة الفرنسية. فهل استبدت بهم ذاكرة الذل التى لازمتهم مئات السنين طوال حكم عسكرة الغزاة مما جعلهم يرتضون بالذل وقيم الذل من رضوخ وخنوع وخوف خرافى مثلما ارتضى أجدادهم الأقباط بالاستشهاد الانتحارى الطوعى فى مواجهة العسكرة الرومانية وعساكرها دون أية مقاومة إلا بالاعتراف بترديد أنا مسيحى. أنا مسيحية. ومهما كانت قيمة ذلك الاعتراف فقد كان متضمنا تفريطا فى الوطنية المصرية وفى الكنيسة المرقسية. وتفريطا فى حب الأهل من أباء وأمهات وابناء وأشقاء وشقيقات.. وتفريطا فى أرض مصر ونيلها وخيراتها وهذه أيات الذل ومجمل ظاهره التى توارثها الأحفاد والأعقاب المصريين ولم يخلعوها من عقولهم وأجسادهم إلا فى لحظة مشاهدتهم بأنفسهم هروب عسكرة المماليك ومعها قادتهم ومشايخهم امام عساكر الفرنسيس وباتت الأرض المصرية والعرض المصرى بغير حماية ومن رحم هذه الأحداث ولدت الوطنية المصرية وتفجرت الثورية الكامنة لدى المصريين بشكل عفوى على المستوى القومى.. هذه الثورية التى تجلت فى ثورة المصريين كل المصريين على عسكرة الحملة الفرنسية وعساكرها مما أدى إلى رحيلها من مصر.

ولقد كان البعض يتمنى إرجاء ذلك الرحيل سنوات وسنوات حتى تظل الوطنية المصرية وثورتها متشابكه مع عسكرة الفرنسيس مما كان يؤدى إلى رسوخ وترسيخ هذه الوطنية المصرية وتزايد ثورتها من خلال إزاحة الذل المصرى وقيمة رويدا رويدا من العقل المصرى والمزاج المصرى معا. هذا العقل وذلك المزاج اللذين كانا يستطيعان إفراز قيادة وطنية وقومية ذات نفوذ شعبى فعال..

واللذين كانا يستطيعان ايضا رفض كل الغزاة وكل المصرلية المتمصرين من الأتراك والماليك رفضاً شعبياً بصرف النظر عن دينهم وجنسيتهم مما كان يؤدى حتما إلى طرد العسكرة الفرنسية وتصبح مصر للمصريين.

إن ذلك لم يحدث ولكن الأمر اقتصر على مبادرة المصريين بتحويل مشاهدتهم لانتصار العسكرة الفرنسية الغازية إلى المكابدة ضدها فى كل أرجاء مصر وذلك خلافا للمواقف المصرية المحايدة خلال حرب الغزاه بعضهم لبعض على ضفاف النيل وحيال قدوم الغزاة وذلك لسبب رئيسى سبق ذكره وهو هروب العسكرة المملوكية وشيوخ المصريين وقادتهم وترك مصر عارية بدون حماية وللأسف فقد كان عمر المكابدة المصرية وثورتها الوطنية قصيرا قصيرا وذلك هو سبب الأسباب فى عدم صمودها فى مواجهة عودة العسكر المملوكية والعثمانلية من جديد حيث كانت الوطنية المصرية وثورتها مجرد قشرة فى العقل المصرى والمزاج المصرى لم تلتحم بهما وسرعان ما اعتراها الضمور والانحلال ثم برزت بعض آثارها المحدودة فى اختيار محمد على واليا على مصر وفى صد حملة فريزر الانجليزية وهزيمتها وسحقها.

ولقد اقترن الاختيار الشعبى المصرى لمحمد على واليا على مصر بشعار شعبى يقول.. يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى.

عسكرة أفندينا واشتراكيته

للوطنية المصرية الحديثة التى قد بُعثت بعثاً جديداً خلال مقاومة عسكرة الحمله الفرنسية واختفت برحيلها أحوال مثلما للصوفية أحوال.. فالأحوال التى لازمت الوطنية المصرية فى سنوات عودة العسكرة المملوكية والعثمانية مدعومة بالجيش الانجليزى كانت

تتصف بالغرابه من جراء ما أفرزته من قيادة وطنية هشة ومتهافتة على أمور الدنيا حيث وصفهم الجبرتى أبلغ وصف فقال عن هؤلاء الشيوخ المصريين :

وأفتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلوم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية وصار بيت أحدهم مثل بيت الأمراء المماليك واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان وأجروا الحبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرابيك واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم وصارت لهم تحذيرات وانذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم وانقلب الوضع فيهم بعده مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداد والتطلع إلى الأكل فى ولائم الأغنياء والفقراء وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة كالاجتماع فى سماع الملاهى والأغانى والقيان والآلات المطرية واعطاء الجوائز والنقوط بمناداة الخنبوص فى السامر وهو يقول بمسمع من الرجال والنساء من عوام الناس وخواصهم برفع الصوت الذى يسمعه القاضى والدانى وهو يخاطب رئيسه المغانى.. يا ستى.. حضرة شيخ الإسلام مفيد الطالبين الشيخ فلان منه كذا وكذا من النقوط من التصنيفات الذهبية أى الفلوس الذهبية نتيجة التفاخر والازدراء بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس.

وحتى شخصية السيد عمر مكرم الذى سبق هروبه مع المماليك والعثمانليه فور هزيمتهم فى معركة إمبابة امام العسكرة الفرنسية فقد قال عنه الجبرتى.. ان ما حاق بالسيد عمر مكرم إنما هو مسئول عنه فالذى وقع له بعض ما يستحقه.. ومن أعان ظالماً سلط عليه. ولا يظلم ربك أحدا.

فى هذه الفترة المظلمة من سنة ١٨٠١ حتى سنة ١٨٠٥ تحول المجتمع المصرى كما ذكرت إلى قشلاق عسكرى يموج بالحرب الوحشية بين فرق العساكر المملوكية وبين فرق عساكر العثمانلية والكل يحارب المصريين بقصد نهبهم وخلال هذه الحرب برز قائد عسكرى فذ هو محمد على الذى مارس تحالفات عسكرية ذات علم وفن حيث كان يبدل ويغير فى تحالفاته وفى خصوماته وفقا لموازين القوى العسكرية والشعبية وقتئذ مما لفت إليه أنظار المصريين دون غيره لأن تحالفاته وخصوماته كانت تصب بعض الشىء فى تأمين حياة المصريين وتأمين معيشتهم فى وسط القشلاق العسكرى المصرى وما يدور فيه من حرب جهنمية لا

تتوقف بينما كان نشاط المشايخ المصريين باعتبارهم القيادة الوطنية والشعبية ينحصر فى بحثهم عن مصالحهم والسعى لدى الباشا العثمانى بقصد تلطيف الأمور على الناس وذلك بدون الدعوة إلى المقاومة الوطنية والشعبية وبدلا من ذلك فقد بدأوا يبرزون شخصية محمد على لدى عوام الناس.

وفى تقديرى أنه كان وراء ذلك الشيخ محمد المهدى الذى أخذ الفكر الاشتراكى عن الجنرال كافاريللى قائد سلاح المهندسين فى الحملة الفرنسية مما جعله مرتبطا بالاشتراكيين الفرنسيين التى كانت تربطهم علاقة قديمة بمحمد على خلال وجوده فى بلدته قوله:

ومن هنا فقد كان ذلك الضابط الألبانى محمد على ضابطا مسيسا بدليل ارتباطه بالاشتراكيين الفرنسيين هذا الارتباط الذى سوف تتجلى مظاهره فيما بعد وبدليل تحالفاته وخصوماته مع الفرق العسكرية المملوكية والعثمانية الواعيه والموفقة جدا بشأن تنمية علاقاته بالمصريين مما يشير بأنه كان يحظى بمجموعة من المستشارين السياسيين الواعين بالمسائل المصرية جيدا والعارفين بنفسية المصريين ومزاجهم العام مما مكنهم من تقديمه للشعب المصرى وجمهرته لدى العوام وبسطاء الناس رغم رطانته بلغة أعجمية وعدم تداوله اللسان العربى حيث كان مقدونى الجنسية عثمانى التبعية يعتنق الإسلام دينا واسمه مهمت على وقد ولد مع الاسكندر الأكبر فى بلد واحد وولد مع نابليون فى يوم واحد. أما مستشارو محمد على المشار إليهم فلابد أن يكون الشيخ محمد المهدى مفتى الديار المصرية فيما بعد هو أبرزهم بسبب قدراته السياسية فى هذه الفترة حيث شغل منصب سكرتير الديوان العام أيام الحملة الفرنسية وظل شخصية بارزة بعدها حتى اختاره المشايخ والعلماء المصريين بوضع الشروط التى قد تم على أساسها اختيار أفندينا محمد على واليا على مصر رغم أنف السلطان العثمانى ولذلك يبدو ان طموح أفندينا لتولى حكم مصر التى كانت قشلاقا عسكريا يموج بالحروب الفظيعة كان طموحا مسيسا لعلاقته بالاشتراكية الفرنسية كما كان موجها بفضل نفس العلاقة واكثر من هذا فقد كان تحقيقه مؤكدا للشعبية المصرية التى حظى بها وللفراغ القيادى فى صفوف الوطنية المصرية الحديثة التى لم تبلغ مرحلة الفطام حيث لم تتجلى امارة من إمارات الطموح السلطوى على أى شيخ من المصريين بما فيهم

شيخهم وزعيمهم السيد عمر مكرم وكانت هذه مصيبة الوطنية المصرية الحديثة وقتئذ مما جعل أفندينا محمد على بفضل ذلك الوضع السياسى والشعبى لم إلى السلطة ولم يقم بانقلاب عسكرى لتولى حكم مصر رغم ان الظروف كانت متاحة وفى خدمة انقلابه العسكرى ولكنه لم يستعجل مسألة السلطة طمعا فى نضوج الأمور اكثر فاكثر حيث قام عام ١٨٠٥ غلاء ومجاعة ونهب وخطف وتقتيل للمصريين بواسطة العساكر المملوكية والعثمانلية.

وكان من أشنع حوادث هذه السنة ان العساكر الدالاتيه عبثوا بأهالى مصر القديمة وما حولها فأكلوا الزراعات وخطفوا ما وجدوه عند الفلاحين كما خطفوا نسائهم واولادهم ثم طردوا الأهالى من بيوتهم واحتلوها مما دفعهم إلى الاستعانة بالمشايخ فذهبوا إلى بيت الشيخ الشرقاوى وحضر هناك السيد عمر افندى مكرم فكلموه فلم يفعل شيئا ثم قام وانصرف وفى حال خروجه رجمه الاولاد بالحجارة وسبوه وشتموه كما يقول الجبرتى :

وفى هذه السنه ركب العساكر الدلاة وذهبوا إلى قليوب ودخلوها وربطوا خيولهم على أجرانها وطلبوا من أهلها النفقات وحبسوا حريمهم عن الخروج واستمروا على ذلك حتى اخذوا النساء والبنات والاولاد وصاروا يبيعونهم فيما بينهم. وذهبوا إلى قرية أبو غيط فامتنعت عليهم فحاربوا أهلها وقتلوا منهم اكثر من مائة فلاح.

فى هذا المناخ المظلم والوحشى حدد محمد على هدفه السلطوى ممثلا فى حكم مصر وحدد عدوه السلطوى مشخصا فى الباشا العثمانى القابع فى القلعة والقائم مقام الوالى الذى يمثل سلطة الباب العالى والسلطان العثمانى فى تركيا. ولم يفعل محمد على ذلك عبثا أو اعتباطا بل فعله من منطلق عقل مسيس وواعى بالتناقض الوحشى بين فرق العسكر المماليك والعثمانيين وبالتناقض بين الكثير من فرق العسكر والباشا العثمانى وبالتناقض بين الباشا العثمانى ومجمل هؤلاء العساكر الأوباش وبين الشعب المصرى.

إن هذه التناقضات قد وظفها محمد على ايضا بعلم وفن وخاصة التناقض بين الشعب المصرى وبين الباشا العثمانى والعساكر عموما الذى أفرز السخط كل السخط على عسكرة العثمانيين والمماليك إلى حد أن قد ترحموا على عسكرة الحملة الفرنسية. وبفضل ذلك السخط الشعبى المصرى فقد امتنع محمد على عن توظيف القوة العسكرية والقيام بانقلاب

عسكرى ضد ممثل الباب العالى فى مصر ولكنه قد واجهه مستندا على الجسم المصرى فقط. وهذا أسلوب كله سياسة وكياسة لم تعرفه مصر منذ عهد الفراعنة مما أدهش وحير الباشا العثمانى فى مصر والسلطان العثمانى فى تركيا اللذان لا يعرفان غير العسكر والعسكرة فى مواجهة خصومهم.

وبدافع السخط الشعبى يتحرك الجسد المصرى لأول مرة فى عصر عسكرة الغزاة مسانداً ومطالباً بمحمد على والياً على مصر يقول الجبرتى:

فى الأحد ١٢ مايو ١٨٠٥ اجتمع الكثير من المتعممين والعامة والأطفال حتى امتلأ الحوش والمقعد بالناس وصرخوا بقولهم.. شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ـ المقصود احمد باشا خورشيد الوالى العثمانى ـ .. ومن الاولاد من يقول.. يا لطيف.. ومنهم من يقول.. يا رب يا متجلى.. إهلك العثمانلى.. ومنهم من يقول ايضاً.. حسبنا الله ونعم الوكيل.. وطلبوا من القاضى عرض مطالبهم على الباشا العثمانى التى ذكروا فيها تعدى طوائف العسكر والايذاء منهم للناس وإخراجهم من من مساكنهم وكثرة المظالم والفرد وقبض مال الميرى المعجل وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة.

وحاول بعض المشايخ تقديم هذه المطالب إلى الباشا العثمانلى فى القلعة ولكنهم خافوا من تقديمها حيث قد بلغهم أنه سوف يقوم باغتيالهم فى قلب القلعة.

ولذلك فقد اجتمعوا فى بيت القاضى ومنعوا العامة الذين قد تزاحموا حوله من الدخول وقرروا الذهاب إلى بيت محمد على حيث قابلوه وقالوا له.. انا لا تريد هذا الباشا حاكما علينا ولابد من عزله من الولاية.. فقال.. ومن تريدون يكون واليا.. فقالوا.. لا نرضى إلا بك وتكون واليا علينا بشروطنا.. فامتنع أولاً ثم رضى.. ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة.. وارسلوا إلى الوالى العثمانى فى القلعة بنبأ مبايعة محمد على مبايعة شعبية والاستغناء عن ولايته استغناء شعبيا. فقال.. إنى مولى من طرف السلطان.. فلا أعزل بأمر الفلاحين.. ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة. وفور ذلك استخدم محمد على عساكره لتحقيق ولايته وعسكرته بطريقة شرعية غير مسبوقة فى تاريخ عسكرة الغزاه فى مصر.

هكذا فعلتها الوطنية المصرية الحديثة وقدمت لتولى حكم مصر شخصية عسكرية غريبة لا تتداول حتى اللسان العربى من خلال إزاحة عسكرة العثمانيين والمماليك وذلك دون

أن تقدم لهذا المنصب إبنا من أبنائها ونتاج رحمها من المصريين.. ولم تتوقف الوطنية المصرية عند ذلك الحد بل واصلت مساعدة ومساندة الحاكم المصرى الجديد والمختار أفندينا محمد على عندما حاول السلطان العثمانى خلعة فى سنة ١٨٠٦ هذه المحاولة التى قد فشلت لإصرار المصريين على عدم عودة العسكرة العثمانية والمملوكية.. كما تكررت هذه المساندة فى سنة ١٨٠٧ عندما استغل الإنجليز انشغال أفندينا محمد على وعسكرته الجديدة فى حرب العسكرة المملوكية فى الصعيد وقاموا بحمله فريزر التى هزمت هزيمة منكرة وسحقت سحقا بواسطة الوطنية المصرية الحديثة ممثلة فى أهالى مدينة رشيد وقراها الذين واجهوا عسكرة الإنجليز دون أن يشترك فيها عسكرى واحد من عسكرة أفندينا محمد على الوليده، مما أدى إلى استسلام فريزر وحملته والخروج من مصر.

إذن فإن عسكرة أفندينا محمد على هى العسكرة الأولى التى ولدها المجتمع المدنى المصرى الذى لم يقدر وقتئذ ان يقرر سلطة مدنية فى مصر لأن العسكرة وقتئذ كانت هى النظام السلطوى السائد فى بلدان الاستبداد الشرقى.

ولكن عسكرة أفندينا فى مصر لم تكن امتداد للعسكرة المملوكية والعثمانية بل كانت عسكرة ذات طبيعة خاصة حيث كان يمكن اعتبارها متضمنة الصراع الإنجليزى الفرنسى وبالتالى فقد كانت امتدادا لعسكرة الحملة الفرنسية فى مصر. كما كانت عسكرة ذات أيدلوچية اشتراكية مستترة بدليل توافد الاشتراكيين السان سيمونين فى عهدها وقيامهم بتنفيذ الانشاءات والمشاريع الكبرى مثل بناء القناطر والسدود وقنوات الرى والصرف واعداد جسور النيل من دمياط ورشيد إلى أسوان وتنظيم الإدارة المصرية وإعداد الجيش المصرى الذى اشترك فيه الجنود المصريون لأول مرة منذ عهد الفراعنة.. وانشاء قاعدة صناعية حديثة ومتقدمة لا مثيل لها فى بعض الدول الأوروبية.

وأهم ما فعلته عسكرة أفندينا فى مصر هو تحطيم السجن الأبدى للإنسان المصرى الذى ظل يعيش فيه اكثر من ألفى سنة من خلال سجنه فى الحرفة والصنعة والزرع والضرع مما حال بينه وبين حرفة الحرب والجندية وحمل السلاح حتى جاءت عسكرة أفندينا فقضت على ذلك السجن نهائيا فخرج الفلاح المصرى والصانع المصرى إلى مجال العسكر والعسكرة والحرب والجندية ومن هنا بدأ تاريخ العسكره المصرية والجيش المصرى الحديث الذى حقق استقلال مصر وحولها إلى امبراطورية ذات شأن فى العالم الحديث.

إن ذلك الجيش المصرى الحديث والعظيم استطاع أن يهزم الوهابيين ويخترق لأول مرة صحراء الربع الخالى فى شبه الجزيرة العربية وأن يسيطر على السودان وان يقهر الحرب اليونانية فى شبه الجزيرة والشام وان يقهر الجيش العثمانى الذى كان يعتمد على العسكرة الألمانية بقيادة العبقرى العسكرى الألمانى .. كلاوزفيتز.. وبذلك برزت العبقرية العسكرية لجيش الفلاحين المصريين ولكن ما السبب الذى دفع أفندينا محمد على وعسكرته إلى قبول الفلاح المصرى جنديا ومحاربا فى جيش مصرى لأول مرة منذ عهد الفراعنة لعل السبب يتجلى فى فعالية الوطنية المصرية التى فرضت محمد على واليا على مصر والتى سحقت حملة فريزر الانجليزية فى رشيد ولعله يتجلى ايضا فى شخص افندينا محمد على الذى تأثر بدور الوطنية المصرية والذى لم يجد نفعا فى تجنيد الأجناد المماليك وفى تجنيد السودانيين.. ولعله يتجلى كذلك فى فعالية الفكر الاشتراكى الذى يسكن فى دماغ افندينا محمد على الذى وصفه ماركس بقوله ـــ إنه أبرز رأس مفكرة تحت العمامة العثمانية.. مما جعله يمتق الوطنية المصرية والقومية العربية اللتين بانت ملامحها فى ممارسات إبراهيم باشا بن أفندينا محمد على.

إن هذ الأسباب كانت وراء تمصير عسكرة أفندينا ووراء تأسيس الجيش المصرى الحديث الذى لم يكن تأسيسه بعيدا عن اشتراكية سان سيمون الفرنسية التى أخذ بها أفندينا خلال تأسيس مصر الحديثة ومؤسساتها التى كان من بينها مؤسسات الجيش المصرى الحديث الذى كان من أبرز معلميه وقادته لسيمان باشا الفرنساوى.

ولم تؤسس عسكرة أفندينا ذلك الجيش المصرى لحرب الداخل المصرى فقط ولكنها قد انشأته ايضا لحرب العدو الخارجى وحراسة الحدود المصرية ولذلك فقد تأسست وراءه دولة حضارية حديثة وذات قاعدة صناعية وزراعية وإدارية.

يقول كلوت بك:

أن محمد على أول عثمانى استطاع ادراك الأفكار النافعة فيما يتعلق بالإدارة والحكومة حيث انشأ مجلسا خاصا اعتاد التداول مع أعضائه فى جميع الأعمال المتعلقة بالحكومة قبل تنفيذها وألف لكل فرع من فروع الإدارة مجلسا من الاخصائيين فكان هناك مجلسا للحرب ومجلس للبحرية ومجلس للزراعة ومجلس للتعليم ومجلس للصحة وقد قسم الحكومة إلى إدارات ودواوين للداخلية والحربية والبحرية والمعارف والمالية والتجارة والخارجية.

وبشـأن ملكية الأرض الزراعية فقد بادرت اشتراكية أفندينا بتحقيق ثورة زراعية من خلال استيلاء الحكومة على أرض الأوقاف التى كانت فى حوزة الفقهاء واستولت ايضا على أرض الملتزمين ووزعتها على الفلاحين ونظمت علاقاتها بهم بشكل مباشر.

وعلى هذا النحـو الاشتـراكى السان سيمونى احتكرت الحكومة تجارة الحاصلات والبضائع والسلع المصرية.

وخدمة للزراعة المصرية الحديثة فقد حققت ثورة إنشائية فى مجال الرى والصرف من خلال انشاء ترعة المحمودية والقناطر الخيرية والهواويس والحيضان لتنظيم فيضان النيل بالاضافة إلى انشاء جسرى النيل ولقد بلغت كمية الحفر والردم فى ظل اشتراكية اقتدينا بمائة مليون متر مكعب بواسطة ٣٥٠ ألف فلاح من المسخرين.

وبجانب الثورة الزراعية فقد حققت اشتراكية أفندينا ثورة صناعية هى الأولى فى بلاد الشرق بانشاء العديد من مصانع الغزل والنسيج ومصانع الزيوت والصابون ومصانع البارود وسبك الحديد لصب المدافع والأسلحة بالإضافة إلى ترسانة الأسكندرية المخصصة لبناء وتشييد السفن الحربية والتجارية.

وقد صاحب ذلك حدوث ثورة تعليمية تمثلت فى ارسال الكثير من البعثات العلمية إلى فرنسا وانجلترا ودول أوربا من الدراسة والتخصص فى كل فروع العلم والمعرفة.. وقد روى كلوت بك بأن معظم المبعوثين من الطلاب كانوا من ابناء الفلاحين المصريين.. وفى سياق تلك الثورة التعليمية انشئت أربعين مدرسة ابتدائية ومدرستين تجهيريتين ومدرسة لتعليم البنات علم الولادة ومدارس خصوصية وعالية للطب واللغات والألسن والموسيقى والفنون والصنايع.

تلك هى بعض ملامح انجازات عسكرة أفندينا الاشتراكية التى يصفها البعض بعسكرة رأسمالية الدولة حيث احتكرت عسكرة الدولة هذه الصناعة والتجارة والزراعة تقريبا ولهذا كانت تلاحق أى انتاج خارج مصانعها وبتهمة بالانتاج البرانى.. ومع هذا فهى أول عسكرة تقبض على الحكم فى مصر يكون لها ايجابيات ملحوظة فى الزراعة والصناعة والتجارة والإدارة والتعليم ونشر المعرفة مما جعل عسكرة أفندينا هذه ذاتها مؤسسة مصر الحديثة

واشتراكيتها السان سيمونية وبجانب ذلك فقد كانت عسكرة أفندينا عسكرة عنيفة جدا واستبدادية جدا ودموية جدا حيث وجد محمد على مضطرا لكى تصبح عسكرته السلطوية عسكرة شمولية وحدانيه لا تشاركها ولا تتواجد بجانبها عسكرة سلطوية أخرى مثل العسكرة السلطوية للمماليك المنتشرة فى القاهرة ومدن مصر وقراها وبنادرها. حتى يتفرغ لاتمام مشروعه النهضوى الكبير ممثلا فى بناء مصر الحديثة ثم الإمبراطورية المصرية فيما بعد.

إن هذا المشروع الهائل لا يمكن تنفيذه فى ظل وجود سلطة العسكرة المملوكيةالتى كانت بمثابة المصران الأعور فى المجتمع المصرى ومن ثم فلابد من تخليص المجتمع المصرى الحديث من ظاهرة المصران الأعور التى استبدت به مئات السنين.

وعلى هذا الأساس بادرت عسكرة أفندينا بالقضاء على عسكرة المماليك وأشخاصها بمذبحة القلعة سنة ١٨١١ التى قتل فيها ٤٨٠ مملوك بالرصاص والسلاح الأبيض دون أسف عليهم من الشعب المصرى.. وبذلك خلص المجتمع المصرى من مصرانه الأعور.

ولم تمض ثلاث سنوات على مذبحة المماليك حتى بادرت هذه العسكرة بقتل مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الذى كان ينتقد سياسة أفندينا محمد على.

ولكن كيف تتوافق هذه العسكرة الدموية التى مارستها عسكرة أفندينا مع الاشتراكيته السان سيمونيه التى يطبقها أفندينا. يبدو أنه كان هناك تشابها محدوداً بين هذه العسكرة وتلك الاشتراكية السان سيمونيه من خلال دعوتها إلى حكم الفرد المطلق حتى يستطيع الحاكم الفرد من انجاز مشروعاته العملاقة.

ومن هنا لجأ أفندينا محمد على إلى العسكرة لتحمى حكمه الفردى والاستبدادى بهدف تأسيس مصر الحديثة وتطبيق اشتراكية السان سيمونيه ولهذا فقد حول المجتمع المدنى فى مصر إلى قشلاق عسكرى من خلال تغليب الشخصيات العسكرية على الشخصيات المدنية فى إدارة شئون المحالات المدنية فى الحياة المصرية حيث أمر أفندينا فى ٢ من المحرم سنة ١٥٥٨ هـ بتشكيل جمعية الحقانية من رتب الميرلوا والميرالات ومن الضباط البرية والبحرية. ثم أمر بتشكيل قضائى من رئيس وستة أعضاء على ان يكون اثناء منهم من ذوات الجهادية

واثنان من ذوات البحرية واثنان من الضباط العسكريين والملكيين لتحقيق الدعاوى التى يطلب أربابها تحقيقها.

وعندما شكل مجلس قومسيون مصر قبل أنه يكون من أعضائه مصريان واحد أفندى برتبة ثالثة وواحد أفندى برتبة قائمقام. وكانت الصفة العسكرية فى نظر افندينا محمد على معتبره من المؤهلات الهامة لتقلد جميع المناصب الإدارية والقضائية والسياسية ولهذا يقول فتحى باشا زغلول فى كتابه المحاماه.. ان شخصا من هؤلاء العسكريين كان يعمل فى وقت واحد. محافظ رشيد ولواء السواحل ومدير البحرية ومع هذا كان أميا لا يقرأ ولا يكتب.

وحتى الدواوين كانت تتفشى فيها العسكره حيث كان ديوان المدارس مثلا يتسلطن عليها مصطفى مختار بك إبراهيم باشا. كما ان مديرى الاقاليم ومأمورى المراكز كانوا من العسكريين الذين يملكون صلاحيات إشرافية وتقديرية على المصانع وعمالها حيث كان أمير اللواء محمد بك ناظراً لعموم المصانع وعمالها وحتى البعثات العلمية التى سافرت إلى أوروبا لتلقى المعارف والخبرات الفنية الحديثة كان يرأسها شخصيات عسكرية مثل أدهم بك قائد سلاح المدفعية.

والأدهى من ذلك أن مجلس المشورة قد فنن العسكرة وفرضها على الطبقة العاملة الحديثة حيث الزم العمال والمستخدمين المصريين بارتداء الزى العسكرى مما يثبت ان العسكرة كانت وسيلة الوسائل فى تأسيس مصر الحديثة وفى تطبيق اشتراكية أفندينا أى اشتراكية الدولة وما أفرزته من علاقات استبدادية فى القشلاق المصرى الحديث الذى كان شعاره يقول.. فى البدء كان الجيش أى فى البدء كانت العسكرة.

ولذلك فالعلاقات المدنية والحياة المدنية كلها قد تأثرت بعسكرة أفندينا يؤيد ذلك قانون ولائحة الفلاح وقرارات أفندينا اللاتى كانت تقضى بعقوبة الاعدام وقطع الأذن والضرب بالسياط والضرب على الإليه والحبس والربط بالجنزير فى القلعة وذلك بخلاف العقوبات المستترة كالقتل والغرق فى النيل والحرق.. ولقد أرسل أفندينا إلى حاكم السودان رسالة ففتحها فوجدها مملوءة بعشرات من الأذان البشرية المقطوعة ومعها ورقة مكتوب فيها تحذير وتهديد بقطع اذنه اذا قصر فى وجباته الوظيفية بالسودان.

وفى ظل تلك العسكرة فقد تم تسخير الفلاحين بالجملة فى اشغال الرى والصرف والحفر والردم حيث بلغ عدد المسخرين ٢٥٠ ألف فلاح مصرى كانوا يساقون إلى أشغالهم مربوطين قطارات بالحبال كما يقول الجبرتى وكانت تنهال عليهم أكوام الردم والطين ويموتون تحتها وقد مات منهم اثناء حفر ترعة المحمودية فقط ١١٥ ألف فلاح.

يقول الدكتور على الجريتلى.. إن العمال المصريين ـ فى مصانع أفندينا ـ قد تعرضوا لاستغلال الرؤساء الأتراك الذين يختلسون بعض ما عهد إليهم تسليمه للعمال من الأجور ومواد الصناعة ومعداتها وكانوا يرغمون العمال على تحمل نفقات إصلاح الآلات التى تتوقف عن العمل وعلى دفع ثمن الآلات التالفة.

وبقوة العسكرة كان يمارس أفندينا جمع الصبية من الشوارع لإلحاقهم بمصانعه. وبقوة هذه العسكرة ايضا أصدر أفندينا فرمانا يقضى باعدام الفلاحين الهاربين من قراهم وغيطانهم واعدام من يلوذون به.. كما اصدر فرمانا عجيبا يقضى بزواج شباب الفلاحين بالاكراه بواسطة عمد البلاد ومشايخها بهدف زيادة عدد السكان حتى تستطيع عسكرته تقديه جيشه ومصانعه ومشروعاته.

هذه مجمل الانجازات الإيجابية لعسكرة افندينا محمد على واشتراكيته التى ترتب عليها سخط المصريين فى الداخل حيث أضرب العمال المصريون فى مصانعه عدة مرات وحيث وصفه الشعب المصرى الحكيم بقوله.. ان افندينا محمد على بنى قصرا وهدم مصراً.. ويقول الفلاحون المصريون.. إنه سرق القمل الذى على أقفيتنا.

ذلك هو السخط الشعبى الذى أضعف عسكرة أفندينا واشتراكيته رغم تأسيسه لمصر الحديثة.. هذه العسكرة التى كانت عسكرة غليظة مكنت أفندينا من الحكم الفردى المطلق والوحدانية السلطوية المطلقة.. وهذه هى الاشتراكية ذات المضمون الزراعى والصناعى والانشائى وكلاهما كانا سببا رئيسيا فى استقلال مصر وجعلها امبراطورية عربية ذات شأن.. كما كانا سببا رئيسا فى دخول الإنسان المصرى لأول مرة منذ عهد الفراعنة إلى مجال احتراف الجندية والحرب والقتال. ولكن كل هذا ضاع أدراج الرياح تقريبا لأن عسكرة أفندينا واشتراكيته لم يوفران للمصريين الخبز والحرية أى العدل الاجتماعى والحريات العامة والسياسية.

ومن هنا أدرك التحالف الأوروبى والعثمانى المعادى لمصر الأمبراطورية المستقلة ان عسكرة افندينا محمد على واشتراكيته قد خسرت الشعب المصرى لم يعد لها شعبية فى صفوف المصريين الذين لن يبادروا بتكرار مقاومتهم العظيمة فى رشيد سنة ١٩٠٧ التى هزمت وسحقت حملة فريزر الإنجليزية وبالتالى فقد أدرك ذلك التحالف الاستعمارى أنه قادر ايضا على الجيش المصرى وتحويل انتصاراته الباهرة على جيش الخلافة العثمانية إلى هزيمة بدون مساندة الشعب المصرى الذى لم يحصل على خبره وحريته من عسكرة أفندينا واشتراكيته.

هكذا باتت عسكرة أفندينا واشتراكيته عارية من غطاء الوطنية المصرية العظيمة التى طردت جيش الحملة الفرنسية وبعدهم الحملة الإنجليزية لأن قائد هذه العسكرة قد فاته ان الشعب المصرى هو السند وهو السنيد. ومع غياب ذلك السند والسنيد تحرك التحالف الأوربى والعثمانى بأساطيله التى حاصرت مصر واجبرت عسكرة أفندينا واشتراكيته على الرضوخ فى عام ١٨٤٠ لكى تصبح مصر مزرعة قطنية يتم زراعتها بواسطة السخره ولكى تصبح معبراً بين الغرب والشرق بالسخره ايضا كل ذلك لصالح الخوجات ورأس المال الأجنبى.

حدث كل هذا تحت شعار فى البدء كان الجيش.. فى البدء كانت العسكره.. وهذه مصيبة مصر والمصريين فى العصور القديمة والوسيطة والحديثة.

وللأسف وللحزن معا لم يلتفت احد إلى خطورة هذه العسكرة حتى لو كانت على يد الفرنسيين وأولياء الله الصالحين من المصريين.

عسكرة السخرة ورأس المال الأجنبى

ذهب أفندينا محمد على وعسكرته واشتراكيته وورثه حفيده الخديوى عباس الأول بعد فترة قصيرة جدا قضاها إبراهيم باشا فى الحكم بعد اعتزال محمد على لمرضه الذى أبقى على عسكرة جده ومزرعته العظيمة وممارسة السخرة وقضى على مجمل صناعاته ومصانعه ترضية لرأس المال الأجنبى حتى تصبح مصر سوقا خالصة له مما يعنى أنه قد قضى على اشتراكية أفندينا قضاءً نهائياً.

ثم مات عباس الأول صديق الانجليز موته يمنعنا الحياء من وصفها حيث مات منكبا على وجهه فى حادثة شاذة فورثه سعيد باشا ثم الخديوى إسماعيل باشا اللذين قد وظفا العسكرة بدون حدود من أجل تفشى السخرة فى صفوف المصريين بدون حساب.

ففى عهد سعيد باشا والخديوى إسماعيل باشا ظهر فى مصر اكبر مشروع للسخرة المنظمة فى العالم خلال حفر قناة السويس البحرية لصالح شركة قناة السويس الفرنسية والاستعمارية معا والمموله برأس المال الأجنبى. حيث بلغ عدد الانفار المصريين الذين اكرهوا على السخرة فى أشغال الحفر والردم فى قناة السويس فى عام ١٨٦٢ وهى السنة التى شهدت أكبر حشد للأنفار المصريين للسخره ربع مليون مصرى وهو عدد رهيب بالنسبة لعدد السكان فى مصر الذى بلغ فى تلك السنة ٤,٨٣٣,٠٠٠ مليون نسمة.. وكان يتم تغيير أنفار السخرة شهريا بمعدل عشرين ألف نفر وفى تقديرات أخرى خمسة وعشرين ألف نفر.

وكان يتم حشد هؤلاء العمال والأنفار بقوة العسكره وضبطها وربطها من البوليس المصرى وعساكره ومن خلال عمد البلاد رمشايخها وخفرائها حيث كان يتم القبض على الأنفار والعمال وجرهم إلى دوار العمده حتى يتكامل عددهم وتفرض عليهم الحراسة الكاملة حتى يصلوا إلى مراكز الشرطة فى البنادر ثم يتم نقلهم بالقطارات أو بالسفن فى حراسة عسكرية مشدده إلى أقرب مكان لساحات حفر القناه.

وقد تمت السخره فى حفر قناة السويس وفقا لنصوص لائحة استخدام المصريين فى أشغال حفر قناة السويس التى تقول بعض نصوصها ما يلى :

نحن محمد سعيد باشا والى مصر.. رغبة منا فى ضمان تنفيذ الأعمال الخاصة بقناة السويس البحرية. ولضمان معاملة العمال المصريين الذين يستخدمون هناك.. وفى نفس الوقت لمراعاة مصالح المزارعين والملاك والمقاولين الوطنيين أقرر ما يأتى :

المادة الأولى.. تقدم الحكومة المصرية العمال الذين سيعملون فى أعمال الشركة.

المادة الثانية.. تقدر أجور العمال بمثل متوسط الأجور التى تدفع فى أعمال الغير وتصرف الجرايه يوميا أو كل يومين.

المادة الثالثة.. أعمال البوليس فى ساحات الحفر يقوم بها ضباط الحكومة من رجالها.

إن هذه المواد تبين لنا أن السخرة فى حفر قناة السويس كانت سخرة سلطوية تنفذها العسكرة الحاكمة.. وكان ايضا سخرة مأجورة بأجر معلوم وضئيل.. وان ممارستها كانت تتم تحت إشراف العسكرة البوليسية المصرية بقيادة ضابط الشرطة الرهيب إسماعيل بك حمدى الذى قد عينته الحكومة المصرية أول محافظ لمدينة بورسعيد الجديدة والناشئة مكافأة له على اذلال الأنفار والعمال المصريين المسخريين حيث كان يضربهم بالسياط ويقوم بحلق شواربهم وسجنهم وعرضهم للفرجة امام السياح الاوروبيين بقصد اذلالهم مما أدى إلى ثورة أنفار السخره على الشرطة والسخرة معا ويقال إن هذهالسخرة ذات الطبيعة السلطوية والعسكرية قد ادت إلى موت قرابة ستين ألف فلاح مصرى.

والأمر الغريب ان سخرة الخواجات وما فيها من فظائع كانت أخف من سخرة عسكرة أفندينا محمد على وحلفائه سعيد وإسماعيل يقول الجبرتى.. وكان الباشا محمد على سافر إلى الاسكندرية بسبب ترعة المحمودية وأمر حكام الجهات بمجمع الفلاحين للعمل فأخذو فى جمعهم فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال وينزلون بهم فى المراكب.. وتعطلوا عن زرع الدراوى التى هى قوتهم وقاسوا شدة بعد رجوعهم ومات الكثير منهم من البرد والتعب وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر حتى لو كان فيه روح.

وفى عهد والى مصر سعيد باشا قد تم تطهر ترعة الاشراقية أى المحمودية بواسطة خمسة عشر ألف من المسخرين بواسطة العسكرة كما سخرت عسكرة الخديوى إسماعيل مائة ألف فلاح فى ترعة الإبراهيمية طوال ستة سنوات.

ويذكر صلاح عيسى بأن عدد المسخرين فى عام ١٨٧٤ فى عهد الخديوى إسماعيل قد بلغ ٣٦٤٥١٨ فلاح وفى عام ١٨٨٢ كان عدد المسخرين ٢٧٦٠٠٠ ـ وبلغ متوسط عدد المسخرين فى عامى ١٨٧٩ ـ و١٨٨١ ما يقرب من ١٨٨٠٠٠ فلاح.

وفوق ذلك فقد تم تسخير اكثر من مليون نفر من الفلاحين فى أشغال تطهير أى الرى وحفظ جسور النيل أيام القبضان التى كانت تحتاج إلى اكثر من تسعه وعشرين مليون يوم عمل من السخره والعمل الإكراه بواسطة عسكره السلطة.

وللحزن فإن مجمل أشغال السخرة كانت مجانية وبدون أجر عينى أو نقدى فى ظل عسكرة غليظة على الفلاحين.. كما كانت سخرة مقننة بقانون العونة الذى يقضى بإجبار الفلاح المصرى على السخره فى الزراعة وفى الاشغال العامة حيث جاء فى قانون العونة ان أهالى القطر المصرى مكلفون بالأعمال الآتية :

أولاً.. أعمال الحفر والردم والتطهير باليد سواء كانت منفعة هذه الأعمال على مديرية واحدة أو جملة مديريات.

ثانياً.. خَفْر الجسور أى حراستها وبناء القناطر وزيادة النيل.

ثالثاً.. كل ما يتعلق بالأدوات المعدة لحفظ الجسور والقناطر والسدود.

رابعاً.. ان العونة السخره واجبة على كل أهالى القطر المصرى.

هذه مظاهر السخره المفروضة على الشعب المصرى بواسطة عسكرة أفندينا ثم بواسطة عسكرة الوالى ثم الخديوى خدمة للمزرعة القنطية التى كان يتولى أمرها ويأخذ ثمارها الخديوى أياً كان هو مشاركة مع رأس المال الأجنبى الذى توافد بكثرة فى عهد خلفاء أفندينا محمد على الذين قد ورثوا عسكرته وممارسة سخرته.. هذه العسكرة التى ظلت مصيبه مصر والمصريين مما أدى إلى بداية صحوة الوطنية المصرية من جديد فى عهد الخديوى إسماعيل حيث فرضت وجودها من خلال نشوء صحافة وطنية حرة ونشوء برلمان مصرى وبروز شأن الضباط المصريين فى الجيش المصرى فى قلب عسكرة الخديوى إسماعيل.. وهكذا كان النهوض الوطنى سبباً فى بداية ظهور العسكرة الوطنية والتحررى الذى قادة جمال الدين الافغانى ومدرسته التى كانت تضم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول والضابط أحمد عرابى وغيرهم.. هذه المدرسة الوطنية التى أفرزت حزبا وطنيا هو الأول من نوعه فى مصر الحديثة يضم فى صفوفه المثقفين وعدد من ضباط الجيش المصرى وكان شعاره.. مصر لكل المصريين كدليل على بعث وطنى جديد.. وتفصيلا اكثر لذلك النهوض الوطنى هو انتشار الصحافة المصرية الت لم تكن فى جملتها صحافة سلطوية تعمل فى خدمة السلطة والسلطان بل كانت صحافة حرة ولهذا أحاطت الرأى العام المصرى الوليد علما بمناقشات البرلمان الحديث وأخبار الامم والسياسة المصرية كما قد تعرضت بالنقد الشديد للخديوى

إسماعيل نفسه وخاصة جريدة أبو نظاره الشعبية فى سنة ١٨٧٧ التى كان يصدرها اليهودى المصرى يعقوب صنوع والتى كان يباركها الامام جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده.

وكان من أهم تجليات الوطنية المصرية الناهضة هو قيام أول برلمان مصرى فى أوائل سنة ١٨٦٦ مكونا من خمسة وسبعين عضوا من الشخصيات المصرية.. وفى قلب هذا البرلمان الناشئ برزت المعارضة البرلمانية المصرية لأول مرة فى مواجهة طغيان الخديوى إسماعيل وسلطانه المطلقة وفى مواجهة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية السيئة فى مصر وما ترتب عليها من بؤس وفقر للمصريين.

على هذا النحو استطاع النهوض الوطنى أن يعرض لأول مرة فى مصر القديمة والوسيطة والحديثة بعض مظاهر المجتمع المدنى التى تجلت فى اضطرار الخديوى إسماعيل من تخفيف عسكرته بنقل قصره من القلعة رمز العسكرة والعسكرية وكعبة الاستبداد إلى قصر عابدين.. وتوسيع الاصلاحات التعليمية حيث بلغ عدد طلبة المدارس مائة آلف طالب بعد ان كان عددهم فى عهد جده أفندينا محمد على عشرين الف طالب تناقص عددهم فى عهد الوالى سعيد باشا إلى عشرة آلاف طالب.. وذلك بالاضافة إلى تقليل سلطة عسكره الخديوى إسماعيل بإصدار مرسوم خديوى يقضى بمبدأ المسئولية الوزارية على الوزارة المدنية باعتبار ذلك المبدأ هو قاعدة الحكم فى.. ولذلك نشرت جريدة الوطن الصادرة فى ١٦ نوفمبر ١٨٧٨ مقالا قالت فيه :

إن الحكومة المصرية بعد ان كانت استبدادية أصبحت مقيدة بالقوانين الشرعية.

عندئذ بادر الفلاح المصرى إلى الجهر بشكواه واحتجاجاته على الحكومة مما يعنى أنه قد بدأ التخلص من خوفه من السلطة والسلطان... مما دفع جريدة.. البروريه أجبشن تقول فى عددها فى يوليو ١٨٦٩.. ان الفلاح بدأ يجهر بالشكوى مما لم يرو عن مثله فى مصر.

فى هذا المناخ الوطنى بدأ جنين العسكرة المصرية والوطنية يصول ويجول ويتحرك بشدة فى رحم الحياه المصرية من خلال مشاغبات ومشاكسات الضباط المصريين فى القشلاق العسكرية وفى الشارع المصرى وفى قلب السياسية المصرية مما يدعونا إلى القول بأن الآمة المصرية لم تعد أمة من الفلاحين بل أمة من الفلاحين والمحاربين معا بعد مولد العسكرة

والعسكرية المصرية التى ظلت فى رحم الجيش والحياة منذ عهد أفندينا محمد على وعسكرته حتى فى عهد الخديوى إسماعيل وعسكرته حيث بزغ فجر المجتمع المدنى فى مصر الحديثة الذى تفجرت خلاله تناقضات حادة بين الضباط المصريين والضباط الأتراك والجراكسة فى الجيش المصرى. هذه التناقضات التى كانت موعد ميلاد العسكرة المصرية والعسكرية الوطنية من خلال الثورة العرابية ثورة العسكرة المصرية واعلان وجودها الوطنى ومضمونه الاجتماعى.

العسكرة الوطنية وثورتها

وأخيراً أخيراً جمع الإنسان المصرى بين زرعه وضرعه وحرفته وصنعته وبين العمل العسكرى والقتالى والحربى وصار زراعاً وصانعاً وجندياً محارباً يدافع عن وطنه وشعبه فالوالى محمد على أهله للجندية مضطراً فكان خير أجناد الأرض كما قال رسولنا ﷺ. فلولاه ما استطاع أفندينا هزيمة جيش الوهابيين واختراق صحراء الربع الخالى بالجزيرة العربية لأول مره. وما استطاع أن يسحق جيش الامبراطورية العثمانية مما دعا الوالى سعيد باشا إلى تجنيد اولاد عمد البلاد ومشايخها هؤلاء الفتيان الفلاحين والمصريين قد اثبتوا جدارتهم العسكرية التى هى جدارة جدهم الملك والقائد العسكرى الفرعونى تحتمس الثالث.

يقول ديلسيبس فى تقريره عن ذلك العصيان العسكرى..

وقد أبدى رؤساء ساحات الحفر من مهندس الشركة وموظفيها الفرنسيين فى عتبة الجسر كثيرا من ضروب الحكمة وحسن التصرف والذكاء والنشاط ولولا شجاعتهم ونظامهم لاستفحل أمر الفتنة التى قام بها جنود الجيش المصرى الذين وفدوا من الصعيد إذ كانوا على جانب كبير من القوة والشراسة والحدة والتمرد والصلابه.

ويقول الدكتور محمد صبرى.. إن العصيان الذى قام به جنود الجيش المصرى الذين حشدوا لحفر قناة السويس كان مظهرا قويا من مظاهر الاستياء الذى عم الشعب بسبب تسخير الأهالى فى حفر القناة فبرز استياؤهم على هذه الصورة هكذا أثبتت العسكرة المصرية الناشئة وجودها من خلال تمرد العساكر الفلاحين فى ساحات حفرقناة السويس. هذا الوجود الذى انبثقت منه نهوض الوطنية المصرية ومظاهرها فى عهد الخديوى إسماعيل

التى كان من بينها مشاغبات الضباط المصريين مثل إهانة نوبار باشا رئيس الوزراء والاعتداء عليه فى عام ١٨٧٩، وللعلم ان الخديوى أياً كان هو كان يخشى من العسكرة المصرية الحديثة والصاعدة ولذلك فقد بادرت أسرة محمد على إلى ربط بعض الضباط المصريين بالمصالح الاقطاعية من خلال تزويجهم بالجوارى التركيات والشركسيات اللاتى يعملن بالقصور الخديوية ومن خلال تغليب الضباط الأتراك والشراكسة على الضباط المصريين الذين يتعرضون للطرد وتأخير أجورهم والتهكم عليهم بأغنية تقول :

رجال الجيش المصرى.. تدلت ذيولهم وآذانهم.. وطلقوا زوجاتهم بسبب نقص الرواتب.

ومع مجئ مصيبة الديون المصرية التى فرضتها سياسات الخديوى اسماعيل تدخل الانجليز والأجانب فى الشئون المصرية وفى مقدمتها الجيش المصرى الذى كان يهدد المصالح الاستعمارية مما جعل الانجليز والدائنين الأوربيين يحاولون تصفية الجيش المصرى والعسكرة المصرية الحديثة، وفعلاً فقد حدثت تصفية جماعية للجيش المصرى فى فبراير ومارس ١٨٧٩ وعندئذ حاول إسماعيل التقرب للجيش دون أن ينال تأييداً كبيراً من الضباط المصريين كما يقول الكسندر شونسن فى كتابه مصر للمصريين.

وعزل إسماعيل تاركاً عسكرته وسلطانها لولده الخديوى توفيق فى مصر الاقطاعية المديونه والمستعمرة ولكن العسكرة المصرية فى قلب الجيش المصرى بدأ يستبد بها الغضب منذ فبراير ١٨٧٩ حيث بدأت تنادى بمطالبها التى كان من أبرزها المطالبة بعزل على غالب ناظر الحربية من منصبه لإهماله الجيش حيث كانت وجبات الطعام غير كافية. والمطالبه ايضا بحل مشاكل الضباط المصريين الذين وضعوا عندئذ على قوائم الاستيداع وتركوا لمواجهة مصيرهم دون أن يعرفوا كيف يدبرون أمورهم على حد قول د. الكسندر شولسن ولكن الخديوى توفيق واجه مطالب الضباط المصريين بتعيين الضابط الجركس عثمان رفقى وزيراً للحربية بقصد زيادة تغليب الضباط الجراسكة والأتراك على الضباط المصريين لإضعاف العسكرة المصرية التى أثبتت وجودها الفعال فى حرب الحبشه من خلال بطولة الضباط والعساكر المصريين فى هذه الحرب التى تخاذل خلالها الضباط الجراكسة والأتراك إلى حد ان كارثة حرب الحبشة تقع على عاتقهم بشهادة الضباط المصريين والضباط الامريكيين الذين كانوا بالجيش المصرى اثناء حرب الحبشة.. ولقد كان من أبطال هذه الحرب الضابطان المصريان أحمد عرابى وعلى فهمى اللذان رقيا إلى رتبة الأميرالاى.

وفى هذه الأيام وظف الخديوى الجديد توفيق عسكرته الخديويه فى العودة إلى الحكم المطلق بتعيين عميله رياض باشا رئيسا للوزارى خدمة لمصالحه وخدمة لمصالح الدائنين الأوربيين فبادر بنفى الامام جمال الدين الافغانى ورفض اللائحة الدستورية واعطاء النواب حق الحصانه البرلمانية وعدم دعوة مجلس شورى النواب إلى الانعقاد ومصادرة الصحافة الوطنية والرضوخ لسياسة الدائنين وعدم تحقيق مطالب العسكرة فى الجيش رغم أن كرومر قد أحس بوقوع كارثة لعدم الاستجابة لمطالب الضباط المصريين مما دفعه إلى تقديم نصيحة عاجلة فى ديسمبر ١٨٨٠ بالاستجابة للمطالب المالية للضباط المصريين مهما كان الثمن فرفض رياض باشا رئيس الوزراء زاعما أنه لا أساس لتلك المخاوف.

بذلك استطاعت عسكرة الخديوى توفيق من تصفية القوى الوطنية الحديثة والقضاء على مظاهر المجتمع المدنى ولكنها لم تقدر على تصفية العسكرة المصرية التى كان يمثلها حزب العسكريين المصريين فى الجيش الذى قد انبثق من جمعية سرية للضباط المصريين.

ولذلك بادر حزب العسكرة المصرية بقيادة احمد عرابى وزملاؤه إلى تقديم عريضة جماعية إلى رئيس الوزراء فى ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ يطالبون فيها إجراء تحقيق عام فى الجيش ضد عسكرة الخديوى وحزبها العسكرى وضباطها الأتراك والجراسكة.. وكانت هذه أول شكوى جماعية واحتجاجية يقدمها الضباط المصريين إلى رئيس الوزراء.. كما قامت بمثابة اعلان على وجود حزب عسكرى فى مصر وفى قلب جيشها الذى أصبح مسرحاً للصراع الطبقى والوطنى الذى اشتعل بين الضباط والعساكر الفلاحين وبين الضباط الأتراك والجراكسة.

ورداً على ذلك الصراع فقد بادر الضابط عثمان رفقى الضابط الجركسى ووزير الحربية إلى الانتقام من الضباط والعساكر المصريين بتسخيرهم فى أعمال الحفر والردم وشق الترع والرياحات فرفض الضابط المصرى أحمد عرابى أن يسخر جنوده فى حفر الرياح التوفيقى. ومن هنا تزايد اشتعال الصراع بين العسكرة المصرية والعسكرة الخديوية فى قلب الجيش المصرى ولهذا قدم الضباط أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى من الحزب العسكرى المصرى فى ١٥ يناير ١٨٨١ عرضحالا إلى رئيس الوزراء رياض باشا يطلبون فيه إجراء تحقيق جديد وعزل وزير الحربية عثمان رفقى لمواقفه المعادية لحقوق العسكريين المصريين فى الترقية والمعاملة.

وبناء على هذه الشكوى المطلبية والاجتماعية للحزب العسكرى المصرى قام الحزب التركى والجركسى فى الجيش باستدعاء الضابط أحمد عرابى وزميليه للتحقيق معهم فى ديوان وزارة الحربية حيث تم القبض عليهم بخطة تآمرية مدبرة.

ولكن الضابط الفلاح أحمد عرابى كان لديه هاجس بأنه وزميليه سوف يتعرضون خلال ذلك التحقيق إلى سوء المصير مثلما تعرض المماليك لمذبحة القلعة فى عهد افندينا محمد علـى وهذا ما جعله يحتاط للأمر بواسطة الضباط والعساكر المصريين ولهذا أسرع الألاى والسادس مشاة بقيادة الضابط محمد عبيد لانقاذ أحمد عرابى وزميليه. وفى هذا السياق الثورى قبض الضابط محمد عبيد على اميرالاى الحرس الخديوى الجديد ورابطت أورطة بقيادة البكباش أحمد فرج امام قصر عابدين بينما تحرك البكباش محمد عبيد والبكباش على عيسى على رأس أورطنين صوب قصر النيل ولم يستمع أحد إلى أوامر الفريق راشد حسن القوقازى صهر الخديوى توفيق ومستشاره العسكرى.. الذى حارب مع العرابيين فيما بعد .. كما رفض العساكر المصريون أوامر الخديوى الذى كان واقفا بشرفة قصر عابدين.

يقول د. الكسندر شولش..

وقبل الظهر احكمت الاورطتان حول نظارة الجهادية واطلقت مجموعة من الجنود النار على المبنى ففر الضباط الجراكسة التماسا للنجاة وقفز عثمان رفقى ناظر الجهادية عبر أحد النوافذ هاربا فلم يقع قتال حقيقى واطلق الجنود سراح أحمد عرابى وزميليه.

وعلى الفور تحققت مطالب العسكرة المصرية الناشئة الثورية بعزل عثمان رفقى وزير الحربية واستبداله بالوزير محمود سامى البارودى وتحققت المطالب الاقتصادية للضباط والعساكر المصريين.

على هذا النحو الوطنى والثورى برز الوجود الفعال للعسكرة المصرية الحديثة. هذا الوجود الذى تعرض لمؤمرات الخديوى توفيق وقناصل الدول الاوربيين الذين كانوا يدفعون العسكرة المصرية إلى الثورة الوطنية ذات المضمون الاجتماعى.

ولقد أدت تلك المؤامرات الخديوية إلى مواجهة مباشرة بين أحمد عرابى ممثل العسكرة المصرية والوطنية المصرية فى ميدان قصر عابدين حيث قدم الزعيم أحمد عرابى مطالبه

الوطنية الثلاثة وهى.. إسقاط وزارة رياض ودعوة مجلس شورى النواب إلى الانعقاد وزيادة عدد الجيش المصرى إلى ثمانية عشر ألفا ومن هنا باتت العسكرة المصرية عسكرة موحدة ومسيسة حيث وقف الضباط والعساكر المصريون وقفة رجل واحد خلف الزعيم أحمد عرابى فى موقف وطنى وسياسى واحد ضد الخديوى توفيق وقناصل الدول الأوروبية.

ومن هنا بدأت العسكرة المصرية الناشئة والفنية مباشرة العمل السياسى اثباتا لوجودها الفعال والوطنى من خلال الاتصال السياسى بقناصل الدول الأوروبية مما أدى إلى مبادرة العسكرة المصرية إلى طرح مطالب اقتصادية واجتماعية جديدة للعساكر والضباط المصريين.

ولقد صاحب ذلك قيام عدد من الشخصيات الوطنية المدنية بمطلب افتتاح مجلس نواب للأمة المصرية يضمن لها أرواحها وأموالها وأعراضها وسن قوانين عادلة يعتمد عليها فى حفظ الحقوق تضاهى قوانين المجالس المختلطة وحدود تامة للحاكم والمحكوم ليقف كل عند حده لا يتعداه.

وكان بروز تلك المطالب المدنية وعرضها نتيجة لتحالف احمد عرابى ممثل العسكرة المصرية وقائدها مع الشخصيات الوطنية من أعيان البلاد الأعضاء بالحزب الوطنى.

وكان أهم شئ حققه تحالف العسكريين والمدنيين المصريين هو تعيين شريف باشا رئيسا للوزارة ومحمود سامى البارودى وزيراً للحربية ودعوة مجلس النواب للانعقاد فى ٦ أكتوبر ١٨٨١.

ولما ضاق الخديوى توفيق ذرعا بالعسكرة المصرية والوطنية المصرية معا حاول الاستعانة بالباب العالى والجيش التركى. ولكن السلطان العثمانى طلب منه معلومات اكثر تفصيلا عن أهداف الثوار فأخبره توفيق ان هناك سببان لسخط الثوار هما أن مصر تقع تحت سيطرة الأتراك والأوربيين بدلاً من ان تكون تحت حكم المصريين.. وان ثروة البلاد تتبدد على سداد الديون الأوربية.

هكذا عرف الخديوى توفيق والسلطان العثمانى بالثورة الوطنية وثوارها العسكريين المصريين.

وعندئذ تصاعد الحس الاجتماعى والحس الوطنى للتجار والحرفيين والعمال والفلاحين وكل الفقراء المصريين بشكل صارخ وملحوظ من خلال الشكايات المطلبية والاجتماعية على مظالم الخوجات والاقطاع الخديوى فى سابقة هى الأولى من نوعها طوال عهد الغزاة.

وقد صاحب ذلك صعود شخصية أحمد عرابى وبروزه كزعيم شعبى وجماهيرى وعسكرى لم تشهد مصر وشعبها زعيماً مصرياً يماثله منذ عصر الفراعنة. ومن هنا ينبغى القول بأن العسكرة المصرية الناشئة هى التى قد أفرزت الزعيم أحمد عرابى ورفاقه الضباط الثوريين والأبطال بينما الوطنية المصرية الحديثة لم تفرز شخصية مدنية ثورية فعاله إلا شخصية عامل التلغراف الشيخ عبد الله النديم الذى استطاع جمهرة الزعيم أحمد عـــرابى ورفاقه فى القاع الاجتماعى المصرى بمدنه وبنادره وكفوره وقراه وحول الشعب المصرى إلى جيش عسكرى يساند العسكرة المصرية الثائرة مما أدى إلى مزج الوطنية المصرية بالعسكرة المصرية فى مواجهة الخديوى توفيق والاقطاع المصرى والأوروبيين.

هذه ملامح ثورة العسكرة المصرية التى قد بدأت كرد فعل للثورة الخديوية المضادة فور تقديم الضباط أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى إلى رئيس الوزراء رياض باشا مطالبهم ضد وزير الحربية عثمان رفقى الضابط الجركس ثم حققت سلطتها الوطنية فى يوم ٩ سبتمبر عندما حدد القائد والزعيم أحمد عرابى لقاءه مع الخديوى توفيق بشأن تحقيق مطالب الأمة المصرية حيث كان لقاء شعبيا حاشدا ضم جماهير العسكريين وجماهير المواطنين من القاهرة والاقاليم.

وتأكيدا على ان ثورة العسكرة حققت سلطتها الوطنية فقد رفض العسكريون المصريون اسمان من أنصار الخديوى لرئاسة الوزارة الجديدة ثم قرأ عرابى كتاب تكيف الشخصية المطلوبة لتاليف الوزارة وهو شريف باشا حليف العسكريين وقتئذ.

هكذا بدأت ثورة العسكرة المصرية.. وهكذا حققت سلطتها الوطنية التى تغيرت وتبدلت وفقا لتطور الثورة حيث ذهب شريف وحل محله محمود سامى البارودى رئيسا للوزارة وأحمد عرابى وزيراً للجهادية تحت شعار مصر للمصريين والحرية والسلام للأجانب وخديوى يملك ولا يحكم وانشاء بنك وطنى وتخفيف الضرائب على الفلاحين وحل مشاكل

ديونهم وتطوير نظام القضاء والغاء نظام الرقيق وقد تميزت ثورة العسكرة الوطنية والمصرية هذه بتعاطف ايجابى ومساندة ايجابية من الشعب المصرى بفضل داعية الثورة وخطيبها عامل التلغراف الشيخ عبد الله النديم حيث وضع الشعب المصرى وفلاحيه الفقراء ثروته تحت تصرف جيش الثورة بما قدمه من بقر وجاموس وخراف وخيول وبغال وقمح وفول وعدس وعسل وسمن وقماش وخيام وأغطية.

والجدير بالذكر ان هذه الثورة هى الثورة المصرية الثانية فى العصر الحديثة. الثورة الأولى كانت ثورة الشعب المصرى ضد عسكرة الحملة الفرنسية التى وللأسف لم تفرز زعامة مصرية وسلطة مصرية ولكنها افرزت فيما بعد شخصية عسكرية أجنبية تمثلت فى شخص افندينا محمد على ولكن ثورة العسكرة المصرية أى الثورة العرابية التى اطلق عليها الشعب المصرى هوجة عرابى افرزت زعامة مصرية وعسكرية تجلت فى الضابط أحمد عرابى.. كما قد افرزت سلطة مصرية تحت قيادته.

وكان الخطأ القاتل الذى اعترى تلك السلطة الوطنية والثورية هو خلوها من عناصر مدنية حيث كانت سلطة عسكرية. وحتى داعى دعاة الثورة وخطيبها عبد الله النديم لم يكن ضمن سلطة ثورة العسكرة الوطنية مما أدى إلى تسميتها بالدكتاتورية العسكرية وخاصة بعد تعيين عدد من الضباط فى الإدارة المدنية للمديريات المصرية ومع ذلك فقد التف الشعب المصرى حولها.

ولكن الخديوى توفيق الذى فقد عسكرته الجركسيه والتركية والألبانية حاول التصدى لثورة العسكرة المصرية مدعوما ببعض الاقطاعيين المصريين مثل سلطان باشا وبالانجليز والسلطان العثمانى.. ويبدو ان ذلك الدعم كان امراً مدبراً منذ بداية ثورة العسكرة المصرية حيث جاء إلى الاسكندرية الأسطول البريطانى والأسطول الفرنسى وهذا ما شجع الخديوى الخائن إلى المطالبة بتصفية سلطة الثورة العرابية واسقاط وزارة محمود سامى البارودى وابعاد زعيم الثورة أحمد عرابى الأمر الذى رفضه الشعب المصرى ورفضه علماء الأزهر إلى حد أن الشيخ عليش قد اتهم الخديوى توفيق بأنه مسئول عن وصول الاسطول الانجليزى وعساكره إلى الاسكندرية ومعه الأسطول الفرنسى وعساكره ايضا.

ومن المرجح أن تحالف الثورة المضادة الذى يضم بقايا عسكرة الخديوى وأشخاصا من الاقطاعيين المصريين وعسكرة الأسطولين الإنجليزى والفرنسى قد رأى ان قيادة ثورة العسكرة المصرية خالية من الشخصيات المصرية المدنية باستثناء التلغرفجى الشيخ عبد الله النديم وأن لسطتها كذلك خالية من العناصر المصرية المدنية مما جعله يبادر بتحويل ثورته المضاده والانقلابية إلى حرب استعمارية ضد ثورة العسكرة المصرية التى وقعت فى ذلك الفخ الاستعمارى فتحولت ايضا إلى حرب وطنية من خلال جيش مصرى ووطنى ضد جيش أجنبى واستعمارى مما أدى إلى مضاعفة الخطأ القاتل لثورة العسكرة المصرية بقيادة أحمد عرابى حيث لم تسلح الشعب المصرى فى مدن وقرى الوجه البحرى والصعيد وبالذات فى مدينتى الاسكندرية والقاهرة حتى تصبح ثورة شعبية وفلاحية تماثل ثورة أهالى وقرى رشيد التى سحقت حملة فريزر الانجليزية وحدها سنة ١٠٨٧.

ولذلك فقد إطمأن تحالف عسكرة الاستعمار وعسكرة الخديوى إلى تحقيق النصر على الشعب المصرى ممثلا فى جيش عسكرته الوطنية حيث دبر ذلك التحالف اللعين معركة فردية بين بلطجى مالطى ومكارى مصرى انتهت بقتل مكارى أى الحمار المصرى بطعنة سكين من البلطجى المالطى المأجور فنادت أهالى الاسكندرية ونشب قتال مرير ومدبر بين المصريين والأجانب المقيمين بالأسكندرية الذين كانوا مستعدين ومسلحين بالأسلحة النارية فقتل ١٤٠ مصرياً ولم يقتل من الأجانب الا ٥٧ شخصاً فقط.

وتقع مسئولية هذه المعركة وما سقط فيها من ضحايا من المصريين على مسئولية سلطة العسكرة المصرية ذات الأفق الضيق لعدم تسليحها للمصريين فى مدينة الاسكندرية فلو أن أهالى الاسكندرية قد تم تسليحهم تسليحا كافيا لما استطاع جندى انجليزى واحد ان تطأ قدمه مدينة الاسكندرية كما حدث فى رشيد ولكن تسرى الرياح بما لا تشتهى السفن.

هكذا تأكدت العسكرة الإنجليزية بالذات ان الثورة العرابية ليست ثورة شعبية سوف يشارك فيها كل المصريين مشاركة إيجابية وفعاله بالسلاح ولكنها ثورة العسكرة المصرية فقط التى باتت مجرد جيش وطنى مصرى محارب لا يسانده الشعب المصرى إلا فى حدود التعاطف والتمويل والتهليل بدليل هزيمة المصريين فى الاسكندرية امام عصابة من الأوباش الأجانب.

وعلى الفور بدأت العسكرة الإنجليزية الاستعمارية غزو مصر بإطلاق المدافع من أسطولها بالبحر على مدينة الاسكندرية فى يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ حيث بدأت الحرب بين عسكرة الإنجليز الغازية والعسكرة المصرية لمدة شهرين تقريباً وانتهت بهزيمة التل الكبير فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ ودخل الجيش الانجليزى إلى القاهرة بدون مقاومة تقريبا فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ وبذلك انتهت ثورة عرابى.. ثورة العسكرة المصرية التى كانت فى جوهرها حرب العسكرة المصرية والوطنية.

ولو أن القادة العسكريين المصريين لهذه الثورة أو تلك الحرب الوطنية كان لديهم بصر الثوار وبصيرتهم لأدركوا جيداً أن جيش العسكرة البريطانية الغازية كان جيشا هشًا بعد ان تخلى عنه جيش العسكرة الفرنسية وجيش العسكرة العثمانية والدليل على هشاشته قد تجلى فى هزيمته المنكرة فى معركة كفر الدوار بفضل احتضان الشعب المصرى لجيشه جيش عرابى بتقديم الخدمات والتسهيلات العسكرية مثل نقل المياه والغذاء والمعدات والحجارة العجالى لاقامة المتاريس والتحصينات العسكرية وللأسف قد فات ذلك على العسكريين العرابيين فلم يستفيدوا بالشعب المتحمس لهم باعتباره حصنا منيعاً ضد الغزو الانجليزى الهش.. كما لم يفكروا ابدا فى تسليحه ليقوم بوظيفة الجيش الاحتياطى الاستراتيجى فى هذه الحرب الوطنية.

ولقد بلغت سذاجة هؤلاء القادة الوطنيين انهم قد استجابوا لخداع العسكرة الإنجليزية الغازية بجرهم إلى حرب الصحراء العارية من حماية الشعب وحمايته ومساندته والتى كانت تسكنها الخيانة.. خيانة البدو وخيانة بعض الضباط العرابيين وذلك بدلا من مواجهة الجيش الانجليزى فى مدن وبنادر وقرى الشرقية مسقط رأس الزعيم أحمد عرابى ولذلك كانت هزيمة جيش العسكرة المصرية وثورتها امرا محققا بفضل الخيانة اولا والجيش الانجليزى ثانيا. فالخيانة لم تستطع ان تطفح ابدا خلال معركة كفر الدوار ولكنها طفحت ووجدت فرصتها الذهبية فى معركة صحراء التل الكبير التى اكدت قصر نظر العسكرة العرابية وعساكرها الوطنيين.

هكذا وللأسف والحزن معا انتهت الثورة العرابية ثورة العسكرة المصرية وحربها الوطنية امام الخيانة والعسكرة الانجليزية الغازية. ويبدو ان عرابى وفلول عساكره وضباطه قد

انكسروا نهائيا مع هذه الهزيمة وتحطمت ارادتهم الثورية والوطنية والعسكرية وأصيبت عقولهم بسكتة دماغية فاعتراهم الشلل جميعا باستثناء شخصية ثورية ووطنية ومدنية واحدة هو عامل التلغراف وخطيب الثورة الشيخ عبد الله النديم الذى انتصر للثورة العرابية حتى الموت ولذلك لم ينسحب زعيم العسكرية والوطنية أحمد عرابى إلى القاهرة ويبدأ المقاومة فى حضن أهلها من خلال نقل الثورة الوطنية من العسكرة المصرية المهزومة إلى قلب الجناح المدنى للوطنية المصرية الذى كان من الصعب هزيمته.. كما لم يقدر على المبادرة إلى الانسحاب إلى الصعيد بعد أن تخلع الثورة ملابسها العسكرية وترتدى ثوبا مدنيا وثوريا فى مدن الصعيد ونجوعه وقراه بقيادة عرابى الثورى وليس العسكرى أو بقيادة المناضل الوطنى والثورى الشيخ عبد الله النديم.. وذلك كما فعل الأمير المملوكى مراد بك خلال الحملة الفرنسية حفاظا على ما تبقى من عسكرته المملوكية فقط..

ومن هنا فإن العسكرة والعسكريين هما سبب الأسباب فى هزيمة الثورة العرابية واحتلال الانجليز لمصر فلو آن الشيخ عبد الله النديم كان قريبا من صنع القرار فى سلطة ثورة العسكرة هذه لخلع ثوب العسكرة من جسد الثورة العرابية وألبسها ثوبا مدنيا بحيث يتحول الشعب المصرى فى المدن والبنادر والقرى إلى جيش للثورة يستطيع هزيمة العسكرة الانجليزية والخيانة الاقطاعية لما كان يتمتع به ذلك الشيخ الثورى والوطنى من قدرة على جمهرة الثورة وصلابة وصمود وصبر فى مواجهة الأعداء والخونة بدليل أنه الشخصية المدنية الوطنية والثورية الوحيدة من رجال ثورة العسكرة العرابية الذى رفض الاستسلام وظل يجول ويصول فى ريف مصر طوال عشر سنوات حتى ضبطه مخبر سرى فى قرية الفرشيه مركز السنطة غربية.

وإن المقارنة بين موقف عرابى الوطنى والعسكرى وموقف النديم الوطنى والمدنى يدعونا إلى القول بأن العسكرة مهما كانت وطنيتها مفسدة للثورة ومفسدة للسلطة معا.. فالقائد العسكرى فى الثورة وفى الحرب يعتريه اليأس والضغوط فور الهزيمة فلا يجدد الثورة ولا يكرر الحرب ولا يصمد للمقاومة فى اغلب الآحيان ويبدو ان نابليون بونابرت قد خلص من تجربته العسكرية والسياسية إلى مقوله.. لا تعطوا السياسة للعسكريين فإنها اكبر منهم.. ولا جدال فى آن الثورة سياسة فى ذروتها وكذلك فالحرب سياسة فى قدرتها.. مما يعنى ان السياسة فى جملتها ممنوعة على العسكريين مهما كانت وطنيتهم.

ولكن يقال لماذا وفق الجنرال ديجول فى السياسة وكذلك الجنرال ايزنهاور.. والرد يفيد ان هذين الجنرالين قد عملا بالسياسة فى إطار مؤسسات ديمقراطية فى فرنسا وفى أمريكا. ولهذا فقد كانا جنرالين ملتزمين بالديمقراطية خلال رئاسة الأول لفرنسا ورئاسة الثانى لأمريكا.

ذلك هو حال العسكر والعسكريين فى قيادة الثورة والسلطة.. فى حين ان الثورات العظمى وسلطاتها قد تحققت وانتصرت بواسطة شخصيات وزعامات مدنية.

وعلى عكس ذلك قامت ثورتنا الوطنية ثورة عرابى أو هوجة عرابى كما كان يسميها عامة الشعب المصرى على زعامة عسكرية وقاعدة عسكرية محاطة بعطف شعبى ومساندة جماهيرية ومع ذلك فقد هزمت امام الاحتلال الانجليزى وحليفة الخديوى والاقطاع المصرى أى هزمت فى زعامتها العسكرية وقاعدتها العسكرية أى فى مجمل عسكرتها الثورية والمصرية دون ان تهزم الوطنية المصرية الخالدة التى فجرت ثورة سنة ١٩١٩ الوطنية.

الوطنية المصرية تواجه عسكرة الاحتلال

ينبغى أن تكرر ونعيد ان عسكرة الاحتلال الانجليزى وحلفائها قد هزمت ثورة العسكرة المصرية الناشئة دون ان تهزم الوطنية المصرية المنبثقة منها. هذه الوطنية المصرية الحديثة التى بدأت تواجه عسكرة الاحتلال الإنجليزى بطبيعتها المدنية وشكلها المدنى مما جعلها تفرز أحزابها المدنية ونقاباتها المدنية وزعامتها المدنية مثل مصطفى كامل ومحمد فريد وعمر لطفى ولطفى السيد وسعد زغلول وغيرهم وبفضل نشاطات تلك الزعامات الوطنية التى لم يتواجد فى صفوفها شخصية عسكرية واحدة قد تمكنت هذه الوطنية المصرية من بناء مؤسسات المجتمع الديمقراطى المدنى فى ظل عسكرة الاحتلال الانجليزى حيث تأسس مجلس شورى القوانين من ثلاثين عضوا منهم ١٦ عضوا منتخبا و١٤ عضوا معينا.. كما تأسست الجمعية العمومية من ٨٢ عضوا منهم ٤٦ عضوا منتخبين بطريقة الانتخاب المحدود على درجتين. والباقون من الوزراء واعضاء مجلس شورى القوانين ومدة هذه الجمعية ستة سنوات.

هكذا عادت الحياة النيابية المحدودة كمظهر من مظاهر المجتمع المدنى فى مصر شبه المستعمرة ومصر شبه الاقطاعيه.. ورغم محدوديتها فقد تم تفعيلها بواسطة الوطنية

المصرية ذات الطابع المدنى حيث تعرضت لمسألة الضرائب على المصريين وناقشتها. وناقشت مصاريف الاحتلال الانجليزى وقانون المطبوعات وامتياز شركة قناة السويس وشنق فلاحى دنشواى واتخذت بشأن بعض هذه المسائل مواقف وطنية معادية لعسكرة الاحتلال الانجليزى والمصالح الاستعمارية فى مصر.

ولم تتوقف الوطنية المصرية عند ذلك الحد بل ناضلت من أجل وجود برلمان مصرى اكثر تعبيرا عن الأمة المصرية حيث صدر القانون رقم ٢٩ لسنة ١٩١٣ بشأن تكوين الجمعية التشريعية من مجلس نيابى واحد عدد أعضائه ٨٣ عضوا منهم ١٧ معينون بواسطة الحكومة و٦٦ عضوا منتخبون من الأهالى عن جميع القطر المصرى ومدة عضوية هذه الجمعية ستة سنوات.

وقد صاحب هذه الحياة النيابية نشوء الأحزاب المصرية وتعددها والنقابات التعاونية ونشوء النقابات العمالية وتعددها بالاضافة إلى نشوء نقابة المحامين سنة ١٩١٣ وخلال ذلك التطور الوطنى فى مواجهة عسكرة الانجليز والاقطاع المصرى ظهرت الطبقة العاملة المصرية وتصاعد نشاطها النقابى والاحتجاجى والوطنى حيث انتشرت الاضرابات والمظاهرات الاحتجاجية والعمالية طوال العقد الأول من القرن العشرين كتعبير عن الصراع الطبقى والوطنى معا.

وقد عبرت عن ذلك الصراع الصحفى الوطنية واليساريه التى عددها واحد وعشرين جريدة وصحيفة التى ترجمت الحرب الطبقية والوطنية المعادية للعسكرة الانجليزية والاقطاعيين المصريين بكتاباتها عن ومناقشاتها ضد البطاله والفقر والجوع فى صفوف المصريين.. كما كانت مقالاتها معنونه بعناوين تحريضيه وطبقية وثورية مثل عنوان الرغيف وعنوان العمال العاطلون وعنوان قراؤنا يموتون جوعا ويكتب الشاعر الخفاجى فيقول:

أبين ظهورنا القوم الكرام .. وفى بلداتنا النجب الكرام

ويحيا العاطلون وهم عراة .. جياع لا لباس ولا طعام

وتبكى حولهم جوعى عيال .. هزيع الليل يسكنها المنام

ويكتب الشاعر الاشتراكى عبد الرحمن سالم فيقول :

برح اليوم بالظهور الخفاء .. فكلوا الأغنياء يافقراء

وامضغوهم وعلقو الإثم فى جيدى فهم بانتحارنا الأثماء

وبلعوهم وكلكم مستعد.. لابتلاع الأحجار لولا الحياء

أمام تعاظم الوطنية المصرية ونشاطها وطنياً وطبقيا استغلت عسكرة الاحتلال الانجليزى الحادثة التلقائيه الصغيرة التى وقعت فى قرية دنشواى التى مات بسببها عسكرى انجليزى من الاعياء لا من الاعتداء علية بواسطة فلاحى دنشواى الذين فوجئوا بفرقة من العساكر الانجليز حضرت إلى القرية لاصطياد الحمام برصاصهم هذا الرصاص الذى أحرق أجران القمح فى القرية مما دفع الفلاحون إلى مطاردة العساكر الانجليز الذين لاذوا بالفرار حيث سقط أحدهم مغمى عليه من الاعياء.

تلك الحادثة الضئيلة استغلتها عسكرة الاحتلال الانجليزى فأقامت الدنيا دون أن تقعدها حيث نصبت محاكمة عسكرية فورية فى مديرية المنوفية بشبين الكوم واصدرت حكما ظالما ووحشيا بإعدام عدد من الفلاحين وسجن وجلد الكثير منهم وقامت بتنفيذ ذلك الحكم الوحشى بقرية دنشواى وامام أهلها فأعدم من أعدم وجلد من جلد فى حضور الآباء والأمهات والابناء والزوجات.

هكذا فعلت العسكرة الانجليزية فعلتها الآثمة والغاشمة بفلاحى دنشواى بقصد جعلها رسالة إرهاب وتهديد وتخويف للوطنية وطبقتها العاملة ومثقفيها.

ورب ضارة نافعة حيث كانت حادثة دنشــواى سبب الأسباب فى ولادة الكفاح الفدائى المسلح والسرى ضد عسكرة الاحتلال الانجليزى وعملائه من رحم الطبقة العاملة المصرية ونضالها النقابى.. ذلك الكفاح الفدائى المجيد الذى استهل نشاطه الاستشهادى باغتيال رئيس الوزراء **بطرس غالى باشا** كبير قضاة محاكمة دنشواى الدموية بواسطة النقابى **إبراهيم ناصف الوردانى أحد قيادة نقابة عمال الصنايع اليدوية** الذى قد حكم عليه بالإعدام فى سنة ١٩١٠.

ولقد قوبل ذلك الاغتيال الفدائى بالفرحة والبهجة التى عمت مصر كلها باعتبار هذا الاغتيال الوطنى ثأراً كان من الواجب تأديته **لفلاحى دنشواى.**

ولكن اعدام الفدائى النقابى البطل إبراهيم ناصف الوردانى قوبل بالحزن القومى الى حد أن الشعب المصرى قد ردد فى صبيحه إعدامه أغنية حزينة تقول :

الف صباح الخير يا وردانى

تحية للوطنية المصرية وجناحها الفدائى المسلح الذى استمر نشاطة الفدائى ضد العسكره الانجليزية وعملائها من سنة ١٩٢٤ حيث تأسست العديد من المنظمات الفدائية السرية المدنية والمسلحة التى أشاعت الفزع فى صفوف الانجليز والعملاء.

ولذلك لم تطمأن عسكرة الحتلال الانجليزى للشعب المصرى عندما قامت الحرب العالمية الاولى فأعلنت الحماية على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ وأوقفت الجمعية التشريعية وعطلت الصحف ومنعت الإضرابات والمظاهرات ولم يبق للشعب المصرى غير جمعياته الفدائيه والسريه والمدنيه المسلحه التى كان يقودها العمال النقابيون وبعض المثقفين وكان من أبرز هولاء القادة النظام الفدائى ابراهيم موسى البراد يعنابر السكه الحديد ورئيس نقابة عمالها.

وخلال هذه الحرب العالمية فرضت عسكرة الانجليز السخرة العامة على العمال والفلاحين المصرين لخدمة الأشغال العامة وبناء المخابى والاستحكامات السكرية ونقل المؤن والذخائر على البغال والجمال وإعداد الجيوش المحاربة بالمياه والغذاء ولذلك أنشأت العسكرة الانجليزية فيلقا مصرياً أطلقت عليه فيلق العمال والجمال الذى كانت تجمع أفرادد بواسطه اختطاف الرجال من القرى والمدن ونقلهم مخفورين الى ميادين القتال ثم تطوعت الحكومة المصريه بإرسال سبعة عشر ألف رجل من العساكر الرديف بالجيش المصرى.. ونظراً لاتساع مسرح العمليات العسكرية فقد حاولت العسكرة الانجليزية زيادة عدد فيلق العمال والجمال الذى كان يسميه المصريون فيلق الموت بسبب ما تعرض له المصريون المسخرون فى هذا الفيلق من الموت الجماعى أثناء المعارك الحربية مما أدى الى نقص العاملين فى ذلك الفيلق. وهذا ما دفع عسكرة الاحتلال الانجليزه الى اجبار الحكومة المصرية على تكليف مديرى المديريات الإجراءات البوليسيه التعسفية. وتنفيذاً لهذه التعليمات بدأ الحكام المحليون خظف العمال والفلاحين من الطرق والحقول وجرهم من بيوتهم كالأنعام وإرسالهم تحت السلاح إلى معسكرات الجيش البريطانى.

وتاكيداً لذلك يقول عباس العقاد:

لم يمض شهر من إعلان الحماية على مصر حتى كانت السلطات الانجليزية قد نقضت كل ما أجمعت عليه الأمة. فأطلقت يدها فى دواوين الحكومة وأمعنت فى التضييق على أعداء الاحتلال ثم احتاجت الى العمال فجمعت منهم مليون ومأتى الف من الفتيان الاشداء وفرقتهم فى ميادين القتال وأهملتهم اسوأ إهمال فكانوا يتساقطون كالذباب وتقطع أخبارهم عن أهلهم فلا يسمع عنهم خبر مرض أو وفاه ولهذا فقد عبرت المرأة المصرية عن حزنها على موت اولادها فصرخت نادبة تقول :

ولدى يا ولدى.. والسلطة خدت ولدى

إن ندب الأمهات المصريات وفجيعتهم فى اولادهن كان تعبيرا صارخا عن السخط الشعبى تجاه عسكرة الانجليز وعسكرة الحكومة المصرية التابعة.. كما كان تحريضا مباشرا للشعب المصرى على الثورة الشعبية والمدنية الحالية من شوائب العسكر والعسكرة بهدف تحقيق الاستقلال وقيام مجتمع مدنى يسوده الود الاجتماعى والحريات العامة.

وهذا ما تحققت بعض ملامحه فور اشتعال ثورة سنة ١٩١٩ الوطنية.

ثورة المجتمع المدنى

كما كانت السخرة فى حفر قناة السويس سببا فى الوجود الفعال للعسكرة المصرية الحديثة وسببا فى بعض الوطنية المصرية الحديثة. وسببا فى ثورة العسكرة المصرية أى الثورة العرابية كذلك كانت السخرة التى فرضتها عسكرة الاحتلال الانجليزى لخدمة الجيوش البريطانية فى الحرب العالمية الأولى سببا من أسباب ثورة سنة ١٩١٩ التى أشعلتها الوطنية المصرية ذات الطبيعة المدنية الخالية من شوائب العسكر والعسكرة مما أضفى عليها تسمية ثورة المجتمع المدنى ضد الاحتلال الانجليزى وعسكرته بغية استقلال مصر.

ولا جدال فى ان هذه الثورة العفوية والتلقائية التى قد بادر بها المجتمع المدنى المصرى ضد عسكرة الاحتلال الانجليزى هى امتداد لثورة الوطنية المصرية المدنية ضد عسكرة الحملة الفرنسية وامتداد ايضا لثورة أهالى رشيد وقراها ذات الطبيعة المدنية الصرفه ضد عسكرة حملة فريزر الانجليزية وتصحيح لثورة العسكرة العرابية من حيث خلت طليعتها

وقيادتها الوطنية والبورجوازيه غير ضابط عسكرى سابق هو عبد الرحمن بك فهمى أول سكرتير لحزب الوفد المصرى والمسئول عن العمل الفدائى المسلح لبعض الوقت خلال ثوره ١٩١٩ آحد الثورات المدنيه والشعبيه فى القرن العشرين وفى مصر الحديثه والمعاصرة مما جعلها ثورة الشعب المصرى كله من مسلمين وأقباط وعمال وفلاحين وضاع وحرفين ونجار وموظفين وعوام.. كما كانت قيادتها مبرأه أيضاً من العسكر والعسكرة والجدير بالذكر آن جماهير ثورة ١٩١٩ قد ولدت من بطون الأمهات المصرية فى ظل عسكرة الاحتلال الانجليزى وعرفت ذاتها بذاتها وتشربت الوطنية المصريه ومضمونها الاجتماعى وباتت ذات حس وطنى واجتماعى دفعها الى التمرد والثورة تحت حكم العسكرة الانجليزية حيث ظهرت الطبقات الاجتماعية بملامحها الحديثة الطبقة العامله وفقرار الفلاحين والحرفين وصغار الموظفين وطبقة البررجوازية المصرية بشرائحها المختلفة ثم طبقة الاقطاعيين التى تتقدم الطبقات الأخرى فى نشوتها وتواجدها فى مصر.

وقد تميزت الطبقة العامله المصرية بوجودها الفعال والمبكر حيث نظمت نفسها فى نقاباتها العمالية قبل أن تبادر الراسمالية بتنظيم نفسها فى تنظيمات واحزاب سياسيه وطبقية ومع هذا كانت اعلا صوتاً من الطبقه العامله التى كانت تتكلم فقط بأفعالها الثورية من إضرابات ومظاهرات شغيلة. هذه الأفعال الاجتماعية التى قد تطورت الى تنظيمات وأفعال فدائيه مُسلحة ضد عسكرة الاحتلال الانجليزى والعملاء المصريين.

حدثت هذه الأمجاد التى حققتها الطبقة العاملة المصرية وشاركت فيها البور جوازيه المصرية بقدرما قبل قيام الحرب العالميه الاولثم تجددت تلك الأمجاد فور إنتهاء هذه الحرب فى عام ١٩١٧ حيث انتشرت الاضرابات والمظاهرات العمالية فى القاهرة والاسكندرية بفعل السخط الشعبى على العسكره الانجليزيه التى قد سخرت العمال والفلاحين لخدمة الجيوش الحسوش البريطانيه خلال الحرب العالميه الأولى.. وكذلك بفعل تفشى البطاله واهدار الحقوق العماليه مما اضطر الحكومة وعسكره الاحتلال الانجليزى الى محاوله وقف نشاط الصراع الصارخ والملحوظ من خلال تشكيل لجنه التوفيق فى سنه ١٩١٨ لفض منازعات العمل والعمال دون آن تدرى عسكرة الإنجليز والحكومة المصرية أن الصراع الطبقى الذى كان يشنه العمال المصريون وقتئذ هو صراعُ وطنى يستهدف الاستقلال لمصر.

تلك هى مقدمات ثورة ١٩١٩ ضد عسكرة الحتلال الانجليزى فى مصر التى لولاها لما قامت هذه الثورة ذات الطبيعه المدنية والشعبيه وتلك هى الطبقة العامله المصرية التى قد ملكت حسها الطبقى ووعيها الطبقى ونظمت نفسها مُبكراً حتى باتت ذات وجود فعال مما جعل ذلك الوجود شرط الشروط فى قيام ثورة ١٩١٩ ان هذه المقدمات النضاليه وتلك الطبقه الثورة كانتا سبب الاسباب فى إفراز الزعامات الوطنية مثل الزعماء مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وغيرهم الذى لم يكن واحد منهم ينتسب الى الطبقه العامله المصرية بل كان جميعهم ينتسبون الى البورجوازية المصرية عالية الصوت فى الحياة المصرية الحديثة والمعاصرة بفضل أموالها وأحزابها وما تملكه من جرايد وصحف غفلت تماماً عن إبراز الزعامات العماليه والفلاحيه والشعبيه فى قلب المحيط الشعبى وفى القاع الاجتماعى المصرى ومن هنا جاء تغليب عناصر الصفوة البورجوازية على الشخصيات الشعبية والنقابيه والعمالية فى صفوف القوى الوطنية وفى ثورة ١٩١٩ ومع ذلك فإن مقدمات ثورة ١٩١٩ ونضالاتها وطبقاتها الاجتماعيه قد حققت شيئا رائعاً لم تعرفة ولم تشهده مصر من قبل ومن بعد منذ عهد الفراعنة هذا الشئ العظيم والرائع الذى لم يلمحه المؤرخون المصريون يتجلى فى ظهور مجتمع مدنى فى ظل عسكرة الاحتلال الانجليزى وفى مواجتها .

وتتخلى عظمة المجتمع المدنى المصرى الوليد فى مبادرته بثورة ١٩١٩ ذات الطبيعة المدنيه الخاصة وذات الطبيعة المدنية الخالصة وذات الطبيعة العفوية والتلقائيه أيضاً حيث تفجرت الثورية لذلك الجتمع فى وجه العسكرة الإنجليزية بدون تدبير مرسوم وكان مصدر ذلك التفجير الثورى هو المجتمع المدنى المصرى الناشئ الذى قد ولد من رفض الشعب المصرى للاستعمار وعسكرته والاستغلال وبشاعته ومن ثم فهو مجتمع مدنى رافض وقد تجلى ذلك الرفض فور انهاء الحرب العالميه الاولى ومن منطلق ذلك الرفض الشعبى والمدنى لعسكرة الاحتلال الانجليزى وما كان يصاحبها من نهب واستغلال للشعب المصرى مما أدى إلى ثورة المجتمع المصرى أى ثورة ١٩١٩ بطريقة هادئه ذات طبيعة بورجوازية حيث بدأ تأليف الوفد المصرى من وجهاء الوطنية وعناصر صفوتها البورجوازيه باقتراح من الامير عمر طوسون بعد انتصار انجلتر فى الحرب العالميه الاولى وقد تزعم ذلك الوفد المصرى ثلاثه من أبرز الشخصيات الوطنية فى مصر ممن ينتسبون الى البورجوازية المصرية أولهم سعد باشا

زغلول. إبن عمدة قرية إبيانه الغريبة من مطوبس بمحافظة كفر الشيخ الذى بدأ حياتة طالباً بالأزهر وواحداً من تلاميذ جمال الدين الأفغانى ومحرراً فى جريدة الوقائع المصرية ووكيل ومحامى وقاضى ووزيراً للمعارف ووزيراً للحقانيه ونائباً منتخباً للجمعية التشريعيه حيث رشح نفسه فى أنتخاباتها فى دائرتين بالقاهرة وحقق نجاحا ملحوظ فى هذه الانتخابات. كما فاز فى الانتخابات الداخليه للجمعيه التشريعيه حيث حصل على مقعد وكيلها المنتخب وبهذة الصفه البرلمانيه أصبح رئساً للوفد المصرى الذى اكتسب الشرعية من التوكيلات الشعبية من جماهير الأُمة المصرية.

وثانيهم عبد العزيز باشا فهى إبن فقى وليس فقيه من أهالى كفر المصيلحة مركز شبين الكوم منوفيه تعلم بالمجان فى مدرسة الحقوق فى عهد الخديوى توفيق واشتغل - بالقضاء وأصبح رئيساً لمحكمة النقض ثم عضواً بالجمعية - التشريعية وعضواً قيادياً بالوفد المصرى ثم رئيساً لحزب الاحرار الدستورين وعضواً فى لجنة وضع الدستور ثم وزيراً للحقانيه.

وثالثهم.. على باشا شعراوى من كبار ملاك الأراضى الزراعية فى مصر وعضواً بالجمعية التشريعية ثم عضواً فى قيادة الوفد المصرى.

هؤلاء الشخصيات الثلاثه الذين كانو يمثلون صفوه البورجوازية المصرية وصفوة المجتمع المدنى قد بادروا بتشكيل الوفد المصرى بغية بذل المساعى السليمة فى مواجة عسكرة الانجليزيه واحتلالها لنيل استقلال مصر.. ومن هنا أسرع الزعماء الثلاثة الى مقابلة المندوب السامى البريطانى بالقاهرة لإبلاغه بحق مصر فى الاستقلال ومطالبته بالسماح للوفد المصرى بالسفر الى مؤتمر الصلح لعرض حق مصر المقدس فى الاستقلال أمام العالم ولكن ذلك المطلب الوطنى قُويل بالرفض من قبل عسكرة الاحتلال الانجليزى.مما دفع الوفد المصرى الى جمهرة حق الاستقلال الوطنى بإشاعة التوكيلات الوطنية التى وقعها الشعب المصرى عماله وفلاحيه ومثقفيه رغم الإعتراض المباشر من العسكرة الانجليزيه للتوكيلات الوطنية وتوقيعاتها الشعبيه التى كانت بمثابة سند شرعى ووطنى وشعبى للوفد المصرى فى المواجهة السلمية للعسكرة الانجليزية٠٠هذه المواجهة السلمية التى كانت بنداً مقرراً من بنود تشكيل الوفد المصرى وعندئذ بلغ السخط الشعبى ذروته فاشتعلت ثورة ١٩١٩ بعد اعتقال سعد باشا زغلول الوطنية المصرية فى ٨ مارس ١٩١٩.

ففـى ذات الشهـر بدأت الثورة بإضـرابات ومظاهـرات الطلاب والمحامـين ثم تصاعدت بالإضـرابات والمظاهرات الثقيله للطبقـة العامله المصرية الفتيه والثوريه من خـلال عمـال الترام والنقل وعمـال عنابر السكه الحديد الأمـر الذى أزعج قـادة الوفد المصرى مثل عبد العزيز باشا فهمى وغيره وغيره الذى وصفوا الثورة بأنها باتت ثورة للرعاع والدهماء بينهما وصفهـا الانجليـز وعسكرتهم الاحتلاليه بأنها ثورة الاشتراكيه فى روسيـا القيصرية سنة ١٩١٧ التى حققتها الطبقـة العامله الروسية ولقيامها ايضا على اكتاف الطبقـة العاملة المصرية.

وتـلا ذلـك ثورة الفـلاحين المصريين وتمرداتهم ضـد عسكرة الاحتلال الانجليزى فى البنادر والقـرى المصرية من خـلال قطع الطرق الزراعيـة والحـديدية وخطوط التليفـونات والبرق لشل حـركة العسكرة الانجليزية ثم دفع المجتمع المدنى المصرى جيشـه المدنى الفدائى المسلح لاغتيال الضبـاط والجنود الانجليز والعمـلاء المصريين بواسطة ظاهـرة حـــرب المدن لأول مـرة فى مصـر الحديثة هذه الحرب التى قـادها عبد الرحمن بك فهمى لعدة شهـور فقط حيث قبضت عليه العسكرة الانجليزيـة ثم تولى أمرها وقيادتها العامل الفدائى الفذ الحاج أحمد حاب الله البراد بعنابر السكه الحديد كما يقول الصحفى مصطفى أمين.

ومما يذكر أن الجيش الفدائى المدنى كان يضم عددا من العمال والمثقفين المصريين وكان دور العمـال هو الدور الرئيسى والمحورى فى حرب المدن التى شهدتها القاهرة والاسكندرية فى سنوات ثورة ١٩١٩ وقبلها حيث كان العمال الفدائيون هم أبطال هذه الحرب الفدائية فى تدريباتهـا وعملياتها اليومية فالفدائى البطل إبراهيم موسى الخراط بعنابر السكه الحديد ورئيس نقـابة عمـالها والمسئول عن حشد جماهير الطبقـة العاملة فى مظاهـرات وإضـرابات ثورة ١٩١٩ كان يمـارس اغتيـال جنود وضبـاط عسكره الاحتلال الانجليزى وموظفيـا قبل الثورة لاثبـات وجود نشاط التنظيم الفدائى المسمى باليد السوداء وخلال الثورة لم يتوقف عن هذه الممـارسـة الفدائيـة والوطنيـة إلى حد ان اعضـاء الوفـد المصـرى كانوا يقـولون ان رصاصة إبراهيم موسى لا تجيب.

والأمر الغريب ان ذلك الفـدائى البطل لم تكشف امره العسكرة الانجليزية الا بعد اغتيال السيردار الانجليزى فى سنة ١٩٢٤ حيث اعترف عليه وعلى زملائه العمال الفدائيين المثقفون

المتهمون فى قضية هذا الاغتيال.. وللعلم فإن حزب الوفد لم يدافع عنهم فى المحاكمة ولا يسع الإنسان المصرى إلا ان يقول المجد كل المجد للعامل النقابى والبطل الفدائى إبراهيم موسى وزملائه من عمال عنابر السكة الحديد وعمال مصلحة التليفونات الذين لم يعترفوا فى هذه القضية ووقفوا امام المشنقة صامدين معتزين بوطنيهم المصريه وطنهم العامل ولاننسى فى المقام المحمود الحاج احمد جاب الله البراد بعنابر السكه الحديد الذى وظف زوجته فى نشاطه الفدائى ضد عسكرة الانجليز حيث كانت تحمل مسدسه فى مسنة الفجل والجرجير باعتبارها بائعة فإذا ما صادف جنديا أو ضابطا انجليزيا سحب مسدسه واطلق النار عليه وفى حالة أخرى كان يوظفها كبائعة كمك وسميط وفى حالة ثالثة كان يجعل منها امرأة حامل تتوجع امام جندى مصرى لكى ينشغل بها فينقض على جندى أو ضابط بريطانى فيقتله شر قتلة وينصرف ولهذا فقد اختاره سعد باشا زغلول زعيم الثورة مسئولاً عن النشاط الفدائى المسلح فى ثورة ١٩١٩ بعد القبض على عبد الرحمن بك فهمى.

إن هؤلاء العمال الفدائيين الأبطال الذين قد أفرزهم المجتمع المدنى المصرى الناشئ لم تبرزهم البورجوازيه المصريه باعتبارهم من ابطال ثورة ١٩١٩.

وبفضل هؤلاء الأبطال تعددت حوادث الاغتيالات على الانجليز ومن والاهم وهذا بعضها.

فى يوم ٢٥ يناير ١٩٢٢ وقع الاعتداء على محمد بك بدر الدين مراقب الجنايات بإدارة الأمن العام بإطلاق الرصاص عليه فأصيب إصابة غير مميتة.

وفى فبراير ١٩٢٢ قتل المستر براون المفتش بوزارة المعارف.. والمستر جوردان صاحب مصنع بالشرابية وشرع فى قتل المستر بيتش وكيل القسم الميكانيكى بمصلحة السكك الحديدية.

وفى ٢٠ يوليو ١٩٢٢ اكتشفت مؤامرة لاغتيال المستر بوت المفتش بالسكك الحديدية.

وفى ١٥ ديسمبير ١٩١٩ ألقى الفدائى القبطى عريان يوسف سعد الطالب بكلية الطب قنبلة على رئيس الوزراء القبطى يوسف وهبه باشا ولكنه نجا من الموت.

وفى ٢٢ فبراير ١٩٢٠ وقعت محاولة اغتيال محمد شفيق باشا وزير الزراعة ولكنه فلت من الموت.

وفى ٨ مايو ١٩٢٠ وقعت محاولة اغتيال محمد توفيق نسيم باشا رئيس الوزراء فأصيب بجراح ولم يمت.

وفى ١٥ يوليو ١٩٢٢ أطلق النار على الكولونيل بيجوت الموظف بالمصلحة المالية التابعة للجيش البريطانى فأصيب إصابة بالغة.

وفى ١٢ نوفمبر ١٩٢٣ ألقى الفدائيون قنبلة على المعسكر البريطانى فى جزيرة بدران بشبرا.

وفى مساء ١٦ نوفمبر ١٩٢٢ اغتال الفدائيون اسماعيل بك زهدى وحسن باشا عبدالرازق وكانا عضوين فى حزب الأحرار الدستوريين.

وفى ١٩ نوفمبر ١٩٢٤ اغتيل السيردار الانجليزى عندما غادر مكتبه بوزارة الحربية إلى منزله بالزمالك.. وكانت هذه الواقعة هى الواقعة الأخيرة فى حرب المدن بالقاهرة والاسكندرية حيث بادرت الرأسمالية المصرية بوقف ذلك النشاط الوطنى العظيم وغلق ملفاته ونسيان أبطاله وقبر سيرتهم الخالده فى قبر لم ولن يفتح حتى لا يخرج إلى شمس الحياة المصرية مجدهم الخالد الذى سوف يجبر المؤرخون إلى إعادة كتابة تاريخ ثورة ١٩١٩. ثورة الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين التى قادها سعد باشا زغلول وعمال العنابر والفلاحين والفلاحات المصريات العظيمات باعتبارها ثورة المجتمع المدنى فى مصر ومن وقائع ثورة ١٩١٩ ذات الطبيعة المدنية والشعبية وقوع واحد وثمانين اضرابا ومظاهرة بالقاهرة والاسكندرية والمدن الأخرى فى الفترة من ديسمبر ١٩١٩ حتى نهاية عام ١٩٢١.. وذلك بالاضافة إلى تمردات الفلاحين المجيدة فى مدن وبنادر وقرى الوجه القبلى والوجه البحرى مما اضطر عسكرة الاحتلال الانجليزى إلى استخدام الطائرات الحربية ضد الثوار الفلاحين والفلاحات المصريات.

وفى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٠ القيت قنبلة على اسماعيل سرى باشا وزير الأشغال فى وزارة يوسف وهبه الموالية لعسكرة الاحتلال الانجليزى.

وفى ٢٧ ديسمبر ١٩٢٢ اغتيل المستر روبسون الاستاذ بمدرسة الحقوق.

ولقد قدم الشعب المصرى عماله وفلاحيه ومثقفيه فى معارك تلك الثورة ثلاثة آلاف

شهيد وشهيدة وفقا لتقديرات مؤرخنا الأستاذ عبد الرحمن الرافعى وذلك بخلاف المئات من المصريين الذين تعرضوا للسجن والتعذيب والإعدام بواسطة محاكمات العسكرة الانجليزية.

وكان من مفاخر تلك الثورة.. ثورة المجتمع المدنى المصرى هذه مشاركة المرأة المصرية وسقوطها فى معاركها الشعبية لأول مرة وهذه بعض أسمائهن :

الشهيدة شفيقة محمد بن الخليفة من القاهرة.

الشهيدة نعيمة عبد الحميد محمد من الجيزة.

الشهيدة نعيمة بنت على من الأسكندرية.

الشهيدة سيده بنت بدران من ميت القرش مركز ميت غمر.

الشهيدة رقية أحمد متولى من ؟ الأشراف مركز ميت غمر.

الشهيدة أم محمدبنت جاد من منيا القمح.

الشهيدة فاطمة محمود من الفيوم.

الشهيدة فايقة عبد الله الشامى من أسيوط.

الشهيدة غالية زوجة شيخ الخفراء.

الشهيدة نظيمة الكردى من نزلة الشوبك شرقية.

ولم تشارك المرأة المصرية اعتباطا فى ثورة ١٩١٩.. بل شاركت هذه المرأة الكادحة والأجيرة فى الحقل والمصنع والثورة لإدراكها البسيط بمضمونها الوطنى ممثلا فى استقلال مصر وتحريرها من عسكرة الاحتلال الانجليزى.. ولإدراكها ايضا بمضمونها الاجتماعى ممثلاً فى حياة أفضل فى الحياة المعيشية المصرية.

وعلى هذا الدربَ شارك العمال والفلاحون وصغار الحرفين والموظفين فى الثورة لمضمونها الوطنى والاجتماعى معاً.. حيث يحكى المؤرخ الاستاذ عبد الرحمن الرافعى عندما كان عائدا إلى بلدته خلال الثورة فى قارب بالنيل بعد ان انقطعت المواصلات فيقول :

شاهدنا معالم الثورة فكنا نسمع نداءات.. تحيا مصر.. تحيا الثورة.. يحيا الاستقلال.. واسترعى سمعى بوجه خاص نداء كنت أسمعه بين حين وآخر.. يحيا العدل.. وقد تساءلت اولا عما يقصدون من هذا النداء.

هل ظنونا قضاة جئنا بالعدل. ثم ادركت شعورهم الحقيقى.. وانهم لا يطلبون العدل لأنفسهم بل يطلبونه لمصر وهنا اختلف مع الأستاذ الرافعى الذى كان يرى ان الفلاحين يطلبون العدل لمصر عموماً وأقول له لا لا لا يا أستاذنا ان هؤلاء الفلاحين كان يطلبون العدل لمصر الكادحين والأجراء والفقراء المحرومين من العدل الاجتماعى.

يؤكد قولى هذا ما كتبه الاستاذ فكرى اباظة فيقول:

ويزحف البؤساء العزل زحف الأسود الكاسرة على مستودعات الذخيرة المحلية ـ فى أسيوط اثناء الثورة ـ وعلى سلاح البوليس ويتقلدونه فارغا ومحمولا ويتكون فى لمح البصر جيش الثورة من أصحاب الجلاليب.

ويرتعد الأجانب وكبار الملاك فالفلاحون المسلحون شىء مخيف حقا.

فالبيوت الكبيرة اغلقت أبوابها ووقفت حولها الحراس خوفا من الثورة.. الثورة ضد الانجليز.. والثورة ضد الثروة يقودها الأشرار الفقراء.

لكن ثورة الفقراء ضد من ؟

وكانت صفائح البنزين تكون على محاذاة قصر محمد محمود باشا أحد قادة الوفد المنفيين مع سعد باشا زغلول فى مالطا. ويوشك الفلاحون الثائرون أن يشعلوها بعيدان الكبريت وقلت لهم هذا قصر محمد محمود باشا.. ولأجل حريته وحرية بلاده ثرتم.

وقال وحش من الوحوش اسكت هل وزع محمد محمود أرغفة العيش على الجائعين.. نحن طلاب قوت وكانت صدمة لى.. خلط عجيب بين طلاب الاستقلال وطلاب القوت. وخلط غريب بين الكفاح الوطنى وبين الاشتراكية الساذجة.

ولا تعليق لى إلا ان أقول إن المجتمع المدنى الناشء فجر الثورية الكامنة والوطنية الكامنة فى الشعب المصرى فقامت ثورة ١٩١٩ التى تخللها الحس الطبقى وحرب الطبقات ذات الهدفين الخبز والحرية.

هكذا قد تجلى هدفا الخبزوالحرية فى التمردات الفلاحية المشار إليها.. كما تجلى نفس الهدفين فى اضرابات ومظاهرات الطبقة العاملة وفى نشاط الفدائى المسلح فى سياق ثورة ١٩١٩ من خلال المطالب الوطنية والاقتصادية والاجتماعيه معاً حيث ارتبط مطلب

الاستقلال بمطالب زيادة الاجور وتحسين ظروف العمل للعمال والموظفين ولكن للأسف فإن ثمار هذه الثورة المدنية والشعبية الأخيرة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر لم يتم تقسيمها بين طبقات الشعب المصرى قسمة عادلة بل كانت قسمة ضيزى وظالمة حيث اختصت البورجوازية المصرية بكامل ثمارها بما فى ذلك الاستقلال المصرى الذى حققته بشكل صورى لا ينفع ولا يشفع حيث اكتفت قيادتها البورجوازية بهذا القدر من الاستقلال التى قررته عسكرة الاحتلال الانجليزى.

وعلى عكس ذلك حدث فى الثورة الاشتراكية التى وقعت فى سنة ١٩١٧ فى روسيا القيصرية التى كانت وليدة الوعى الطبقى بينما كانت ثورة سنة ١٩١٩ وليدة العفوية والتلقائية مما يعنى ان قيادتها البورجوازية قد أفرزتها خلال نشاطها فى حين ان الثورة الاشتراكية الروسية كانت تحظى بقيادة شيوعية تمثل مصالح الطبقة العاملة الروسية وتتجلى فى الحزب الشيوعى الروسى الذى قد تأسس فى نهاية القرن التاسع عشر وخاض ثورة ١٩٠٥ فى روسيا القيصرية وظل يكافح ويحشد الطبقة العاملة فى روسيا حتى فجر ثورة أكتوبر الاشتراكية فى عام ١٩١٧ بقيادة الرفيق لينين. بينما تأسس حزب ثورة ١٩١٩.. حزب الوفد المصرى بقيادة سعد باشا زغلول خلال معارك هذه الثورة الوطنية والشعبية التى ارتضت باستقلال محدود يسمح وللأسف بوجود قوى وملحوظ للعسكرة الانجليزية فى المدن المصرية. ولا يسمح وللأسف بحدوث تغييرات اجتماعية لصالح الطبقة العاملة وصغار الفلاحين والموظفين والحرفيين وذلك فى حين ان الثورة الاشتراكية فى روسيا ظلت تواصل معاركها حتى حققت نصرا مبينا على الجيش القيصرى وجيوش التدخل الاستعمارى البالغ عددها سبعة عشر جيشا استعماريا مما جعلها قادرة على دحر الاقطاعيين والرأسماليين الروس ونقل ثرواتهم إلى الملكية الاشتراكية العامة لصالح الطبقة العاملة والفلاحين الروس بعد هزيمة العسكرة القيصرية والاستعمارية.

وبالمقابل فإن تراخى القيادة البورجوازية المصرية لثورة ١٩١٩ المجيدة لم تحظى من عسكرة الاحتلال الانجليزى إلا بتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذى أعطى مصر استقلالا منقوصا واعترافا بالسلطان فؤاد ملكا على مصر ثم صدر الدستور فى ١٩ أبريل ١٩٢٣ وقانون الانتخاب فى ٢٠ ابريل ١٩٢٣ وتم الافراج عن سعد زغلول باشا الذى كان منفيا للمرة

الثانية فى ٢٧ مارس ١٩٢٣ وذلك قبل صدور الدستور.. كما افرجت العسكرة الانجليزية عن المعتقلين من اعضاء الوفد المصرى فى أبريل ١٩٢٢.. وفى ٢٤ مايو ١٩٢٣ كان قد تم الافراج عن المحكوم عليهم بواسطة المحاكم العسكرية الانجليزية وافرج ايضا عن كثير من المعتقلين السياسيين والمنفيين فى جزيرة سيشل.. وفى ٥ يوليو ١٩٢٣ اصدر اللورد اللنبى عميد العسكرة الانجليزية امراً بالغاء الأحكام العرفية المعلنة فى يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩١٤.. وفى ٥ يوليو ١٩٢٣ صدر عفو عن بقية المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية بعقوبات اقصاها ١٥ سنة. وكذلك بعودة المبعدين بأمر من العسكرة الانجليزية.

كل هذا لا يعنينا فى شيء ولكن الذى يشغلنا ويعنينا هو ترسيخ قواعد المجتمع المدنى التى تتجلى فى الآتى :

أولاً.. خروج الإنسان المصرى الكادح والأجير من غربته الاجتماعية السحيقة حتى استطاع ان يتحاور بشكل ملحوظ مع عسكرة الاحتلال الانجليزى بالمظاهرات والاضرابات وبالعمل الفدائى الجسور والمسلح وحاورها ايضا بواسطة التمردات الفلاحية الشجاعة مما جعله يهتف فى وجه العسكرة الانجليزية قائلا أنا مصرى.

ثانياً.. مشاركة المرأة المصرية فى المدينة وفى الريف فى الحوار النضالى الوطنى والاجتماعى مع العسكرة الانجليزية حتى سقطت شهيدة بينما كانت تردد قائلة أنا مصرية.

ثالثاً.. الدين لله والوطن للجميع أن انتشار ذلك الشعار وشيوعه فى الحياة المصرية كان خير برهان على ثورة ١٩١٩ كانت ثورة الشعب المصرى كله من المسلمين والمسلمات والمسيحيين والمسيحيات حيث ردد الجميع شعاراً يقول أنا مصرى.. أنا مصرية.

رابعاً.. ميلاد الوجود العلنى للحركة الاشتراكية والشيوعية حيث تأسس خلال ثورة ١٩١٩ الحزب الاشتراكى المصرى ثم الحزب الشيوعى المصرى مما أدى إلى انتشار الفكر الاشتراكى فى صفوف الشعب المصرى مما يعنى ان الاشتراكية كانت مقبولة قبولا حسنا من الجماهير المصرية وفصائل الوطنية المصرية حيث رددها شاعرنا أحمد شوقى فى مدح رسولنا ﷺ.

الاشتراكيون أنت امامهم.. لولا دعاوى القوم والغلواء.

انصفت أهل الفقر من أهل الغنى.. فالكل فى حق الحياة سواء.

وردها كذلك شاعرنا حافظ إبراهيم فى مدح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بقوله :

وما الاشتراكية المنشود جانبها إلا مبنى من مبانيها فإن تكن نحن أهلوها ومنبتها فإنهم عرفوها قبل أهليها.

خامساً.. تعدد الأحزاب السياسية حيث تأسس حزب الوفد المصرى وحزب الاحرار الدستوريين وحزب المستقلين والحزب الاشتراكى ثم الحزب الشيوعى.

سادساً.. تعدد النقابات العمالية واتحاداتها حيث بلغ عدد النقابات العمالية فى عام ١٩٢٢ بمدينة القاهرة ٢٨ نقابة وفى الاسكندرية ٣٢ نقابة وفى منطقة القنال ١٨ نقابة بالاضافة إلى تأسيس الاتحاد العام للعمال بضم العديد من النقابات يقوده النقابيون اليساريون واتحاد آخر باسم اتحاد نقابات عمال القطر المصرى يقوده عبد الرحمن بك فهمى عضو قيادة حزب الوفد وسكرتيره البطل الفدائى المناضل إبراهيم موسى رئيس نقابة عمال العنابر.

سابعاً.. انتشار الحركه الاضرابيه والاحتجاجيه قبل ثورة ١٩١٩ وأثنائها هذه الحركه ذات الطبيفه الوطنيه والمطلبيه والاجتماعيه التى اجبرت عسكرة الاحتلال الانجليزى على استمرار نشاط لجنة التوفيق التى قد وضعت تقريراً فى ٢١ يوليو ١٩٢٢ رصدت فيه نشاط الحركة الاحزابية والاجتماعية المصرية طوال ستة شهور فقط حيث وقع فى هذه الفترة عدد ٨١ حادثة من حوادث الاعتصاب بين خمسين شركة ومعمل وكان أطول هذه الاعتصابات اعتصاب عمال ترام القاهرة الذى استمر ١٠٢ يوما واعتصاب عمال شركة ودمس الذى استمر ٦٠ يوما. واعتصاب عمال شركة الغزل الذى استمر ٥٠ يوماً واعتصاب عمال شركة الغاز بالقاهرة الذى استمر ٤٥ يوما واعتصاب عمال العروة الوثقى بالاسكندرية الذى استمر ٣١ يوما. واعتصاب عمال شركة لومهتون بمصر واستمر ٢١ يوما واعتصاب عمال شركة الهندسة بالاسكندرية الذى استمر ١٩ يوما واعتصاب عمال حلاجى القطن بدمنهور واستمر ١٦ يوما وحلاجى القطن بزفتى والذى استمر ١٠ أيام، بالاضافة إلى ذلك فقد اضرب المحامون والموظفون وعمد البلاد ومشايخها.

ثامناً.. الدستور ومناقشاته الديمقراطية، ففى ٢ أبريل ١٩٢٢ شكلت وزارة عبد الخالق ثروت باشا لجنة لوضع الدستور برياسة حسين باشا رشدى. هذه اللجنة التى هاجمها سعد

باشـا زغلول وسماها لجنة الأشقياء التى كادت تكون لجنة ملكية. وقد ضمت تلك اللجنة ستة شخصيات قبطية وشخصية يهودية وهو يوسف أصلان قطاوى باشا. وكانت هذه اللجنة موضع رضى عسكرة الاحتلال الانجليزى وموضع رضى العسكرة الملكية الناشئة..

ورغم ذلك فقد تأثرت هذه اللجنة بروح الوطنية المصرية وبالمناخ الديمقراطى الذى ولده المجتمع المدنى الناشئ والجديد فى الحياة المصرية.

يؤيد ذلك مناقشات لجنة الدستور فعندما اقترح البعض فى لجنة وضع المبادئ للعامة ان يكون شكل الحكومة ملكية دستورية فى أسرة محمد على وقال العضو عبد اللطيف المكباتى يجب أن تكون السيادة كلها للأمة.

ولما سأله رئيس اللجنة عن النتائج التطبيقية لذلك قال المكباتى أن يكون للهيئة النيابة عن الأمة حق النظر فى كل شىء وأيده فى ذلك العضو لس الوزراء.

ولكن العضو عبد اللطيف المكباتى اعترض قائلا إن وجود الملك فى مجلس الوزراء له تأثيره فى كل الأحوال ومن ثم طالب بأن لا يحضر الملك المجلس اصلا.

وانتهت هذه المناقشة بالموافقة على ان الملك يحكم بواسطة وزرائه.. مما يعنى أنه لا يجوز للملك حضور مجلس الوزراء. وذلك بعكس الدستور الجمهورى الذى يسمح لرئيس الجمهورية حضور مجلس الوزراء وله الحق فى هدمه وبناءه فى أية لحظة.

كما اعترض العضو المكباتى على النص فى الدستور بأن السلطة التشريعية يشترك فيها الملك والبرلمان معا فلا يصدر قانون إلا إذا أقره البرلمان وصدق عليه الملك يعنى اعطاءه حق تعطيل القانون. ومن ثم طالب بأن تحصر السلطة التشريعية فى البرلمان فقط ويكون للملك حق التوقيع على القوانين.

وأضاف العضو على ما هر إلى ذلك. ان الملك يلزم بالتصديق على ما يقرره البرلمان.

ودارت معركة حارة فى لجنة وضع الدستور بشأن مبدأ سيادة الأمة بواسطة الملك فى التصديق على القوانين حيث استمرت أربعة جلسات متتالية بشأن حقه فى حل البرلمان فى حالة عدم الموافقة على القانون المطلوب التصديق عليه من الملك.

قال العضو على ماهر إن هذا يعنى هدم سلطة الأمة وتنظيم للاستبداد.

وأيده العضو على علوبه بقوله.. إن أغلب الدساتير تقدس رأى الهيئة النيابية.

وقال العضو المكباتى ردا على المزيد لسلطات الملك. إن المحافظة على سلطة الأمة لا تعنى المطالبة بالنظام الجمهورى وان كانت التطورات الحديثة أصبحت فى صالح النظام الجمهورى.. ويا ليت عبد اللطيف المكباتى موجودا حتى يرى ما حاق بمصر من استبداد ذلك النظام الجمهورى وعسكرته حيث اختزلت كل السلطات فى عظمة رئيس الجمهورية الذى أصبح الأب والابن والروح القدس.

وفى هذه المناقشات الدستورية رفض العضو المكباتى ايضا حق الأمراء فى الحصول على عضوية مجلس الشيوخ بأى طريق لاتصالهم بالعرش.. كما اعترض على حق الملك فى تعيين رئيس مجلس الشيوخ. واعترض كذلك على اقتراح رئيس لجنة وضع الدستور بأنه لا يجوز للبرلمان التدخل أو التعرض لمخصصات الملك والبيت المالك. وطالب بحق البرلمان النظر فى كل شيء وفى تقدير المبالغ المقرره للبيت المالك.

وليس أمامنا إلا ان نقول المجد كل المجد للوطنى عبد اللطيف المكباتى أبو المجتمع المدنى والديمقراطيه الوطنية فى مصر الحديثة.

تاسعاً.. الانتخابات الديمقراطية والحكومة الوطنية وبفضل الدستور المصرى الجديد جرت أول انتخابات برلمانية دستورية ديمقراطية فى مصر الحديثة فى يوم ١٧ سبتمبر ١٩٢٣ وفى يوم ٢٢ يناير ١٩٢٤.. ولقد فاز حزب الوفد بزعامة سعد باشا زغلول فى هذه الانتخابات بنسبة ٩٠٪ بينما سقط رئيس الوزراء ووزير الداخلية يحيى باشا إبراهيم فى دائرة منيا القمح امام المرشح الوفدى يا ليت قومى يحاطون علما بذلك الذى كان يحدث فى المجتمع المدنى.

وقد ترتب على نتائج هذه الانتخابات الديمقراطية تأليف أول حكومة وطنية برياسة سعد باشا زغلول ضمت فى عضويتها عددا من الشخصيات القبطية وواحداً من آفنديات مصر أى من ابناء البورجوازية الصغيرة هو المحامى نجيب الغرابلى آفندى المحامى الصغير بطنطا مما أدى إلى تأفف الملك فؤاد.

هكذا كانت مظاهر المجتمع المدنى وقواعده التى فرضتها القوى الوطنية والأمة المصرية ثورتها المدنية والشعبية فى مواجهة عسكرة الاحتلال الانجليزى ثم عسكرة الملك فؤاد فى الفترة الزمنية منذ قيام بوادر ثورة ١٩١٩ حتى محاولة إجهاضها فور أحداث مقتل السيردار الانجليزى وقائد الجيش المصرى وما أدى إلى ذلك من محاكمات عسكرية فى عام ١٩٢٤ كان أهمها محاكمة العمال والمثقفين الفدائيين فى قضية اغتيال ذلك الجنرال الانجليزى ثم محاكمة المتهمين فى الاغتيالات السياسية من العمال والمثقفين ايضا المعروفة باسم قضية ماهر والنقراشى وذلك بالاضافة إلى حل البرلمان الوفدى.

وقد شارك فى ذلك الاجهاض الذى كان بمثابة انقلاب رجعى ضد المجتمع المدنى ووطنيته المصرية يساندها المحيط الشعبى فى القاع الاجتماعى المصرى وبين عسكرة الملك فؤاد وعسكرة الانجليز معا. ومن هنا بدأت الحرب بين المجتمع المدنى الجديد وبين عسكرة الاحتلال الانجليزى وعسكرة الملك فؤاد.

عسكرة ملكية متوحشة

لم تبادر عسكرة الاحتلال الانجليزى بترقية الملك فؤاد من درجة سلطان إلى درجة ملك عبثا او اعتباطا أو باعتبار تلك الترقية نقطة من نقاط الاستقلال بل كان القصد من تلك الترقية هو مارسة العسكرة الانجليزية أكل الشوك بحنك غيرها حتى لا تتعرض للمواجهات العلنية والسرية للقوى الوطنية التى ذاقت منها الأمرين خلال ثورة ١٩١٩ وقبلها وبعدها ومن ثم فقد كان لابد من ترقية السلطان فؤاد إلى درجة الملك فؤاد لكى تنبثق من نظامه الملكى عسكرة مصرية طاغية ومتوحشة تأتمر بأمر عسكرة الاحتلال الانجليزى بقصد اجهاض ظاهرة المجتمع المدنى الناشئة ثم محوه وتدميره مما أدى إلى تردد البورجوازية المصرية ممثلة فى حزب الوفد الذى أصبح قريبا من السلطة.

ولذلك فقد استشعر سعد باشا زغلول زعيم حزب الوفد الخطر الشديد من جانب الفدائيين المصريين فقد حكى الاستاذ الدكتور السيد محمد باشا أن نفرا من الفدائيين انكروا على سعد زغلول قبوله تصريح عام ١٩٢٣ ودخوله الحكم على أساسه.. كما استاء الفدائيون عندما قال سعد زغلول ان محمد توفيق نسيم يستحق تقدير الوطن وكان الرأى العام يخالف سعد زغلول فى هذه المسألة ولذلك حاول الفدائيون اغتياله باعتباره خائنا.

ولقد رد أحد الفدائيين على سعد زغلول قائلا.. إن كلمتك تندد بالفدائيين.. ورد عليه سعد زغلول بقوله.. كيف أندد بكم وأنا أعلم ان الانجليز ما تزحزحوا إلا لكم بأعمالكم.

وتعليقاً على ذلك يقول الدكتور حسين مؤنس :

الفدائى الذى يواجه الموت فى كل لحظة ليحصل لبلاده على الاستقلال التام لا يقنع فقط بنصف استقلال أو بحرية زائفة.

ويبدو أن الجناح الفدائى المسلح للقوى الوطنية قد ابتعد عن حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول أو ابتعد عنه حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول بسبب القبول باستقلال منقوص فى ظل عسكرة ملكية تابعة ومتوحشة. يؤيد ذلك ما حدث فى قضية اغتيال السيردار الانجليزى الذى كان يشغل منصب قائد الجيش المصرى فقد تخلى حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول عن المتهمين فى هذه القضية مع ان كلهم من الفدائيين المصريين العاملين تحت قيادة الزعيم سعد زغلول مما جعلهم يواجهون وحدهم العذاب والتعذيب والتلفيق والاعترافات المزيفة من العسكرة الانجليزية والعسكرة الملكية معا وذلك تبريرا لشنقهم.

حدث هذا فى التحقيقات. أما فى القضية فلم يتفصل عليهم حزب الوفد حزب البورجوازية المصرية بتكليف عدد من المحامين بالدفاع عنهم مما أدى إلى صدور الحكم فى ٧ يونيو ١٩٢٥ بإعدام سبعة من الفدائيين على رأسهم البطل الفدائى إبراهيم موسى الخراط السكة الحديد.

إن موقف حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول قد ارتضيا بالسلطة المنقوصة دون الثورة المستمرة.

ويبدو ان العسكرة الانجليزية والعسكرة الملكية بقيادة الطاغية اسماعيل صدقى وزير الداخلية قد ادركا تراجع حزب الوفد عن الثورة فلم يكتفيا باسقاط وزارة سعد زغلول وحل البرلمان الوفد فور حادثة اغتيال السيردار الانجليزى فبادرت معا بتصفيه حزب الوفد وبقايا النشاط الفدائى حيث تم القبض على احمد ماهر ومحمود النقراشى الذى كان يشغل وكيل وزارة الداخليه فى حكومة سعد زغلول التى اقالتها وتقديمهم فى قضية لاغتيالات السياسيه.

وعندئذ تحرك حزب الوفد وزعيمه لانقاذ حياة ماهر والنقراشى دون بقية المتهمين حيث استجاب قضاة العسكرة الانجليزية والعسكرة الملكية لهذه الضغوط لعلمهم أن حزب الوفد البورجوازى قد تخلى عن فكرة الثورة طمعا فى السلطة والسلطات ومن ثم فقد صدر

حكمهم ببراءة ماهر والنقراشي واكتفوا بإعدام الفدائي البطل محمد فهمي على من عمال العنابر بقصد ابلاغ الطبقة العاملة المصرية بأن الاعدام في انتظار رأى عامل مصر يلج النضالات الوطنية والفدائية والاجتماعية.

هكذا بادر حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول بتغليب السلطة على الثورة مبكراً وتغليب العسكرة الانجليزية والمدنية على المجتمع المدنى.

ومن هذا المنطلق فقد تصدى حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول وحكومته الوطنية للاضرابات العمالية ذات الطابع المطلبى والتضامنى والفوضى التى قادها ونفذها الاتحاد العام للعمال ونقاباته فى القاهرة والاسكندرية فبادر بحل ذلك الاتحاد العمالى والنقابى الذى كان يقوده العمال الشيوعيون كما بادر بحل الحزب الشيوعى ومصادره مقارة والقبض على زعمائه وتقديمهم إلى المحاكمة حيث صدرت ضدهم حكم بالسجن ثلاث سنوات.

يقول الدكتور عبد العظيم رمضان :

ومن الظريف ان احد الحاضرين فى جلسة الحكم فى قضية الشيوعية قد تحمس للمحكوم عليهم من المناضلين الشيوعيين والنقابيين فهتف بحياة الشيوعية فدون البوليس اسمه ولم يقبض عليه.

ورغم سلبيات حزب الوفد هذه وتردده وتراجعه عن الثورة فقد ظل صامدا بفضل استمرار صحوة المجتمع المدنى ووطنيته المصرية، حيث لم تستطع العسكرة الملكية المنشقة من العسكرة الانجليزية من تصفيته لأنه كان حزب المجتمع المدنى الذى يتمتع بشعبية ملحوظة رغم تردده وسلبياته.

والجدير بالذكر ان المجتمع المدنى المصرى قد فرض نفسه فرضا على الحياة السياسية المصرية رغم أنف عسكره الانجليز والعسكرة الملكية معا حيث شهدت الحياة المصرية خلال ثورة ١٩١٩ تعيين قبطى مصرى رئيسا للوزارة هو يوسف وهبه باشا وتعيين العديد من الشخصيات المدنية وزراء فى وزارة الداخلية وفى وزارة الحربية والبحرية وكان من هذه الشخصيات شخصية قبطية هو صليب سامى بك الذى عين وزيرا للحربية والبحرية فى وزارة عبد الفتاح يحيى الأولى سنة ١٩٣٣.

وحتى وظائف مديرى المديرات ومأمورى المراكز قد شغلها الكثير من الشخصيات المدنية.

ولذلك فقد حاول رواد المجتمع المدنى إشاعة الروح المدنية والوطنية فى الجيش المصرى من خلال محاولة تسييس ضباطه وجنوده حيث بادر وزير الحربية والبحرية احمد خشبه الوزير الوفدى والمدنى بزياراته المتكرره لمواقع الجيش المصرى بهدف تحجيم وسلب السلطات التى كان يتمتع بها المفتش الانجليزى بالجيش المصرى شبكش باشا بالاضافة إلى محاولاته الجاده لالغاء منصب السيردار الانجليزى باعتباره القائد العام للجيش المصرى.

يقول الدكتور عبد العظيم رمضان :

إن الجيش المصرى كان يتعاطف مع حزب الوفد بزعامة سعد زغلول الذى كان يقود حركة النضال الوطنى ضد الاحتلال الانجليزى.

ثم يروى لنا قصة الأستاذ امين يوسف زوج ابنة اخت سعد زغلول فيقول :

إنه كان يقضى اجازته فى الصعيد عام ١٩٢٦ فى عهد وزارة عدلى فأقام له ضباط الجيش فى أسوان حفلة لتكريمه بوصفه زعيم الحركة التعاونية.. وكان يشاع ان الجيش يؤيد سياسة الوفد.

وفى اثناء الحفله عزفت الفرقة الموسيقية أنشوده سعد زغلول مراراً..ولعلها هى التى لحنها الموسيقار سيد درويش تحية لسعد زغلول عند عودته الى الوطن سنة ١٩٢٣ ومطلها.

مصرنا وطننا سعد أملنا.. كلنا جميعاً للوطن ضحية

أجمعت قلوبنا هلا لنا صليبنا.. أن تعيش مصر عيشة هنية

هكذا استطاع المجتمع المدنى المصرى الوليد أن يبسط نفوذه وسلطانه على الحياة المصرية وان يساند حزب الوفد البوجوازى وأن يدعم وجوده وان بشل تردده فى مواجهة عسكرة الإنجليز وعسكرة الملك فؤاد.

ومن هنا فقد تماسك حزب الوفد بعد استقاله حكومته برئاسة زعيمه سعد زغلول فور اغتيال السيردار الانجليزى السيرلى ستاك حيث بادرت عسكرة الملك بمساندة من عسكرة

الاحتلال الانجليزى إلى تعيين وزارة جديدة برياسة أحمد زيور باشا أحد عملاء الملك والانجليز وقد ضمت تلك الوزارة الملكية الانجليزية أعتى وزير للداخلية بين الوزراء المدنيين والعسكريين الذين قد شغلوا ذلك المنصب الوزارى والأمنى فى مصر وهو اسماعيل صدقى باشا الذى كان يوصف بالعدو الأول واللعين للشعب المصرى.

وقد قامت تلك الوزارة الملكية بأول انقلاب دستورى للعسكرة الملكية من خلال حل البرلمان وتشكيل حزب ملكى جديد باسم حزب الاتحاد بهدف خوض انتخابات نيابية جديدة فى مواجهة حزب الوفد واسقاطه ولكن تسرى الرياح بما لا تشتهى السفن حيث فوجئت العسكرة الملكية بانتصار ساحق لحزب الوفد وزعيمه سعد زغلول بفضل مساندة المجتمع المدنى الوليد.

والأمر الغريب ان فوز حزب الوفد على الحزب الملكى وحلفائه لم يظهر إلا بعد القاء رئيس الوزراء الملكى احمد زيور خطبة العرش حيث وقف اغلب نواب البرلمان الجديد بجانب حزب الوفد مما أدى إلى انتخاب زعيمه سعد زغلول رئيساً لمجلس النواب كما فاز على الشمس بك الوفدى وويصا واصف بك الوفدى وكيلين على مرشحى الحكومة الملكية.

ولقد ردت عسكرة الملك فؤاد على انتصار المجتمع المدنى وحزبه بانقلاب دستورى آخر بحل البرلمان فى نفس اليوم الذى عقد فيه البرلمان أى فى يوم ٢٣ مارس ١٩٢٥ ثم استمرت الحكومة الملكيه الانقلابيه بدون برلمان حتى تفجرت تلك الحكومة بظهور كتاب الاسلام وأصول الحكم الذى أصدره الشيخ على عبدالرازق القاضى الشرعى بالمنصوره يستنكر فى نصوصه وجود الخلافة فى الإسلام. هذه الخلافة التى كان يتعشم فيها ويأمل الحصول عليها الملك فؤاد وقد تدخلت عسكرة الاحتلال الانجليزى وعسكرة الملك فؤاد فى مواجهة الازمة التى أدت إلى خروج وزراء حزب الأحرار الدستوريين منها.

وخلال تلك الأزمة الوزارية اجتمع البرلمان الذى حلته الحكومة الملكية بمجلسيه فى ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ تحت رئاسة سعد زغلول فى فندق الكونتننتال واصدر قرارا بالاجماع على عدم الثقة فى الوزارة الملكية التى حققت كل الأغراض التى تخدم مصالح عسكرة الاحتلال الانجليزى.

ولما كان المجتمع المدنى وجماهيره فى القاع الاجتماع مازال تساند حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول اضطرت العسكره الانجليزية والعسكرة الملكية إلى التراجع من خلال المرافق على اجراءت انتخابات نيابيه جديدة فى مارس ١٩٢٦ حيث حاولت الحكومه الملكيه تزويرها والتلاعب فى إدارتها بنقل المديرين غير الموالين لها ومع هذا فقد فاز حزب الوفد بعدد ١٥٩ مقعداً فى مقابل ٣٣ مقعداً للأحزاب الأخرى.

وزغم دلك النصر فقد دخل حزب الوفد فى حكومه أتلافية لا يرأسها زعيمه سعد زغلول ويُستبعد منها مصطفى النحاس بسبب تشدده مع عسكرة الاحتلال الانجليزى وكان السسب فى ذلك منهج حزب الوفد البوجوازى والمتردد والوفاقى.

ومع ذلك فقد حققت تلك الوزارة مبدأ بين مبادئ المجتمع المدنى حيث أصدرت قانون جديد لعمد البلاد ومشايخها يقضى بعض بانتخابهم أنتخابا حراً مباشراً.. كما صدر قانون تسلبح الجيش المصرى واعانة قوة دفاع السودان وذلك بالاضافه إلى مساندة الصناعة الوطنيه من خلال تدعيم بنك مصر ولكن عدلى يكن لم يستمر رئيساً لهذه الوزارة الائتلافيه بسبب ضغوط النواب الوفد يين الذين يمثلون الاغلبيه فى البرلمن فقدم استقالته محل محله عبد الخالق ثروت الذى اشترط على العسكرة الانجليزيه حمايته من تشدُد النواب الوفدين بالإضافة الى إبعاد الوزير احمد خشبه من وزارة الحربية والبحرية بسبب موافقته فى نشر الافكار الوطنية فى الجيش المصرى ولم يأبه بكل ذلك الجناح اليسارى لحزب الوفد فى البرلمان بقيادة أحمد ماهر ومحمود النقراشى حيث آثار ذلك النجاح كل مظاهر تدخل العسكرة الإنجليزية فى الشئون المصرية بالإضافة الى دفع نواب البرلمان على الموافقة على القانون رقم ١٤ لعام ١٩٢٣ بشأن الاجتماعات العامه والمظاهرات فى الشوارع الذى يخالف إنذار عام ١٩٢٤ بمنع المظاهرات الشعبيه.

ان ذلك القانون الذى اصدره النواب الوفديون قد أثاء غضب العسكرة الانجليزيه لما رأت فيه انه يعطى للمجتمع المدنى فى مصر الشرعيه فى ممارسة الإضرابات والمظرهرات والاحتجاجات.

وفى هذا السياق توفى سعد زغلول زعيم الأمة وزعيم حزب الوفد واستخلف مصطفى النحاس العدو اللدود للعسكرة الانجليزيه والمعروف بانحيازه اجتماعياً للفقراء والجماهير الشعبيه.

ولقد صاحب تولى مصطفى النحاس زعامة الأمه وزعامه حزب الوفد حالة ملحوظه من المد الوطنى للمجتمع المدنى مما أدى الى فرض مصطفى النحاس رئيسا للوزارة لأول مرة فى مارس ١٩٢٨ ولكن هذه الوزارة النحاسية إصطدمت مع ممثل عسكرة الاحتلال الانجليزى بشأن مسائل وطنية كثيره اهمها موافقة مجلس النواب الوفدى على قانون الاجتماعات والمظاهرات والاضرابات ولقد شغل ذلك الصدام إنتشار الاضرابات والمظاهرات على المستوى القومى مساندة لحكومة حزب الوفد بزعامه مصطفى النحاس وذلك بالهتاف ضد الملكية والرجعية مما أفزع العسكرة الملكية والعسكرة الانجليزيه فا تفقتا على إقالة وزارة مصطفى النحاس التى قد استبدلت بوزارة محمد محمود فى يونيو ١٩٢٥ المسماه بوزارة اليد القوية التى كانت بمثابة خطوة لظهور فاشية العسكرة الملكية التى كانت مظاهرها تعطيل الحياة النيابيه والعمل بقانون المطبوعات القديم الرجعى والمتخلف وهذا ما دفع زعيم الأمه وزعيم حزب الوفد مصطفى النحاس الى دعوة الأمه المصرية للدفع عن دستورها ودعوة مجلس الشيوخ الذى تسيطر عليه أغلبيه وفدية فى نوفمبر ١٩٢٨ ويبادر صاحب اليد القوية ورئيس الوزراء محمد محمود الى محاصرة مكان الاجتماع بعسكر الشرطة ولكن عسكرة الملك وعسكرة الانجليز يصيبها الدهشه عندمايرون هؤلاء العساكر وضباطهم يرفعون أيديهم واسلحتهم بالتحيه عندما دخل زعيم الأمة مصطفى النحاس الى مكان الاجتماع.

وازاء هذه الوضعية الوطنية أجبرت عسكرة الملك وعسكرة الانجليز إلى التخلى عن رئيس الوزراء محمد محمود صاحب اليد القوية.

وبالتالى تشكلت وزارة عدلى يكن الثالثة فى اكتوبر ١٩٢٩ لاجراء انتخابات نيابية جديدة تعبر عن المد الديمقراطى للمجتمع المدنى وقتئذ. هذه الانتخابات التى حقق حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس نصرا مبنيا حيث حصل على اكثر من تسعين فى المائة حيث نال ٢١٢ مقعدا من مقاعد مجلس النواب بينما نال الحزب الوطنى خمسة مقاعد وحزب الاتحاد ثلاثة وشغل المستقلون بقية المقاعد.

وبفضل ذلك النجاح الملحوظ لحزب الوفد فقد شكل مصطفى النحاس وزارته الثانية التى ضمت اثنين من الأفندية المصريين هما مكرم عبيد أفندى وزيراً للمواصلات ومحمود

فهمى النقراشى أفندى ولقد قوبل اختياره بسخط عسكرة الملك وعسكرة الانجليز والخوجات الأجانب فى مصر بالإضافة إلى سخط المدير العام للسكك الحديدية عبدالحميد سليمان باشا وكان مصدر ذلك السخط هو التاريخ الفدائى والنضالى والوضع الطبقى للوزير محمود فهمى النقراشى أفندى.

ولقد التزمت تلك الوزارة بترسيخ المجتمع المدنى وتحقيق أهداف الوطنية المصرية بالتشدد فى مفاوضاتها مع عسكرة الاحتلال الانجليزى فى المسألة السودانية وغيرها وكذلك بالتشدد باصرارها الوطنى فى مواجهة عسكرة الملك فؤاد بشأن اصدار قانون محاكمة الوزراء وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ بواسطة الوزارة بعيدا عن تدخل القصر الملكى.

أمام هذه المواقف الوطنية المجيدة بدأت عسكرة القصر ومعها وللأسف بعض القيادات الحزبية والشخصيات العامة وعلى رأسهم الشيخ المراغى شيخ الأزهر الاتصال برجال عسكرة الاحتلال الانجليزى لإسقاط حكومة النحاس الشعبية فالشيخ المراغى اتصل بالسكرتير الشرقى فى دار المندوب السامى البريطانى ليبلغه أن مصر فى طريقها إلى حالة شبيهه بتلك الحالة التى حدثت قبل الثورة العرابية وان مسئولية الانجليز عن هذا الوضع لامراء فيها وأنهم إذا لم يتدخلوا فلن تستبعد احتمالات الحرب الأهلية.

ولقد لمحت حكومة حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس ان عسكرة الملك وعسكرة الاحتلال الانجليزى قد أصيبتا بحالة من السعار وخاصة بعد مبادرة الملك فؤاد بتعطيل صدور المراسيم بشأن محاكمة الوزراء وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ مما دفع النحاس إلى الاستقالة والاستعداد لمواجهة عسكرة الملك وعسكرة الانجليز بإعلان نفير المظاهرات والحرب الشعبية ضدهما.

ولكن السعار الذى اعترى عسكرة الملك وعسكرة الانجليز قد طفح بفاشية صارخة أطاحت بالمجتمع المدنى ومظاهره الديمقراطية وخنقت الوطنية المصرية وعرضت الإنسان المصرى للموت وأهواله التى تجعل الولدان شيبا إلى حين من الدهر.

صراع الفاشية الملكية.. والمجتمع المدنى

إن العسكرة هى حكم العسكر من خلال تغليب المؤسسة التنفيذية فى الدولة والحكومة على المؤسسات الحقوقية والقضائية والتشريعية والمدنية وغيرها وحشدها بالعسكر الذين يتولون إدارة شئون الدولة والمجتمع بشكل مباشر وبأسلوب الضبط والربط بحيث يتحول المجتمع إلى قشلاق عسكرى يطفح بالاستبداد مثلما حدث فى مصر وبلاد الاستبداد الشرقى قديما ومثلما حدث فى البلاد التى سادتها النظم الفاشية والنازية حديثا. ومن ثم فالعسكرة والفاشية صنوان إلى حد ما بمعنى ان العسكرة هى مقدمة الفاشية وكذلك فالفاشية هى العسكرة فى ذروة استبدادها.

وبالتالى فالفاشية هى تغليب دين على دين أو تغليب جنس على جنس أو تغليب حزب على حزب أو تغليب فكر على فكر أو تغليب طبقة على طبقة تغليبا مطلقا وفضلا عن ذلك فقد كانت الفاشية موضه سياسية فى هذه الأيام بظهور النازية بزعامة ادولف هتلر فى المانيا والفاشية بزعامة بنيتو موسولينى فى ايطاليا.

ومن هنا حول الملك فؤاد عسكرته إلى فاشية ملكية من خلال توظيف اسماعيل صدقى وزير الداخلية السابق وتوليته رئيسا للوزارة ووزيراً للداخلية والمالية وقائداً للفاشية الملكية الحديثة ليصبح بيده سيف المعز وذهب المعز مع العلم إن اسماعيل صدقى شخصية مدنية بدأ حياته وكيلا للنيابة وينتسب إلى طبقات تحالف الاقطاع ورأس المال.

ولقد بدأ اسماعيل صدقى ممارسته للفاشية الملكية فى اليوم التالى لحفلة تنصيب رئيس الوزراء حيث صدر مرسوم بتعطيل البرلمان الوفدى لمدة شهر ابتداء من ٢١ يونيو ١٩٣٠.. وكان من المقرر ان يجتمع البرلمان بأغلبية الوفدية فطلب الطاغية اسماعيل صدقى من رئيس مجلس النواب الاستاذ ويصا واصف ومن رئيس مجلس الشيوخ عدلى باشا يكن ان يتلى مرسوم التأجيل فى البرلمان بشرط ان لا يعلق على مرسوم التعطيل أحد من النواب والشيوخ ولكن ويصا واصف رفض ذلك الشرط التعسفى ورد الطاغية اسماعيل على ذلك بإغلاق البرلمان بالسلاسل فى يوم ٢٣ يونيو ١٩٣٠ تحت حراسة العسكرة الملكية والعسكرة الانجليزية بقيادة الضابط الانجليزى الكبير بيكر بك الذى كان يشغل وظيفة حكمدار

القاهرة وكان جواب المجتمع المدنى ووطنيته المصرية يتجلى فى المقاومة الشجاعة بتحطيم هذه السلاسل حيث توافد نواب الشعب وشيوخ الشعب إلى البرلمان فى الساعة السادسة مساء أى فى الموعد المقرر لعقد اجتماع البرلمان. حيث حضر الزعيم مصطفى النحاس ومعه وزراؤه فقوبل بالهتاف والتحية ثم حضر رئيس مجلس النواب ويصا واصف فطلب منه الزعيم مصطفى النحاس ان يأمر قوة البرلمان بكسر السلاسل وفتح أبواب البرلمان باعتباره رئيسا لمجلس النواب. ولهذا فقد أصدر أمره إلى قومندان حرس البرلمان بتحطيم السلاسل وفتح أبواب البرلمان.. فقام الكومندار بتنفيذ الأمر واحضر رجال المطافئ بتحطيم السلاسل وفتحوا أبواب البرلمان.

وبذلك انعقد البرلمان وهتف أعضاؤه هتافات معادية لصدقى. ثم تلا رئيس مجلس النواب مرسوم تأجيل البرلمان لمدة شهر. وقال وبناء على ذلك يجتمع البرلمان من تلقاء نفسه. وخطب الزعيم مصطفى النحاس مطالبا كل نواب الشعب وشيوخه ان يقسموا يمين الولاء للدستور والمحافظة عليه وتم ترديد ذلك القسم الوطنى.. ثم خطب الكاتب عباس العقاد قائلا إن هذا المجلس مستعد لأن يسحق أكبر رأس فى البلاد من أجل حماية الدستور، ولم يكتف الزعيم مصطفى النحاس بذلك بل عقد مؤتمرا حضره النواب والشيوخ فى النادى السعدى مقر حزب الوفد فى يوم ١٦ يونيو ١٩٣٠ بهدف الدفاع عن الدستور وذلك بالاضافة إلى جهرة حماية الدستور وتحريض الجماهير المصرية عن الدفاع عنه فى مواجهة عسكرة الملك وعسكرة الانجليز.

وفعلا تمت هذه الجمهرة الشعبية والوطنية من خلال القيام بزيارة الاقاليم المصرية فى مناخ يسوده السخط الشعبى والغضب الجماهيرى على إسماعيل صدقى رئيس الوزراء وقائد عسكرة الملك وعسكرة الانجليز.

ففى مدينة المنصورة احتشدت جماهير الريف والبنادر والمدينة فى حشد شعبى يبلغ المليون شخص لاستقبال زعيم الأمة مصطفى النحاس حيث وقعت أول حادثة فاشية بقصد محاولة اغتياله بواسطة جنود الفاشية الملكية حيث أصيب فى تلك الواقعة الفاشية المناضل الوطنى سينوت بك حنا ومات متأثراً بجراحه وأصيب الوزير نجيب الغرابلى وقتل أربعة من المواطنين وأصيب ٤٥ جريحا. ومما يذكر ان ضابط الشرطة الكبير الذى قاد هذه الحادثة

الفاشية اسمه عبد العظيم على الذى كافأته فاشية الملك فؤاد بترقيته إلى رتبة لواء مع منح لقب الباشاويه فصار اسمه اللواء عبد العظيم على باشا. وهكذا بدأت الفاشية تتفشى فى صفوف الشرطة المصرية مما جعلها شرطة مفعمة بالفاشية حتى يومنا هذا فى بداية الألفية الثالثة للميلاد.

ورداً على هذه الواقعة الفاشية فى مدينة المنصورة انتشرت المظاهرات والاضرابات الشعبية ضد فاشية الملك فؤاد.. كما انتشرت هذه المظاهرات فى المنصورة نفسها وفى بلبيس وبورسعيد وميت غمر وبقية المدن والبنادر المصرية وقد تطورت تلك المظاهرات الشعبية إلى مواجهات دامية قتل فيها المئات من الوطنيين.. وقد تميزت مظاهرات الاسكندرية بعنفها ضد جنود الفاشية الملكية مما أفزع الأجانب المقيمين بالإسكندرية ولهذا اضطرت عسكرة الانجليز إلى الاستنجاد بحضور بارجتين حربيتين وقد انتهت تلك المظاهرات بقتل عشرين شخصاً وجرح ٥٠٠ واعتقال قيادة حزب الوفد بالأسكندرية.

وكان من أبشع معارك الفاشية الملكية معركتها ضد جماهير عمال العنابر الذين تعرضوا للقتل الجماعى وتم دفنتهم فى مقابر مجهولة بصحراء العباسية ولهذا تقول الصحفية السيدة روزاليوسف.. لقد أشيع ان البوليس المصرى قتل خمسمائة من عمال العنابر وبلغ الملك فؤاد بذلك.. فقال بلكنته التركية - بس كده - هكذا قال الملك الخائن فؤاد بفخر ووقاحة.

ولقد كان القصد من هذه الفاشية الملكية القضاء على المجتمع المدنى ووطنيته المصرية الثائرة من خلال الغاء دستور سنة ١٩٢٣ واعلان دستور رجعى فاشستى جديد ملحقا به قانون رجعى فاشستى ايضا للانتخاب.

ويوجز لنا الدكتور ضياء الريس ذلك الدستور الرجعى الذى اصدرته فاشية الملك فؤاد فيقول :

- يعطى الملك حق ابطال أى قانون.

- ويجعله يعين أغلبية أعضاء مجلس الشيوخ.

- ويجعل له حق اقتراح القوانين المالية.

- ويجعل سلطة مطلقة غير مقيدة بشىء.

- وللحكومة الحق فى التصرف فى الأموال العامة.

- ويجعل المسئولية الوزارية متعذرة أو ممتنعة.

- والأمة لا تستطيع تعديله إلا بعد عشر سنوات.

- ويحرم معظم المثقفين والتجار من دخول البرلمان.

ولقد كان يوم صدور ذلك الدستور الملكى الفاشستى يوما كله عسكرة فى عسكرة حيث حشد الطاغية اسماعيل صدقى كل قوى الفاشية الملكية مما حول مصر كلها إلى قشلاق عسكرى فاشستى استطاع فى ظله أن يؤسس حزبه الرجعى والملكى المسمى بحزب الشعب الذى ضم فى صفوفه كل العناصر الرجعية من ازلام الملك فؤاد والانجليز.

وفور تشكيل ذلك الحزب الملكى والرجعى بادرت الحكومة بإجراء انتخابات جديدة وفقا للدستور الفاشستى الجديد هذه الانتخابات التى قاطعها حزب الوفد والأحزاب المصرية الأخرى والتى اعتمدت على التزوير الفاشستى والسلطوى وذلك بهدف آن تكتسب الفاشية الملكية صفتها الشرعية.

ولما كان المجتمع المدنى يتمتع بعافيته والوطنية المصرية تحظى بعافيتها والشعب المصرى بكامل عافيته الوطنية وقتئذ فقد استمر فى مواجهة الفاشية الملكية مشخصة فى حكومة اسماعيل صدقى الذى كان يدرك ان الشعب المصرى كله معاد للفاشية الملكية وحتى الجيش المصرى كان متعاطفا مع حزب الوفد وزعيمه مصطفى النحاس وانه ايضا كان ميالاً إلى المجتمع المدنى ووطنيته المصرية.

ولذلك فقد اعترى الفاشية الملكية حالة صارخة من السعار فى مواجهة الشعب المصرى الساخط عليها مما أدى إلى وقوع مذابح دموية للمواطنين فى كل المدن والبنادر المصرية حتى يقال إن عدد الشهداء قد وصل إلى مائة شهيد و١٥٥ جريحا.. وذلك بالاضافة إلى تفشى التعذيب فى مراكز الشرطة مثلما حدث فى مركز شرطة البدارى حيث باشر المأمور تعذيب أحد المواطنين بوسائل إجرامية منافية للقانون والاخلاق مما دفع اثنين من المواطنين إلى قتل المأمور ثأرا لقيامة بتعذيب ذلك المواطن. ووصل الامر إلى محكمة النقض فى عام

١٩٣٢ للنظر فى الحكم الصادر بإعدام هذين المواطنين المتهمين بقتل مأمور مركز البدارى الذى باشر التعذيب.

ولقد اصدرت محكمة النقض برياسة عبد العزيز باشا فهمى حكما يدين الإدارة المصرية وحكومة صدقى مما كان يعنى إدانة الفاشية الملكية إدانة كاملة مما أدى إلى استقالة على باشا ماهر وزير الحقانية.

ونخلص من هذا إلى القول بأن فاشية الملك فؤاد ومنفذها الطاغية إسماعيل صدقى هى المسئولة عن تطعيم الشرطة المصرية بالفاشية وطغيانها وعن تطعيمها ايضا بآفة تزوير الانتخابات وعن تطعيمها كذلك بالعدوانية وتعذيب الإنسان المصرى وإهانته وقتله فرديا وجماعيا.

وبالمقابل فالمجتمع المدنى لم يتوقف عن تفعيل وطنيته المصرية واشعال ثوريتها ضد فاشية الملك فؤاد المشخصة فى حكومة إسماعيل صدقى كما سبق ذكره وذلك بالاضافة إلى قيام بعث جديد للجناح المدنى المسلح للوطنية المصرية هذا الجناح الذى حقق الامور التالية:

ففى يوم ٩ يوليو ١٩٣١ اطلق مجهولون الرصاص على رئيس مجلس نواب حكومة الفاشية الملكية محمد توفيق رفعت باشا وهو فى سيارته.

وفى ١٩ يوليو ألقيت قنبلة انفجرت فى فناء وزارة الحقانية.

وفى أغسطس ١٩٣٠ حاول شاب وطنى قتل رئيس الفاشستية إسماعيل صدقى باشا أثناء عودته بالقطار من الاسكندرية إلى القاهرة.

وفى ٢٧ يوليو ١٩٣١ انفجرت قنبلة أخرى فى دار وكيل مجلس النواب الفاشستى ووكيل حزب الشعب الفاشستى علام باشا قريب الطاغية إسماعيل صدقى باشا.

وفى مايو ١٩٣٢ وضعت قنبلة بين قضبان السكك الحديدية فى طما بمركز جرجا بقصد نسف القطار الذى كان يركبه صدقى باشا فى طريقة إلى جرجا ولكن القنبلة انفجرت بعد مرور القطار.

وفى مايو ١٩٣٣ حاول العامل النقابى محمد على الغلال سكرتير نقابة عمال جروبى اغتيال اسماعيل صدقى باشا فى محطة مصر.

ولقد صاحب ذلك عودة الحركة العمالية ذات الطبيعة الاشتراكية والشيوعية فى القاهرة والاسكندرية ومدن أخرى حيث ورد فى التقرير السنوى للسفارة البريطانية فقرة بعنوان تقرير عن الشيوعية فى مصر عام ١٩٣٣ جاء فيها ان الكومنترن. أى الأممية الشيوعية يعاود تأسيس النشاط الشيوعى هناك شخص اسمه سالم يوسف واسمه الحقيقى وهيب المالك. وفى عنابر السكه الحديد هناك شخص آخر اسمه حسين الخراط واسمه الآخر على حسانين وقد حاول الخراط تأسيس حركة شيوعية وسط عمال العنابر وكان يعطى العمال محاضرات عن النظرية الماركسية.

وفى يونيو ١٩٣٤ قبض على ٢٢ من العمال بعد ان وزعوا منشورات شيوعية فى عدد من المصانع.

وفى ٢٠ مايو ١٩٣٥ نشرت الاهرام خبرا عن محاكمة مجموعة من العمال الشيوعيين.

ثم تكاثرت قضايا محاكمة العمال الشيوعيين منها قضية الشيوعية بطنطا امام محكمة الجنايات المتهم فيها العامل عزيز عبد الملك نيروز المقيم بمدينة المحلة والمتهم الثانى محمد عبد الوهاب والمتهم الثالث مصطفى اسماعيل حافظ والمتهم الرابع مصطفى الحراج.

ويتحدث الدكتور رفعت السعيد عن كثير من العمال الشيوعيين فى هذه الفترة يتواجدون بالقاهرة والزقازيق والسويس الاسكندرية ومن بين هؤلاء الزملاء العجوز واولاده وشيخ من الزقازيق. وشيخ آخر هو سكرتير نقابة عمال السكة الحديد بالزقازيق ومدير الجمعية التعاونية للأتوبيس وآخر من اللجنة المركزية لنقابات عباس حليم.

ولقد نشط هؤلاء الزملاء فى صفوف نقابات عباس حليم وفى صفوف النقابات الوفدية.. وكان شعارهم حرية الكلام والنشاط الاحتجاجى بواسطة النقابات والمطالبة بالانتخابات الديمقراطية والمطالبة كذلك بحياة أفضل للعمال.

لقد كان ذلك النهوض الوطنى والعمالى كان خير شاهد على ان المجتمع المدنى كان قادرا على مقاومة فاشية الملك فؤاد وعسكرة الاحتلال الانجليز. هذه العسكرة التى قد ادركت ان ثورة سنة ١٩١٩ من الممكن ان تتكرر وتعود بصورة اكثر ثورية بحيث تستطيع المبادرة بتصفية الحساب مع الاستعمار الانجليزى واستغلال تحالف رأس المال والاقطاع بمعنى أن تكون ثورة

وطنية عمالية حمراء ذلك هو الهاجس الذى استبد بعسكرة الاحتلال الانجليزى مما جعلها تبادر بطرد مندوبها السامى فى مصر والضغط الشديد على فاشية الملك فؤاد للتخلص من الطاغية إسماعيل صدقى وتشكيل وزارة جديدة تقود الفاشية الملكية.

وفعلا فقد تشكلت وزارة ملكية جديدة تقود فاشية الملك فؤاد بشكل يوحى بتلطيف استبدادها مع بقاء دستور سنة ١٩٣٠ الفاشستى والرجعى.

ولكن هذه الوزارة الملكية قوبلت بالرفض من الأحزاب وخاصة حزب الوفد حيث بادر زعيمه مصطفى النحاس بزيارة إلى بعض عواصم المحافظات لتحريض الجماهير الوفدية على هذه الوزارة الرجعية وذلك بالاضافة إلى فضح مظاهر الفساد التى وقعت فى عهد فاشية الملك فؤاد وخاصة فساد المقاولات التى دخلها المليونير أحمد عبود وتم عرضها على القضاء.

ولقد كان ذلك الرفض المشار إليه هو رفض صادر من المجتمع المدنى ووطنيته المصرية ولهذا فقد استقالت فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٤ لكى تحل محلها وزارة توفيق نسيم الثالثة فى ١٤ نوفمبر ١٩٣٤ حتى ٣٠ يناير ١٩٣٦.

وكانت هذه الوزارة الأخيرة تابعة لفاشية الملك فؤاد وتابعة ايضا لعسكرة الاحتلال الانجليزى وهذا ما دفع المجتمع المدنى وجماهيرة من عمال وطلاب إلى الاضرابات والمظاهرات فى القاهرة وطنطا وبعض المدن الآخرى حيث تصدى بوليس الفاشية الملكية لطلبة الجامعة يوم ١٤ نوفمبر ١٩٣٥ عند كوبرى عباس وقتل طالبان وأصيب نحو عشرين شخصا وكانت هذه المظاهرات كما وصفها مؤرخنا عبد الرحمن الرافعى صدره مصغرة من ثورة سنة ١٩١٩.

وبفضل هذه المظاهرات التى بادرت بها جماهير المجتمع المدنى اضطرت فاشية الملك وعسكرة الانجليز على عودة دستور سنة ١٩٢٣ وسقوط دستور سنة ١٩٣٠ الملكى والفاشستى وحل مجلس النواب الرجعى والفاشستى ايضا ثم استقالة وزارة توفيق نسيم لتحل محلها وزارة على ماهر الأولى من ٣٠ يناير حتى ٩ مايو ١٩٣٦ بذريعة انها وزارة محايدة بشأن مسألة تشكيل وفد مصرى لمفاوضة الانجليز وشأن مسألة اجراء الانتخابات النيابية. هذه

الانتخابات التى حقق فيها حزب الوفد نجاحا ملحوظا حيث حصل على ١٦٦ مقعدا بينما حصلت القوى الحزبية الأخرى على ٦٦ مقعداً ومجلس الشيوخ نجح من الوفدين ٦٢ شيخا بينما نجح من غيرهم ١٥ شيخا.

ونتيجة لهذه الانتخابات البرلمانية ثم فرض ديمقراطية المجتمع المدنى وجماهيره الشعبية ولهذا فقد شكل حزب الوفد برياسة زعيمه مصطفى النحاس وزارته الثالثة فى ٩ مايو ١٩٣٦ حتى ٣١ يوليو ١٩٣٧.

وفى هذه الأيام مات الملك فؤاد عميد الفاشية الملكية ووقعت مصر معاهدة ١٩٣٦ مع الانجليز بواسطة وفد من الاحزاب المصرية برياسة مصطفى النحاس.

ولكن مسرح الحياة المصرية شهد صراعاً حاَدا ومكشوفاً بين المجتمع المدنى وجماهيره وبين فاشية الملك فؤاد حيث كان حزب الوفد وجماهيرة ونقاباته العمالية وجماعته الشبابية المسماة بجماعة القمصان الزرقاء تتصدى لفاشية الملك فؤاد وحكوماته المتعاقبه وجماعة القمصان الخضراء التى شكلها حزب مصر الفتاة برياسة الأستاذ أحمد حسين الذى كان تسوده ملامح فاشية وذلك بالإضافة الى نقابات النبيل عباس حليم التى تحولت الى حزب يُسمى حزب العمال. هذا الحزب النقابى الذى كان مجالاً لنشاط النقابيين اليساريين.. كما كانت النقابات الوفدية أيضاً تموج بشخصيات اليسار النقابى والعمالى·ومن تم فلم يكن حزب العمال حزباً تابعاً للفاشية الملكية رغم وجود النبيل عباس حليم على رأس ذلك الحزب العمالى والنقابى ولذلك فقد كانت فاشية الملك فؤاد فاشية هشة مما جعلها تتراجع أمام المجتمع المدنى ونقاباته الوفدية ونقاباته المستقله وحزبه حزب الوفد وجماهيره وشبابه.

ومن منطلق هذا التراجع الذى اضطرات اليه فاشية الملك فؤاد حاول حزب الوفد وحكومته احتواء الملك الجديد والصغير فاروق وبالتالى الهيمنة على مؤسسة القصر ومن يتولى ادارتها من شخصيات الأوصياء على العرش لولا تدخل عسكرة الاحتلال الانجليزى التى تحالفت مع هؤلاء الأوصياء الرجعيين ضد حزب الوفد وزعيمه مصطفى النحاس بقصد تغليب القصر الملكى على المجتمع المدنى وجماهيره ونقاباته العمالية.

ويبدأ القصر فى بداية عهد الملك الحدث فاروق بالضربة الأولى من خلال إحداث انقسام فى حزب الوفد بخروج النقراشى صاحب التاريخ الوطنى والذى كان يوصف

بالشـرف والنزاهة ثم خـروج احـمـد مـاهر رئيس مـجلس النواب الوفـدى وصـاحب التـاريخ الوطنى أيضا.

ويرد زعـيم الوفـد مـصطفى النحـاس على ذلك بالاحتماء بالمجتمع المدنى وجماهيره وطبقته العامله فيزور المدن المصرية ويدعو الطبقة العاملة المصرية إلى مساندة حزب الوفد الذى سوف يعمل جاهداً من أجل توفير حياة أفضل للعمال المصريين ومن ثم تهتم الرجعية المصرية وبعض الصحف البريطانية بأن النحاس أصبح فاشستيا بعد زيارة لألمانيا النازية فى عهد هتلر وايطاليا الفاشية فى عهد موسولينى والدليل على ذلك تعاطفة على العمال المصريين ووعوده لهم بتحقيق مطالبهم الاجتماعية.

هكذا استطاع المجتمع المدنى وجماهيره وطبقته العاملة أن يصمد فى مواجهة عسكرة الاحتـلال الانجليزى والأوصـياء على عـرش الملك فـــاروق مما دفع حـزب الوفـد وزعـيمـه مــصطفى النحــاس إلى إجبار العسكرة الانجليـزية والأوصيـاء على العرش على احترام المجتمع المدنى المصرى من خلال تتويج الملك فـاروق تتويجـا مدنيا بحيث يتسلم سلطاته الملكية من البرلمان الوفدى ممثل الأمة المصرية والمجتمع المدنى المصرى بدلا من تتويجه فى احتفال دينى فى الأزهر.

ثم وقع صراع حاد بشأن قسم الولاء للجيش المصرى فالوفد يريد قسماً مدنيا وولاء مدنيا للدستور بينما العسكرة الانجليزية والفاشية الملكية تريده قسما ملكيا وولاء ملكيا.

وخلال هذا الصراع بين المجتمع المدنى والفاشية الملكية يصدر الدكتور أحـمـد مـاهر رئيس مجلس النواب الوفدى والذى انحاز للعسكرة الانجليزية والفاشية الملكية بياناً يقول فيه.. إن الوزارة الوفدية قد أفسدت الأمن والتعليم والعمال.. الأمر الذى أدى إلى انتشار المظاهرات العمالية والشعبية مؤيدة للوفد وزعيمه فى مواجهة مظاهرات الطلاب الأزهريين بتحريض من الشيخ المراغى شيخ الأزهر صديق عسكرة الاحتـلال الانجليزى والفاشية الملكية فى عهد الملك فؤاد وفى عهد ولده الملك فاروق الذى أطلق عليه الملك الصالح.

ولقد انتهى ذلك الصراع المرحلى باستقالة حكومة الوفد حكومة المجتمع المدنى وحل برلمانها الوفـدى وتشكلت حكومـة فى إثر حكومـة بواسطة عـسكرة الاحتـلال الانجليـزى

وبواسطة عسكرة الملك فاروق أو فاشيته الملكية حتى قامت الحرب العالمية الثانية ووصلت معاركها الحربية إلى مدينة العلمين على مشارف مدينة الإسكندرية حيث اندلعت مظاهرات الطلاب الأزهريين بالذات مرددة هتافات تقول تقدم يا روميل ــ تقدم يا روميل.. قائد الجيوش الألمانية..

هذه المظاهرات التى كان وراءها فاشية الملك فاروق والعائلة المالكة وبعض الأحزاب والجماعات الفاشية الصغيرة مثل جماعة الاخوان المسلمين وحزب مصر الفتاة والمنظمات العسكرية التى انشأها أمراء العائلة المالكة.

عندئذ استفزت عسكرة الاحتلال الانجليزى واستبد بها الغضب والخوف معا من فاشية الملك فاروق وبناتها اللاتى ولدتهن قبل الحرب الثانية وخلالها بسبب ما مارسته تلك الفاشيات من تعبئة دعائية موالية للنازية وهتلر الذى أطلق عليه تسمية الحاج محمد هتلر مما أدى إلى جعل مزاج الشعب المصرى متعاطفا مع هتلر والنازية الألمانية هذا التعاطف الذى كان يزداد رويداً رويداً كلما اقتربت الجيوش الألمانية من مدينة الاسكندرية. هذه الجيوش النازية التى كانت سوف تلقى قبولا حسنا من المصريين.

امام ذلك الخطر الداهم على الديمقراطية مصريا وعالميا تدخلت عسكرة الاحتلال الانجليزى بحسم ملحوظ لاجبار الملك فاروق وفاشيته على تشكيل وزارة ديمقراطية وشعبية.

ولقد كان ذلك التدخل الحاسم ليس من منطلق احتلالى ولكن كان من منطلق دحر النازية والفاشية معا والعمل على انتصار الديمقراطية وجيوش الحلفاء التى كانت تضم الجيوش السوفيتية والبريطانية والانجليزية وتنظيمات المقاومة الشعبية فى فرنسا ويوغسلافيا وبولندا والصين.

ومن هنا أجبر الملك فاروق بدافع الخوف على عرشه وعلى فاشيته الملكية استدعى كل الزعماء والشخصيات السياسية والحزبية بهدف تشكيل وزارة قومية برياسة مصطفى النحاس زعيم الأمة وحزب الوفد الذى كان متواجداً فى أسوان.

وحضر الزعيم مصطفى النحاس إلى القصر الملكى حيث استنكر الانذار البريطانى ورفض الوزارة القومية بناء على رفض حزبه حزب الوفد المشاركة فى أية وزارة إئتلافية أو

قومية ولهذا كلفة الملك بتشكيل وزارة وفدية ولكن مصطفى النحاس قد قبل تأليفها متأففاً لتدخل العسكرة الانجليزية حيث تحفظ بقوله إن الوضع القائم منهار وانه يتحمل مسئولية تطورات علم الله آنه لم يكن له يد فيها بل جلبها على البلاد غيره بأعماله أو بأهماله ثم أرسل إلى السفير البريطانى يعلنه برفض أى تدخل من العسكرة الانجليزية فى الشئون المصرية وحتى تكون وزارة النحاس الوفدية وزارة شعبية معبرة عن المجتمع المدنى وجماهيره المصرية أجريت الانتخابات البرلمانية بشكل ديمقراطى فاز فيها حزب الوفد بنسبة ٨٩٪ من مقاعد مجلس النواب.

وفى ظل هذه الحكومة الشعبية توقفت المظاهرات المنادية بالنازية والفاشية وبحياة الجنرال الألمانى روميل وتم القبض على زعماء الفاشية الملكية مثل على ماهر باشا والنبيل عباس حليم مؤسس وزعيم حزب العمال الملكى ومحمد طاهر باشا من الأسرة المالكة.

على هذا النحو استطاع النحاس زعيم حزب الوفد وممثل المجتمع المدنى وجماهيره آن يحجم فاشية الملك فاروق وبناتها الفاشيات وأن يرسخ قواعد المجتمع المدنى المصرى من خلال تحقيق مضمونه الاجتماعى بصدور قانون النقابات العمالية واتحاداتها النقابية المهنية فى سنة ١٩٤٢ استجابة للمظاهرات العمالية الصاخبة التى بادر بها عمال مصانع شبرا الخيمة وبصدور قانون عقد العمل الفردى فى عام ١٩٤٤ وبصدور قانون الجمعيات التعاونية فى نفس العام وبتسخير قانون الطوارئ والأحكام لخدمة المجتمع المدنى حيث آصدر النحاس بصفته الحاكم العسكرى أمراً عسكرياً بشأن لجان التوفيق بين العمال وأصحاب الأعمال فى سنة ١٩٤٢ امرا عسكريا آخر بصرف إعانة غلاء المعيشة لعمال المحال التجارية والصناعية فى نفس العام وأمراً عسكرياً ثالثاً بشأن تحديد حد أدنى لأجور العمال الزراعيين فى قنا واسوان سنة ١٩٤٤ وأمرا عسكريا رابعا بشأن تقديم وجبة غذائية لبعض المستخدمين والعمال فى نفس العام وامرا عسكريا خامسا بشأن تقديم وجبة غذائية لبعض العمال والمستخدمين فى محافظة البحر الأحمر وبصدور قانون إصابة العمل وتعويضاتها فى عام ١٩٣٦.

إن ذلك السرد يدعو إلى التأمل العميق بشأن المجتمع المدنى الذى ظهر لأول مرة فى الحياة المصرية منذ عهد الفراعنة خلال مقدمات ثورة ١٩١٩ وفى سياقها حيث استمر

صامدا بين المد والجزر يتقدم حينا ويتراجع أحيانا ومع هذا فقد أفرز مضمونه الوطنى بزيادة مقاومته عسكرة الاحتلال الانجليزى ومضمونه الديمقراطى بالتصدى الحزبى والتظاهرى والاحتجاجى ضد فاشية الملك واستبداده ومضمونه الاجتماعى بتحقيق مكاسب ومطالب الطبقة العاملة المصرية وفقراء الفلاحين.

ومن خلال تلك المضامين الوطنية والديمقراطية والاجتماعية برزت من جديد الحركة الشيوعية باعتبارها المنبر الحقيقى لمصالح الطبقة العاملة المصرية وفقراء الفلاحين كما برزت الحركة النقابية والعمالية ذات الاتجاه اليسارى فى مجملها وذلك بالاضافة إلى بعث الحركة الطلابية وحركة المثقفين الوطنيين والتقدميين كما كان الحال خلال ثورة سنة ١٩١٩.

ومن رحم هذه الحركات الوطنية والشيوعية والنقابية والعمالية خرجت زعامات وشخصيات عمالية ونقابية كما كان الحال فى أيام ثورة ١٩١٩ وكان من أهم هذه الشخصيات العمالية يوسف المدرك ومحمود العسكرى ومحمد شطا وفتحى كامل والشيخ عبد الظاهر وفتحى كامل ومحمد على عامر وطه سعد عثمان وأحمد طه وعبد العزيز مصطفى وغيرهم وبالتالى فإن المجتمع المدنى يوصف بأنه مجتمع خصب مجتمع ولود لا يعتريه العقم لأنه مجتمع يتصارع مدنيا وطبقيا بواسطة حرب المفاهيم والاحتجاجات السلمية المؤدية إلى التغيير الجذرى بواسطة الجماهير وإرادة الجماهير صاحبة المصلحة فى النظام الاجتماعى التى ترتضيه باختيارها.

ذلك هو المجتمع المدنى الذى تنبثق منه الاشتراكية الديمقراطية.. أو الرأسمالية الرشيدة.. وتتوالد فى رحابه الشخصية العامة والشخصيات العامة فى الحياة والمجتمع.

تحالف الفاشية الملكية وفاشية الإخوان

فى أول وزارة دستورية شكلها حزب الوفد برياسة سعد زغلول حدثت واقعة عنصرية وفاشستية حيث اعترض الملك فؤاد على اختيار المحامى مرقص حنا نقيب المحامين وزيرا للعدل مما دفع سعد زغلول إلى الرد على الملك فؤاد بشكل طبقى بتعيينه واحد من أفنديات حزب الوفد هو المحامى نجيب الغرابلى أفندى وذلك على غير العادة فى تعيين الوزراء وقتئذ فقد كان ينبغى أن يكونوا من حملة البكوية أو الباشاوية.

كما أن مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد وممثل المجتمع المدنى بعدئذ قد اصطدم بفاشية الملك فاروق فى وقائع كثيرة أهمها واقعة تتويج الملك فاروق مدنيا امام البرلمان كما سبق ذكره وواقعة إصرار مصطفى النحاس على الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر بطريقة مدنية وسياسية برياسة وزير الأوقاف بينما كانت رغبة فاشية الملك فاروق ان يكون الاحتفال الألفى دينيا برأسة شيخ الأزهر وكذلك واقعة مسجد عمرو بن العاص حيث كان الملك فاروق يؤدى صلاة الجمعة اليتيمة أى الجمعة الأخيرة من رمضان ويصاحبه رئيس الوزراء مصطفى النحاس وشيخ الأزهر مصطفى المراغى.. وأثناء خطبة الجمعة فوجئ المصلون باستطراد الخطيب فى خطبته حيث راح يسب ويقذف الأخوة الأقباط من فوق منبر المسجد بشكل استفزازى مما دفع مصطفى النحاس إلى مقاطعته بعنف وإسكانه بألفاظ حاده وقاسية أمام جماهير المصلين وفى حضور الملك فاروق والشيخ المراغى شيخ الأزهر وفقا لما رواه الأستاذ طارق البشرى هذه بعض ملامح الصراع بين المجتمع المدنى المصرى وفاشية الملك فاروق وعنصريته حيث استمر ذلك الصراع بواسطة حرب المفاهيم وبواسطة العنف وذلك بالاضافة إلى أن الفاشية الملكية قد فرخت بجانبها فاشيات أخرى أخوات أو بنات فاشيات بقصد إجهاض مظاهر المجتمع المدنى وخنق منظماته ومؤسساته وحزب الوفد الذى كان يحظى بشعبية ملحوظة وكانت تتجلى تلك المؤسسات وهذه المنظمات فى الحركة العمالية ونقاباتها والحركة الطلابية ومنظماتها والحركة الشيوعية ومنظماتها ايضا.

ولقد كان يصدر عن حزب الوفد وعن هذه المنظمات والمؤسسات الديمقراطية والطبقية باعتبارها قواعد المجتمع المدنى فى الحياة المصرية الحديثة صحافة وطنية وديمقراطية واضرابات ومظاهرات واحتجاجات ثورية تمثل مظاهر المجتمع المدنى التى كانت تستهدف الاستقلال وتغيير النظام الملكى وطبقاته الاجتماعية وفاشيته الاستبدادية وما طفحت به من فاشيات آخرى كان أهمها فاشية الاخوان المسلمين ولكن فاشية الملك فاروق وأخواتها وبناتها قد دأبت على ممارسة الحرب التآمرية والصراع الانقلابى ضد حزب الوفد ومنظمات المجتمع المدنى حيث حاولت الفاشية الملكية إجهاض وزارة حزب الوفد فور تشكيلها فى عام ١٩٤٢ باقناع المجاهد الكبير ووزير المالية الوفدى وسكرتير حزب الوفد وأبرز شخصية سياسية قبطية مكرم عبيد بالاستقالة من حزب الوفد واصدار كتاب معنون بعنوان.. الكتاب

الأسود فى العهد الأسود - يتضمن هجوما صارخاً على سلبيات حزب الوفد وقياداته وكان ذلك بقصد إبعاد الجماهير القبطية عن حزب الوفد وفى نفس الوقت تقريبا أصيب الملك فاروق فى حادثة اصطدام سيارته بإحدى سيارات الجيش البريطانى بالقرب من قرية القصاصين فراحت الفاشية الملكية ومؤسساتها تحشد الطلاب والعمال بالسيارات والقطارات بالمجان لزيارة الملك المصاب بقرية القصاصين مرددين عبارات.. ملك البلاد يا زين - يا فاروق يا نور العين وذلك بقصد جمهرة شخص الملك فاروق عميد الفاشية الملكية هذه الجمهرة التى تزايدت بمساعدة فاشية الاخوان المسلمين فور أن أطلق الملك فاروق لحيته وبات يتسمى بالملك الصالح وهذا ما جعله يحلم بلقب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين الذى كان يطمع فيه والده الملك فؤاد.

كل هذا قد أدى إلى مبادرة الفاشية الملكية إلى التخلص من وزارة النحاس الوفدية بمباركة من عسكرة الاحتلال الانجليزى التى كانت تتميز من الغيظ من الحكومة الوفدية لطردها غزالى بك مدير الأمن العام وأحد الشخصيات البوليسية ذات الولاء للعسكرة الانجليزية والفاشية الملكية.

ومع ان فاشية الملك فاروق هذه قد استطاعت أن تتخلص من حكومة حزب الوفد وتحل البرلمان الوفدى لكى تأتى حكومة السعديين برياسة الدكتور أحمد ماهر فى سنة ١٩٤٤ - الموالية لفاشية الملك فاروق وعسكرة الإنجليز ولكن رئيس تلك الوزارة يتم اغتياله فى البرلمان بواسطة المحامى الشاب محمود العيسوى بسبب اعلانه الحرب على دول المحور تنفيذا لرغبة عسكرة الاحتلال الانجليزى ولهذا يحل محله محمود فهمى النقراشى رئيسا لوزارة السعديين فى الفترة من فبراير ١٩٤٥ إلى فبراير ١٩٤٦.

لقد تميزت هذه الفترة بالنهوض الوطنى المعادى للاحتلال الانجليزى وبالنهوض الديمقراطى والثورى فظهر تيار يسارى ماركسى فى حزب الوفد وظهر العديد من المنظمات الشيوعية واليسارية مثل منظمة الحركة المصرية للتحرر الوطنى التى انبثق منها الحزب الشيوعى السودانى ومثل حركة الفجر الجديد وتضاعف عدد النقابات العمالية وزادت عضويتها ففى عام ١٩٤٤ وصل عدد النقابات ٢١٠ نقابة تضم ١٠٢٨٧٦ عاملاً وفى عام ١٩٤٥ كان عدد النقابات ١٨٩ نقابة تضم فى عضويتها ٨٩٥٦٠ عاملاً وفى عام ١٩٤٦ كان عدد النقابات ١٨٨ نقابة تضم فى عضويتها ٩٥٥٣٨ عامل.

ومما يذكر ان الجناح اليسارى فى حزب الوفد ومعه المنظمات الشيوعية والعمالية والنقابية كان أشبه بالعاصفة الثورية من خلال صحافتها وحركتها الاضرابية والتظاهرية والاحتجاجية ذات الطابع الوطنى والديمقراطى والطبقى مما يعنى ان المجتمع المدنى المصرى وجماهيره كان قادراً على مواجهة فاشية الملك وعسكرة الاحتلال الانجليزى معا.

عندئذ استشعرت فاشية الملك فاروق خطورة النهوض الوطنى والثورى للمجتمع المدنى ومؤسساته وجماهيره ومن ثم فلابد من بعث فاشيات أخرى حيث لم تكتف الفاشية الملكية بفاشيتها الرسمية والسلطوية التى كان يقودها اللواء سليم زكى حكمدار القاهرة وغيره من الضباط الانجليز والمصرين بل بادرت بتشكيل جماعه فاشية كانت تسمى جماعه السبعه أولاد الخالات التركيات برياسه الطالب حسن توفيق والتى كان من أعضائها الضابط أنور السادات.. وذلك بجانب التحالف مع فاشية جماعة الاخوان المسلمين.

فالأخوان المسلمون جماعة دينية نشأت فى مصر عام ١٩٢٩ بزعامة الشيخ حسن البنا المدرس وخريج كلية دار العلوم وسرعان ماتحولت الى جماعه سياسيه تمقت الحزبية والأحزاب بذريعة الوحدانية الإسلامية وذلك تبريراً للوحدانيه السياسيه التى يجيب أن تنفرد بها جماعة الإخوان المسلمين باعتبارها الحزب الواحد ومن ثم فقد تحالفت هذه الجماعة مع كل رموز الرجعية المصرية بدءاً بالملك الصالح فاروق وفاشتيه وبولى عهده محمد على باشا وبرئيس ديوانه على ماهر وبرئيس حزب الاحرار الدستور محمد باشا محمود وبالمليونيرالحاج محمد سالم الذى تزوج بالشخصية الإخوانية البارزة الحاجة زينب الغزالى وقد بدآت الخطواط الفاشيه الاخوان المسلمين بتشكيل فرق الكشافة ذات الاتجاه العسكرى والفاشستى التى رحبت بها فاشيه الملك فاروق بدليل قبول تسجليها بينما آسرعت بحل جماعة القمصان الزرقاء التابعه لحزب الوفد صاحب النفوذ الشعبى والجماهيرى فى مصر وبوساطه على باشا ماهر رئس الديون الملكى قام الشيخ حسن البنا بزيارة الملك فاروق لاقناعه بالانضمام الى جماعة الاخوان المسلمين.

ومن هنا بدأ تحالف فاشية الملك فاروق مع فاشيه الاخوان ففى عام ١٩٣٨ حشدت الجماعة أفراد الكشافه الخاصة بها التى كانت بمثابة ملشياتها وجناحها العسكرى فى معسكرها بالدخليه بجانب الاسكندريه حيث كان الملك فاروق متواجدا بها فقام المرشد

العام للإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا بزيارة جلالة الملك نستأذنه لتكون حشود الكشافه الإخوانية فى معيته عند صلاة الجمعة.

وفى يوم الجـمـعـة المحـدد راحت كشـافـة الإخـوان المسلمـين تدق طبـولهـا فى شـوارع الاسكندرية بتقدمها مرشدها العام مرتدياً ملابس الكشافة حتى مسجد سيدى جابر لحضور الصلاة الملكية يباركها الملك فاروق وحاشيته وفاشتيه.

وهكذا فعلت فاشية الأخوان المسلمين بقصد جمهرة الملك الصالح فاروق وجمهرة نفسها وبجانب الجواله أنشأت جماعه الإخوان جهازاً عسكرياً سرياً برأسة صالح عشماوى واشراف عبد الرحمن السندى بهدف مواجهة العصابات الصهونية وفاشيتها فى فلسطين كما زعمت وقتئذ ويحاول الشيخ المرشد العام تحديد ولاء جماعة الاخوان المسلمين للملك فاروق فيقول :

وان ما يشاع عنا من أننا أعداء الملك ليس صحيحاً بل إننا نلتزم بقول الامام مالك رضى الله عنه..لو كانت لى دعوة واحدة مستجابه لجعلتها للسلطان فإن صلاحه يصلح به خلق كثير وفى الفترة من عام ١٩٤٥ حتى ١٩٤٧ تتزايدت البطاله وتزايد غلاء المعيشه وتعالت الاصوات الوطنية واليساريه المطالبه بجلاء عسكرة الاحتلال الانجليزى مما آدى إلى تعاظم شآن الجناح اليسارى فى حزب الوفد كما تعاظم شأن الحركة الشيوعية ومنظماتها والحركة العمالية والنقابية ونقاباتها والحركة الطلابية عموماً والصحافة الوطنية واليسارية.

ومن مجمل هذه التيارات الوطنية واليسارية والشيوعية تشكلت وحدة عمل نضالى من خلال الاضرابات العمالية والمظاهرات الطلابية وصيحات الصحافة الوطنية والشيوعية التى كانت تستهدف جلاء عسكرة الاحتلال الانجليزى وتفكيك القبضة الاستبدادية للفاشية الملكية بقيادة اللواء سليم زكى وذلك بالإضافة إلى تخفيض ساعات العمال للعمال وزيادة الأجور لمواجهة تزايد غلاء المعيشة وتشغيل العمال العاطلين.

ولكن ذلك النضال الوطنى والاجتماعى قد واجهته فاشية الملك فاروق بتعطيل الصحافة الوطنية والشيوعية والقبض على كتابها ومحرريها.. كما واجهت العمال والطلاب المصريين بقسوة بالغة حيث قبضت على المئات منهم وذلك دون أن تتوقف الاضرابات والمظاهرات بعد

ان أحيطت القوى الوطنية علما بأن الفاشية الملكية ووزارتها برياسة محمود النقراشى تستعد لتوقيع معاهدة خيانة مع عسكرة الاحتلال الانجليزى لاقرار الدفاع المشترك بين مصر وانجلترا الذى من شأنه ان يظل الاحتلال الإنجليزى فى إطار حلف عسكرى مع دولة استعمارية.

ورداً على هذه المعاهدة بادر طلاب جامعة القاهرة من أعضاء الجناح اليسارى بحزب الوفد ومن أعضاء المنظمات الشيوعية بمظاهرة صاخبة تحت شعار لا مفاوضات بتاتاً حتى إجلاء القوات الانجليزية. وقد سارت هذه المظاهرة نحو القاهرة وعند مرورها على كوبرى عباس فتح الكوبرى بأمر من شرطة فاشية الملك فاروق التى كان يقودها اللواء سليم زكى وعبد الرحمن عمار بك مدير الأمن العام وقتئذ وقد قتل فى ذلك الحادث البشع حوالى ٢٨ طالبا وأصيب ١٦٠ طالبا ولقد شاركت فاشية الاخوان المسلمين مشاركة العملاء للفاشية الملكية بدليل أن أدبياتها لم تسجل موت أو إصابة أى طالب ينتمى إلى عضوية جماعة الأخوان المسلمين.

ومما يذكر ان فاشية الملك فاروق قد شكلت جبهة معادية لحزب الوفد برياسة الدكتور السنهورى اشترك فيها حزب الأحرار الدستوريين وحزب مصر الفتاة وفاشية الاخوان المسلمين الذى كان يمثلها الأخ سعيد رمضان.

وفى الاجتماع السرى الأول لهذه الجبهة الفاشية برياسة الدكتور السنهورى الذى أخذ يشرح للحاضرين ان المقصود من هذا الاجتماع هو أن تقوم الهيئات الحاضرة متضامنة بحركة عنيفة كظاهرة تذكر الناس بحادثة ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وبأن الوفد جاء إلى الحكم على أسنة رماح الانجليز. ولا مانع من القيام ببعض التفجيرات لايقاف حركة المواصلات لإثارة انتباه الجماهير.. ثم طلب السنهورى من ممثلى الأحزاب والهيئات الحاضرين أن يدلى كل برأية ففعلوا وكان إجماعاً بالموافقة على اقتراح السنهورى.

هكذا اعترفت أدبيات الفاشية الاخوانية بواقعة التآمر الارهابى والفاشستى للفاشية الملكية التى اشتركت فيها.. ولكنها تدعى فى نفس الوقت بعدم الموافقة لعدم توافر الأمان والسرية وهذا ما أغضب الملك فاروق وقطع السبيل على الاستاذ المرشد أن يقابل الملك

وذلك وفقا لرواية القطب الاخوانى محمود عبد الحليم وخير رد على أن فاشية الاخوان كانت متحالفة مع فاشية الملك فاروق منذ توليه عرش مصر هو امتداد ذلك التحالف إلى وزارة إسماعيل صدقى الثالثة من ١٦ فبراير إلى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ وهى من وزارات الفاشية الملكية وامتداد التحالف ايضا إلى وزارة النقراشى الثانية من ٩ ديسمبر ١٩٤٦ إلى ١٨ ديسمبر ١٩٤٨ وهى ايضا من وزارات الفاشية الملكية؟؟!!!

مع العلم ان رئيس الوزراء إسماعيل صدقى هو عدو الشعب المصرى الذى كان معروفا للكافة فى مصر بأنه قد اغتال دستور سنة ١٩٢٣ وأنه كان جزار مذابح فاشية الملك فؤاد التى قتل فيها عمال العنابر وغيرهم من شهداء الوطنية المصرية فى أعـــوام ٣٠ و٣١ و٣٢ و١٩٣٣.

كما ان النقراشى هو رئيس وزراء فاشية الملك فاروق الذى كان معروفا بأنه جزار مدبحة كوبرى سنة ١٩٤٦. ومن هنا فإن تحالف جماعة الاخوان وجناحها المسلح السرى والعلنى الممثل فى فرق الكشافة التابعة لها مع الفاشية الملكية ووزارتها كان يؤكد أنها فاشية دينية تتحالف مع فاشية ملكية خائنة.

وبقدر ما كانت الفاشية الملكية والفاشية الاخوانية فى حالة تصاعد فقد كان المجتمع المدنى ووطنيتـه المصـرية يتعـاظم شـأنه نضـاليـا وثوريا من خـلال النشـاط الاحـزابى والاحتجاجى والتظاهرى الذى تمارسه جماهير الجناح اليسارى لحزب الوفد والحركة الشيوعية والحركة النقابية ذات الطابع اليسارى، إن هذه الجماهير العمالية والطلابية المصرية العظيمة لم تتأثر بمذبحة كوبرى عباس بدليل انتشار الاضرابات والمظاهرات فى مدن المنصورة والزقازيق وشبين الكوم والاسكندرية ضد عسكرة الاحتلال الانجليزى وفاشية الملك فاروق مما أدى إلى سقوط العديد من الشهداء.

وقد انبثق من خلال تلك النضالات الوطنية لجنة العمال والطلبة فى فبراير ١٩٤٦ وذلك بهدف استمرار النضال الوطنى.

والجدير بالذكر ان قادة هذه اللجنة الوطنية وقاعدتها كانوا من ممثلى الجناح اليسارى لحزب الوفد ومن أعضاء المنظمات الشيوعية ومن أعضاء الحركة النقابية.. ولقد أرسل

الاخوان المسلمين بمندوبهم إلى لجنة العمال والطلبة بقصد توجيه هذه اللجنة الوطنية لتصبح فى خدمة الفاشية الملكية وعسكرة الاحتلال الانجليزى بدليل انسحابهم من الحركة الاضرابية والتظاهرية.

وكان تشكيل لجنة العمال والطلبة وانتشار قواعدها فى القاهرة والاسكندرية والمدن الأخرى يؤكد ان المجتمع المدنى وجماهيره الوطنية واليسارية التى قد تحركت بإضراباتها ومظاهراتها هنا وهناك من أجل الجلاء قد بلغ ذروة نضوجه ووعيه بالقضية الوطنية والقضية الاجتماعية معا مما أفزع عسكرة الاحتلال الانجليزى وفاشية الملك فاروق وفاشية الاخوان المسلمين أيضا.

مع ان ذلك الفزع قد سيطر على الفاشية الملكية وعسكرة الاحتلال الانجليزى فور موافقة النقراشى فى وزارته الأولى على مفاوضة الانجليز قبل جلائهم مما أدى إلى الاضرابات والمظاهرات الشعبية كدليل على المد الوطنى والشعبى وخلال ذلك بادرت فاشية الملك فاروق إلى دفع إحدى الجماعات الفاشية من بناتها إلى قتل وزير المالية الوفدى أمين عثمان بذريعة انه همزة الوصل بين حزب الوفد والسفارة الانجليزية.

والجماعة الفاشية التى قامت بهذا الاغتيال كانت هى جماعة السبع اولاد خالات التركيات يتزعمها الطالب حسين توفيق وكان من بين اعضاءها الضابط أنور السادات.

ولكن ذلك الحادث لم يؤثر فى حزب الوفد وجناحه اليسارى المتحالف مع الحركة الشيوعية والحركة العمالية والنقابية يؤيد ذلك استمرار النضال الجماهيرى والشعبى الذى ردت عليه فاشية الملك فاروق ووزارتها برياسة النقراشى إلى ارتكاب مذبحة كوبرى عباس فى ٩ فبراير ١٩٤٦.

وبفضل ذلك الصراع الوطنى والاجتماعى تأسست لجنة العمال والطلبة ذات الطبيعة الوطنية واليسارية كما سبق ذكره وتتجلى عظمة هذه اللجنة المدنية والثورية فى أنها قد هزمت فاشية الملك فاروق بإجبارها على إبعاد النقراشى ووزارته.. كما هزمت عسكرة الاحتلال الانجليزى بإجبارها ايضا على ابعاد اللورد كيلرن السفير البريطانى من مصر.

وامام ذلك الوضع الثورى الذى يسود مصر ومدنها وبنادرها فقد اضطرت فاشية الملك فاروق وعسكرة الاحتلال الانجليزى إلى اختيار الطاغية اسماعيل صدقى رئيسا لوزارة

الفاشية الملكية فى ١٦ فبراير حتى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ حيث قوبل ذلك الطاغية بمزيد من الاضرابات والمظاهرات فى القاهرة والاسكندرية وعواصم المحافظات بقيادة لجنة العمال والطلبة التى قد اصدرت القرار الوطنى العمالى.

قررت نقابات عمال مصر وطلاب الجامعات المصرية وطلاب الأزهر والمعاهد الدراسية العمالية الأخرى وطلاب المدارس الثانوية والمتخصصة ان يكون يوم ٢١ فبراير ١٩٤٦ يوم الجلاء. يوماً للاضراب العام لكافة التنظيمات وجموع الشعب، ولقد رفضت جماعة الاخوان المسلمين ذلك الفرد ورفضت المشاركة فى هذه الاضرابات الوطنية ولهذا فقد ذهب وفد من لجنة العمال والطلبة مقابلة المرشد العام الاستاذ حسن البنا الذى صرح بان جماعة الاخوان المسلمين لن تشترك فى الاضراب العام بسبب عدم الاستعداد. كما صرح بعض قادة الاخوان المسلمين بقوله بأن صدقى ١٩٤٦ يختلف عن صدقى ١٩٣٠ واما زعيم الاخوان فى الجامعة الاستاذ مصطفى مؤمن فقد خطب فى الجامعة مؤيدا للخائن والطاغية إسماعيل صدقى فوصفه بالآية الكريمة.. واذكر فى الكتاب إسماعيل انه كان صادق الوعد!؟

وفى يوم الجلاء فى ٢١ فبراير ١٩٤٦ بدأت المظاهرات والاضرابات فى القاهرة والاسكندرية ومدن الاقاليم بقيادة لجنة العمال والطلبة حيث انتشرت المظاهرات فى القاهرة حتى وصلت إلى ثكنات قصر النيل حين كانت معسكرات الجيش البريطانى بالاضافة إلى حرق المصالح البريطانية فى القاهرة وحرق بعض المجلات الانجليزية والأجنبية.

هكذا استمر نضال الشعب المصرى فى مواجهة فاشية الملك فاروق وعسكرة الاحتلال الانجليزى حتى توقفت مفاوضات صدقى بيفن واضطر الجيش البريطانى إلى الجلاء من القاهرة والاسكندرية حيث تخندق فى معسكرات القنال.

ولكن اسماعيل صدقى باعتباره قائد فاشية الملك فاروق قد ثأر من المجتمع المدنى المصرى وقواه الوطنية والعمالية واليسارية فأصدر قرارا بحل لجنة العمال والطلبة واتحاد النقابات العمالية وتغليظ عقوبة المتهمين بالشيوعية جنائياً إلى السجن عشر سنوات بالاشغال الشاقة. وذلك بالاضافة إلى اعتقال المئات من رموز العمال والطلاب والمثقفين بتهمة الشيوعية.. كما أغلق دار الأبحاث العلمية واتحاد خريجى الجامعة واتحاد خريجات

الجامعة ولجنة النشر والثقافة الحديثة واتحاد الشباب الوطنى ودار القرن العشرين واتحاد فتيات الجامعة ورابطة أم درمان ومركز الثقافة الشعبية ونادى الشرقية فى ١٩ - ٧ - ١٩٤٦.. وأصدرت النيابة العامة قراراً يحظر بمقتضاه على الصحافة نشر أية أخبار فى مجرى التحقيق فى قضية الشيوعيين التى كانت تضم أهم الشخصيات الوطنية والثقافية والعمالية.. وذلك بالاضافة إلى تجريم إحدى عشرة صحفية ومنع الاضرابات العمالية مما دفع المحامى البارز صبرى ابو علم سكرتير حزب الوفد وزعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ إلى مناقشة مظاهر ذلك الاستبداد فى مجلس الشيوخ حيث رد الطاغية اسماعيل صدقى بقوله إن الارهاب السلطوى كان ضروريا فى مواجهة الصحافة الشيوعية والنشاط الشيوعى.. ومع هذا فقد سقطت معاهدة صدقى بيفن وسقط معها الطاغية اسماعيل صدقى وتحالفه مع فاشية الاخوان المسلمين.

ولقد كان ذلك السقوط يعبر عن سقوط فاشية الملك فاروق وفاشية الاخوان المسلمين بفضل النهوض الوطنى والديمقراطى واليسارى الذى ظل شامخا رغم الضربات الموجهه التى وجهت إلى المجتمع المدنى وقواه الوطنية واليسارية التى أطاحت بمعاهدة صدقى بيفن حيث ظل مطلب الجلاء والاستقلال مرفوع الراية مما اضطر الفاشية الملكية إلى محاولة تشكيل حكومة قومية ولما لم تجد من يشكلها فأمرت رجلها محمود فهمى النقراشى رئيس حزب السعديين بتأليف وزارته العمالية فى ٩ ديسمبر ١٩٤٦ حتى ديسمبر ١٩٤٨ بذريعة عرض النزاع الانجليزى المصرى على مجلس الأمن.

وفى هذه الفترة ظهرت تجليات المجتمع المدنى وقواه الوطنية ممثلة فى الجناح اليسارى لحزب الوفد بقيادة المحامى الفذ الدكتور عزيز فهمى والكاتب الوطنى الدكتور محمد مندور والحركة الشيوعية والحركة العمالية والنقابية. وقد بدت هذه التجليات فى الصراع الوطنى والطبقى معا مما أجبر الانجليز على الجلاء عن القاهرة والاسكندرية. كما اجبر وزارة النقراشى الملكية إلى عرض المسألة المصرية على مجلس الأمن ذلك العرض الذى لم ينفع ولم يشفع.

ولقد صاحب تلك التجليات الوطنية والطبقية نشاط محموم لفاشية الملك فاروق السلطوية أى الرسمية وتوابعها مشخصة فى فاشية السبع اولاد خالات التركيات بقيادة

الطالب حسين توفيق وفاشية الحرس الحديدى.. وفاشية الاخوان المسلمين وفاشية العصابات اليهودية فى مصر فلسطين.. ومن ثم فقد تجاوز النشاط الوطنى والطبقى مع الارهاب الفاشستى فى هذه الفترة الحرجة فى مصر الحديثة الذى ظهر حوارا شرساً لم يقتصر على تبادل المفاهيم بل تجاوزها إلى تبادل الرصاص والطلقات.

نضال الوطنية وجنون الفاشية

ظلت مصر الحديثة طوال سنوات ٤٦ و٤٧ و١٩٤٨ مسرحا للنضال الوطنى والاجتماعى من مظاهرات وإضرابات ذات أهداف وطنية واجتماعية تؤكد قدرة المجتمع المدنى المصرى على مواجهة عسكرة الانجليزى وفاشية الملك فاروق وبناتها وفاشية جماعة الاخوان المسلمين وارهابها.

وكان من أبرز هذه النضالات والاضرابات هو اضراب عمال المحلة الكبرى البالغ عددهم خمسة وثلاثين الف عامل من أجل مطالبهم الاقتصادية بقيادة العمال الشيوعيين فوزى فام وشبل شهود وفكرى الخولى وغيرهم.. ومما يذكر ان ذلك الاضراب العمالى لم تستطع الشرطة وعساكر الهجانة مواجهته مما اضطر فاشية الملك فاروق إلى الاستعانة بعساكر الجيش المصرى ودباباته ومصفحاته بقيادة الاميرلاى صبور بك لقمعه بوحشية.

وقد استمر ذلك الاضراب الكبير الذى حدث فى ٢٠ أكتوبر ١٩٤٧ قرابة خمسة وأربعين يوما سقط خلاله آربعة قتلى واربعين جريحا من العمال بالاضافة إلى تشريد الآلاف من العمال وابعادهم من مدينة المحلة إلى قراهم.

وفى نفس العام قرر ضباط البوليس فى القاهرة والاسكندرية وغيرها من المدن الاضراب وقد نجحت الحكومة الملكية بوقفة فى مرحلته الأولى.. ولكن الضباط الذين لم تحل مشاكلهم قرروا الاضراب مرة ثانية فى ابريل ١٩٤٨ من أجل اعادة زملائهم الذين أحيلوا إلى الاستيداع والمنقولين وتحقيق مطالبهم وقد تضامن معهم الجماهير الشعبية والعمالية مما اضطر فاشية الملك فاروق إلى الاستعانة بالجيش المصرى الذى واجهته الجماهير المصرية بالهتاف بسقوط الحكومة والملك وتلا ذلك اضراب الممرضين بقيادة المحامى اليسارى مصطفى اغا مستشار نقابتهم العمالية وكان ذلك من أجل تحسين أحوالهم

الاجتماعية ولقد بادرت قوات الجيش بقمع ذلك الاضراب والقبض على قياداته.

ولقد كان الحساب الختامى للاضرابات العمالية المطلبية والاحتجاجية ضد قاشية الملك فاروق الذى نشرته جريدة الكتلة الوفدية فى يوم ٥ يناير ١٩٤٨ بعنوان الحساب الختامى للاضرابات فى عامى ٤٦ و١٩٤٧ يتجلى فى الآتى :

١ ـ إضراب عمال شركة الأسمنت بطره.

٢ ـ إضراب عمال محالج الاقطان بدمنهور.

٣ ـ إضراب عمال شركة السكر بأرمنت.

٤ ـ إضراب عمال صناعة الموبليات بدمياط.

٥ ـ إضراب عمال الخضر والفاكهة بالأسكندرية.

٦ ـ إضراب عمال مصنع أفريند.

٧ ـ إضراب عمال أتوبيس القاهرة محمد محمد سالم.

٨ ـ إضراب عمال المصانع المختلطة بالأسكندرية.

٩ ـ إرضراب عمال شركة النزهة للغزل والنسيج بالأسكندرية.

١٠ ـ إضراب عمال بيرة الأهرام والابراهيمية.

١١ ـ إضراب عمال داوود عدس للنسيج بشبرا.

١٢ ـ إضراب عمال مصنع بتومان للنسيج بشبرا.

١٣ ـ إضراب عمال شركة الامينبوس بالقاهرة.

١٤ ـ إضراب عمال شركة النور بالأسكندرية.

١٥ ـ إضراب عمال شركة ترام الرمل بالأسكندرية.

١٦ ـ إضراب عمال أقطان كفر الزيات.

١٧ ـ إضراب عمال نسيج الكرنك بشبرا الخيمة.

١٨ ـ إضراب عمال نسيج الشوربجى.

١٩ ـ إضراب عمال المدابغ بمصر القديمة.

٢٠ ـ إضراب عمال مصانع الحوت بشبرا الخيمة.

٢١ ـ إضراب شركة أحمد سيد واولاده.

٢٢ ـ إضراب عمال شركة ماتوسيان للدخان.

٢٣ ـ إضراب عمال الشركة النيلية بروض الفرج.

٢٤ ـ إضراب عمال مطبعة ماتوسيان بروض الفرج.

٢٥ ـ إضراب عمال شركة النيل للنسيج.

٢٦ ـ إضراب عمال شركة الغزل والنسيج.

٢٧ ـ إضراب عمال الشركة المصرية لغزل الصوف.

٢٨ ـ إضراب عمال مصنع النسيج اولاد وهبه شوشه.

٢٩ ـ إضراب عمال مكابس القطن بالأسكندرية.

٣٠ ـ إضراب عمال عبده مصطفى.

٣١ ـ إضراب عمال مصنع شوشه بالزيتون.

٣٢ ـ إضراب عمال محل الصالون الأخضر.

٣٣ ـ إضراب عمال النقل المشترك.

٣٤ ـ إضراب عمال ترام القاهرة.

٣٥ ـ إضراب عمال مكابس القطن بالأسكندرية.

٣٦ ـ إضراب نقابة عمال الخطوط الجوية الأمريكية.

٣٧ ـ إضراب عمال شركة الكاوتشوك الأهلية.

٣٨ ـ إضراب عمال شركة الكاوتشوك الأهلية.

٣٩ - إضراب عمال شركة شل.

٤٠ - إضراب عمال شركة قناة السويس.

٤١ - إضراب عمال المحلات الصناعية للحرير الصناعى.

٤٢ - إضراب عمال معاصر المعصرة.

٤٣ - إضراب عمال مصنع الشرق بامبابة.

٤٤ - إضراب عمال شركة الأسمنت بطره.

٤٥ - إضراب عمال شركة الغزل والنسيج بامبابة.

٤٦ - إضراب عمال شركة الورق بالاسكندرية.

٤٧ - إضراب عمال شركة فاكوم.

٤٨ - إضراب عمال شركة الغاز المصرية بغمرة.

٤٩ - اضراب عمال مصنع أرتست بشبرا.

٥٠ - إضراب عمال شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة.

٥١ - إضراب عمال شركة ريمون وحمص.

٥٢ - إضراب نقابة مفتش النقل المشترك.

لقد رأت فاشية الملك فاروق ان ذلك الصراع الوطنى الطبقى كان وراءه الشيوعيون.

فالذى يهاجم الاستعمار والاحتلال الانجليزى شيوعى.

والذى يندد بفساد الحكم واستبداده شيوعى.

والذى يتعرض لطغيان الحاشية الملكية شيوعى.

والذى يدعو إلى إصلاح قوانين العمل شيوعى.

والذى يطالب بالحد من أرباح الرأسمالية شيوعى.

والذى يدعو إلى تطهير الجيش المصرى شيوعى.

ومن الظريف أن القائمقام رشاد مهنا قد اتهم ايضا بالشيوعية بسبب حديث أدلى به إلى جريدة الأهرام بشأن فضائح السلاح فى حرب فلسطين وذلك على حد قول الدكتور راشد البراوى.

حدث هذا النضال العظيم فى مواجهة فاشية الملك فاروق وبناتها وفاشية جماعة الاخوان المسلمين المتحالفة مع فاشية الملك. يؤيد ذلك ان الطاغية إسماعيل صدقى لم يشكل وزارته فى عام ١٩٤٦ الا بعد التشاور مع فاشية الاخوان والحصول على مباركتها هذه المباركة الفاشية التى امتدت إلى حكومة النقراشى التى أعقبت حكومة إسماعيل صدقى فى عام ١٩٤٧ وذلك بالاضافة إلى الاتصالات الودية بين الملك فاروق والشيخ حسن البنا مرشد جماعة الاخوان المسلمين.

إن هذه الفاشية وتعددها قد اعتراها الجنون من تصاعد النضال الوطنى واليسارى رغم التصدى الدموى والإرهابى لذلك النضال الذى لم يتوقف مما اضطر فاشية الملك إلى تشكيل جماعة الطالب حسين توفيق الفاشية التى اغتالت الوزير الوفدى أمين عثمان والى تشكيل جماعة الحرس الحديدى التى حاولت اكثر من مرة اغتيال الزعيم الوفدى مصطفى النحاس كما ان فاشية الاخوان المسلمين حاولت اغتياله ايضا من جراء نشاط الجناح اليسارى لحزب الوفد المتحالف مع الحركة الشيوعية والحركة العماليج والنقابية.

وزادت الفاشية الملكية جنونا بدفعها البرلمان الرجعى إلى تغليظ عقوبة الشيوعية وعقوبة ممارسة الاضرابات العمالية والنقابية بصدور قانون جديد لمكافحة الشيوعية وقانون آخر لمكافحة الاصرابات.

ثم استغلت اعلان حرب فلسطين فى مايو ١٩٤٨ رغم ان الجيش المصرى لم يكن مستعداً لمثل هذه الحرب بالاضافة إلى أن رئيس الوزارة الملكية محمود فهمى النقراشى قد صرح فى اجتماعاته المغلقة بعدم وجود أى نية لمحاربة الدولة الصهوينة والفاشية.

ولقد كان القصد من هذه الحرب التآمرية ضد الصهيونية هو اعلان حالة الطوارئ حتى تستطيع الفاشية الملكية اجهاض القوى الوطنية واليسارية حيث قامت هذه الفاشية بالقبض على المئات من اليساريين والشيوعيين والنقابيين من اعضاء الجناح اليسارى لحزب الوفد ومن أعضاء المنظمات الشيوعية والحركة النقابية.

وفى هذا السياق بادرت فاشية الاخوان المسلمين إلى تحبيش جيشها السرى والعلنى وملأت مخازنها وترساناتها العسكرية بالسلاح والأسلحة مستغلة فى ذلك تحالفها مع فاشية الملك فاروق واحزابها وشخصياتها الرجعية مثل إسماعيل باشا صدقى والنقراشى باشا والسنهورى باشا وغيرهم.

وقد تم تنظيم الجيش السرى لفاشية الاخوان المسلمين من خلال نظام الأسر الذى تفشى فى فروع الجماعة منذ عام ١٩٤٠ تحت قيادة صالح عشماوى. وكمال الدين حسين عضو مجلس ثورة يوليو فيما بعد وحامد شريت وعبد العزيز أحمد ومحمود عبد الحليم. وكان لذلك الجيش السرى قواعده التنظيمية التى تحث عضو الجيش السرى على التدريب على الأعمال الشاقة وتوزيع المنشورات والتخاطب بالشفرة واستعمال الأسلحة والمبالغة فى السمع والطاعة وكتمان السر وفور تكامل ذلك الجيش الفاشستى بادر الشيخ حسن البنا المرشد العام بتعيين عبد الرحمن السندى قائدا عاماً لذلك الجيش السرى وبواسطة ذلك الجيش السرى المسلح حاولت جماعة الاخوان المسلمين السيطرة على السلطة المصرية مما ازعج فاشية الملك فاروق وعندئذ دب الخلاف بين الفاشيتين.

ولولا خوف الملك على سلطة الملكية لظلت فاشية الاخوان المسلمين التى قد تضخمت بحيث تقتل كل من يخالفها بغير حساب. وخاصة ان فاشية تلك الجماعة لم تصبح قوة عسكرية إرهابية فقط بل باتت ايضا قوة مالية واقتصادية تمتلك شركة دار الاخوان المسلمين للصحافة وشركة دار الاخوان المسلمين للطباعة والنشر الإسلامية وشركة المناجم والمحاجر العربية.. وشركة الاخوان المسلمين للنسيج بشبرا وشركة الاعلانات العربية بالقاهرة وشركة الاخوان المسلمين للتجارة بميت غمر وشركة لاصلاح الأراضى بنجع حمادى.

ومن هذا المنطلق العسكرى والاقتصادى تفشى ارهاب فاشية الاخوان المسلمين التى ارتكبت الجرائم التالية :

فى سنة ١٩٤٢ بقسم الجمرك بالأسكندرية ارتكب فريق من أعضاء كشافة الاخوان المسلمين الجريمة العسكرية رقم ٨٨٣ حيث باشروا بشراء كمية من السلاح والعتاد الألمانى.

وفى يونيو ١٩٤٦ وقع صدام فى مدينة بورسعيد بين أعضاء جماعة الاخوان المسلمين

والجماهير الوفدية حيث استخدم أعضاء هذه الجماعة القنابل والأسلحة مما أدى إلى قتل أحد خصومهم.

وفى ١٠ ديسمبر ١٩٤٦ ضبط بعض أفراد هذه الجماعة بمدينة الاسماعيلية يقومون بتجارب لصنع القنابل والمفرقعات والأمر العجيب أنهم لم يحاكموا ولم تتأفف العسكرة الانجليزية بمنطقة القناة وفى ديسمبر ١٩٤٦ ألقى بعض أعضاء هذه الجماعة عددا من القنابل فى عدة أماكن بالقاهرة وتم ضبط اثنين منهم وقدما للمحاكمة فى القضية رقم ٧٦٧ جنايات قسم عابدين.

فى يونيو ١٩٤٧ بدائرة قسم الخليفة اشتبك فريق من أعضاء الجماعة بالبوليس وتم الأعتداء على مأمور القسم بواسطة جوالة الاخوان المسلمين.

وفى يناير ١٩٤٨ ضبط خمسة عشر شخصا من جماعة الاخوان المسلمين بمنطقة جبل المقطم يتدربون على استعمال الأسلحة النارية والمفرقعات والقنابل وكانوا يحرزون كميات كبيرة من هذه الأنواع وغيرها من أدوات التدمير والقتل.

وفى فبراير ١٩٤٨ اعتدى فريق من جماعة الاخوان المسلمين بقرية كوم النور مركز ميت غمر على مجموعة من أعضاء حزب مصر الفتاة من قرية ميت محسن فقتل واحد منهم بطلقة نارية وضبطت الواقعة بالجناية رقم ١٤٠٧ لسنة ١٩٤٨ ميت غمر.

وفى آكتوبر ١٩٤٨ ضبط مغزية فرغلى بالأسماعيلية صندوق مملوء بالقنابل مما استدعى تفتيش منزل الشيخ فرغلى رئيس شعبة الاخوان المسلمين بالاسماعيلية. فإذا بأرض إحدى الغرف سردابان بهما كميات ضخمة من الأسلحة والقنابل والمفرقعات والمقذوفات النارية والبنادق والمسدسات واحدى عشر مدفعا.. كما عثر فى فجوة بأرض الغرفة على وثائق تقطع بأن هذه الجماعة تعد العدة للقيام بأعمال ارهابية واسعة النطاق ولقد كان يجب ان تكون موجهة صوب معسكرات الانجليز فى القناة.

كما دأبت الجماعة على ارسال خطابات تهديد إلى بعض الشركات وأصحاب المحلات لاجبارهم على دفع اشتراكات وتبرعات لجريدتهم.

وفى مـايو ١٩٤٧ بمدرسة الصنايع بدمنهور اعتدى تلاميذ الاخوان المسلمين على أحد المخالفين لهم فى الرأى وشرعوا فى قتلة بسكين وتم ضبط تلك الواقعة فى الجناية رقم ١٢٤٨ لسنة ١٩٤٧ ببندر دمنهور.

وفى فـبـراير ١٩٤٨ بمدرسة الزقازيق الثانوية القى تلاميذ هذه الجماعة قنبلة يدوية انفجرت واصابت بعض رجال البوليس. كما ضبط مع آخر قنبلة يدوية قبل ان يتمكن من استخدامها فى الاعتداء.

وفى يوم ٢٤ يناير ١٩٤٨ تحرش بعض تلاميذ مدرسة شبين الكوم الثانوية من أعضاء هذه الجماعة بزملائهم المخالفين اهم فى الراء الأمر الذى ادى الى حادث قتل.

وفى نوفمـبـر ١٩٤٨ ضُبطت سيارة جيب بها مواد متفجرة وذخائر ومستندات خطيرة بقسم الوايلى بالقاهرة.

وفى الثامن من نوفمـبـر ١٩٤٨ اطلقت فاشية الاخوان النار على منزل الزعيم الوفدى مصطفى النحاس باعتباره رمز الوطنية المصرية والمجتمع المدنى.

وقبل ذلك قامت هذه الفاشية الاخوانية بقتل القاضى الكبير أحمد الخازندار وكيل محكمة استئناف مصر الذى حكم بإدانة بعض أعضاء الفاشية الاخوانية لجرائم ارتكبوها باستخدام القنابل وقد ثبت ان أحدهم كان سكرتيراً خاصا للشيخ حسن البنا.

ولهذه الأسباب اضطرت فاشية الملك فاروق إلى التخلى عن حليفها فاشية الإخوان حيث اصدرت امراً عسكريا بحلها فى يوم الاربعاء ٨ ديسمبر ١٩٤٨ مما أدى إلى نشوب الحرب الدموية بين الفاشيتين.

وقد بدأت هذه الحرب الفاشية المجنونة بقيام أحد أعضاء جماعة الاخوان المسلمين الذى كان يرتدى ملابس ضابط بوليس بقتل رئيس الوزراء وممثل الفاشية الملكية محمود فهمى النقـراشى بإطلاق ثلاث رصاصات عليه من الخلف عندما كان متواجدا فى مبنى وزارة الداخلية فى ١٨ ديسمبر ١٩٤٨ أى بعد حل جماعة الاخوان الفاشية بعشرة أيام فقط مما أدى إلى تشكيل وزارة جديدة برياسة رئيس الديوان الملكى إبراهيم عبد الهادى الذى قاد الفاشية الملكية فى حربها ضد الشعب المصرى وفاشية جماعة الاخوان معا حيث قبض على المئات من

جماعة الاخوان ومن القوى الوطنية واليسارية وعرضهم للتعذيب الوشى وأهدار آدميتهم بتوظيف العسكرى الأسود الذى أتى الرجال من ادبارهم بقصد اذلالهم وتشويه رجولتهم وكرامتهم فى السجون والمعتقلات.. كما دبر قتل الشيخ حسن البنا مرشد الاخوان المسلمين فى الثانى عشر من فبراير ١٩٤٩ أثناء خروجه من دار جماعة الشبان المسلمين بواسطة ضابط الشرطة الاميرالاى محمود عبد المجيد حكمدار سوهاج وعدد من مخبريه.

وقد استمرت هذه الحرب الفاشية المجنونة التى طالت العناصر الوطنية واليسارية التى لم يكن قد تم القبض عليها بعد اعلان الاحكام العرفية فور قيام حرب فلسطين.

ولكن هذه الحرب الفاشية المجنونة قد عبأت السخط الشعبى ضد الملك فاروق وفاشيته وأحزابه الرجعية مما أدى إلى فزعه وخاصة بعد أن علم ان بسطاء المصريين قد كتبوا على الجدران وعلى عرض الشوارع المرصوفة عبارات تقول.. أين الغذاء والكساء يا ملك النساء. كما ازداد فزعة عندما شاهد ضباط الجيش المصرى من كافة الأسلحة ينعون على صفحات الجرايد زميلهم الضابط عبد القادر طه الذى اغتاله التنظيم الملكى الفاشستى المسمى بالحرس الحديدى وذلك بالاضافة إلى هزيمة الجيش المصرى فى حرب فلسطين بسبب الأسلحة الفاسدة هذه الهزيمة التى عمقت أزمة الفاشية الملكية الأمر الذى أرغمها على طرد حكومة أحزاب الاقلية وتشكيل حكومة ائتلافية برياسة حسين سرى الذى أجرى انتخابات برلمانية جديدة جاءت بحزب الوفد وحكومته بزعامة مصطفى النحاس وعلى الفور توارت فاشية الملك فاروق وبناتها وفظائعها وفاشية الاخوان المسلمين واهوالها حيث عادت مظاهر المجتمع المدنى متألقة ومتوهجة من خلال الافراج عن المعتقلين واطلاق الحريات العامة والنقابية فانتشرت المظاهرات السياسية المنادية بسقوط أمريكا وانجلترا والدفاع المشترك والمطالبة بالغاء معاهدة عام ١٩٣٦ كما انتشرت المظاهرات والاضرابات العمالية والمطلبية التى قد تصدى لها البوليس بقيادة وزير الداخلية فؤاد سراج الدين عميد الجناح اليمينى والرجعى فى حزب الوفد مما أدى إلى قتل العديد من العمال بشركة سباهى للغزل والنسج بالاسكندرية ومع ذلك فقد تزايد تشكيل النقابات العمالية واتحاداتها المهنية الامر الذى دفع مصطفى النحاس رئيس الحكومة الوفدية إلى زيادة أجور غلاء المعيشة للعمال والموظفين بنسبة مائة وخمسين فى المائة للأجور الدنيا.

كما اصدر البرلمان الوفدى قانوناً جديداً يعطى لمحكمة النقض حق التحقيق وحق الفصل فى الطعون الانتخابية البرلمانية.

وفى هذا السياق الوطنى والديمقراطى شهدت الحياة المصرية تصاعد الحركة الشيوعية والنقابية وتزايد عضويتها مما جعلها تنادى بالمزيد من الحقوق العمالية والنقابية وتنادى ايضا بتأميم شركة قناة السويس البحرية والشركات الرأسمالية الكبير كما فعل الزعيم محمد مصدق فى إيران بتأميمه البترول الإيرانى الذى كانت تسيطر عليه انجلترا وأمريكا.

ومن جراء ذلك نشب صراع مرير بين القوى الشيوعية واليسارية ممثلة فى الطليعة الوفدية وبين الجناح الرجعى واليمنى فى حزب الوفد ورغم ذلك فقد تعاظم شأن المجتمع المدنى وقواه الوطنية واليسارية التى أقنعت الزعيم الوفدى مصطفى النحاس بإلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ ورفض معاهدة الدفاع المشترك وبدء حرب العصابات الفدائية ضد عسكرة الاحتلال الانجليزى فى منطقة القناة ومما يذكر ان حكومة حزب الوفد قد شاركت فى ذلك الصراع الوطنى المسلح من خلال مشاركة عساكر البوليس المصرى وضباطه فى المعارك المسلحة ضد الجيش البريطانى ومدافعه ودباباته ومصفحاته مما أدى إلى استشهاد الكثير من عساكر البوليس المصريين.

ولكن ذلك النضال الوطنى والفدائى قد استفز فاشية الملك فاروق وعسكرة الاحتلال الانجليزى فتآمر على اجهاضه بتدبير حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ بهدف إسقاط حكومة حزب الوفد رمز الوطنية والمجتمع المدنى وبهدف القضاء على الكفاح المسلح ومنع تأسيس الاتحاد العام للنقابات الذى يسيطر عليه الشيوعيون.

هكذا توارى المجتمع المدنى وقواه الوطنية واليسارية والديمقراطية نهائيا من الحياة المصرية حيث عادت فاشية الملك فاروق وعسكرة الاحتلال الانجليزى للهيمنة على مصر لعدة شهور معدودات حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى كانت تعنى حكم الفلاحين المحاربين وحكم المصريين للمصريين لأول مرة فى التاريخ منذ عهد الفراعنة.. ولكنه حكم وطنى تسوده العسكرة.

جذور الفاشية الصهيونية المجاورة

خلال تحالف الفاشية الملكية وعسكرتها مع فاشية جماعة الإخوان المسلمين وعسكرتها أثناء المد الوطنى فى عام ١٩٤٦ بقيادة الطاغية إسماعيل باشا صدقى رئيس الوزراء وعدو الشعب المصرى اللعين طفحت فى الحياة المصرية فاشية شاذة وغريبة هى الفاشية الصهيونية التى فرختها الجماعات اليهودية العنصرية المقيمة فى مصر. وإذا رجعنا إلى دفتر الأحوال المصرية قديماً وحديثاً فسوف نرى أن اليهود تربطهم بمصر وشعبها علاقات غير سوية وحاقدة للغاية رغم أن توراتهم تشهد بأن إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام قد زار مصر أثناء المجاعة والقحط فى أرض كنعان وفلسطين وقوبل قبولاً حسناً من الفرعون المصرى الذى منحه بقراً وحميراً وأكرم وفادته.. وكذلك فقد استضافت يوسف عليه السلام وجعلته وزيراً لماليتها وأكرمت أباه واشقاءه وأعطتهم مزيداً من القمح يواجهون به القحط والمجاعة على أرض فلسطين. كما احتضنت موسى عليه السلام فى طفولته.. وسمحت للهيود من أبناء قبيلته العبرانية بالعمل على أرض مصر بحرية تامة حتى يخرجوا من عزلتهم هذه العزلة التى فرضوها على أنفسهم خوفاً على هويتهم اليهودية والعنصرية من الأغيار المصريين.

وفى رحاب هذه العزلة العنصرية عاش اليهود فى مصر عيشة طيبة حيث أكلوا من فومها وعدسها وبصلها ولحومها التى قد ملأت قُدورهم وكروشهم وخلال ذلك فقد بادروا بالهرب من مصر بعد أن سرقت نساؤهم الحلى الذهبية والملابس الفاخرة للنساء المصريات بطريقة احتيالية.

ولم يسرق اليهود الحلى الذهبية والملابس الفاخرة للمصريات فقط بل قد سرقوا الكثير من الأدبيات الفرعونية من متون الأهرام وكتاب الموتى ومقولات الحكماء المصريين التى توجت كنا بهم التوراة التى قد تم وضعها خلال فترة الأسر البابلى لليهود بعد موسى بمئات السنين مما يعنى أن هذه التوراة محشوة بالأدبيات الفرعونية والأمر الغريب أن التوراة نفسها تحمل الحقد والكراهية لمصر والمصريين حيث ورد فى سفر تثنية مايلى:

«ثم تصرخ وتقول أمام الرب إلهك. آرمياتاتها كان أبى فانحدر إلى مصر وتغرّب هناك فى نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة. فأساء إلينا المصريون وثقلوا علينا

وجعلوا علينا عُبودية قاسية فلما صرخنا إلى الرب إله آبائنا سمع الرب صوتنا ورأى مشدتنا وتعبنا وضيقنا. فأخرجنا الرب من مصر بيد شديدة».

وتطفح كراهية الصهاينة لمصر والمصريين أيضاً فى سفر شعيا الإصحاح التاسع عشر الذى يقول:

«وحىّ من جهة مصر هو ذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها وأهج مصريين على مصريين فيحاربون كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه مدينة مدينة مملكة مملكة وتهرأ روح مصر داخلها وأفنى مشوراتها فيسألون الأوثان والعارفين وأصحاب التوابع والعرافيين وأغلق على المصريين فى يد مولى قاس عليهم.. يقول السيد رب الجنود.. وتنشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس وتنتن الأنهار وتضعف وتجف سواقى مصر ويتلف القصب والأسل والرياض على النيل على حافة النيل وكل مزرعة على النيل تيبس وتقبَّر ولا تكون والصيادون يئنون وكل الذين يلقون شصاً فى النيل ينُوحدون والذين يبسطون شبكة على وجه المياه ويحزنون. ويخز الذين يعملون الكتان الممشط والذين يحيكون الأنسجة البيضاء وتكون عمدها مسحوقة وكل العاملين بالأجرة مكتبىء النفس».

«إن رؤساء صوعن أغبياء مشيرى فرعون مشورتهم بهيجة. كيف تقولون لفرعون أنا ابن حكماء ابن ملوك قدماء فأين هم حكماؤك ليعرفوا ماذا قضى به رب الجنود على مصر. رؤساء صوعن صاروا أغبياء رؤساء نُوف انخدعوا وأنهل مصر وجوه أسباطها. فزج الرب فى وسطها روح غيىّ فاضلوا مصر فى كل عملها كترنح السكران فى قيئه فلا يكون لمصر عمل يعمله رأس أو ذنب نخله أو أسله. فى ذلك اليوم تكون مصر كالنساء فترتعد وترتجف من هزة يدرب الجنود التى يهزها عليها. وتكون أرض يهوذا رعباً لمصر كل من تذكرها يرتعد من أمام قضاء رب الجنود الذى يقضى بها عليها».

ذلك هو حقد الصهاينة على مصر والمصريين الذى يطفح به رب الجنودى العبرانى أى أنه حقد ممزوج بالعسكرة عسكرة الصهيونية العدوانية التى تفيض به آيات التوراة مؤكدة العنصرية الصهيونية والفاشية الصهيونية بهدف إثبات أن اليهود وحدهم هم شعب الله المختار.

هكذا روت أساطيرهم. يقول سفر التكوين:

قال إبراهيم لعبده ضع يدك تحت فخذى فاستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض من أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذى أنا ساكن بينهم. بل إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى أسحق.. الرب إله السماء الذى أقسم قائلاً.. لنسلك أعطى هذه الأرض.

ويقول سفر التكوين أيضاً:

فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران. واضطجع فى ذلك المكان ورأى حلماً وإذ سلم منصوبه على الأرض وهو ذا الرب واقف عليها. فقال أنا الرب. الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها ولنسلك وها أنا معك وأحفظك حينما تذهب وأردك إلى هذه الأرض.

ويقول سفر الخروج:

احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والفرزيين واليبوسيين. إحترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض الذى أنت آت إليها لئلا يصيروا فخاً فى وسطك.. ويقول أيضاً.. فإنى اطرد الأمم من قدامك. وأوسع تخومك.

ويقول سفر عدد:

وكلم الرب موسى قائلاً.. وانتعم نقمة لبنى إسرائيل من المديانيين ثم تضم إلى قومك. فكلم موسى الشعب قائلاً.. جردوا منكم رجالا للجند فيكونوا على مديان ليجعلوا نقمة الرب على مديان. ألفاً واحداً من كل سبط من جمع أسباط إسرائيل ترسلون للحرب. فاختير من ألوف إسرائيل ألف من كل سبط. إثنا عشر ألفاً تجردون للحرب. فأرسلهم موسى ألفاً من كل سبط إلى الحرب.. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم.. وسبى بنوا إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم.

فعمل موسى والعازار الكاهن كما أمر الرب موسى وكان النهب فضلة الغنيمة التى أغتنمها رجال الجند من الغنم ست مائة وخمسة وسبعين ألف ومن البقر اثنين وسبعين ألفاً

ومن الحمير واحداً وستين ألفاً ومن نفوس الناس من النساء اللواتى لم يعرفن مضاجعة ذكر جميع النفوس اثنين وثلاثين ألفاً.

يقول سفر تثنيه:

متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوب كثيرة من أمامك سبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم ولا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم لأنك أنت شعب تقدس الرب إلهك إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. وكل مكان تدوسه بطون أقدامكم من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات إلى البحر القربى يكون تخمكم.

هكذا نسبت الأسفار التوراتية العنصرية إلى أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ونسبت إلـى موسى عليه السلام صفات دموية وفاشسيتية إرهابية لكى تضفى القدسية على كل مظاهر الفاشية الصهيونية والدموية وأساطيرها. ولذلك فقد توحشت العسكرة اليهودية بعد أن اكتست بالقدسية وتغمست ببركات رب الجنود الإسرائيلى حيث قاد هذه العسكرة العنصرية يشوع بن نون فتى موسى أو خادم موسى يقول سفر يشوع التورانى:

«وكان بعد موت موسى عبدالرب أن الرب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً.. موسى عبدى قد مات فالآن قم أعبر هذه الأرض أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل وكل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته كما كلمت موسى من البرية. لا يقف إنسان فى وجهك كل أيام حياتك.. وكل إنسان يعصى قولك ولا يسمع كلامك فى كل ما تأمره به يقتل إنماكن متشدداً تشجع وأرسل يشوع رجالاً من أريحا إلى عاى وكلمهم قائلاً إصعدوا واتجسسوا الأرض ثم رجعوا إلى يشوع. وقالوا له لا يصعد كل الشعب بل يصعد نحو ألف رجل أو ثلاثة آلاف رجل يضربوا عاى. فصعد من الشعب إلى هناك نحو ثلاثة آلاف رجل وهربوا أمام أهل عاى فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء فمزق يشوع ثيابه وسقط على وجهه إلى الأرض أمام تابوت الرب إلى المساء هو وشيوخ إسرائيل ووضعوا تراباً على رؤوسهم وقال يشوع ياسيد الرب لماذا عبرت هذا الشعب الأردن لكى تدفعنا إلى يد الأموريين ليبيدونا أسألك ياسيد ماذا أقول بعد ما حول إسرائيل قفاه أمام أعدائه فيسمع

الكنعانيون وجميع سكان الأرض ويحيطوننا بنا ويقرضون إسمنا من الأرض. فقال الرب ليشوع مد يد المزراق الذى بيدك نحو عاى لأنى أدفعها فمد يشوع المزراق نحو المدينة فقام الكمين بسرعة من مكان وأدخلوا المدينة وأخذوها وأحرقوا المدينة بالنار فالتفتت رجال عاى إلى ورائهم ونظروا إلى دخان المدينة فلم يكن لهم مكان للهرب. ولما رأى يشوع وجيع إسرائيل أن الكمين قد أخذ المدينة وهؤلاء لأخرجوا من المدينة للقائهم فكانوا وسط إسرائيل وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت. وأما ملك عاى فأمسكوه حيا وتقدموا به إلى يشوع. وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاى فكان جميع الذين سقطوا فى ذلك اليوم من رجال ونساء اثنى عشر الفاً جميع أهل عاى. لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهباً إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذى أمر به يشوع.

فقال الرب ليشوع لا تخفهم لأنى بيدك أسلمتهم لا يقف منهم رجل بوجهك. فأتى إليهم يشوع بغتة فأزعجهم الرب أمام إسرائيل وضربهم ضربة عظيمة وطردهم. وبينما هم هاربون من أمام إسرائيل رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء فماتوا.. حينئذ كلم يشوع الرب يوم أسلم الرب الأموريين أمام بنى إسرائيل.. وقال أمام عيون إسرائيل ياشمس دومى على جيعون وياقمر على وادى أبلون.. فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه.

ثم رجع يشوع إلى المحلة وجميع إسرائيل معه إلى المحلة فى الجلجال فهرب أولئك الخمسة الملوك واختبأوا فى مغارة فى قعيدة. فأخبر يشوع وقيل له قد وجد الملـكـوك الخمسة مختبئين فى مغارة قعيدة فقال يشوع دحرجوا حجارة عظيمة على فُم المغارة وأقيموا عليها رجالاً لأجل حفظهم. وأما أنتم فلا تقفوا بل اسعوا وراء أعدائكم وأضربوا مؤخرتهم لا تدعوهم يدخلون مدنهم لأن الرب إلهكم قد أسلمهم بيدكم. ولم انتهى يشوع وبنو إسرائيل من ضربهم ضربة عظيمة جداً حتى فنوا والذين شردوا منهم دخلوا المدينة المحُصنة.. وجمع الشعب إلى المحلة إلى يشوع فى قعيدة بسلام. ولم يسن أحد لسانه على بنى إسرائيل.

فقال يشوع افتحوا فم المغارة وأخرجوا إلى الخمسة الملوك من المغارة ففعلوا كذلك وأخرجوا إليه أولئك الملوك الخمسة من المغارة. ملك أورشليم وملك حبرون وملك يرموت وملك لخيس وملك عجلون. وكان لما أخرجوا أولئك الملوك إلى يشوع أن يشوع دعا كل رجال

إسرائيل وقال لقواد رجال الحرب الذين ساروا معه تقدموا وضعوا أرجلكم على أعناق هؤلاء الملوك فتقدموا ووضعوا أرجلهم على أعناقهم.. فقال لهم يشـوع لا تخافـوا ولا ترتعبـوا واتشددوا وتشجعوا لأنه هكذا يفعل الرب بجميع أعدائكم الذين تحاربونهم وضربهم يشوع بعد ذلك وقتلهم وعلقهم على خمس خشب وبقوا معلقين على الخشب حتى المساء. وأخذ يشوع مقيدة فى ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها وكل نفس بها لم يبق منهم شارداً. وفعل بملك قعيدة كما فعل بملك أريحا ثم اجتاز يشوع من قعيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة وحارب لبنة فدفعها الرب هى أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها لم يبق منهم شارواً وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع وركل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيشن ونزل عليها وحاربها فدفع الرب لخيشن بيد إسرائيل فأخذها فى اليوم الثانى وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل ما فعل بلبنة. حينئذ صعد هورام ملك جازر لإغاثة لخيشن وضربه يشوع مع شعبه حتى لم يبق شارداً. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيشن إلى عجلون فنزلوا بها وحاربوها وأخذوها فى ذلك اليوم وضربوها بحد السيف وحرم كل نفس بها فى ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلخيشن.. ثم صعد وجميع إسرائيل معه من عجلون إلى جدون وحاربوها وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها لم يبق شاروا.

فلما سمع ما بين ملك حاصور أرسل إلى يوباب ملك مادون وإلى ملك شمرون وإلى ملك اكشاف وإلى الملك الذى إلى الشمال فى الجبل وفى العربة فخرجواهم وكل جيوشهم معهم شعباً كالرمل.

فقال الرب ليشوع لا تخفهم لأنى غداً فى مثل هذا الوقت أدفعهم جميعا قتلى إمام إسرائيل فتعرقب خيلهم وتحرق مركباتهم بالنار فجاء يشوع وجميع رجال الحرب معه عليهم فضربوهم وطردوهم حتى لم يبق شاردا. ثم رجع يشوع وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف لأن حاصور كانت قبلاً رأس جميع تلك الممالك.. وضربوا كل نفس بها بحد السيف. ولم تبق نسمة وأحرق حاصور بالنار. فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملكوم وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف. غير أن المدن القائمة على تلالها لم يحرقها إسرائيل ماعدا حاصور وحدها أحرقها يشوع وكل غنيمة تلك المدن والبهائم نهباً بنو إسرائيل لأنفسهم وأما الرجال فضربوهم بحد السيف حتى أبادوهم لم يبقوا نسمة.

وشاخ يشوع تقدم فى الأيام فقال له الرب أنت قد شخت تقدمت فى الأيام. وقد بقيت أرض كثيرة جداً للأحتلال هذه هى الأرض الباقية كل دائرة الفلسطينيين وكل الجشوريين من الشجور الذى هو أمام مصر.

هذه لمحات من الأساطير التورانية وفرائضها الدموية التى نسبت إلى موسى عليه السلام مما يجعل عقيدة إبادة البشر كل البشر والأغيار كل الأغيار عقيدة موسوية أو عقيدة يشوعية نسبة إلى يسوع فتى موسى الذى طور عقيدة الإبادة الوثنية التى شاعت بين اليهود الصهاينة حتى اليوم طالما كانت هذه الإبادة موجهة إلى الأغيار من البشر المسلمين والمسيحيين وأهل الديانات والشعوب الأخرى وطالما كانت بقصد نهب الأرض وأملاك الغير من البشر. وبالتالى فالأساطير التورانية جعلت من القبيلة العبرية واليهودية أمة ضئيلة الحجم، ولكنها أمة متوحشة ذات ديانة عنصرية وشريعة عدوانية اتخذت إلهاً خاصاً بها وليس إلهاً للعالمين. ذلك الإله هو رب الجنود رب العسكر والعسكرة رب الحرب والإبادة.

ومما يذكر أن رب الجنود هذا لم يجرؤ على دفع قبيلته اليهودية صوب مصر الفرعونية بعد الهروب منها مما يثبت أن الشعب المصرى العظيم كان قادراً وقتئذ على سحق رب الجنود اليهودى. كما لم يستطع رب الجنود أيضاً أن يتصدى للملك البابلى بنوخذ نصر الذى سحق القبيلة اليهودية وساقها ذكراناً وأناثاً إلى أرض بابل بالعراق حيث عاش الصهاينة عشرات السنين فى الأسر البابلى حتى أنقذهم الملك الفارسى قورش. كما نفذ هذا المنافستو التورانى الإنجلى الاستعماريون والبروستانت الذين يميلون إلى العهد القديم أى التوراه وتعاليماتها أكثر مما يميلون إلى العهد الجديد آى الإنجيل حيث أبادوا عشرات الملايين من الهنود الحمر السكان الأصليين فى أمريكا ومن الأفارقة خلال صيدهم واقتناصهم لترحيلهم إلى أمريكا لممارسة الزرع والضرع والحرفة والصنعة وأعمال السخرة خدمة للرجل الأمريكى الأبيض فى سنوات تجارة العبيد التى حقق الإنجليز بوساطتها تراكما مالياً هائلاً.. كما آن أمريكا القت قنابلها الذرية على هيروشيما ونجازاكى فى اليابان بوحى من هذا المنطلق التوراتى.

ولذلك فقد كان الزعيم الألمانى أدولف هتلر واعياً بما تضمره النفس اليهودية من شر وعدوانية نحو البشر وما هو كامن فى أغوارها من جنون وسُعار لإبادة البشر.. وقد استمد وعيه هذا من خلال نشاطهم المالى الذى قد رصده بعمق الشاعر الإنجليزى شكسبير فى

رائحته «تاجر البندقية اليهودى». ومن هنا فقد عصف بهم ضمن ما عصف به من معارضيه الآخرين.

وللأسف فالشعب المصرى ومثقفوه لم يلتفت إلى جذور العسكرة اليهودية والفاشية الصهيونية حتى تفجرت هذه العسكرة العدوانية وفاشيتها الصهيونية على أرض فلسطين العربية بوابة مصر الشرقية فأقامت دولتها وحاربت مصر والعرب وأبادت أسرانا المصريين وقتلت عمالنا فى مصانع أبى زعبل وقتلت أطفالنا فى مدارس بحر البقر واحتلت أرضنا المصرية والعربية وقامت بإحياء عقيدة يشوع بن نون فى ممارسة مجازر الإبادة وإرهاب العسكرة اليهودية والفاشية القيصرية واليهودية ضد الشعب الفلسطينى والشعوب العربية.

ولذلك فالعسكرة التى حاقت بمصر فى عهد الغزاة قد تأثرت إلى حد ما بالعسكرة الصهيونية المجاورة والقديمة. ولا أغالى إن قلت أن عسكره الفرس خلال غزوهم لمصر بقيادة الملك قمبيز بن الملك قورش كانت على علاقة وثيقة مع اليهود الذين ساعدوها فى غزو مصر بالإضافة إلى تطعيمها بتراث العسكرة اليهودية وعقيدتها فى ممارسة الإبادة التى قد وضع تقاليدها الوحشية والدموية خادم موسى يشوع بن نون، وذلك مجاملة للملك الفارسى قورش الذى قد فك اليهود وحررهم من الأسر البابلى.

ولكن العسكرة اليهودية القديمة وفاشيتها الصهيونية قد تراجعت واضطرت إلى الكمون والبيات الشتوى الطويل الأمد بفعل الشتات الذى فرض على اليهود على أرض فلسطين فبعد أن تلاشت مملكتهم اليهودية الاستيبطانية على أرض فلسطين من جراء وقوعهم فى الأسر البابلى ومن جراء غزو الرومان لأرض فلسطين، وفى هذا الشتات لجأ اليهود إلى النشاط المالى والتجارى فى كل شىء حتى أصبحوا ملوك المال والتجارة مما مكنهم من الاستيطان فى كل بقاع الأرض ولكن فى عزلة قبلية وعنصرية شاذة وملحوظة ولهذا فقد تحولوا إلى آمة ذات خصوصية عنصرية فى قلب أمم الأرض ولكنها آمة من سادة المال والصرافة والربا والتجارة. وليست أمة من المحاربين فى نظر كافة الناس مع أنهم آمة عنصرية ذات عقيدة مستترة هى عقيدة الحرب العدوانية وإبادة البشر بالمال والسلاح معاً تبعا لتعاليم الأساطير الصهيونية.

هكذا اتخيل المصريون الذين لم يلتفت مثقفوهم حتى فى العصر الحديث إلى جذور الفاشية الصهيونية التى قد طفحت على حدود مصر والتى تمقت مصر والمصريين فى

أسفارها التورانية رغم أنهم أكلوا فولها وعدسها وبصلها وسمكها ولحومها ولبسوا من كتانها وشربوا حتى ارتووا من مياه النيل العظيم.

الفاشية الصهيونية بمصر

خلال الشتات اليهودى المبكر توافد اليهود على مصر مع الغزو الفارسى رغم كراهيتهم لها وحقدهم على شعبها حيث استوطنوا فى المدن المصرية فى أحياء خاصة بهم وحدهم كان أشهرها الحى اليهودى بالإسكندرية الذى كان يجاور الحى الأغريقى بها بينما كان المصريون يعيشون فى الأحياء العشوائية فى أطراف المدينة.

ونظراً لنشاطهم المالى والتجارى فقد اقتربوا من غُزاة مصر وحكامها مما جعلهم يحرضون هؤلاء الحكام على الشعب المصرى الذى أواهم وأطعمهم من جوع. وعندما لاحظوا تعاطف المصريين على المسيحيين استبد بهم الغيظ وتفجرت فاشيتهم الصهيونية والعنصرية من خلال قتل القديس مرقس وسحله فى شوارع الإسكندرية عندما حضر إلى مصر للبشارة بالمسيحية وسط المصريين مما يعنى أن الصهيونية كانت ومازالت عدوا للمسيحية الأرثوذكسية المرقسية وكنيستها الوطنية باعتبارها مسيحية مصرية أصولية معادية للصهيونية. ومع هذا فقد ظل اليهود يتوافدون على مصر طوال حكم الغزاة حيث برز منهم بعض الشخصيات الهامة فى الحياة المصرية مثل يعقوب ابن كلس اليهودى الذى أصبح الوزير الأول والفقيه الأول والقائد العسكرى الأول فى دولة الفواطم.

ثم تضاعفت حضورهم إلى مصر فى ظل الدولة العثمانية التى كانت تعطى جنسيتها لليهود بغير حساب. حيث وجدوا تسامحاً ملحوظاً من المصريين وقد تجلى ذلك التسامح فى الحرية الدينية التى تمتعت بها الطائفة اليهودية فى مصر من خلال تأسيس ستة محافل يهودية وماسونية فى القاهرة والإسكندرية والمنصورة وطنطا وبورسعيد بالإضافة إلى تأسيس تسعة وعشرين معبداً فى القاهرة وعشرين معبداً فى الإسكندرية واثنى عشر معبداً فى المحلة وميت غمر وغيرها من المدن المصرية التى كان يقام بها عدد من الموالد خاصة بأحبار اليهود مثل مولد أبى حصيرة فى محافظة البحيرة. كما أنشأ اليهود فى مصر عدداً من المدارس ومراكز التدريس المهنى كان أولها مدرسة ابن ميمون الفيلسوف اليهودى الذى عاش فى الأندلس. وذلك بجانب تأسيس الجمعيات الثقافية والفنية والاجتماعية والرياضية

للطائفة اليهودية فقط التى قد شارك بعض أفرادها فى إصدار وتحرير الصحف التى قد تميزت واحدة منها فقط بالوطنية المصرية والديمقراطية هى مجلة «أبونظارة» التى كان يصدرها الصحفى اليهودى يعقوب بن صنوع أحد تلاميذ الإمام جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده.

وكان أبلغ دليل على الحرية التى يتمتع بها اليهود فى مصر الحديثة هو فُجرْهم الذى دفعهم إلى تأسيس حزب صهيونى عنصرى فاشستى فى مصر باسم حزب الرب.. أى رب الجنود والإبادة والعسكرة الصنيونية.

وبفضل هذه الحرية فقد اختار الملك فؤاد المالى اليهودى يوسف باشا قطاوى وزيراً للمالية فى عام ١٩٢٤. كما وصل عدد من الرأسماليين اليهود إلى مقاعد البرلمان المصرى بالإضافة إلى عنصرية لجنة وضع الدستور المصرى والمجمع اللغوى المصرى.. كما كان الحاخام اليهودى يحظى باحترام المصريين.

إن هذه المزايا التى حصل عليها اليهود فى مصر البالغ عددهم ٦٣٥٥٠ يهودياً وفق إحصاء عام ١٩٢٧ كان وراءها قيام امبراطورية مالية يهودية فى قلب الحياة المصرية.. هذه الامبراطورية التى قد حشدت إلى مساندتها أغلب البكوات والبشاوات الرأسماليين والإقطاعيين الأعضاء وغير الأعضاء فى الأحزاب المصرية كان منه الوزراء وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب.. مما يعنى أن الصفوة المصرية كانت فى خدمة رأس المال اليهودى الذى قدم لها الرشوة الظاهرة والمستترة التى تتمثل فى التمتع بعضوية مجالس إدارة البنوك والشركات اليهودية بالإضافة إلى الإكرميات النقدية والعينية السخية التى كانت يحصل عليها عناصر الصفوة المصرية الحاكمة والمالكة.

وبالتالى فقد كانت الامبراطورية المالية واليهودية كانت تحكم مصر الملكية بواسطة اثنى عشر بنكا وشركة مالية وائتمانية تقود النشاط المالى والتجارى فى مصر.. يضاف إليها عدد سبع شركات تعمل فى الاستغلال الزراعى. وأربعة عشر شركة من شركات استغلال أراضى البناء. وتسع من شركات النقل البرى والبحرى وأربع شركات تعمل فى الصناعات الزراعية الحيوية مثل حلج القطن وكبسه وعصر بذرته وتصنيع السكر وست شركات فى صناعة البناء وخمس وأربعون شركة فى مجال الصناعات الأخرى.

هذه بعض مفردات امبراطورية المال اليهودى فى مصر الملكية.. وذلك بالإضافة إلى احتكار اليهود للبنوك العقارية الصغيرة وبنوك الرهونات الصغيرة المنتشرة فى المدن والبنادر المصرية. وكذلك تجارة الذهب وصناعته وتجارة الأقمشة والخردوات التى كان يسيطر عليها اليهود. ومن هنا فقد كانت الامبراطورية المالية لليهود فى مصر ذات نفوذ فى النظام الملكى بدليل أن الملك فؤاد قد ذهب بنفسه إلى مطار القاهرة لاستقبال الزعيم الصهيونى حاييم ويزمان الذى كان أول رئيس لدولة إسرائيل الصهيونية وذلك عند مروره بالقاهرة للسفر إلى فلسطين فى عام ١٩٣٥.

ويبدو هذا النفوذ اليهودى والصهيونى أيضاً فى تغاضى الحكومة المصرية الملكية عن النشاط الصهيونى فى مجال بيع وشراء الأراضى الفلسطينية لصالح اليهود والمستوطنين فى فلسطين العربية التى كانت تتم على أرض مصر وكذلك فقد تغاضت الحكومات والأحزاب المصرية فى العهد الملكى عنّ حادث البراق بفلسطين حيث قامت عصابة صهيونية فاشسية مسلحة بمحاولة الاستيلاء على حائط البراق بالمسجد الأقصى فى فلسطين العربية مما أدى إلى اشتعال ثورة فلسطينية فى عام ١٩٢٨ ضد الصهيورنية الفاشسية والاحتلال الإنجليزى فى فلسطين التى انتهت بسجن ٨٠٠ عربى فلسطينى وشنق عشرين مناضلاً من العرب بواسطة أحكام إنجليزية عسكرية مجاملة للصهيونية وفاشيتها.

ولقد ترتب على حادث البراق التى قد تغاضت عنه حكومات تحالف الإقطاع ورأس المال فى مصر الملكية ظهور سخط شعبى ملحوظ أدى إلى تشكيل جماعة الإخوان المسلمين بقيادة المدرس الشيخ حسن البنا تحت شعار «لا يفل الحديد إلا الحديد» فى مواجهة الإنجليز وتقاعس الحكومات المصرية الملكية وجرأته الصهيونية على أرض فلسطين وكان ذلك أول رد فعل على نشاط الفاشية الصهيونية فى مصر وفلسطين من خلال أول تنظيم شعبى دينى فانشستى فى مصر الحديثة.

ويبدو أن الامبراطورية المالية اليهودية لم ينتبه قادتها إلى خطورة قيام جماعة الإخوان المسلمين على مصالحها ومستقبلها فى مصر فكانت تمارس استغلالها للطبقة العاملة المصرية من خلال علاقات عمل ذات طبيعة عنصرية وفاشستيه تمثلت فى التفرقة الصارخة بين العمالة اليهودية والعمالة المصريه.. فالموظف اليهودى كان يتقاضى أجر

شهرياً يتراوح ما بين ١٠٠ جنيه و١٥٠ جنيه شهرياً فى حين أن الموظف المصرى كان يتقاضى أجراً ضئيلاً لا يزيد على جنيهات معدودات.

ومن جراء ذلك فقد تفجر الصراع الطبقى والوطنى للعمال والموظفين المصريين فى الشركات اليهودية.. ففى شكوى مقدمة ضد شركة أراضى واستثمارات الدلتا يقول الشاكى:

«إن هذه الشركة تعتبر شركة يهودية ومركزها مُعاد لمصر ومصالحها ولا يوجد بها مصريون سوى الخدم.. إن هؤلاء الرأسماليين اليهود يجمعون أصول وأموال الشركة ويرسلونها إلى تل أبيب عن طريق اليهود المقيمين بالمعادى الذين يسافرون إلى فلسطين دوريا».

وفى مارس ١٩٤٩ يقدم موظف مصرى يعمل فى بنك زليخة إلى وزير التجارة والصناعة شكوى يقوله فيها:

«مقدم هذه الشكوى لديكم موظف مصرى يظهر تلاعب بنك إسرائيلى بالقوانين المصرية آن عدد الموظفين لا يطابق ما نص عليه القرار رقم ١٣٨ لسنة ١٩٤٧ بتعيين ٧٥٪ من المصريين فى الإدارة ولمعاليكم يقصد الوزير.. الصورة فى التلاعب التى ابتدعها جناب المدير الإسرائيلى «ونتس ياكون» فقد صدر القانون رقم ١٧٨ لسنة ١٩٤٧ حُول ٧٠ موظفاً يهوديا إلى حجرة باسم "K.A.Z" وأقرأنهم مفصولون من البنك ثم قيد ثلاثة فراشين فى إدارة البنك كموظفين وذلك لسد الفرص أمام الشباب المصرى المتعلم.. وتبين من التحقيق آن لـ "K.A.Z" هذه هيئة وهمية موجودة داخل البنك وتدعى العمل خارجه وهى اختصار لاسم خضورى عبدالله زليخة.. وذلك لتحسين نسبة الموظفين وللالتفاف حول القانون وحصص المصريين. وأحالت الوزارة إلى مجلس الدولة فى ١٩٤٩/٤/٢٥ شارحه ما تقدم ومؤكدة على آن اليهود داخل إدارة البنك يتهربون من ذكر جنسياتهم».

وفى نفس السياق يقدم أحد موظفى وزارة الأوقاف بطنطا إلى وزير الشئون الاجتماعية فى ١٩٥٠/٧/١٥ حيث يقول الشاكى: «أنه يوجد بطنطا فرع لبنك سوارس لتسليف الموظفين بضمان بعضهم بعضاً. وهذا البنك تلاعب فى حسبة الفوائد بشكل غير ظاهر لحضرات مفتشى الحكومة حيث أن البنك يتحسب الفائدة بواقع ٤٪ سنوياً إلا أنه يستكتب الموظفين المقترضين أوراقاً تجعل الفائدة الإجمالية عليهم ١١٪».

ومن الشكاوى الجماعية ضد امبراطورية المال اليهودية ما قدمه عمال شركة البحيرة المساهمة يقولون فيها: «إن هناك مؤامرة من الأجانب الاستقلاليين الصهيونيين ضد المصالح الوطنية. وأشاروا إلى أن هذه الشركة تمثل نموذجاً لاستعباد العمالة المصرية واختتمت الشكوى بعبارة.. أيها الأجانب الصهاينة لا تتآمروا على أبناء الوطن وكفى إغتصاباً للحقوق».

يقول الأستاذ أنس مصطفى كامل فى دراسته عن الرأسمالية اليهودية فى مصر.. لقد استمرت شكاوى العمال المصريين ضد الرأسماليين اليهود حتى بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. فعلى سبيل المثال لا الحصر قدم عمال شركة وادى كوم أمبو لوزارة التجارة والصناعة شكوى جماعية فى ٣٠ أكتوبر ١٩٥٣ هذا نصها: «حضرة اللواء محمد نجيب أن شركة وادى كوم أمبو تسوم أربعين ألفاً العذاب وتستنزف جهودهم بدون مقابل غير الجوع والحرمان. والويل كل الويل لمن تحدثه نفسه بالشكوى.. أن المناطق حول الشركة هى مستعمرات اغتصبتها الشركة بمعونة الطاغية الكبير إسماعيل صدقى حيث باع هذه الأراضى يوم آن كان وزيراً للمالية إلى شركة وادى كوم أمبو بأسعار اسمية هى عشرون قرشاً للفدان الواحد وفوجىء الأهالى بأن الشركة تستخدم القوة لنزع الأراضى من الأهالى واستمرت القضية عشرين عاماً أمام المحاكمة العليا. وأثناءها لجأت الشركة إلى إجبار الفلاحين على شراء الأرض عن طريق رفع القيمة الإيجارية وأصبحت تبيع الفدان بمبلغ ١٠٠ جنيه مصرى ويعطون المياه للفدان الواحد بمبلغ ١٣ إلى ١٤ جنيهاً. واشتراها أثرياء الحرب الذين دفعوا بدواهم القيمة الإيجارية.. أنقذونا».

هذه الشكاوى الاحتجاجية ضد امبراطورية رأس المال الصهيونية فى مصر هى مجرد لمحة محدودة من الصراع الطبقى والوطنى ضدها بالإضرابات والاغتصابات والمظاهرات والشكاوى ضد رأس المال اليهودى وصناعاته ومزارعه فى مصر، ومن هنا فالطبقة العاملة المصرية ونقاباتها التى كان يقودها العمال النقابيون اليساريون والشيوعيون هم أول من كشفوا وفضحوا الفاشية والعنصرية الصهيونية الكامنة فى قلب الامبراطورية المالية اليهودية فى مصر كما قررت الشكاوى الاحتجاجية المقدمة للحكومات الملكية.. كما تثبت هذه الشكاوى العلاقة الآثمة بين تحالف الإقطاع ورأس المال فى مصر وبين امبراطورية

رأس المال اليهودى من خلال مواقف إسماعيل باشا صدقى رئيس الوزراء ووزير المالية والداخلية وغيره وغيره فى العهد الملكى.

يؤكد ذلك الزيارة التى قام بها إلى تل أبيب عاصمة الفاشية الصهيونية وزير التجارة والصناعة المصرية فى عام ١٩٤٤ حيث قدم بشأنها تذكرة إلى البرلمان المصرى يطالب فيها بتوثيق علاقة رأس المال المصرى بالصناعات الرأسمالية فى تل أبيب وهذا ما أدى إلى تفشى نشاط الفاشية الصهيونية فى مصر من خلال الامبراطورية المالية والتجارية لليهود فى مصر الحديثة.

اليسار يفضح الصهيونية وفاشيتها

لم يفضح الصهيونية وفاشيتها العدوانية فاشية الإبادة وقتل البشر بالجملة مثلما فضحها الفكر الاشتراكى العلمى.. ومثلما فضحها أيضاً زعيم النازية الألمانى ادولف هتلر رغم التناقض الحاد جداً بين الاشتراكية العلمية والنازية الألمانية.

فالصهيونية تُعرف نفسها بأنها حركة تصبوا إلى تجميع الشعب اليهودى على أساس قوص فى وطن خاص بهم.. أى أن الصهيونية هى أمة اليهود وقومية اليهود. أى قومية شعب الله المختار التى منحها رب الجنود والعسكرة وإبادة البشر الأغيار أرض الميعاد على أرض الشعب الفلسطينى وحول مسألة اليهود كتب كارل ماركس قائلاً:

«أن القومية اليهودية هى قومية التاجر ورجل المال بصورة عامة.. ويقول أيضاً.. وتصل اليهودية إلى ذروتها عند اكتمال المجتمع البورجوازى».

وكتب الرفيق لينين زعيم الثورة الاشتراكية فى روسيا القيصرية فقال:

«قد تبدو الصهيونية للوهلة الأولى حركة ذات هدف سلمى إنسانى وجمع اليهود عند جبل صهيون فى ارض الميعاد التى لن تعرف الظلم الاجتماعى أو السياسى. أن الصهيونية التى أخفيت بمهارة قد تبدو جذابة فى ظاهرها ولكن نظرة أعمق تكشف عن جوهرها الحقيقى كأدوات لتبرير المطالب الاستعمارية والإقليمية للبورجوازية اليهودية. وللتبشير بالسلام الطبقى الخيالى بين اليهود العاملين وتوحيدهم على أسس القومية والعنصرية فى البلدان المختلفة وعلى الصعيد الدولى ولا تخلوا الصهيونية الدولية منذ ظهورها موقفاً عدائياً

متشدداً ضد حرية واستقلال الشعوب وتكشفت أمام العالم كحليف للامبريالية».

ويقول لينين أيضاً:

«أن الفكرة الصهيونية كاذبة تماماً ورجعية فى جوهرها كمحاولة من جانب البورجوازية اليهودية الموالية للإمبريالية للسيطرة على الشعب العامل اليهودى وتعطيل استيعابهم فى الشعوب الأخرى».

وفى مناقشاته مع قيادة حركة البوند اليهودية والصهيونية أى الاتحاد العام للعمال اليهود فى روسيا القيصرية الذى كان يتبنى الأفكار الصهيونية يقول لينين مؤكداً وجهة نظره.

لكن حجة البوند الثالثة التى تتذرع بفكرة الأمة اليهودية تبدو لسوء الحظ أن هذه الفكرة الصهيونية خاطئة خطأ مطلقا ورجعية من حيث جوهرها. وأن المشكلة اليهودية هى بلا ريب فكرة رجعية ليست فقط عندما ينادى بها المنادون بصورة دائمة وهم الصهيونية، ولكن أيضاً عند أولئك الذين يحاولون أن يجمعوا بينها وبين أفكار الاشتراكية الديمقراطية.

وفى شعارات المؤتمر الثانى للأممية العالمية الاشتراكية الخاصة بالمسألة القومية والمستعمرات أُدينت الصهيونية واعتبرت آداة للامبريالية وينص البند الحادى عشر على وجه التحديد على مايلى:

«إن المؤسسة الفلسطينية للصهاينة والصهيونيية عموما لهى مثال صريح على الجهود المتضافرة التى تبذلها الامبريالية العالمية والبورجوازية لخداع الجماهير الكادحة».

ذلك هو موقف الفكر الاشتراكى العلمى واليسار الثورى الثابت والمعادى للصهيونية باعتبارها العنصرية فى ذروتها وباعتبارها قومية رجعية وفصيلة من فصائل الاستعمار العالمى. ولهذا فإن الرفيق ستالين أخذ موقفاً عدائياً متشدداً من الصهيونية فى الاتحاد السوفيتى باعتبارها عدواً لدوداً للاشتراكية السوفيتية وحركة التحرر العالمى والطبقة العاملة.

وكذلك فقد فضح الصهيونية زعيم النازية الألمانية أدولف هتلر بقوله:

«هكذا عاش اليهودى على مر الزمن فقد عاش عالة على الشعوب الأخرى وهو فى استيطان الأرض يعمل دوما على تأسيس دولته الخاصة.. ولكنه يخفى مقاصده خلف قناع

الجماعة الدينية إذا لم تسمح له الظروف بكشف أهدافه الحقيقية.. أما إذا وجد فى نفسه القوة الكافية فإنه ينزع القناع ويكشف عن وجهه الحقيقى البشع.

وتقوم علاقة اليهودى بالشعوب التى يعايشها على الكذب والتدجيل أما كذبتهم الكبرى فى إدعائهم أنهم جماعة دينية. وهذه الكذبة الكبرى تجد من يصدقها. وكلما إزداد ذكاء اليهودى إزداد نجاحه فى التدجيل. ألم يتمكن من إقناع شعبنا بأنه ألمانى دماً ولحماً. ولهذا فقد وصفه الفيلسوف شوبنهور.. بالأستاذ الأعظم فى الكذب والتدجيل».

ويقول هتلر أيضاً:

إن العقيدة اليهودية تشمل بعض التوجهات المتعلقة بحفظ الدم اليهودى نقياً وليس فى العالم من شعب تمت فيه غريزة حب البقاء كالشعب الذى يسمى نفسه.. الشعب المختار.. والدليل على ذلك بقاء هذا الجنس محافظاً على طبائعه وخصائصه. وهو الذى واجه خلال آلفى عام ظروفاً قاسية.. لقد رأينا اليهود يتدخلون فى قضايا العالم الكبرى وكانت لهم اليد الكبرى فى كل ثورة وكل انقلاب. وقد مرت كوارث رهيبة هزت البشرية كلها لكنها لم تؤثر على حالهم.. لا يدخرون وسعاً فى سبيل حماية كيانهم.

ليس ليهودى حضارة خاصة به. فأسس عمله الفكرى هو إذن مستعارة أخذها من الذين أوجدوا الحضارات.. فالشرط الأول الذى يجعل من شعب ما حضارة ليس متوفرا فى الشعب المختار.. ليس لليهودى مثالية ذلك بأن روح التضحية لا تتعدى عند الشعب اليهودى مظاهر الأنا والتضامن الذى يقوم به اليهود والذى يبدو لنا وثيقاً ليس أكثر من تجمع آلى شبيه بتجمع قطع من الغنم لمواجهة الخطر المشترك أو ينجح قطيع من الذئاب لمهاجمة الفريسة وإذاما استطاع الشعب المختار يوماً أن ينشىء الدولة اليهودية الجهاز الحى المعد لحفظ العرق وانمائه فستكون دولة غير ذات حدود لأن تحديد تخوم دولة ما يفترض وجود مثالية لدى العرق الذى ينشئها كما يفترض أن مفهومه للعمل قائماً على تقدير صحيح.

هكذا عاش اليهود فى كل عصر ومصر. عاش عالة على الشعوب الأخرى وكان يؤسس دولته الخاصة ويخفيها خلف قناع من الجماعة الدينية مادامت الظروف لا تسمح له بنضج أهدافه الحقيقية. أما إذا آنس من نفسه القوة على نزع القناع فإنه يكشف عن وجهه الحقيقى.

ولا ريب فى أن مؤسس المسيحية النصرانية لم يظلم اليهود عندما أبدى فيهم رأيا صريحاً .. ألم يستخدم السوط فى إخراج عدو البشرية من الهيكل لأن اليهودى كان ولايزال يعتبر الدين تجارة ولأن المسيح حارب المادية اليهودية صلبه اليهود .. وشدد اليهودى فى الوقت نفسه على البورصة مما أتاح له الإشراف المطلق على نشاط الأمة فى كل حقل.

وقد أدرك اليهود أن اخضاع السواء لسيطرتهم لا يمكن أن يتم عن طريق الماسونية فوضعوا نصب أعينهم تهديد الصحافة أو توجيهها على الأقل فيتم لهم بذلك بسط إشرافهم على الحياة العامة.

وكان على اليهودى أن يبدأ بالدعوة إلى التسامح الدينى فاستخدم الماسونية. وكانت قد أصبحت أداة طيعة بين يديه فى تحقيق هذه الغاية وكانت الماسونية قد جذبت إلى شراكها الحكام والنبلاء وأقطاب الاقتصاد والبورجوازيين ورجال الفكر كما حدث فى مصر.

على هذا النحو فقد كشف اليسار واليمين فاشية الصهيونية وعنصرية شعب الله المختار وفضحها على ملأ العالم باعتبارها قومية الشر والإبادة وفى مصر لم يفضح الصهيونية إلا العمال المصريين كما سبق ذكره، وكذلك المنظمات الشيوعية واليسارية وأعضائها من اليهود المصريين الذين قد كونوا لجنة مصرية لمكافحة الصهيونية. ولكن الحكومات الملكية قد قضت عليها كما كتب مدرس يهودى مصرى لم يذكر اسمه بجريدة «الأهرام» فى بداية القرن الماضى بعنوان «الحركة الصهيونية» ورد فيها عبارة تتمسكن حتى تتمكن جاء فيها .. آن الأهرام قد نجحت فى تبديد الكثير من المقولات التى كان يروج لها عدد من اليهود فى الصحف المصرية .. واستطرد قائلا:

كيف والأهرام بعملها هذا قد أثارت الأفكار بقوة المفاضلة والمناضلة ولولاها لثارت ثائرة الإسرائيليين عن بكرة أبيهم مطالبين بهذا الأرث الشرعى لأنهم شديدوا الرغبة فى الحصول عليه بأى وسيلة كانت حتى ولو بطريقة الإيجار الزمنى .. تمسكن حتى تتمكن .. يقولون فى عرض كلامهم أنهم رجال جد ونشاط وزراعة وفلاحة وينكرون أنهم رجال دهاء وحيل وخداع ومن ينكر عليهم أنهم يبنون عملاً بوصية الدكتور هرتيزل المطبوعة على ألواح قلوبهم بألا يؤلفوا قوماً شديدى البأس قوى الضلع ظاهراً بل يكون بكل تستر حذر لكيلا يؤخذوا على غرة منهم من الممالك الأورباوية وخصوصاً الدولة العثمانية التى برهنت كثيراً من

المرات أن لها شديد الرغبة فى سكنهم فى أراضيها إلا فلسطين لأنها رأت منهم ميلاً كبيراً إلى إيجار مستعمرة ضليعة المراس قوية الأساس يخشى منها على التوازن الدولى وما ذلك إلا من كثرة الإلحاح المتواصل باستعمار فلسطين دون غيرها.

ومن هنا بدأ الصهاينة فى مصر حرباً كلامية على المدرس اليهودى المصرى بقولهم أن هذا الكاتب الذى كتب مقال.. تمسكن حتى تتمكن.. ليس يهودياً حيث قال جاك هرنشتين سكرتير حزب الله الفاشستى والصهيونى فى مصر أن اليهود السلفيين هم وحدهم الذين يحلمون بتحقيق دولة سليمان الحكيم فى فلسطين. بينما قصد الصهيونيون الحقيقيون أن يكون لهم فى أرض فلسطين مركز أدبى وزراعى وتجارى وصناعى تخلصاً من الظلم والأستبداد الواقعين عليهم فى كثير من البلاد.. ويخلص سكرتير حزب الله الصهيونى الفاشستى من كل ذلك إلى توصيف الحركة الصهيونية بأنها حركة إنشائية لا سياسية لأن قصد الصهاينة الآن أن يجعلوا لهم مركزاً إنشائياً صناعياً مالياً أدبياً أخلاقياً علمياً تحت سلطة ونفوذ دولتهم العليا العثمانية ذلك هو نشاط الصهيونية وفاشيتها فى مصر منذ القرن التاسع عشر قبل عقد المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى مدينة بازل بسويسرا سنة ١٨٩٧ بقيادة الصحفى الصهيونى الدكتور هرتيزل مما يعنى أن حزب الرب الصهيونى بمصر كان واحداً من المنظمات الصهيونية الداعية إلى ذلك المؤتمر العنصرى الذى بعث الصهيونية بعثاً جديداً بقصد إحياء منهج يشوع ابن نون فى ممارسة إبادة البشر الاغيار بقوة رب الجنود والإبادة والعسكرة اليهودية والفاشية الصهيونية.

والجدير بالذكر أن عدداً من اليهود اليساريين والمعتدلين قد رفضوا الصهيونية واختاروا الوطنية وتشبثوا بمصر ونيل مصر وانصهروا فى الحياة المصرية وبات لهم اولاد واحفاد مصريون وكان من أبرز المعارضين للصهيونية حاخام اليهود الأكبر فى مصر حاييم ناحوم أفندى عضو المجمع اللغوى الذى قد واجه الصهيونية والصهاينة بموقفه الرافض بقيام دولة صهيونية على أرض فلسطين فعندما كان يقوم بمكانة الحاخام الأكبر فى الدولة العثمانية ذهب إليه وفد من اليهود الصهاينة يطلب منه التوسط لدى السلطان العثمانى ليسمح للصهيونية بشراء الأراض فى فلسطين فأفهم الوفد الصهيونى أن مثل هذه الوساطة تسرد لو كان يعلم أن تباع الأرض لليهود من حيث هم أفراد يعتزمون أن يكونوا مواطنين فى

فلسطين لكن لن يتوسط فى ذلك مادام يعلم أن الأراضى أنما تشترى تحقيقاً لخطة جماعية يراد بها خدمة الحركة الصهيونية.

وخلف ذلك النشاط الصهيونى على ضفاف النيل بادرت الصهيونية بإعداد فاشيتها المسلحة وعسكرتها الإرهابية على أرض مصر وفى معسكرات الجيش البريطانى فى مصر حيث حشدت آلاف الآلاف من الشبان والشابات اليهود للعمل والخدمة فى الجيوش البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية وذلك كجنود ومجندات وضباط وضابطات فى كل فروع الأسلحة البرية والبحرية والجوية بالإضافة إلى إعداد منظمتها وعصاباتها الإرهابية التى قتلت اللورد موين الإنجليزى المعادى للصهيونية بإحدى شوارع القاهرة فى عام ١٩٤٤.

وبالتالى فقد أصبحت العسكرة الفاشستية للصهيونية بشقيها النظامى والإرهابى تفوق مجمل الجيوش العربية محاكمتها من احتلال أغلب مساحة أرض فلسطين العربية وهزيمة المقاومة الفلسطينية ومعها كل الجيوش العربية وإقامة دولتها دولة إسرائيل الفاشية والصهيونية حيث مارست العسكرة الصهيونية تنفيذ وتطبيق تعليمات يشوع بن نون فى الإبادة والقتل الجماعى ونهب الأرض الفلسطينية أرض الميعاد التى قد وعد بها رب الجنود لشعب الله المختار.

هكذا استطاعت العسكرة الصهيونية أن تقم دولتها بينما كان الطاغية اسماعيل باشا صدقى رئيس الوزراء الأسبق وعضو مجلس الشيوخ يسوق المبررات الإنهزامية بعدم قدرة الجيش المصرى على التصدى للعسكرة الصهيونية وذلك بجلسه مجلس الشيوخ المصرى فى يوم ١١ مايو ١٩٤٨.

وأمام السخط الشعبى أضطر الملك فاروق إلى إعلان الحرب على العسكرة الصهيونية بهدف إعلان الاحكام العرفية وإسكات المعارضة المصرية وبهدف الحصول على عمولات من خلال شراء السلاح لحاجة هذه الحرب المظهرية ضد العسكرة الصهيونية.

وقد ثبت أن السلاح الذى قد تم شراؤه كله كان سلاحاً فاسداً ومع هذا فإن الملك فاروق وحاشيته حصل على عمولات شراء هذا السلاح الفاسد بواسطة الممثلة الصهيونية كاميليا مما يعنى أن الملك فاروق والرجعية المصرية قد تآمروا على الشعب المصرى والشعب الفلسطينى خدمة للاستعمار ودولة إسرائيل الصهيونية والفاشية ونتيجة لهزيمة الجيش

المصرى فى حرب فلسطين أمام العسكرة الصهيونية حدثت ردود أفعال وطنية متعددة كان أهمها صحوة العسكرة المصرية المعبرة عن الوطنية المصرية وطموحاتها من خلال قيام تنظيم الضباط الاحرار من الضباط الوطنيين والشيوعيين وضباط ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين بقيادة البكباشى جمال عبد الناصر أحد الضباط المحاصرين فى موقعة الفالوجا فى حرب فلسطين بواسطة عسكرة الصهيونية.

أن ذلك الضابط المصرى الصعيدى إبن الموظف الصغير والعائد من الحصار فى حرب فلسطين قد استبدت به بطولات وإنتصارات العسكرة الفرعونية على أرض فلسطين بقيادة أجداده الفراعنة العظام والمنتصرين فى معركة قادش وغيرها. ومن هنا بدأ فى إعداد نفسه وشحذ همته ووطنيته المصرية مما أدى إلى تحديد قصده فى مواجهة النظام الملكى والأحتلال الإنجليزى الصهيونية وإسرائيل بواسطة صحوة العسكرة المصرية ولم يبادر بهذه المخاطرة الوطنية والقومية إلا أنه مصرى مصرى مصرى بالتثليث صعيدى صعيدى صعيدى بالتثليث كان يحمل صفات الإنسان المصرى وهمومه وآلامه وآماله وصبره وأحواله وتغيرها وتطورها عبر آلاف السنين خلال المجتمع المدنى وحكم العسكرة الطويل.

■■■



حكم العكسر
في مصر المحروسة
من الدولة الفرعونية
حتى حكم مبارك

جمهوريات

نجيب . ناصر . السادات

عسكرة . وطنية . مشنقة تعذيب اعتقالات
قومية . اشتراكية . عمالة أمريكية صهيونية

- الثورة عيد المظلومين .. ولكن
- جمهورية نجيب .. عسكرة ومشنقة
- دماء العمال في رقبة من ؟!
- فاشية الإخوان رصاصة وبندقية
- الكمسارى صاوى ينقذ الثورة وعساكرها
- الجمهورية الناصرية عسكرة واشتراكية
- الاشتراكية الناصرية عسكرتين
- سلطة الديمقراطية الاشتراكية
- طريق الأمل والخلاص
- مصادرة كتاب بأمر العسكرة
- الناصرية تأديب وتهذيب وإصلاح
- جمهورية السادات فاشية وعمالة أمريكية صهيونية

الثورة عيد للمظلومين ولكن

إن الذى كان ينام على الأرض اصبح له سرير

إن الذى لم يكن له قــبــر بات له قــبــر

إن المرأة التى كانت ترى وجهها فى الماء أصبحت لها مرآة.

هكذا قال الحكيم المصرى القديم إيبور تعليقاً على التغييرات الإجتماعية التى حدثت فى مصر الفرعونية بعد ثورة من ثورات الشعب المصرى ضد الإقطاع مما يعنى أن الثورة عيد للمظلومين والمضطهدين والمستضعفين فى الأرض.

ولذلك فقد أستقبل الشعب المصرى عماله وفلاحيه وكادحيه وفقرائه ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالأحضان باعتبارها عيد المظلومين وباعتبارها حلم حياتهم الطموحة لتحقيق حياة أفضل يملأها الخير والحرية وخالية من إستغلال الإنسان لأخيه الإنسان وظلم الإنسان لآخيه الإنسان وإستعمار الإنسان لأخيه الإنسان.

ذلك هو مزاج الشعب المصرى فى المدينة والقرية فى الحقل والمصنع فى الحارة والشارع فى كل آرجاء القاع الإجتماعى المصرى ولكن تسرى الرياح بما لا تشتهى السفن فالحزب الذى أعد وقاد ونفذ ثورة ٢٣ يوليو حزب عسكرى قح كل قيادته وأعضائه من العسكريين المصريين الذين تستبد بهم مزاج العسكرة ونفسية الشلاق بضبطه وربطه بدون مبالاة بالجماهير المصرية التى لم تتعرف على شخصياتهم باستثناء اللواء محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة الذى كان يعتبر شخصية مصرية عامة إلى حد ما بعد معركته المباشرة مع الملك فاروق خلال إنتخابات نادى ضباط الجيش سنة ١٩٥١.. كما أن هؤلاء الضباط

الثوار لم يسبق لهم التعامل مع الجماهير الشعبية والمدنية ومن هنا فقد تعاملوا معها بإعتبارها من أهل القشلاق العسكرى وذلك بإستثناء البكباشى أنور السادات وفضلاً عن هذا فالحزب العسكرى كان يموج بالإتجاهات المختلفة والمتناقضة بين أعضائه فاللواء محمد نجيب والصاغ صلاح سالم وشقيقه رئيس الجناح طيار جمال سالم ينتسبون إلى العناصر الوطنية والصاغ كمال الدين حسين ورئيس الجناح طيار عبد المنعم عبد الرءوف يمثلان جماعة الأخوان والمسلمين والصاغ خالد محيى الدين والقائمقام يوسف صديق يمثلان الشيوعيين والبكباشى أنور السادات يمثل الحزب الملكى وفاشيته والبكباشى عبد المنعم من الحزب الأمريكانى وحتى البكباشى جمال عبد الناصر زعيم حزب الضابط الأحرار كان متعدد الإتجاهات ويقال أنه كان عضواً بالحركة الديمقراطية.. حدتو.. الشيوعية بأسم الرفيق موريس وهؤلاء الضباط الذين كانوا يشكلون مجلس قيادة ثورة يوليو وغيرهم من الضباط الأحرار كانت مقاصدهم الوطنية والإجتماعية مختلفة تماماً ولكن الذى قد جمعهم هو المناخ الشعبى والوطنى الصارخ والملحوظ الذى كان يرفض الملكية والملك فاروق ويرفض الإحتلال الإنجليزى لمصر ويرفض حكم الإقطاع ورأس المال ولقد تعاظم ذلك الرفض الشعبى قبل حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ وبعده وما صاحب ذلك من فرض الأحكام العرفية وفتح المعتقلات والسجون للقيادات الوطنية والعمالية واليسارية الذين قادوا ونظموا الإضرابات والمظاهرات الوطنية والسياسية والعمالية بالإضافة إلى شن الكفاح المسلح ضد معسكرات الجيش البريطانى فى منطقة قناة السويس.

هكذا كان المناخ الوطنى وتعاظم فعاليته سبب الأسباب فى وجود إنسجام مؤقت ووحدة مؤقتة فى صفوف الحزب العسكرى بقيادة البكباشى جمال عبد الناصر حيث سيطر اليقين كل اليقين على مجمل الضباط الأحرار بسقوط النظام الملكى فى وقت قريب بواسطة ثورة شعبية مما دفع هؤلاء الضباط إلى التشبث ببعضهم البعض للقيام بحركتهم العسكرية المسماه وقتئذ بحركة الجيش وبالحركة المباركة.

ولقد كان كل إتجاه فى الحزب العسكرى يرى فى نفسه أنه كل شئ وبالتالى يعرف قصده فالضباط الإخوان المسلمين كانوا متأكدين بشأن قيام دولة إخوانية والضباط الشيوعيين كانوا يرون أن حلمهم قد أقترب من التحقيق بشأن قيام دولة الديمقراطية

الشعبية دولة العمال والفلاحين والضباط الوطنيين كانوا مستبشرون بقيام جهورية المستبد العادل والبكباشى الملكى أنور السادات كان يحلم بتصبيه ملكاً للجمهورية المصرية كما أن البكباشى الأمريكى عبد المنعم أمين كان يرى أن الجمهورية المصرية القادمة سوف تكون إحدى الجمهوريات الأمريكية وعاصمتها واشنطن.

تلك هى المقاصد المتعارضة للضباط الأحرار أعضاء الحزب العسكرى المعد والمنفذ لثورة يوليو ولقد كانت هذه المقاصد بمثابة مانعات للتردد والخيانة من قبل الضباط الرجعيين فى صفوف الضباط الأحرار.

وفور قيام ثورة يوليو بدأت مقاصد ضباط الثورة تحقق ذاتها بشكل عسكرى صارم حيث أحتل البكباشى عبد المنعم امين عضو مجلس قيادى الثورة وكبير ضباط المدفعية فى صفوف الضباط الأحرار منصب مسئول العمال والنقابات بتوجيه من أسياده فى السفارة الأمريكية حيث استعان فى ذلك بشخصية معادية لليسار والإشتراكية والعمال هو الكاتب والناقد البارز القادم من أمريكا والعضو الطازج فى جماعة الأخوان المسلمين الأستاذ سيد قطب الذى لا يعرف شيئاً فى المجال العمالى والنقابى اللهم عدائه الشديد للشيوعية والعمال.. هذه الشيوعية التى كانت تسيطر بشكل ديمقراطى وإختيارى على الحركة العمالية والنقابية فى مصر وقتئذ.

وتحت ضغط البكباشى الأمريكى التبعية الذى رسم حدود عمله النقابية الإخوانى الأمريكى سيد قطب تم عسكرة الحركة العمالية والنقابية فى مصر لأول مرة فى تاريخها حيث رفض البكباشى على لسان الفقية عقد الجمعية العمومية التأسيسية للإتحاد العام لنقابات عمال مصر التى كان محدداً لعقدها يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ ولكنها منعت بسبب حريق القاهرة وإعلان الأحكام العرفية فى يوم ٢٦ يونيو ١٩٥٢ ولقد تم ذلك الرفض الفاشستى والعسكرى والإخوانى فى مواجهة وفد عمالى يضم أبرز العمال النقابيين فى مصر والوطن العربى منهم الزميل محمد أحمد سلام رئيس أتحاد نقابات عمال السودان والزملاء فتحى كامل رئيس نقابة عمال ماتوسبان والنقابى صاوى احمد صاوى رئيس إتحاد نقابات عمال النقل المشترك والنقابى عبد العزيز مصطفى رئيس نقابة عمال ترام القاهرة والنقابى كامل العقيلى رئيس نقابة سائقى التاكسى بالقاهرة.

وكان ذريعة ذلك الرفض هو ضرورة تطهير الحركة النقابية من العمال الشيوعيين مثل احمد طه سكرتير اللجنة التحضيرية لأبحاث نقابات عمال مصر الأمر الذى أذهش وحير الوفد العمالى والنقابى من هذا الرفض غير المنطقى الذى طفح على لسان الفقيه سيد قطب.

ولم يتوقف البكباشى والفقيه عند ذلك الحد من العسكرة للنقابات العمالية بل تجاوزه كثيراً بعسكره محاكمة عمال شركة مصر للغزل والنسيج بكفر الدوار بسبب إضرابهم العمالى المطلبى والسلمى حيث قاد البكباشى الذى استند على رأى الفقيه عسكرة هذه المحاكمة العمالية والعسكرية التى تشكلت من عدد من ضباط الجيش المصرى حتى أن المدعى كان ضابطاً عسكرياً وذلك برئاسة ذلك البكباشى الأمريكى اللعين الذى أجرى محاكمة العمال بطريقة عسكرية ووحشية فى موقع العمل والإنتاج لمدة ساعات محدودات لم تحدث فيها إجراءات قانونية وقضائية مما جعلها محاكمة تفوق فى وحشيتها محاكمة محكمة سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية ومحاكمة فلاحى دنشواى الشهيرة.. وانتهت هذه المحاكمة العسكرية الإجرامية بشنق العاملين الشهيدين مصطفى خميس ومحمد البقرى بالإضافة إلى قتل وسجن عشرات العمال ولا يسعنى فى هذا المقام إلا أن أقول للفقيه سيد قطب من يزرع الريح يجنى العواصف ومن قتل يقتل ولو بعد حين وها أنت قد قتلت بنفس الطريقة يا سيدنا وبعد أحداث عمال كفر الدوار ومحاكمتهم التى زلزلت الطبقة العاملة المصرية وأشاعت الحوف والفزع والرهبة العسكرية فى صفوفها حتى أن الكثير من القيادات العمالية والنقابية قد أرسلت إلى مجلس قيادة ثورة يوليو برقيات إستنكار ضد إضراب زملائهم عمال كفر الدوار ولم يحتج على السلطة وعسكرتها إلا النقابيون اليساريون فى مصر وفلسطين بواسطة بياناتهم ومنشوراتهم.. بعد هذا فقد واصل البكباشى والفقيه إرهاب العمال والنقابيين النشيطين بسبب احتجاجاتهم السليمة بالشكاوى والتقاضى مثلما حدث مع عمال النقل المشترك الذين كانوا يصفون أنفسهم بأنهم جنود الثورة ولكنهم عندما كسبوا عدداً من القضايا العمالية وخاصة قضايا الحراسة القضائية على شركاتهم تصدى لهم البكباشى والفقيه مما اضطر عمال شركة الشوربجى للغزل والنسيج إلى الإضراب مطالبين بصرف أجور علاوة غلاء المعيشة فإذا بالبكباشى

والفقيه يتصدون للعمال بالدبابات والمصفحات والسجن بالجملة مما أدى إلى الإطاحة بشعار الثورة عيد للمظلومين.

جمهورية نجيب عسكرة ومشنقة

لقد نجح الإنقلاب العسكرى الذى أعده ونفذه الحزب العسكرى حزب الضباط الأحرار الذين كانوا ينتمون إلى الطبقة المتوسطة وشرائحها المختلفة وذلك بزعامة وقيادة البكباشى جمال عبد الناصر.

وفى بدء تنفيذ الإنقلاب العسكرى المسمى بحركة الجيش ثم بالحركة المباركة ثم بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بادر الضابط الفذ والشجاع والفلاح والشاعر والشيوعى القائمقام يوسف صديق بالهجوم مبكراً بالهجوم على مقر قيادة الجيش الملكى قبل الموعد بساعة كاملة. ووصل القائمقام اليسارى إلى مقر القيادة فأمر جنوده وضباطه باحتلالها والقبض على كل قادتها وضباطها وعند أقتحامه لمكتب الفريق حسين فريد رئيس أركان الجيش المصرى الملكى فأعترضه جندى الحراسة العملاق فرد عليه بطلقة نارية من سلاحه ودخل مكتب رئيس الأركان الذى كان فى إنتظار حضور كبار الضباط ورؤساء الأسلحة لمواجهة الإنقلاب الذى تفشت أخباره ولكن مبادرة القائمقام اليسارى الخاطئة فى نظر البعض كانت بمثابة معجزة أنقذت الإنقلاب العسكرى من الفشل كما أنقذت رقاب كل الضباط الأحرار.. وفى مكتب القيادة وجد القائمقام يوسف صديق وقائده حسين فريد مختبئاً خلف باب المكتب يا سبحان الله ما أجبن العسكرى عندما يسقط وإنتهى الهجوم الثورى بالقبض على كبار ضباط الجيش الملكى وصدرت أوامر القائمقام اليسارى والبطل بترحيلهم إلى مبنى الكلية العسكرية.. وهكذا انتصرت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بفضل القائمقام يوسف صديق وضباطه وجنوده البواسل.

وفور ذلك النجاح حققت ثورة ٢٣ يوليو سلطتها برئاسة اللواء محمد نجيب ألمع وأبرز ضباط الجيش المصرى وذلك فى ظل زعامة البكباشى جمال عبد الناصر رئيس الحزب العسكرى حزب الضباط الأحرار ولكنها كانت زعامة مستترة إلى حد ما.

وقد تجلت السلطة الوطنية الجديدة فى تشكيل مجلس قيادة الثورة برئاسة اللواء محمد نجيب وعضوية البكباشى جمال عبد الناصر والصاغ عبد الحكيم عامر والصاغ خالد

محيى الدين والصاغ كمال الدين حسين والبكباشى زكريا محيى الدين والصاغ صلاح سالم ورئيس الجناح طيار حسن إبراهيم وقائد الأسراب عبد اللطيف البغدادى ورئيس الجناح طيار جمال سالم ورئيس الجناح طيار عبد المنعم عبد الرءوف والقائمقام يوسف صديق والبكباشى عبد المنعم أمين والبكباشى أنور السادات.

كما قد تجلت سلطة الثورة فى تأليف وزارة مدنية برئاسة على ماهر رئيس الوزراء الملكى الأسبق ورئيس الديوان الملكى الأسبق وبجانب مجلس الثورة المكون من العسكريين ومجلس الوزراء المشكل من المدنيين فشكلت هيئة من المستشارين كان أبرزهم الدكتور عبد الرازق السهنورى رئيس مجلس الدولة والأستاذ سليمان حافظ نائب رئيس مجلس الدولة والكاتب والفقيه سيد قطب وغيرهم.

ومما يذكر أن الدكتور السنهورى وسليمان حافظ كانا يمقتان حزب الوفد وشعبيته بزعامة الرئيس الجليل مصطفى النحاس.. كما أن الكاتب سيد قطب كان أيضاً يمقت حزب الوفد وشعبيته ويمقت كذلك الشيوعيين واليساريين ونفوذهما فى صفوف الطبقة العاملة المصرية وبالتالى فقد كان مستشاروا الثورة يحبذون العسكرة ويرفضون مظاهر المجتمع المدنى ترضية لقيادة الثورة التى ألغت دستور سنة ١٩٢٣ وألغت الأحزاب باستثناء حزب الأخوان المسلمين حليف حزب الضباط الأحرار.

فالحليف الأخوانى والفاشستى قد تأبط ذراع عسكرة الجمهورية الأولى فور قيامها حيث حشد جماهيره الأخوانية التى كان لا وجود لها فى الشارع المصرى الذى كانت تحتله وتسيطر عليه جماهير حزب الوفد لاستقبال موكب الثورة عند زيارة للأقاليم فى الأيام الأولى لثورة يوليو ومما يذكر أن الجماهير التى استقبلت ذلك الموكب تمثلت فى العمال عموماً وعمال النقل المشترك خصوصاً ومعهم جماهير الأخوان المسلمين وذلك بالإضافة إلى جماهير حزب الوفد التى كانت تهتف وتقول رجال الوفد يحيوا الثورة رجال الوفد يحيو نجيب.

ولقد ظل الحليف الأخوانى شريكا فعالاً فى كل ممارسات عسكرة اللواء محمد نجيب وجمهوريته الأولى ضد الطبقة العاملة المصرية ونقاباتها وحرياتها يشهد بذلك موقف البكباشى عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة والفقيه سيد قطب الكاتب الأخوانى بشأن رفضها عقد المؤتمر العام التأسيسى لإتحاد نقابات عمال مصر بذريعة سيطرة الشيوعيين على الحركة العمالية والنقابية.

وإذا دققنا النظر فى العلاقة السلطوية والأخوانية بين البكباشى عبد المنعم أمين رجل أمريكا فى مجلس قيادة ثورة يوليو وبين الفقيه الإخوانى القادم من أمريكا والعضو المستجد فى جماعة الأخوان المسلمين لثبت لنا أنها علاقة واعية ومنظمة القصد منها تصفية ثورية للطبقة العاملة المصرية بإعتبارها قلب الثورة المصرية والوطنية المصرية المعادى لمصالح الاستعمار وأمريكا والجناح الرجعى فى ثورة يوليو وأخطر ما فى الأمر أن هذه التصفية قد تمت بعسكرة الجمهورية الأولى وفاشية الإخوان المسلمين.

ومع قيام اضرابات عمال كفر الدوار المطلبية والسلمية فى يوم ١٢ أغسطس سنة ١٩٥٢.. أى بعد قيام ثورة يوليو بعشرين يوماً فقط بادر الحليفان الفاشستى والعسكرى بإجراء تصفية ثورية الطبقة العاملة المصرية وقواها الروحية والمادية بواسطة عسكرة الجمهورية الأولى وعساكرها.

فالفقيه الشيخ سيد قطب رحمه الله عليه وضع خطة تصفية الطبقة العاملة المصرية وطريقة هلاكها وسلمها لحليفة البكباشى عبد المنعم أمين الذى قد أستطاع أن ينتزع من الجمهورية المصرية الأولى ورئيسها اللواء محمد نجيب ومن مجلس قيادة ثورتها حقه فى رئاسة المحكمة العسكرية التى تتولى محاكمة عمال كفر الدوار بسبب إضرابهم المطلبى والسلمى وذلك باعتباره مسئول العمال والنقابات فى الجمهورية الأولى.

أن هذه الموافقة التى أصدرها اللواء محمد نجيب كانت تعنى أن الجمهورية الأولى تمارس حكم العسكرة فقط بل تمارس حكما فاشستيا صارخاً لعلم جميع المسئولين فى هذه الجمهورية أن هذا البكباشى اللعين خصم لدود للعمال المصريين خصم طبقى وخصم سياسى ومع هذا فقد أصبح الخصم قاضياً وحكما بقوة العسكرة التى قد تفشت فى ظل جمهورية اللواء محمد نجيب.

ولقد تجاهل الحليفان أن الثورة وأى ثورة هى عيد للمظلومين والكادحين والفقراء ومن ثم فعلى الطبقة العاملة المصرية وقتئذ بإعتبارها الطبقة المنتجة والأكثر عدداً والأشد فقراً أن تتطلع إلى مستقبل أفضل من خلال المبادرة بمطالبها وحقوقها المهضومة من قبل طبقة رأس المال ولهذا فقد طرحت أمام رأس المال مطالبها التالية.

١ ـ رغبة العمال المصريين الملحة فى تنظيم أنفسهم وتأسيس نقاباتهم مستقلة وبعيدة عن أصحاب الأعمال.

٢ ـ المطالبة بصرف أجور غلاء المعيشة عملاً بالأمر العسكرى رقم ٩٩ لسنة ١٩٥٠ بأثر رجعى هذا الأمر الذى أصدره رئيس الوزراء مصطفى النحاس فى العهد الملكى.

٣ ـ صرف يوم العمل يوف ونصف مقابل ساعات العمل الإضافية وصرف العلاوات الدورية للعمال سنوياً.

٤ ـ صرف وجبة غذائية كاملة لجميع العمال عملاً بالأمر العسكرى الذى أصدره رئيس الوزراء مصطفى النحاس فى عام ١٩٤٤.

٥ ـ المطالبة بوضع كادرات عمالية للإجور حسب ظروف كل صناعة.

٦ ـ وقف موجات الفصل التعسفى للعمال بتوفير حماية قضائية مناسبة إن هذه المطالب العمالية قد طالب بها العمال المصريون لظنهم أن الثورة كما قلت عيد للمظلومين وفضلاً عن هذا فإن مبادئ الثورة التى أعلنت فور نجاحها قد شجعت العمال على عرض مطالبهم وفقاً لمبادئها التى كانت تتجلى فى الآتى:

١ ـ القضاء على الأستعمار وأعوانه.

٢ ـ القضاء على الإقطاع.

٣ ـ القضاء على الإحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم

٤ ـ إقامة عدالة إجتماعية.

٥ ـ إقامة جيش وطنى.

٦ ـ إقامة حياة ديمقراطية سليمة.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت أدبيات ومنشورات حزب الضباط الأحرار تدعو إلى حرية الشعب المصرى فالمنشور الصادر فى ٢٢ مارس ١٩٥٢ يقول:

أيها الضباط أن حريتكم رهينة بحرية الشعب فكافحوا من أجل الحرية فى كل مكان.. وأعلموا أن الخونة من قادة الجيش هم الذين يعتمد عليهم الأستعمار أستديروا لأعداء

الوطن واجبروهم على أحترام حريتنا وكرامتنا ووطنيتنا التى استباحوها حراماً للدفاع عن مصالحهم يسقط الأستعمار.. يسقط التحالف مع الأستعمار.

وفى يوم ٧ إبريل ١٩٥٢ صدر منشور يقول:

إلى رئيس أركان حرب الجيش إننا لسنا دعاة هدم.. ولكننا ما نبغى غير الإصلاح وتأكد أننا أول من يساعدك، تقول ماذا يريدون؟ وهذا ما نطالب به.. أننا نطالب بإبعاد جميع الأذناب المعروفين أمثال محمد حسن وحلمى حسين وغيرهم من التدخل فى شئون الجيش فهم الذين وصلوا به إلى ما هو فيه من إنحلال.. ونطالب بتسليح الجيش ومستشفياته ثم هل فكرت فى إعفاء الجيش فى الأعمال البوليسية التى يقوم بها كأداة إرهاب للشعب حتى يتفرغ لواجبه الرئيسى وهو الدفاع عن الشعب ضد أعداء الوطن.

وفى يوم ٨ إبريل ١٩٥٢ صدر منشور يتهم مرتضى المراغى أبن شيخ الأزهر مصطفى المراغى الذى كان يشغل منصبى وزيراً للداخلية ومنصب وزيراً للحربية بالتستر على اللواء حسين سرى عامر مدير سلاح الحدود وأحد قادة فاشيته الملك فاروق فى قتل الضابط الوطنى عبد القادر طه شقيق النائب اليسارى المعروف أحمد طه ثم تحدث المنشور عن مؤامرة حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ومؤامرة حريق مخزن الذخيرة فى وادى حوف.

وصدر منشور بعنوان الإرهاب يسود الجيش جاء فيه:

منذ أكثر من شهرين تسود مصر موجة من الإرهاب شملت كل شئ فالحرية الشخصية قد أنعدمت والصحافة الحرة قد صودرت والمعتقلات قد فتحت أبوابها على مصارعيها لضم خيرة المناضلين الوطنيين من كل هيئة ولون واستقبلت خمسة آلاف شخص لا جريرة لهم إلا الكفاح من أجل قضية الوادى ولم ينج الجيش من تلك الموجه الطاغية وللوطنيين من رجال الجيش نصيبهم من الجزاء أيضاً وليس هذا الجزاء سوى الحبس.

هذا كلام حزب الجيش حزب الضباط الأحرار خلال الإعداد لثورة يوليو كما عرضها الدكتور راشد البراوى.. وهذا كلام الحزب العسكرى بعد نجاح ثورة يوليو يبدو فى التالى:

وأننا ننشد الإصلاح والتطهير فى الجيش ومرافق البلاد ورفع لواء الدستور.. أن حركتنا قد نجحت لأنها بأسمكم ومن هديكم وما يملأ قلوبنا من إيمان إنما هو مستمد من قلوبكم.

وقالت ثورة يوليو فى أمرها اليومى الأول.. إن حركة الجيش تهدف إلى التطهير فى كل مكان وكل مرفق وتتبع الفساد أينما وجد وأينما حل وفرض الإحترام والدستور وإعادة الحياة الدستورية السليمة وإطلاق الحريات العامة التى طال حبسها عن الشعب حتى يستطيع التعبير عن نفسه والإشتراك بحكم نفسه بنفسه.

كل هذه الأدبيات التى تفوه بل وخطها حزب الضباط الأحرار بشأن حق الشعب المصرى فى الحرية والديمقراطية والحياة الدستورية ومحاربة الإقطاع والأستعمار تحقيق بعضها دون البعض فى ظل الجمهورية المصرية الأولى جمهورية اللواء نجيب التى قد ألغت الملكية وألقابها وأعلنت الجمهورية وضربت الإقطاع المصرى بصدور قانون الإصلاح الزراعى وتوزيع الأرض على فقراء الفلاحين المصريين.

وللأسف فقد صاحب ذلك تغليب العسكرة على المجتمع المدنى حيث أختفت الديمقراطية والحياة الدستورية وبات المجتمع المصرى تسوده الشمولية والعسكرة التى دأبت إلى قتل العمال المصريين بالرصاص والمشنقة بالإضافة إلى سجنهم وإعتقالهم بالجملة والقطاعى.

حدث ذلك فى إضرابات ومحاكمات عمال كفر الدوار وخلال إضرابات عمال شركة الشوربجى للغزل والنسيج بامبابة ولهذا فقد ارتكبت عسكرة جمهورية اللواء محمد نجيب ما عاب عليه حزب الضباط الأحرار بشأن توظيف الجيش المصرى الملكى فى الأعمال البوليسية ضد الشعب المصرى حيث مارس الجيش المصرى الجمهورى وظيفة البوليس خلال إضرابات ومحاكمات عمال كفر الدوار التى تدين عسكرة الجمهورية المصرية الأولى إلى ما شاء الله.. هذه الجمهورية العسكرية التى كانت وللأسف ترفع شعارا مظهرياً يقول.. إرفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الإستبداد.

وعندما بادر عمال كفر الدوار يرفع رءوسهم قد تم قطعها على الملأ.

دماء العمال فى رقبة من..؟

إن الحرية والسلطة ضدان فالحرية عدو للسلطة والسلطة عدو للحرية ولذلك فالحرب بين السلطة والحرية لا تتوقف من خلال الصراع الطبقى محرك التاريخ وصانع المجتمعات.. إلا فى مجتمع ديمقراطى مدنى يسوده الخبز والحرية.

ويظل الصراع الطبقى سجالاً بين السلطة والحرية فمره تهزم السلطة وتنتصر الحرية والعكس بالعكس وفى هذا الصراع تطفح عدوانية السلطة بهدف تثبيت وجودها وإستمرارها ظناً منها أنها نهاية الحياة والزمن بينما الحرية وطلابها لا يعتريهم اليأس والقنوط لثقتهم فى أنفسهم باعتبارهم المستقبل ومن هنا تستفز السلطة ويستبد بها الغيظ فتبتدع الأساليب المهلكة لخنق الحرية ووأدها وكان من أبشع هذه الأساليب أسلوب عسكرة السلطة التى أتبعها ومارسها النبى العبرانى يشوع بن نون خادم موسى هذه العسكرة التى هى الفاشية بعينها هى الوحيدة القادرة على إبادة الحرية وأهل الحرية ولو إلى حين من الدهر لأن الحرية لا تهزم إلا مؤقتا وأهل الحرية لا تبيدهم عسكرة الإبادة وفاشية الأبادة لأنهم يصمدون ويتوالدون بإعتبارهم الحياة وكل الحياة.

وبالتالى فالعسكرة هى العسكرة سواء كانت هى عسكرة الصهيونية القديمة والحديثة أى عسكرة يشوع بن نون وسواء كانت هى عسكرة جنكيز خان والجيوش المغولية أو عسكرة هولاكو والتتار أو عسكرة هتلر وموسيلنى وفرانكو وسالازار وعقداء أمريكا اللاتينية أو عسكرة الجمهورية المصرية الأولى جمهورية اللواء محمد نجيب.

أن سلطة هذه الجمهورية المصرية الوليدة لاشك أنها كانت سلطة وطنية انبثقت من ثورة وطنية هى ثورة ٢٣ يوليو التى أعدها وقادها ونفذها حزب الجيش حزب الضباط الأحرار بزعامة البكباشى جمال عبد الناصر وذلك فضلاً من أن حزب الجيش هذا قد أكد للشعب المصرى فى بياناته وفى منشوراته أن هدفه هو تحقيق الحرية والديمقراطية والعدالة الإجتماعية والأستقلال الوطنى لمصر.

ولكن بعد أن نجح حزب الجيش فى ثورته وحقق سلطته الوطنية فى الحياة المصرية من خلال قيام الجمهورية المصرية الأولى برئاسة اللواء محمد نجيب الذى حافظ على زيها العسكرى ذى اللون الكاكى وجعل العسكرة هى المرجعية لكل سياستها وممارستها فى الحياة المدنية المصرية مما جعلها سلطة عسكرية ترفض الحرية كل الحرية وسلطة مغلقة تأخذ بفكرة السيادة دون فكرة الحرية وهذا ما فرض عليها الصدام الدموى مع عمال كفر الدوار المصريين عن العمل بهدف تحقيق مطالبهم العادلة.

ولقد بدأ ذلك الإضراب العمالى والسلمى فى مصانع شركة مصر للغزل والنسيج الوضع بكفر الدوار فى الحادى عشر من أغسطس عام ١٩٥٢ أى بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بثمانية عشر يوماً وذلك أثناء التقاء الورديتين داخل المصنع حيث أخذ العمال يهتفون بسقوط محمد الجمال مدير المصنع ومعه مدير الشركة ورئيس مكتب العمل وقبل حضور عساكر الجيش بأربع ساعات خرج العشماوى مأمور مركز كفر الدوار من المصنع وأمر بإغلاق بوابته ثم أخرج الطبنجة وأطلق طلقتين ثم جاء العمال وقالوا إن اثنين من زملائهم قد ماتا ثم طلبوا عربة الإسعاف التى لم تحضر مما يثبت أن المأمور قد بادر بقتل عاملين من عمال الشركة الأمر الذى استفز العمال المصريين فبدؤا قذف الطوب كما قالت جريدة المصرى فى يوم ١٩٥٢/٨/١٧ وفى التحقيق ثبت أن جميع مصانع الشركة بلا استثناء وجميع العنابر ومساكن العمال وكل مرافق الشركة لم تصب بسوء.

وفى الساعة الثانية عشر ظهر يوم ١٩٥٢/٨/١٣ قد أتجهت مظاهرتان إلى الشركة من جهتى الشرق والغرب بحالة منفصلة وكانت أحدها تضم عدداً كبيراً من العمال والأهالى حاملين العصى وفروع الأشجار والزجاجات المملوءة بالرمل وذلك بقصد تخليص من قبض عليه من العمال داخل المصنع وقبل أن يجتازوا كوبرى الكيلو خمسة أمر ضابط القوة العسكرية الصاغ محمد ناجى بضرب النار فى المتظاهرين بذريعة أنهم قد اقتربوا من قواته أكثر من اللازم.. كما قال ذلك أمام المحكمة العسكرية مع إن القوة التى كانت أقرب من المتظاهرين لم تطلق النار.. وقد أعلن وقتئذ أن القتلى من العمال قد بلغ عددهم خمسة والجرحى ٢٣ مع أن الحقيقة كانت تؤكد أن عدد القتلى أكثر من ذلك بكثير بدليل أن أحد أفراد القوة العسكرية قد أعترف بأنه أطلق وحده خمسة وعشرين طلقة من بندقيته سريعة الطلقات وقبل إطلاق النار قبض على العامل الشاب مصطفى خميس الذى كان يقود المظاهرة وسلموه لقائد القوة بعد أن تشاجر مع أحد الجنود حدث كل هذا خلال المظاهرة الأولى.. أما المظاهرة الثانية التى كانت تبعد عن الأولى بمسافة كيلو متر فقد ظلت مستمرة مما أدى إلى قتل أثنين من جنود الجيش قيل أن أهالى العمال الذين قتلوا داخل المصنع فى الساعة العاشرة مساء هم الذين أطلقوا النار على جنود الجيش أخذاً بالثأر.

هذه بعض ملامح إضرابات عمال كفر الدوار فى أغسطس ١٩٥٢ التى قد سبقها بأيام إضراب عمال شركة صباغى البيضة بكفر الدوار أيضاً مطالبين بتأسيس نقابة عمالية

تدافع عن مصالحهم.. وفى مدينة شبرا الخيمة وفى أغلب المناطق العمالية والصناعية تظاهر الآلاف من العمال مطالبين بوقف هجوم الرأسمالية على العمال بقصد التخلص من القيادات العمالية والنقابية واليسارية النشيطة وتعيين بدلاً منهم بأجور زهيدة ومطالبين أيضاً بصرف أجور علاوة غلاء المعيشة ومما يذكر أن منازعات العمل والعمال قبل الثورة قد تزايدت بشكل ملحوظ حيث بلغ عددها فى سنة ١٩٥٢ حوالى ٣٩٣٥٨ نزاعاً عمالياً وفقاً للكتاب السنوى الذى يصدره أتحاد الصناعات وقتئذ.

وللحزن الشديد فلم تراع عسكرة جمهورية اللواء محمد نجيب كل هذه الظروف الإجتماعية التى يعيشها العمال المصريون مما جعلها تواجه اضرابات عمال كفر الدوار المطلبية والسلمية مواجهة حربية كأنها تحارب دولة إسرائيل الصهيونية حيث أصدرت بياناً عسكرياً قالت فيه.

ولما كان الوطن الآن فى فترة بناء وإنشاء توجب على كل فرد أن يلتزم الهدوء العام لكى يسود النظام حياتنا بعد الفوضى والفساد وحتى تتاح الفرصة لتنفيذ مشاريع الإصلاح التى تسعى إلى رفاهية جميع أفراد الشعب.. فإن القائد العام.. اللواء محمد نجيب يعلن جميع الطوائف وخاصة العمال أن أى خروج على النظام أى إثارة للفوضى ستعتبر خيانة ضد الوطن.. وجزاء الخيانة معروف للجميع أن النظام يجب أن يسود مهما كان الثمن وقد أعذر من أنذر.

ثم اذاعت القيادة العامة للقوات المسلحة فى المساء البيان التالى.

حاول بعض الخونة من ذوى الأغراض التى ترمى إلى الأخلال بالأمن العام وإثارة العقبات فى سبيل الإصلاح الإجتماعى الذى تنشده الأمة جميعا ويسعى إليه الجيش فقاموا بإثارة الشعب من عمال شركة مصر بكفر الدوار مما أدى إلى قيام حالة تهدد الأرواح والممتلكات فى تلك المنطقة فاضطر الجيش إلى التدخل فوراً وسيطر على زمام الموقف وازاء ما حدث فقد وافق رئيس الوزراء على ماهر باشا على تشكيل مجلس عسكرى عال له كافة السلطات اللازمة لمحاكمة المسئولين فى قضايا الجنايات التى وقعت من عمال هذه الشركة ومديرى هذه الحوادث... لواء أركان حرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة وفى نفس الوقت أصدر مجلس الوزراء المدنى وقتئذ برئاسة على باشا ماهر رئيس الديوان الملكى سابقاً ورئيس الوزاره الملكية عدة مرات البيان التالى.

فى هذا الوقت الذى تنهض فيه الحكومة جادة بالعمل السريع الحاسم لتخليص نواحى المجتمع المصرى من عوامل القلق وأسباب الشكوى إذ بادرت بإصدار التشريعات الدقيقة التى تقوى أداة الحكم وتنقيتها وتنظيمها بحيث تكفل العدالة للمواطنين جميعا وبخاصة العامل والفلاح وفى الوقت الذى تنزل فيه هذه الحكومة عن مظاهر الترفع والأستعلاء فتهدف بما أصدرت من تشريعات إلى جعل الموظف خادماً أميناً وتعمل بالطرق المنتجة لتيسر للفقير سبل المعيشة فى هذا الوقت الذى أطلقت فيه الحكومة الحريات فرفعت الرقابة عن الصحف وأفرجت عن المعتقلين ليعبر المواطنون عن آمالهم وآلالهم بالطريقة المشروعة فى هذا الوقت وبعد أسبوعين فقط من نهوض الحكومة بهذه الأعباء الجامة ودون إنتظار لنتائجها الطيبة المثمرة تقدم فئة تنتسب مع الأسف إلى الطبقة العاملة الكادحة التى أثبتت فى كل الظروف والمواقف صادق وطنيتها وجليل تضحياتها من أجل مصر وعرفت بالبعد عن العنف والميل إلى الكسب الحلال.

فى هذا الوقت الذى تتجه أنظار العالم إلى مصر تتبع حركتها الوطنية الرائعة التى تحت فى هدوء وسلامة وبنجاح منقطع النظير تقوم فيه بإثارة الشعب فى بعض مراكز الصناعة فى البلاد لتحدث إضطراباً.

أن مشاكل العمل والعمال ومستقبل حياتهم وحياة أبنائهم وعائلاتهم وحقهم جميعاً فى حياة كريمة هى فى طليعة ما تعالجه هذه الحكومة من شئون المجتمع وأن ما تهدف إليه من تصنيع البلاد إنما هو لصالح السواد من الشعب المصرى.. لهذه آلت الحكومة على نفسها أن لا تتوانى فى الأخذ بناصية المدبرين والقائمين بهذا الشغب.. وأنه فى سبيل مصلحة كبرى هى أمن البلاد وسلامتها ومصالح العمال أنفسهم لا يمكنها أن تقف مكتوفة أمام فئة عابثة تسئ أبلغ الإساءة إلى مصر وفى سبيل مصر سيؤخذ بالشدة كل عابث.

وقد كلف النائب العام ورجاله بالتحقيق فوراً فى هذه الحوادث التى تعتبر فى هذا الوقت بالذات خيانة وطنية وتشويها لجلال الحركة المباركة التى قام بها جيشها الباسل وأيده فيها الشعب قاطبة وقد وطدت الحكومة العزم على أن تأخذ كل مجرم بجرمه فيقدم إلى محكمة عسكرية شكلت اليوم لهذا الغرض وستنفذ أحكامها فور صدورها دون شفقة ولا رحمة.

هكذا أدانت أيضاً جماعة الأخوان المسلمين إضرابات عمال كفر الدوار المطلبية والسلمية هذه الأدانة التى كانت فى حقيقتها مشاركة فى أهدار دماء عمال كفر الدوار المسالمين والعزل من خلال فتاوى الشيخ والفقيه والكاتب سيد قطب.

وعلى الفور تكالبت عسكرة الجمهورية المصرية الأولى جمهورية اللواء محمد نجيب ومعها فاشية جماعة الأخوان المسلمين على الطبقة العاملة المصرية المنتجة بصدور قرار عسكرى بتشكيل مجلس من المسكر لمحاكمة عمال كفر الدوار المصريين والمدنيين مما يعنى أن هذه العسكرة وتلك الفاشية إعتديا اعتداءً وحشية على العمال المصريين لا مثيل له فى مصر الحديثة مصر الملكية والأحتلال الإنجليزى.. كما أعتديا أيضاً أعتداءً وحشياً على مظاهر المجتمع المدنى مما أدى إلى القضاء عليها قضاءً مبرما.

وبناءً على هذا التكالب للوحش فقد صدر اللواء محمد نجيب قراراً عسكريا بتشكيل المجلس العسكرى الخاص بمحاكمة عمال شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار وذلك بإعتباره رئيساً للجمهورية ورئيساً لمجلس قيادة ثورة يوليو والقائد العام للقوات المسلحة وجاء تشكيل العسكرى على النحو التالى.

- البكباشى عبد المنعم أمين عضو مجلس قيادة الثورة والعدو اللدود للطبقة العاملة المصرية والشعب المصرى والأمريكى التبعية والمقصد رئيساً
- الطيار حسن إبراهيم عضو مجلس قيادة الثورة عضواً.
- البكباشى عبد العظيم شحاتة مساعد البكباشى عبد المنعم أمين وصديقه عضواً.
- والبكباشى احمد وحيد حلمى عضواً.
- والصاغ محمد بدوى الخولى عضواً.
- والبوزباشى فتح الله رفعت عضواً.
- والصاغ خليل حسن خليل نائب أحكام.
- والضابط عبده مراد مرعى عسكرى.

وقد عقد المجلس العسكرى جلسات التحقيقات والمحاكمات فى قلب العمل والإنتاج بشركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار.

والتحقيقات قد تمت مع العمال المتهمين فى مناخ إرهابى يسوده الخوف والفزع والأهوال التى تجعل الولدان شيباً. وإجراءات المحاكمة العسكرية تمت بدون إجراءات قانونية وقضائية وبدون أى ضمانات لحقوق الإنسان وكذلك بدون مراعاة لتحقيقات النائب العام حيث بدأت المحاكمة قبل إنتهاء هذه التحقيقات وبدون أن يقرأ المتهمون قرارات إتهامهم.

ففى يوم ١٤ اغسطس ١٩٥٢ بدأت المحاكمات العسكرية لمتهم واحد فقط هو العامل الشاب مصطفى خميس الذى أتهمته المحكمة العسكرية بأنه فى يوم ١٣ من اغسطس ١٩٥٢ بدائرة كفر الدوار إشتراك مع آخرين مجهولين فى تجمهر قوامه أكثر من خمسة أشخاص بقصد إرتكاب الجرائم عمداً وقد أستعمل المتجمهرون القوة والعنف كان بعضهم يمل سلاحا وآلات أخرى يؤدى إستعمالها إلى الموت المحقق فقتلوا عمداً كلاً من احمد مبروك خلف واحمد محمد نصر الدين وذلك بأن أطلقوا عليهم مقذوفات نارية ثم قاموا وهاجموا قوات الجيش التى كلفت بالمحافظة على سلامة المصنع وقد بدأت المحاكمة العسكرية بسؤال وجهه رئيس المجلس العسكرى إلى العامل مصطفى خميس قائلاً.. هل وكلت عنك أحد من المحامين للدفاع عنك.. فاندهش العامل خميس الذى لم يقرأ قرار إتهامه ولم تعط له أى فرصة للإتصال بأحد قائلاً لا لا لا.

وهنا تبدأ مهزلة المحاكمة العسكرية بوقوف الصحفى موسى صبرى مراسل جريدة أخبار اليوم وأعلن قيامه للدفاع عن المتهم العامل مصطفى خميس ثم وجه الشكر لاتجاه المجلس هذا الذى إبتدعه رئيس المحاكمة.. أنه شكر عجيب.. ووقف الصاغ عبده مراد المدعى العسكرى وإستهل مرافعته بالآية الكريمة إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك خزى فى الدنيا ولهم فى الأخرة عذاب عظيم.

ثم واصل مرافعته التى لم تتقدم دليلاً حقيقيا ومنطقيا لإدانة العامل مصطفى خميس.. حيث كانت شهادة الشهود معيبة ومتناقضة بحيث لا يركن إليها اليقين.

ثم تأتى الساعة الرهيبة ساعة النطق بالحكم الوحشى الصادر من المجلس العسكرى المنعقد فى مقر شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار.. والغريب أن هذه الساعة الرهيبة قد أقتطعت من جلسة يوم الثلاثاء ١٦ من أغسطس عام ١٩٥٢ لمحاكمة بقية المتهمين.

وفى أثناء هذه الجلسة أعلن البكباشى السيد عبد المنعم أمين رئيس المجلس العسكرى قبل الساعة الحادية عشر رفع الجلسة لمدة نصف ساعة معلناً أنه سوف يعلن الحكم فى قضية المتهم الأول العامل مصطفى خميس فى ساحة ملعب الشركة وفى جو من الرهبة المخيفة عاش العمال المتهمون وحولهم عساكر حراستهم حيث خرج الحاضرون بالمحكمة إلى شرفة نادى الشركة المظلة على ملعب كرة القدم وبعيداً بعض الشئ عن الملعب حشدت عسكرة اللواء محمد نجيب الآلاف من عمال شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار ومن عمال شركة البيضا وعمال شركة الحرير الصناعى لمشاهدة النطق بالحكم لكى يتعظوا ولكى يصبح الخوف من السلطة والسلطان ملازماً لحياتهم حتى الموت وأمام هذه الحشود العمالية وقف العامل المتهم مصطفى خميس تحيط به عسكر الحراسة.

وفى الساعة الحادية عشر والربع إصطفت هيئة المجلس العسكرى العمالة فى شرفة النادى ووقف على جانبيها البكباشى عاطف نصار مندوب مجلس الثورة والأميرلاى حامد صالح قائدا لمنطقة الشمالية واللواء مصطفى المتولى مدير النجدة ومفتش وزارة الداخلية والأميرلاى على القناوى حكمدار البحيرة والاميرلاى امين مرسى قائد ثوات بلوك النظام وعبد العزيز الحباك مأمور كفر الدوار الجديد وجمع من الصحفيين الذين قد حضروا المحاكمة.

وفى ظل تلك الرهبة تقدم الصاغ صلاح الدفراوى من القيادة العاملة لتلاوة الحكم وكان قد حمله مصدقاً عليه من اللواء أركان حرب محمد نجيب فى الساعة الثالثة من صباح يوم ١٨ أغسطس سنة ١٩٥٢.

وأمام الميكرفون بدأ صوت الصاغ صلاح الدفراوى يعلو وعندما قال أن المجلس يحكم على المتهم مصطفى خميس بالإعدام شنقاً إزداد السكوت المخيم على المكان عميقاً على حد وصف مراسل جريدة الأهرام الذى يقول:

أن المتهم مصطفى خميس ظل صامداً رابط الجأش طول الوقت ولم ترتعش عضلا من عضلات وجهه، فتحية لذلك العامل المصرى الشهيد.

ثم تلا نفس الصاغ إجراءات المجلس العسكرى فقال:

أن إجراءات المجلس العسكرى العالى المنعقد فى جهة كفر الدوار فى يوم ١٤ أغسطس ١٩٥٢ بناء على أمر حضرة القائمقام حسن حمدى رئيس إدارة الجيش الصادرة فى اليوم

الثالث عشر من أغسطس ١٩٥٢ هيئة المجلس العسكرى المشار إليهم سابقاً.

ويقول مندوب القيادة العامة.. وبعد تلاوة قرار الإتهام أعترف المتهم بأنه غير مذنب فى الإدعاء المقام عليه.

قرار المجلس العسكرى.. أستقر رأى المجلس على أن المحبوس المدعو مصطفى خميس أحد عمال شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار مذنب فى الإدعاء المقام عليه.. توقيع فى جهة كفر الدوار فى اليوم الحادى عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٥٢.. إمضاء الرئيس إمضاء الأعضاء

الحكـم

المجلس يحكم على المحبوس المدعو مصطفى خميس أحد عمال شركة كفر الدوار للغزل والنسيج الرفيع بمركز كفرالدوار.. إعدامه شنقاً.

امضاء الرئيس ونائب الأحكام

التصديق

أصدق على قرار المجلس وحكمه فى اليوم السابع عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٥٢ لواء أركان حرب قائد عام القوات المسلحة.. محمد نجيب..

ثم وقف البكباشى عاطف نصار مندوب الثورة فألقى الكلمة التالية:

لقد أنذر القائد العام وهو جاد فى إنذاره قادر على التنفيذ لقد أنذر فإن كل من تحدثه نفسه بإحداث الشغب أو وقوف فى سبيل الإصلاح وحركته المباركة سيأخذ بأقصى العقوبة فى غير ما شفقة ولا رحمة. وقد خضع بعض ذوى النفوس اللئيمة الضعيفة التى خلت من الإيمان بالله والوطن خضعت لتحريض المحرض فاستولى عليها جنود الشيطان المتمردين أعداء الشعب وهم أعداء الحق وأنصار الفساد فلابد أن ينالوا جزاءهم فقد سن لنا الرسول صلوات الله عليه ذلك وهو فى عهد نهضة ونشر دعوته فإن وجد من المشاغبين الذين يخشى منهم على الإصلاح فأمر بقتلهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة بعد أن تم له الفتح المبين. وهو فتح مكة. وها نحن قد تم لنا بفضل الله وتأييد الشعب الفتح المبين للإصلاح والهدم لرأس الطغيان فلنسر بسيرة رسول الله فإنه القائل.. المؤمن القوى خير وأحب عند الله من

المؤمن الضعيف.. فالقوات المسلحة وقد قامت بهذه الحركة المباركة باسم الشعب ولخير الشعب وقد وهبت أرواحها ودمائها لتطهيره وحياته ستبقى دائما ساهرة للبطش بكل من تحدثه نفسه بالخيانة أو الغدر بالوطن وأهله لذا لا نستطيع أن نرى الفساد ولا تنكل بأصحابه فتنزل بهم أقصى العقوبة.

فهذا المجرم.. أى العامل الشاب مصطفى خميس.. قد تسبب بتدبيره فى قتل ثلاثة من جنود الشعب فهو غادر ليس منا خائن لنهضتنا كافر بنعمة الله علينا فاستحق بذلك أن يبتر من الشعب لحيا الشعب قال الله تعالى.. إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسدادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة معذاب عظيم.

هكذا كانت مراسم اعدام الطبقة العاملة المصرية ماديا من خلال صدور الحكم بإعدام العامل الشاب مصطفى خميس ومن خلال إعدام الطبقة العاملة المصرية روحيا من خلال ارهابها ارهابا فظيعا لم يحدث لا من قبل بواسطة تحالف فاشية جماعة الإخوان المسلمين وعسكرة جمهورية اللواء محمد نجيب اللتين كانتا تبقيان من ذلك ارهاب الشعب المصرى كله وتخويفه حتى يلتزم السكوت الجبان مما يثبت أن السلطة والحرية ضدان.

وفور الانتهاء من الفصل الأول فى هذه المأساة والمهزلة التى لم يعرفها تاريخ مصر الحديث بدأ الفصل الثانى بمحاكمة ثانية للعامل الشاب مصطفى خميس ومعه ستة وعشرين متهما من عمال شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار أمام نفس المجلس العسكرى العالى برياسة البكباشى الدموى عبدالمنعم أمين وكانت الجلسة الأولى فى هذه المحاكمة الثانية يوم ١٦ من أغسطس ١٩٥٢ فى قائمة النادى الرياضى بمصانع شركة الغزل والنسيج الرفيع بكفرالدوار حيث أقيم حاجز خشبى على الجانب الأيمن من القائمة حيث وقف المتهمون العمال الآتى أسماؤهم:

١ ـ مصطفى خميس

٢ ـ محمد حسن البقرى

٣ ـ عبدالمقصود عبدالجواد عقبة

٤ ـ محمد أبواليزيد شبل

٥ ـ أحمد عبدالمقصود شبل

٦ ـ يوسف المغازى

٧ ـ عبدالسميع رفعت

٨ ـ محمد مصطفى عيد

٩ ـ عطية أبوالعينين

١٠ ـ عبدالسميع رفعت

١١ ـ هاشم عبدالغنى درة

١٢ ـ فؤاد عبدالرحمن

١٣ ـ أحمد حامد الدسوقى

١٤ ـ السيد أحمد عيسى

١٥ ـ أحمد محمد صالح

١٦ ـ أحمد مساعد الحمزاوى

١٧ ـ حلمى مفهمى أبوالنجا

١٨ ـ صلاح الدين محمد عبدالله

١٩ ـ يوسف حسن أحمد

٢٠ ـ صلاح طاهر منصور

٢١ ـ عطية محمد مسلم

٢٢ ـ عبدالوهاب عبدالرحمن مصطفى

٢٣ ـ عبدالمنعم السرجانى

٢٤ ـ محمد إبراهيم على

٢٥ ـ حسن الدسوقى إسماعيل

٢٦ ـ عبدالفتاح مصطفى

٢٧ ـ عثمان سيد أحمد زغلول

٢٨ ـ رمضان محمد أبوبكر

ولقد قدم هؤلاء العمال المتهمون بناء على قرار اتهام نشرته جريدة الأهرام فى يوم ١٦ من اغسطس ١٩٥٢ جاء فيه:

إن المتهمين الذين وردت أسماؤهم اشتركوا مع آخرين مجهولين ليلة ١٣ من اغسطس ١٩٥٢ فى تجمهرمؤلف من أكثر من خمسة أشخاص الغرض منه ارتكاب الجرائم مع العلم بهذا الغرض وقد استعمل المتجمهرون القوة والعنف وكان بعضهم يحمل أسلحة وذلك بأن اتفقوا فيما بينهم وتجمعوا مع عدد من الجمهور فى فناء مصنع شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع حاملين أسلحة نارية وبيضاء وقطعا من الحديد وفروع الأشجار واقتحموا مبانيه عفوة وارتكبوا فيه الجرائم الآتية:

أولاً: قتلوا عمدا مع سبق الإصرار عسكرى البوليس سيد حسن الجمل بأن ضربوه بآلات حادة قاصدين من ذلك قتله.

ثانياً: وضعوا النار عمدا فى محل مسكون هو مبنى شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفرالدوار.

ثالثاً: بطريق الإكراه نهبوا وأتلفوا بالقوة الإجبارية أمتعة المصنع المذكور المبينة بالمحضر.. وذلك بأن حطموا كثيرا من أبوابه ونوافذه وهشموا بعض منقولاته وسياراته الموجودة به وأشعلوا النار ونهبوا البعض الآخر.

رابعاً: سرقوا بطريق الإكراه خمسة بنادق أميرية عهدة عساكر البوليس وبعض متعلقاتهم وقد ترك الإكراه أثر جروح بهم.

خامساً: قاوموا بالقوة والعنف بعض رجال الضبط واعتدوا عليهم بالضرب أثناء تأدية وظيفتهم وبسبب ذلك ان اعترضوا سبيل رجال البوليس.

وقد تضمن قرار الاتهام أسماء ستة وعشرين شاهدا من شهود الاثبات الذين أدلوا بشهادتهم أمام النيابة.

وفى الساعة التاسعة من صباح يوم ١٦ أغسطس ١٩٥٢ انعقد المجلس العسكرى حيث حضر مع المتهمين بعض المحامين بتصدرهم الاستاذ محمد الفولى المحامى العمالى.. وقد لوحظ أن بعض المتهمين من العمال لم يوكلوا عنهم محامون للدفاع عنهم.

ووجه رئيس المجلس العسكرى كلامه إلى المتهمين قائلاً:

سمعتم الإدعاءات المنسوبة إليكم فمن كان منكم غير مذنب فليقف فوقف جمع المتهمين.

فقال رئيس المجلس:

إذا أنتم جميعاً غير مذنبين.

فقالوا: نعم.

ووقف الأستاذ محمد الفولى المحامى طالباً تأجيل نظر القضية للإطلاع وإعداد شهود النفى حتى تأخذ العدالة مجراها الطبيعى.

ولكن رئيس المجلس العسكرى قرر التأجيل لمدة ساعة واحدة فقط.

هكذا يحكم العسكر وتمارس العسكرة

فقال الأستاذ الفولى المحامى.. أن هناك مراجع يجب أن نطلع عليها فرد رئيس المجلس قائلاً.. أن مصلحة الوطن لا تحتمل التأجيل وكان يجب أن تأتى بالمراجع القانونية اللازمة.

وواصل المجلس العسكرى المحاكمة فسمع الشهود بطريقة عبثية.ثم بدأ الصناغ عبده مراد المدعى العسكرى مرافعته ضد العمال التى أستهلها بقوله وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون إلا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ثم قال المدعى العسكرى.. إننى أرى رءوساً أينعت وحاق قطفها وأنى لصاحيها بالعدل والحق الذى أقسمتم أن تحاكموا المتهمين به.

وعلق الأستاذ أنور نصيف المحامى قائلاً:

أن قول المدعى العسكرى بأنه رأى رءوساً أينعت قول فيه قسوة وفيه شدة فإن رءوس هؤلاء المتهمين هى ملك لله وحده.

كما علق الأستاذ محمد الفولى المحامى بقوله:

أن عبارة الحجاج التى أقتبسها المدعى العسكرى مرافعته قد ذكرتنا بظلم الحجاج الذى كان عهده عهد عسف وجور وكان يزج فى السجون بالأبرياء وأن الأتهام العسكرى يريد أن يقدم المتهمين جميعاً لا دليل على ادانتهم وأن أكبر شاهدا ثبات هو محمود تهامة قد ثبت

تناقض أقواله.. وقال عن واقعة التجمهر من الناحية القانونية يكون تجمهرا فى مكان عام والمصنع ليس مكاناً عاماً.

وفى ختام الجلسة الأخيرة طلب المدعى العسكرى الصاغ عبده مراد بإعدام جميع المتهمين.

ثم صدرت أحكام المحكمة العسكرية برئاسة البكباشى عبد المنعم امين.. وصدق عليها اللواء محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة والقائد العام للقوات المسلحة.. وهذه هى الأحكام.

الإعدام شنقاً للعامل المتهم محمد حسن البقرى.

والأشغال الشاقة لباقى المتهمين من عمال شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار.

يقول الكاتب العمالى عبد المنعم الغزالى:

أن هؤلاء العمال الذين قد صدرت ضدهم هذه الأحكام الوحشية قد وصفهم اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة فى خطبته بسلاح الاشارة فى يوم ١٤ من اغسطس ١٩٥٢ خلال محاكمات كفر الدوار.. بأنهم جماعة من الرأسماليين الذين قد ذعروا من العدل الذى سيقيمه.. إنهم أناس من دأبهم أن يأكلوا ويشربوا ويتخموا جيوبهم فلما عرفوا أن حركتنا تهدف إلى العدالة الإجتماعية أصابهم الذعر على مستقبلهم.

ويرد عليه الكاتب الكبير فكرى أباظة فى جريدة المصور يوم ١٢ من أغسطس ١٩٥٢ بشأن فشل إداريى التحقيق فى معرفة الفاعلين الأصليين فى أحداث عمال كفر الدوار فيقول.

غير أننا نلاحظ ظاهرة عجيبة فى التحقيقات الكبرى وتلك الظاهرة هى عجز أداة التحقيق عن أن تصل إلى ما هو أخطر من الفعل الأصلى والفاعل الأصلى.. وهو التحريض أو المحرضون.

حقاً أنها ظاهرة عجيبة على حد وصف الكاتب الكبير فكرى أباظة بالإضافة إلى هذه المحاكمات وتحقيقاتها هى أبشع المحاكمات وأكثرها ! ستفزازاً فى حياة مصر الحديثة لأنها تتضمن المأساة والمهزلة فى قسوتها من ناحية وفى السخرية منها على حد رأى الأستاذ محمد

الفـولى محامى عـمال كفر الدوار الذى وصف موضوعها فى المحاكمة بأنه مجـرد لعب عيال مما يعنى أن الصراع بين السلطة والحرية صراع تستبد به الجنون والسعار الحقونى المهووس.

ولقد كانت محـاكمات عـمال الدوار مظهراً كئيباً من مظاهر ذلك الصراع الذى باشره الضباط الرجعيون فى جمهورية اللواء محـمد نجيب التى تمثلت فيها سلطة ثورة يوليو الوليدة وكان على رأس هؤلاء الضبـاط الضابط عبد المنعم أمين الذى وصفه الصاغ صلاح نصر رئيس المخابرات فى مذكراته التى جاء فيها..

أما القائمقام عبد المنعم أمين رشحه بعض ضباط المدفعية على أساس أن رتبته كبيرة، ولكنه مع ذلك محل سخط كثير من الضبـاط الأحـرار وكان الكثيـر منهم يرى أنه أحق بعضوية المجلس.. أى مجلس الثورة.

وكان عبد المنعم أمين يمثل الرأسمالية داخل المجلس وكان يدين بالولاء للولايات المتحدة ويرى أفضل السبل لنجاح الثورة هو تعاونها المطلق مع واشنطن.. وكيف لا يتخذ عبد المنعم أمـــين هذا السبيل وظروفه الإجتماعية تحتم عليه ذلك فهو بور جوازى كبير يتملك هو وزوجته السيدة محاسن سعودى عزبة فى المرج أغلبها حدائق وبها فيلا أنيقة كانت تجمع عبد الناصر وبعض أعضاء مجلس الثورة فى سهرة أسبوعية كل ليلة جمعة وكانت حرمه سيدة أعمال من الطراز الأول وعلى علاقة بالسفارة الأمريكية وكان بيتها تحفة نادرة وأذكر فى أوائل الثورة أن قامت السيدة محاسن بدعوة أغلب أعضاء مجلس الثورة إلى دارها حيث التقوا بكافرى السفير الأمريكى وكانت بحكم أتصالها بالسفارة الأمريكية وموقع زوجها فى الثورة تستطيع أن تيسر عن طريق اتصالها بالوزراء المصريين وممثلى الشركات الأجنبية فى مصر.

كان الضباط الأحـرار يعرفـون هذه الأمور وقد أثار بعضهم هذا الأمـر فى الأجتماع الأسبوعى الذى كان يعقده عبد الناصر لضباط الصف الثانى للثورة.. وكان عبد المنعم أمين لا يخفى وجهه نظره بضرورة قيام نفوذ لأصحاب رءوس الأموال المصريين وتشجيع رأس المال الأجنبى على دخول البلاد ولقد ظهر اتجاهه هذا فى محاكمات كفر الدوار فقد كان عبد المنعم أمين رئيس المحكمة التى حكمت بالأعدام على مصطفى خميس ومحمد البقرى

وأثار الصف الثانى للثورة هذه المسألة فى أجتماعهم الاسبوعى وذكروا لعبدالناصر أن عبدالمنعم امين يحمى المصالح الرأسمالية وأن الحكم الذى أصدره حكم جامد لأن العمال لم يقوموا إلا بالأضراب أما التخريب فكان من صنع الرأسمالية التى كانت تخشى على نفسها فأرادت أن تظهر العمال أنهم معارضون للثورة.

ووصل الأمر إلى أن اتهم الصاغ عبد الحليم عبد المتعال من الضباط الأحرار عبد المنعم امين فى اجتماعنا الأسبوعى بأنه تقاضى رشوة من الرجعية للحيلولة دون تنفيذ مشروع قانون التحكيم فى منازعات العمال الذى كان على وشك الصدور بدلا من القانون رقم ١٠٥ لسنة ١٩٤٨ الذى يمنع صاحب العمل حق الفصل التعسفى ويحرم العمال من حق الإضراب فما كان من عبدالناصر إلا أن جمع ضباط الصف الثانى للثورة فى مبنى القيادة بكوبرى القبة كما استدعى عبدالمنعم امين ولما بدأ الاجتماع وجه عبدالناصر الحديث إلى الصاغ عبدالحليم عبدالعال وقال له قل ما لديك من معلومات عن عبدالمنعم امين.. وتحدث عبدالحليم عبدالعال فى مواجهة عبدالمنعم امين وقال إن حافظ عفيفى باشا رئيس الديوان الملكى وأحد كبار مساهمى شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفرالدوار وراء هذا التخريب وأنه سمع أن عبدالمنعم امين قد قبل الرشوة من الرأسماليين لوقف مشروع التحكيم سالف الذكر.

ويقول صلاح نصر:

بالطبع لم يكن من المستطاع إثبات مثل هذه التهمة وكل ما استطاع أن يفعله جمال عبدالناصر هو اقرار قانون جديد هو القانون رقم ٣١٩ لسنة ١٩٥٢ بشأن نقابات العمال الذى قرر منع الفصل التعسفى بسبب النشاط النقابى.

ومهما كان الأمر فقد كان عبدالمنعم امين يمثل تيار الرأسمالية المتطرفة وانتهى الأمر بفصله من المجلس وتخلص من هذا السياق الرهيب والاستفزازى للبشر والحجر أن السلطة والحرية ضدان.. وأن سلطة الجمهورية المصرية الأولى جمهورية اللواء محمد نجيب كانت عسكرة ومشنقة وأن دماء العامل مصطفى خميس والعامل محمد البقرى وغيرها من عمال كفرالدوار فى رقبة عسكرة اللواء محمد نجيب وفاشية الإخوان المسلمين والسفارة الأمريكية والرأسمالية والبوليس السياسى المصرى.

ولقد أثرت هذه المسألة الهامة مع اللواء محمد نجيب خلال مرضه بمستشفى المعادى العكرى فاستفز وانتفض واقفا وقال فى غضب خميس خميس خميس وبعد أن هدأ من غضبه قال لى بالحرف.. إن الذى حرضنى على شنق العاملين خميس والبقرى هو عبدالناصر بحجة أنهما شيوعيان وأن المحلة الكبرى وشبرا الخيمة كلها شيوعيين سوف يقضون على الثورة.

ويبدو أن اللواء محمد نجيب يحاول التخلص من هذه التهمة البشعة بالقائها على جمال عبدالناصر مما يعنى أن جريمته البشعة راحت تطارده فى شيخوخته الملقاه فى الظل الكئيب وتلك الأيام تداولها بين الناس.

فاشية الإخوان رصاصة وبندقية

فى عامى ١٩٥٠ و١٩٥١ حيث نجح حزب الوفد بزعامة الرئيس الجليل مصطفى النحاس فى الانتخابات البرلمانية الديمقراطية والخالية من شوائب التزوير السلطوى هذه الانتخابات التى أجراها رئيس الوزراء الملكى حسين سرى باشراف وزير الداخلية وزوج ابنته الدكتور محمد هاشم بقصد تخفيف أزمة السلطة الملكية وتلطيف السخط الشعبى ضد الملك فاروق وعسكرته وفاشيته الملكية اللتين مارستا الاغتيالات السايسية حيث قتلت الوزير الوفدى أمين عثمان والمستشار الخازندار والشيخ حسن البنا المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين والضابط الوطنى عبدالقادر طه بالإضافة إلى محاولة قتل الزعيم مصطفى النحاس أكثر من مرة.

ولقد كان هذين العامين من أعوام الديمقراطية المصرية التى قد شهدتها سنوات ثورة ١٩١٩ حيث الحريات العامة ومظاهر المجتمع المدنى بسودان الحياة المصرزية من خلال تأسيس النقابات العمالية وانتشار المظاهرات السايسية والمطلبية والصحافة والصحف الحرة وتحقيق شيئا من العدل الاجتماعى بالإضافة إلى الكفاح المسلح ضد الاحتلال الانجليزى.

ذلك هو المناخ الديمقراطى والمدنى فى عهد حكومة حزب الوفد الأخيرة برياسة الزعيم مصطفى النحاس فى عامى ١٩٥٠ و١٩٥١ إن هذا المناخ لم يشهد أى نشاط للفاشية الملكية

وعصاباتها المدنية والعسكرية، كما لم يشهد أى نشاط لفاشية جماعة الإخوان المسلمين مما يوحى بأن المجتمع الديمقراطى المدنى يحول دون ظهور أى نشاط للعسكرة والفاشية لأن مؤسسات المجتمع المدنى قادرة على خنق العسكرة والفاشية قبل أن تتحول كل منهما إلى ظاهرة ولذلك فقد طفحت فاشية الإخوان المسلمين فى اللحظة التى طفحت فيه عسكرة الملك فاروق وعسكرة الاحتلال الإنجليزى خلال تآمرهما على حرق مدينة القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٥٢ ولقد ترتب على حريق القاهرة فتح السجون والمعتقلات للقوة الوطنية باستثناء أعضاء جماعة الإخوان المسلمين الذين قد رحبوا برئيس الوزراء الملكى الجديد على باشا ماهر الذى شكل الوزارة بعد سقوط وزارة حزب الوفد فدبر حريق القاهرة.

ولا أغالى إن قلت إن فاشية الإخوان المسلمين قد باركت حريق القاهرة تقربا من الإنجليز والأمريكيين والملك فاروق قاتل مرشدهم العام الشيخ حسن البنا فالفاشية وأى فاشية عندها الغاية تبرر الوسيلة وفقا لما قاله فيلسوف الخداع السلطوى ومستشار الحكام المستبدين ميكافيللى.

فالفاشية الإخوانية قد شهدت أن عامى ١٩٥٠ و١٩٥١ كانا فترة نهوض الوطنية المصرية المطالبة بالاستقلال ورفض أحلاف انجلترا وأمريكا وكانا أيضا فترة نهوض ملحوظ لليسار الشيوعى الوفدى المطالب بالعدل الاجتماعى بالإضافة إلى نهوض الحركة العمالية والنقابية ذات الطبيعة اليسارية والثورية مما أفزع الملك فاروق وفاشيته والاحتلال الإنجليزى وعسكرته فى مدن القناة وأمريكا وأحلافها فى المنطقة.

ولقد اشتعلت فاشية الإخوان هذا الفزع الصارخ واعتبرت نفسها قسيما وشريكا فى مقاومة ذلك الفزع باعتباره فزع شعبى ووطنى وشيوعى يؤيد رأيى هذا ما خطه بقلمه الأستاذ محمود عبدالحليم مؤرخ جماعة الإخوان المسلمين وجاء فيه:

ومن المعروف أن الولايات المتحدة الامريكية التى تولت زمام العالم الغربى بعد الحرب العالمية الثانية قد رصدت آلاف الملايين من الدولارات لمقاومة الشيوعية فى أوروبا وفى أنحاء العالم واتضح بذلك أن الشيوعية قد صارت منذ وضعت الحرب أوزارها أعدى أعداء أمريكا وإنجلترا والعالم الغربى كله وتمشياً مع هذه الحقيقية كان يجب أن تبارك هذه الدول

جهود الأخوان المسلمين التى قضت على أمال الشيوعيين فى أن يجدوا لهم موطىء قدم فى مصر.

مما يعنى أن فاشية الإخوان فى خدمة الأستعمار وفى سياق ذلك النهج الإخوانى والفاشستى أرتبطت فاشية الؤخوان بوزارة على ماهر الملكية ثم بوزارة نجيب الهلالى الملكية حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فغيرت ولاءها لسلطة ثورة يوليو على أساس مناهضة الشيوعية فى مصر مما أدى إلى تعيين الكاتب والفقيه الإخوانى سيد قطب مستشاراً للبكباشى عبد المنعم أمين عضو مجلس ثورة يوليو والأمريكى الولاء والتبعية والمسئول عن الحركة العمالية والنقابية ووزارة الشئون الإجتماعية المشرفة على النقابات العمالية وعلاقات العمل والعمال ومن خلال المنصب السلطوى الذى شغله الفقية الإخوانى سيد قطب أوقف تطوير الحركة النقابية والعمالية ومنع قيام تأسيس الإتحاد العام لنقابات عمال مصر بذريعة ضرورة تطهير النقابات العمالية من الشيوعية والشيوعيين.

ولما كانت الشيوعية هدفاً مشتركاً لأمريكا وإنجلترا وجماعة الإخوان المسلمين هدفاً ينبغى تدميره فى الحياة المصرية وخاصة بعد أن أحيط هذا التحالف علماً بوجود عدداً من الضباط الشيوعيين فى مجلس قيادة ثورة يوليو وفى عضويتها وأعضائها من الضباط الأحرار كان لابد من التصدى الحاسم والعاتى للشيوعية المصرية المنتشرة فى الحركة العمالية والنقابية حيث كان مجمل مجالس ادارات النقابات العمالية فى مصر ينتسبون إلى التنظيمات الشيوعية المصرية.

ولكن لن يقوم بهذا التصدى التخريبى للحركة العمالية والنقابية الثورية والديمقراطية إلا جماعة الأخوان المسلمين وبعض الضباط الرأسماليين والرجعيين فى ثورة يوليو.. وقد تم ذلك التصدى الفاشستى بإعلان الحرب على الحركة العمالية والنقابية وتدبير مذبحة عمال كفر الدوار وإعدام العاملين خميس والبقرى.

كما ظهر ذلك التصدى الفاشستى خلال تطبيق قانون العفو الشامل رقم ٢٤١ لسنة ١٩٥٢ وذلك عن الجنايات التى ارتكبت بسبب أو لغرض سياسى وتكون متعلقة بالشئون الداخلية للبلاد فى المدة ما بين ٢٦ من أغسطس ١٩٣٦ إلى ٢٣ يوليو ١٩٥٢.. حيث طبق على المسجونين من أعضاء جماعة الأخوان المسلمين ومن السياسيين دون اليساريين والشيوعيين

بذريعة أن جريمة الشيوعية جريمة إجتماعية وقد استمر التصدى لليساريين حتى فى مجلس قيادة ثورة يوليو حيث أبعد الضابط البطل القائمقام يوسف صديق من مجلس الثورة وتم نفيه خارج مصر وحُوصر الصاغ الأحمر خالد محيى الدين ولم يحصل على أى منصب سلطوى وفى نفس الوقت تزايدت علاقات فاشية الأخوان المسلمين بثورة يوليور من خلال عبد الرحمن السندى قائد الفاشية المسلحة لجماعة الأخوان المسلمين حيث كان يرأس الجهاز السرى المسلح لجماعة الأخوان ومن خلال الأستاذ صالح عشماوى القطب الأخوانى والشيخ سيد سابق وعبد العزيز كامل والمرشد العام الأستاذ حسن الهضيبى حيث كانت الإجتماعات ومآدب العشاء متبادلة بين هؤلاء السادة وبين البكباشى جمال عبد الناصر والضباط القادة صلاح سالم وكمال الدين حسين والبغدادى بالإضافة إلى زيارة قبر الشيخ حسن البنا مرتين الأولى بادر بها اللواء محمد نجيب والثانية قام بها البكباشى جمال عبدالناصر.

وتأكيداً لتلك العلاقة فقد أسرعت ثورة يوليو فى القبض على قتلة الشيخ حسن البنا وعذبتهم بالسجن الحربى حتى اعترفوا وهم الأميرلاى محمود عبد المجيد حكمدار سوهاج ومعه عدد من المخبرين. (ولذلك فقد أحس كل أخ من الأخوان المسلمين أن هذه الثورة ثورته لأنها كانت الخطوة المتوقعة التى لابد من حدوثها بعد أن وصل الأخوان بالشعب إلى هذه الدرجة من الوعى).. وذلك على حد قول المؤرخ الإخوانى محمود عبد الحليم.

ونظراً لتعاظم العلاقة بين فاشية الأخوان وسلطة يوليو فقد تم إسقاط أول وآخر وزارة مدنية لثورة يوليو التى كان يرأسها على ماهر حيث حل محلها وزارة عسكرية برياسة اللواء محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة ورئيس مجلس قيادة الثورة وأشترك فيها عضوين من جماعة الأخوان المسلمين هما الشيخ محمد حسن الباقورى وزيراً للأوقاف والمستشار أحمد حسنى نائب رئيس محكمة النقض وكانت جماعة الأخوان المسلمين تطالب أيضاً أختيار كمال اديب محافظ الأسكندرية وعضو الجماعة وزيراً فى هذه الوزارة العسكرية.

وقد بادرت هذه الوزارة العسكرية بإسقاط دستور سنة ١٩٢٣ فى يوم ١٠ ديسمبر ١٩٥٢ بناء على إلحاح جماعة الأخوان المسلمين رغم أن ذلك الدستور كان من أبرز أهداف قيام ثورة يوليو ثم أصدرت قراراً بجعل بحل الأحزاب المصرية ومصادره ممتلكاتها بإستثناء حزب

جماعة الأخوان المسلمين الحليف الرئيسى لسلطة يوليو وخلال التخالف مع فاشية لأخوان المسلمين أصدر مجلس قيادة الثورة فى ١٨ يناير ١٩٥٣ قراراً يقضى بأن قرارات رئيس حركة الجيش اللواء محمد نجيب تعتبر من أعمال السيادة المطلقة وذلك أخذاً بفكرة السيادة دون فكرة الحرية.. وفى يوم ١٠ من فبراير ١٩٥٣ صدر قارار آخر بإعلان الدستور المؤقت الذى يقضى بنقل السيادة المطلقة إلى قائد الثورة.. اللواء محمد نجيب الذى أصبح من حقه وحده تعيين الوزارزة وعزلها.

وكان من المبادرات الاستبدادية لوزارة محمد نجيب العسكرية اعتقال المئات من المعارضين واليساريين دون أعضاء جماعة الأخوان المسلمين بذريعة تهدئة الأحوال فى مصر بعد أحداث عمال كفر الدوار.

وبالتالى فقد خلا الجو المصرى للإخوان المسلمين فالوفديون وجماهيرهم وزعيمهم مصطفى النحاس قد اختفوا من الحياة المصرية بإعتبارهم العدو الشعبى الأكبر لهم والشيوعيون واليساريون والديقمراطية قد استضافتهم السجون والمعتقلات ولم يعد غير فاشية الأخوان وحزب الأخوان والسلطة التى ينبغى أن يتربع على عرشها جماعة الأخوان المسلمين بقوة عسكرتهم وفاشيتهم المسلحة ومن هنا أرادو أن يفرضوا وزراء بعينهم ليشغلوا المناصب الوزارية التى قد شغلها الشيخ محمد حسن الباقورى والمستشار أحمد حسنى.

وعندئذ نشب الخلاف ثم الصراع بين فاشية الأخوان وعسكرة جمهورية اللواء محمد نجيب بسبب عدم الأتفاق على اسماء وزاراء جماعة الاخوان المسلمين.

وخلال ذلك فقد اتصلت السفارة الانجليزية بجماعة الإخوان بواسطة الدكتور محمد سالم عضو الجماعة وذلك من منطلق أن جماعة الأخوان المسلمين هى القوة الوحيدة المؤثرة الوحيدة فى مصر مما يجعلها وحدها قادرة على التفاوض مع أصداقائها الانجليز.

وفعلاً فقد قابل صلاح أبو رقيق العضو القيادى بالجماعة مستر إيفانز المستشار الشرقى بالسفارة البريطانية ثم التقى بعد ذلك بالمرشد العام الأستاذ حسن الهضيبى حيث تناقشا واتفقا على مبادئ المفاوضة مع ممثل الأحتلال الإنجليزى فى مصر.

هكذا تفاوض الإخوان المسلمين مع أصدقائهم الإنجليز بأسم الشعب المصرى بعيداً عن حكومة اللواء محمد نجيب غير آبهين بهذه الحكومة.

وفى هذا السياق الخلافى بادرت فاشية الأخوان المسلمين بتجنيد ضباط الجيش وضباط الصف لعضويتها بقصد مواجهة ثورة يوليو وذلك بالإضافة إلى تخزين وتشوين السلاح حيث ضبطت حكومة الثورة بعربة القيادى الأخوانى حسن العشماوى فى ناحية العطف مركز ههيا شرقية جراجاً أرضيته من التراب وتحت مخزناً للأسلحة به مائة كيلو من الجلجا تيت و١٥ ألف طلقة وكثير من الأسلحة والمواد الناسفة.

ولقد أكدت هذه الممارسات الأخوانية أن الواجهة المدنية للإخوان المسلمين قد أجرت تغييراً وتبديلاً فى جناحها السرى العسكرى والفاشستى مما أدى إلى نشوب صراع عسكرى فاشستى قاده القائد الأخوانى عبد الرحمن السندى رئيس الجهاز العسكرى والسرى للجماعة وقد تمثل الصراع فى إقتحام منزل المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبى لإجباره على الاستقالة.. وكذلك اقتحام مقر المركز العام للجماعة بقصد تغيير عناصر قيادتها.

وقد صاحب ذلك تدبير مؤامرة دموية ضد القائد العسكرى الإخوانى المهندس سيد فايز حيث تلقى فى منزله علبة حلويات مولد النبى فقام بفتحها بانفجرت فيه فقتلته وقتلت شقيقه وهكذا عاشت مصر وشعبها بين عسكرة جمهورية اللواء نجيب وفاشية جماعة الإخوان المسلمين لا شأن للناس بهذا الصراع مما يذكرنا بصراع الفرق المملوكية والعثمانية بعضها مع بعض والأمر الغريب أن سلطة عسكرية يوليو عموما قد التزمت الصبر مع فاشية الإخوان المسلمين مراعاة لما بينها من تحالفات ولذلك لم تواجهها بعنف إلا بعد محاولة اغتيال الرئيس جمال عبدالناصر فى حادث المنشية بمدينة الاسكندرية فى عام ١٩٥٤.

وعند نشوب أزمة مارس ١٩٥٤ أفرجت السلطة عن كل المعتقلين من الإخوان المسلمين دون غيرهم من المعتقلين وذلك بالإضافة إلى قيام البكباشى جمال عبدالناصر بزيارة الاستاذ حسن الهضيبى مرشد جماعة الإخوان.. وذلك بقصد مساندته فى احداث أزمة مارس ١٩٥٤ ضد اللواء محمد نجيب والقوى الشعبية المطالبة بعودة الديمقراطية وعودة الجيش إلى ثكناته ولذلك يقول المؤرخ الإخوانى محمود عبدالحليم إن أزمة مارس سنة ١٩٥٤ كانت فرصة الإخوان المسلمين الكبرى فى الوصول إلى السلطة.. ومن هنا تزايد حقد هذه الجماعة على ضياع فرصتها الذهبية فى الوصول إلى حكم مصر مما جعلهم يبادرون بتعويض هذه الفرصة بالخلاص من الرئيس جمال عبدالناصر حيث أعدت فاشية الإخوان

المسلمين ممثلة فى الجهاز السرى والعسكرى الجديد برياسة القائد العسكرى الإخوانى يوسف طلعت الذى حل محل قائد هذا الجهاز السابق عبدالرحمن السندى خطة الخلاص النهائى من الرئيس جمال عبدالناصر باعتبار هذا الخلاص وحده هو الطريق الدموى والارهابى لوصول جماعة الإخوان المسلمين إلى سلطة مصر وحكم مصر حيث كان شخص عبدالناصر وحده هو العقبة الرئيسية التى منعتهم وسوف تمنعهم من الوصول إلى السلطة ومن ثم فالخلاص منه فرص عين على جماعة الإخوان المسلمين حتى تستعيد فرصتها الغائبة باعتبارها وسيلتها التآمرية للوصول إلى غايتها السلطوية.

وتحقيقا لهذا الطموح فقد بادر الجهاز السرى والعسكرى للجماعة بمحاولة اغتيال الرئيس جمال عبدالناصر. حتى يخلو الجو من صراخ العقاب ويستريح الغاب من صوت الأسد.. ولكن هذا الاغتيال فشل ولم يتم.. ولكنه أكد للكافة من الناس أن شعار هذه الجماعة يقول إن البندقية هى الحل وأن الرصاصة هى الحل.

كما أن منهج هذه الجماعة متقلب للغاية وأحوالهم متغيرة وولائهم يذهب ويجىء صوب أطماعهم فى السلطة والسلطان ففى بداية الصراع السلطوى فى صفوف ضباط ثورة يوليو بين طرف ين هما اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية المصرية ورئيس مجلس قيادة الثورة والقائد العام للقوات المسلحة والبكباشى جمال عبدالناصر زعيم الضباط الأحرار فى هذا الصراح انحازت فاشية الإخوان إلى مساندة اللواء محمد نجيب الذى كان قدم استقالته من كل مناصبه وذلك بجانب مساندة كل القوى الوطنية واليسارية المدنية ولقد ترتب على تلك المساندة الشعبية عودة اللواء محمد نجيب إلى مناصبه فى أول مارس سنة ١٩٥٤.

ومن جراء تلك المساندة تم اعتقال المئات من القوى الحزبية والوطنية واليسارية بالإضافة إلى القبض على قيادات جماعة الإخوان المسلمين على رأسهم الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام لهذه الجماعة وذلك بعد صدور قرار من مجلس قيادة ثورة يوليو تبحل هذه الجماعة.. وافق عليه مجلس الثورة بالإجماع باستثناء اللواء محمد نجيب.

ومع هذا فبعد مرور أيام معدودات أفرج عن قيادات الإخوان المسلمين وأعضائهم بينما لم يفرج عن المعتقلين الآخرين وفور ذلك الإفراج وقعت مصالحة بين جناح البكباشى جمال عبدالناصر وجماعة الإخوان المسلمين بقصد مساندته ضد جناح اللواء محمد نجيب خلال

أزمة مارس ١٩٥٤ إلتى قد تفجرت فى الأيام الأخيرة من نفس الشهر مما أدى.إلى ازاحته وطرده من السلطة واعتقاله وبالتالى لم يبق فى الساحة المصرية غير قوتين هما عسكرة يوليو.. وفاشية الإخوان المسلمين.. ومن ثم نشب الصراع الدموى بينهما هذا الصراع الذى بدأ بحادث المنشية.

الكمسارى صاوى ينقذ الثورة وعساكرها

تتجلى قدرات البكباشى جمال عبد الناصر وشجصيته الكارزمية المؤثرة فى أنه أستطاع تأسيس حزب الضباط الأحرار أو تنظيم الضباط الأحرار رغم عدم تجانس أعضائه فكرياً وطبقياً وشخصياً ورغم ولاء أعضائه إلى جهات متناقضة تناقضاً جذرياً فالضابط الإخوانى والضابط الشيوعى والضابط الوطنى والضابط الأمريكانى والضابط الملكى كلهم فى حزب سرى واحد أو تنظيم سرى واحد يصول ويجول فى قشلاقات الجيش المصرى والملكى تحت قياته بدون سند شعبى اللهم السخط الشعبى على الأحتلال الأنجليزى والملك فاروق وتحالف الأقطاع ورأس المال الحاكم.

ومع ذلك فقد حقق ذلك الحزب العسكرى النصر المبين ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بحركته المباركة هذه الثورة تفجرت الخلافات بين قادتها وأعضاتها حيث بدأ ضباط الثورة يأكلون بعضهم بعضاً فالكل يحمل سلاحه ولديه عساكره مثلما كان يفعل أمراء وأجناد المماليك ببعض ولكن البكباشى عبد الناصر كان طرفاً فى هذه الصراعات وفوق هذه الصراعات مما أدى إلى طرد وتحجيم الضباط الشيوعيين حتى لا يستفز وجودهم الأستعمار الإنجليزى والأمريكى وحتى تتوقف المطالبة بالديقمراطية والأنحياز لمصالح الطبقة العاملة.. وتلا ذلك أستبعاد الكثير من الضباط الأحرار مما يعنى أستمرار الخلافات والتناقضات فى صفوف مجلس قيادة ثورة يوليو وضباطه الأحرار الذين قد تصادموا معاً فى قلب السلاح الواحد وبواسطة سلاح ضد سلاح مما جعل ثورة يوليو ذات عسكرة وعساكر يحارب بعضهم بعضاً وليست ثورة شعبية يؤيد ذلك تفشى محاكمها العسكرية للمدنيين والعسكريين على السواء.

ومن جراء ذلك أنتشر السخط فى صفوف الجماهير المدنية حتى تكون تيار شعبى فى النقابات العمالية والمهنية وفى الجامعات وفى الصحافة مناهض لعسكرة ثورة يوليو.. ولقد

تجسد ذلك التيار الشعبى والمدنى فور نشوب الخلاف بين اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية ومجلس قيادة ثورة يوليو حيث تحول اللواء من دكتاتور إلى داعية من دُعاة الديمقراطية لكى يحظى بمساندة الجماهير الشعبية والمدنية الغاضبه من عسكرة الثورة وخلال ذلك الصراع نشر القائمقام يوسف صديق بعد طرده من مجلس قيادة الثورة رسالة إلى مجلس الثورة نشرتها جريدة المصرى يطالب فيها بعودة البرلمان الوفدى وحزب الوفد وإنشاء حزب للشيوعيين وآخر للأخوان المسلمين.

ولقد عرضت تلك الرسالة المطالبة بعودة الحزبية وتعددها على مجلس الثورة الذى قد أحالها إلى قضاء مجلس الدولة لابداء الرأى فيها ولهذا فقد عقد مجلس الدولة أكبر هيآته القضائية برياسة الدكتور عبد الرازق السنهورى لنظر هذه الرسالة.

ولكن هذه الهيئة قررت رفض هذه الرسالة مما يعنى أن قضاء مجلس الدولة وقتئذ كان ينحاز إلى الحكم العسكرى الدكتاتورى والشمولى ويرفض الديمقراطية ووجود الأحزاب وتعددها والأمر الغريب أن ذلك القرار القضائى قد صدر بأغلبية أعضاء الهيئة العليا فى مجلس الدولة ولم يعارض قرار هذه الهيئة غير عضو واحد فقط هو المستشار الدكتور وحيد رأفت عدو العسكرة والحكم الشمولى حتى مماته ولقد قوبل ذلك القرار القضائى والتعسفى بالسخط فى الحياة المدينة المصرية مما دفع اللواء محمد نجيب إلى رفع شعار الديمقراطية فى مواجهة مجلس قيادة الثورة لكى يحظى برضى الجماهير المدنية بإعتباره داعياً للديمقراطية المصرية.

وهكذا أصبح اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية المصرية الأولى والقائد العام للقوات المسلحة ورئيس مجلس قيادة ثورة يوليو الذى قرر تشكيل المجلس العسكرى لمحاكمة عمال كفر الدوار والذى صدق على اعدام العاملين الشهيدين خميس والبقرى فى حين أن سيادة اللواء الديمقراطى لم يقم بإعدام الإقطاعى عدلى صالح للوم الذى تصدى لسلطة ثورة يوليو ومعه رجال بالسلاح فى اليوم الثالث لصدور قانون الإصلاح الزراعى حيث شكل له مجلساً عسكرياً هنياً لينا حكم عليه بالسجن خمسة عشر سنة قضى الإقطاعى قرابة عامين من هذا الحكم مكرماً مسيداً فى مستشفى سجن مصر ثم صدر قرار بالعفو عنه مما جعل قسمة اللواء وعسكرته قسمة ضيزى وظالمة فالقتل والشنق للعمال والرحمة للإقطاعيين والملكيين مثل إبراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء الملكى الذى أنقذه من الإعدام.

ولا تنسى فى هذا المقام أن المحاكم والمحاكمات العسكرية للمدنيين والعسكريين المعارضين فى سنوات الجمهورية الأولى مثل محكمة الثورة ومحكمة الغدر وغيرها قد تمت بقرارات عسكرية صادرة من اللواء محمد نجيب الذى فاجأ الشعب المصرى بمناداته بالديمقراطية مما جعل الناس كل الناس فى مصر تحسبه أنه صوره مكررة من الرئيس الجليل مصطفى النحاس زعيم الديمقراطية المصرية الحديثة.

ولكن حدث هذا فور أختلافه أى اللواء نجيب مع البكباشى جمال عبد الناصر زعيم الضباط الأحرار وثورة يوليو وخاصة بعد أن فقد منصبى وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة وأقتصرت سلطته على منصب رئيس الجمهورية التى تم إعلانها فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ بالإضافة إلى منصب رئيس مجلس الثورة ورئيس الوزراء.. ولقد صاحب ذلك التغيير السلطوى والعسكرى ترقية الصاغ عبدالحكيم عامر إلى رتبة اللواء وتعيينه قائداً عاما للقوات المسلحة بقرار جمهورى أصدره اللواء محمد نجيب على غير إرادته مما جعله يزيد من خلافاته مع البكباشى جمال عبدالناصر وحواريه من الضباط الأحرار مستغلا فى ذلك سخط الكثير من ضباط الجيش فى كل الأسلحة من جراء هذه الترقية وذلك التعيين الذى سوف يقوى قبضة البكباشى عبدالناصر على الجيش.

عندئذ بادر اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية وما لديه من عسكرة وعساكر إلى تصعيد الخلاف بغية الحصول على السيادة كل السيادة باعتباره رئيسا للجمهورية معتمدا فى ذلك على سخط ضباط القوات المسلحة المشار إليه سابقا ومعتمدا أيضا على القبول الشعبى من الجماهير المدنية.

وخلال ذلك الخلاف تعرض اللواء محمد نجيب للإهانة المتكررة من جانب ضباط مجلس قيادة الثورة كما يقول الأستاذ احمد حمروش مما أدى إلى استقالته هذه الاستقالة التى قوبلت بالرفض من ضباط الاسكندرية ومن كثير من ضباط الأسلحة بالجيش إلى حد تمرد ضباط سلاح الفرسان وكاد يحدث تصادم مسلح بين أسلحة الجيش مساندة للواء محمد نجيب وذلك بالإضافة إلى مساندة الجماهير المدنية وجماعة الإخوان المسلمين هذه المساندة التى ترجمت فى مظاهرات شعبية تأييدا له والمطالبة بعودته إلى رياسة الجمهورية وذلك فى مواجهة حادة مع مجلس ثورة يوليو إلى حد أن الصاغ صلاح سالم المعروف بعدائه للواء نجيب

دخل إلى مقر مجلس الثورة هائجاً وهو يقول أعيدوا نجيب بعد أن رأى بعينيه تجمهر الجموع الشعبية فى ميدان عابدين للمطالبة بعودة اللواء نجيب حامى الديمقراطية وسقوط مجلس الثورة رمز الدكتاتورية وأمام هذا الضغط الشعبى والعسكرى عاد اللواء محمد نجيب إلى منصب رئيس الجمهورية فى مساء يوم ١٧ فبراير ١٩٥٤ حيث كانت الاعتقالات قد شملت الكثير من القيادات الحزبية بما فيهم قيادات جماعة الإخوان المسلمين.

وعندئذ رأى البكباشى جمال عبدالناصر أن اللواء محمد نجيب التف حوله الكثير من ضباط الجيش ومجمل الشخصيات الحزبية والسياسية المدنية بالإضافة إلى جماعة الإخوان المسلمين والجماهير المدنية من عمال وطلاب ومحامين وصحفيين الأمر الذى دفعه إلى الإفراج الفورى عن قيادات الإخوان المسلمين دون غيرهم بهدف عودة التحالف بين عسكرة يوليو وفاشية الإخوان المسلمين هذا التحالف الذى كان قد تم فعلا ثم ندمت عليه جماعة الإخوان المسلمين باعتباره قد أطاح بفرصتها فى الوصول إلى السلطة عبر علاقتهم باللواء محمد نجيب الذى ليس له تنظيم مدنى أو عسكرى بل لديه فقط تعاطف من العسكريين والمدنيين ليس منظما وبالتالى لا ينفع ولا يشفع وهكذا استطاع البكباشى جمال عبدالناصر إبعاد جماعة الإخوان وفاشيتها المسلحة عن مساندة اللواء نجيب ثم بادر بإعداد الاحتياطى الاستراتيجى العمالى والشعبى الموالى لعسكرة يوليو ومجلس قيادة الثورة ممثلا فى قيادات وجماهير الاتحاد العام لنقابات عمال مصر برآسة الكمسارى صاوى أحمد صاوى وسكرتيره السائق محمدى عبدالقادر ومما يذكر أن هذه القوى العمالية الموالية لعسكرة يوليو ومجلس قيادة ثورة يوليو دون غيرها من الطبقة العاملة المصرية لم تكن فى حسبان كافة القوى المعارضة والمساندة للواء محمد نجيب ومن هنا فقد نجح البكباشى جمال عبدالناصر ومجلس قيادة الثورة فى إعادة كسب جماعة الإخوان المسلمين بدليل أن المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبى قد صرح بقوله.. (إن الإخوان سوف تكون عونا للحكومة).. وذلك خلال زيارة البكباشى جمال عبدالناصر لمنزله.

وكذلك أسرع بترضية الضباط الغاضبين بالإضافة إلى اطمئنانه المطلق للقوى المدنية الوحيدة التى تسانده ممثلة فى جماهير عمال النقل المشترك التى تربطها بضباط ثورة يوليو علاقات وثيقة مما يعنى أن البكباشى قد أعاد تنظيم صفوفه استعدادا لمنازلة غريمه اللواء نجيب وجماهيره المدنية والعسكرية غير المنظمة.

وخلال ذلك الشهر شهر مارس ١٩٥٤ ظل الصراع يزداد رويدا رويدا بين عساكر ثورة يوليو وعسكرتها وبين هؤلاء العساكر وهذه العسكرة وبين الجماهير المدنية المصرية وشيوعيين واشتراكيين وديمقراطيين ومن إخوان مسلمين حتى أن القائقمام البطل يوسف صديق عضو مجلس الثورة السابق قد نشر رسالة فى جريدة المصرى يطالب فيها بتشكيل حكومة من الوفديين والشيوعيين والإخوان المسلمين برياسة الدكتور المستشار وحيد رافت لحل أزمة السلطة.

وقد أدى ذلك إلى اصرار مجلس قيادة الثورة إلى إصدار قرارات يوم ٥ مارس ١٩٥٤.. القاضية بعودة الأحزاب السياسية ومنع الحرمان من الحقوق السياسية وحل مجلس الثورة وانتخاب جمعية تأسيسية لاختيار رئيس الجمهورية.. مما يعنى أن الجيش سوف يعود إلى ثكناته وبالتالى فقد استبدت بضباط يوليو الدهشة وأخذتهم الحيرة خوفاً على مصيرهم ومستقبلهم حيث صرح بعضم غاضباً وقائلاً سوف يكون السجن مصيرنا.

ولكن المنقذ المدنى كان فى إنتظار إنقاذ عسكرة يوليو وضباط يوليو الأحرار هذا المنقذ الذى أطاح باللواء محمد نجيب وحلفائه المدنيين والعسكريين بإجهاض شعارات الديمقراطية وقرارات يوم الخامس من مارس ١٩٥٤ المشار إليها سابقا مما ثبت أقدام عسكرة يوليو ومجلس قيادة الثورة بزعامة البكباشى جمال عبد الناصر الذى أصبح الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية المصرية الثانية ومؤسس مصر التحرر مصر القومية العربية مصر الإشتراكية الناصرية والعدل الإجتماعى.

ويسأل سائل ولكن بفضل من كل هذا..؟

والرد الجوابى على ذلك يقول ليست هذه الطموحات التى تحققت فى الحياة المصرية والعربية وليدة لحكم عسكرة ثورة يوليو ولكنها قد تحققت بفصل موقف عمال وقيادات إتحاد نقابات عمال النقل المشترك الإضرابى والتظاهرى فى أزمة مارس سنة ١٩٥٤ مساندة وتأييدا لمجلس قيادة ثورة يوليو وضباطه الأحرار بزعامة البكباشى جمال عبد الناصر مما أدى إلى تصفية اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية سلطوياً وسياسياً.

حدث ذلك الموقف الأضرابى والتظاهرى لعمال النقل المشترك بقيادة النقابى والكمسارى صاوى أحمد صاوى فى يوم ٢٨ مارس ١٩٥٤ حيث أضرب هؤلاء العمال دون غيرهم من العمال

مما أدى إلى إنقسام الطبقة العاملة المصرية على المستوى المهنى فعمال الأتوبيس ضد عمال الترام وضد العمال المصريين على المستوى القومى وكذلك ضد الجماهير المدنية عموماً.

ومع ذلك تغلبت جماهير عمال النقل المشترك بإضراباتها ومظاهرتها ذات التأثير السريع التى ساندتها عسكرة يوليو وعساكرها على الجماهير المدنية من عمال وطلاب ومثقفين المنادية بالديمقراطية وعودة الجيش إلى ثكناته بينما كانت هناك عمال النقل المشترك تهتف بسقوط الديمقراطية التى كانت تعنى التشبث بالعسكر والعسكرة هذا التشبث الذى ترفضه الطبقة العاملة ولهذا ينبغى معرفة نفسية جماهير وقيادات عمال النقل المشترك.

أن السياق السابق يؤكد أن الجيش المصرى كاد ينسحب إلى ثكناته من قلب الحياة المدنية خلال أزمة مارس ١٩٥٤ المشار إليها بعد أن حقق سلطة ثورته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لولا موقف الكمسارى والنقابى صاوى أحمد صاوى وزملائه عمال النقل المشترك فى هذه الأزمة السلطوية بصرف النظر عن تفسيره وتأويله وتسمية قائده تسمية تهكمية بأسم صاو صاو على وزن ماو ماو إسم الجماعة الثورية فى كينيا فى هذه الأيام.

إن هذا الموقف العمالى قد حال دون عودة الجيش إلى ثكاناته مما أدى إلى إستمرار سلطة ثورة يوليو التى أطفأت نجم اللواء محمد نجيب وقدمت للشعب المصرى قيادة وزعامة البكباشى جمال عبد الناصر.. وللعلم فإن الكمسارى والنقابى المذكور كان يعمل كمسارى بشركة ثوزميكروفت المصرية الإنجليزية بأجر يومى قدره مائة وخمسة قروش فى عام ١٩٥١ وبسبب نشاطه العمالى والنقابى انتخبه عمال هذه الشركة رئيسا لنقابتهم ثم انتخبه عمال النقل المشترك رئيساً لإتحاد نقابات عمال النقل المشترك فى سنة ١٩٥٠ حيث كانت الديمقراطية النقابية ذات شأن متعاظم فى هذه الفترة الوطنية.

ولقد مر ذلك النقابى بمناسبتين أثبتا طهارة ذمته المالية المناسبة الأولى خلال منافسة أصحاب شركات الأتوبيس على الحصول على التزمات خطوط الأتوبيس فى القاهرة والأقاليم مما اضطرهم إلى الاستعانة بالنقابيين فى مجال النقل المشترك مقابل إكراميات مالية سخية لم يكن النقابى صاوى من بين هؤلاء.. وكانت المناسبة الثانية عندما حصل على حكم قضائى بوضع الحراسة القضائية على شركة ثورنيكروفت المصرية الإنجليزية لصالح

عمالها وضمانا لحقوقهم طرف هذه الشركة لم يقبل الكمسارى صاوى أى مساومه من هذه الشركة بشأن وقف تنفيذ ذلك الحكم القضائى الأول من نوعه فى تاريخ الحركة العمالية المصرية وذلك رغم ما تعرض له من إرهاب من قبل البكباشى عبد المنعم أمين عضو مجلس الثورة يوليو ومسئول العمال والنقابات ووزارة الشئون الإجتماعية وقتئذ.

ولذلك فكر النقابى صاوى فى شخصية من شخصيات ثورة يوليو تنقذه من ارهاب وتخويف ذلك الضابط اللعين.. وبعد بحث مضنى وجو من ينقذ النقابيين الذين بادروا برفع قضايا حراسة على شركائهم من ذلك الضابط الإرهابى والمستبد لانحيازه لجانب الرأسمال حتى ولو كان إنجليزياً.

ولقد كان هذا المنقذ هو بلدياته القائمقام يوسف صديق عضو مجلس الثورة فقد زاره عدة مرات بقصد التدخل لحمايته هو وزملائه من ملاحقة واضطهاد البكباشى عبد المنعم أمين هذا البكباشى الذى بدء فى تهدئة الأمور مع النقابى صاوى وزملائه ولكنه بادر بإبلاغ مجلس قيادة الثورة عن علاقة القائمقام يوسف صديق الشيوعى مع عمال النقل المشترك الشيوعيين أيضاً.

وعندئذ قامت الدنيا ولم تقف بشأن هذا التبليغ حيث بدأ التحقيق الفورى مع النقابى صاوى احمد صاوى رئيس إتحاد نقابات عمال النقل المشترك ومع النقابى محمدى عبدالقادر سكرتير الإتحاد لمعرفة حقيقية العلاقة بين القائمقام يوسف صديق وإتحاد عمال النقل المشترك ونقاباته وعماله وخاصة مجال النقل المشترك الذى كان يموج بالعمال الشيوعيين وخلال هذه التحقيقات التى كانت تتم بعد منتصف الليل بإحدى القشلاقات العسكرية استطاعت المخابرات العسكرية التى عرفت أن علاقة النقابيين صاوى بالقائمقام يوسف صديق قد تمت من منطلق أنهما بلديات فقط بادرت بكسب ولاء النقابين صاوى ومحمدى عبد القادر لثورة يوليو وقائدها البكباشى جمال عبد الناصر وبالتالى فقد تمكنت ثورة يوليو من كسب أقوى تنظيم نقابى عمالى مدنى فى مصر من حيث فعاليته وتأثيره الإجتماعى والإضرابى على الرأى العام ولذلك فقد تم ترضية عمال النقل المشترك دون غيرهم من العمال المصريين حيث صدر لهم كادرات ونظم أجور سخية ومتميزة كادر لعمال النقل المشترك بالقاهرة وآخر لعمال النقل المشترك بالإسكندرية وكادر ثالث لعمال النقل

المشترك بالأقاليم كما بادرت هيئة التحرير حزب ثورة يوليو الوحيد والشمولى بتوزيع منح الحج المجانية للنقابيين من عمال النقل حتى أن العمال كانوا يتهكمون عليهم بتسمية الواحد منهم بالحاج تحرير وذلك بالإضافة إلى توزيع الطبنجات على هؤلاء النقابيين التى كانوا يتمنطقون بها من باب الوجاهة السلطوية التى جعلتهم يحولون مقارات نقاباتهم العمالية إلى غرز وأوكار لتعاطى الحشيش ليلاً دون مبالاة للسلطة القانونية بإعتبارهم بتوع الثورة وجزءاً من عسكرة الثورة.

ومن هنا باتت نقابات عمال النقل المشترك تمثل الإحتياطى الإستراتيجى المدنى والشعبى لثورة يوليو وعسكرتها فى مواجهة القوى الديمقراطية والمدنية ومجمل الطبقة الساخطة من الحكم العسكرى والساخطة على محاكمة كفر الدوار العسكرية والوحشية التى شنقت العاملين الشهيدين خميس والبقرى ولقد تجلت تلك المفارقات خلال ازمة مارس ١٩٥٤ التى كانت تشبه صراع المماليك والاجناد بعضهم لبعض والتى بدأت فى القشلاقات العسكرية ونزلت إلى الشارع المصرى مما أدى تقسيم الضباط وأنصارهم إلى مجموعتين مجموعة مجموعة البكباشى جمال عبد الناصر المنظمة التى يساندها عمال النقل المشترك المدنيين ونقاباتهم ومجموعة اللواء محمد نجيب التى يساندها بعض الضباط غير المنظمين وجمهور مدنى عريض غير منظم يضم العمال والطلبة والمثقفين ومع هذا فقد كانت عسكرة يوليو تحارب نفسها وفور صدور بيان ٥ مارس ١٩٥٤ الداعى إلى عودة الجيش إلى ثكناته وعودة الديمقراطية إلى مصر نتيجة للمظاهرات الشعبية ضد عسكرة يوليو ومجلس قيادة الثورة بادرت عسكرة البكباشى جمال عبد الناصر بدعوة عمال النقل المشترك للإستعداد بإعتبارهم الإحتياطى الإستراتيجى لها وفور صدور قرارات ٢٥ مارس ١٩٥٤ الداعية إلى عودة الأحزاب وحل مجلس الثورة وإنتخاب جمعية تأسيسية تنتخب رئيس الجمهورية هذه القرارات التى كانت تأكيداً لقرارات يوم ٥ مارس ١٩٥٤ التى أصدرها أيضاً مجلس قيادة ثورة يوليو نتيجة لضغط المظاهرات الشعبية التى قد رحبت بالقرارات الأولى والثانية وأعتبرها نصراً للواء محمد نجيب والجماهير الشعبية والمدنية بدأ أعتصام مجلس إدارة مطالباً بإلغاء القرارات وبقاء الجيش وعسكرته فى السلطة ورفض الديمقراطية وعودة الأحزاب والحياة النيابية.

ثم تحول ذلك الأعتصام العمالى والنقابى إلى مظاهرات صاخبة فى مدينة القاهرة وبعض مدن الأقاليم تهتف بسقوط الحرية والديمقراطية ولقد كان يساند هذه المظاهرات العمالية والنقابية عسكرة مجلس ثورة يوليو وتباركها جماعة الأخوان المسلمين وفاشيتها ولكن عمال الترام بالقاهرة الذين تصدوا لها وتعمدوا تسيير عربات الترام فى شوارع القاهرة ولم يتوقف الترام إلا بعد قطع التيار الكهربائى وأعتقال النقابى اليسارى البارز محمود فرغلى رئيس نقابة عمال ترام القاهرة.

كما كان يتصدى لمظاهرات عمال النقل المشترك كل جماهير الحياة المدنية من عمال وطلاب ومثقفين ومحامين وصحفيين ومعهم أيضاً بعض ضباط القوات المسلحة المتعاطفة مع اللواء محمد نجيب.

ذلك هو الصراع المرير ومظاهراته السلطوية المطعمة بالعسكرة وهتافاتها بسقوط الحرية والديمقراطية من جهة حيث كان يتصدى لها لها مظاهرات مدنية وشعبية تنادى بالحرية والديمقراطية من جهة أخرى.

ولكن النجاح فى هذا الصراع المصرى كان من نصيب القوى المنظمة بقيادة البكباشى جمال عبد الناصر ومجلس قيادة ثورة يوليو ضد القوى المدنية والعسكرية غير المنظمة بقيادة اللواء محمد نجيب وفور ذلك النجاح ذهب وفد من مجلس قيادة ثورة يوليو إلى مقر اتحاد نقابات عمال النقل المشترك بأرض شريف بشارع عبد العزيز بالقاهرة لشكر النقابى الكمسارى صاوى أحمد صاوى وزملائه عمال النقل المشترك. وكان على راسه البكباشى جمال عبدالناصر.

ولكن ذلك النقابى الذى أنقذ هو وزملاؤه ثورة ٢٣ يوليو من السقوط يكافأ بالإهانة الصارخة أمام سفراء العالم فى مصر وأمام الجماهير التى كانت تستقبل الرئيس جمال عبد الناصر عند عودته من مؤتمر عدم الإنحياز بمدينة باندونج فى أندونسيا سنة ١٩٥٤ حيث تعرض النقابى صاوى أحمد صاوى رئيس إتحاد نقابات عمال النقل المشترك للصفع مرات ومرات على الوجه والقفا من البكباشى احمد انور مدير البوليس الحربى على الملأ من الناس مما اضطر الرئيس جمال عبد الناصر الاعتذار له شخصيا وهذا ما دفع بعض العمال إلى القول آخر خدمة الغز أى الغزاة علقه.

ثم يكافأ النقابى صاوى بتهمة تعاطى رشوة من ثورة يوليو مقابل موقف عمال النقل المشترك الذى أنقذ ثورة يوليو وضباطها وللأسف فإن هذه التهمة الباطلة قد ترددت فى كتابته مذكرات ضباط ثورة يوليو التى كتبوها فى آخر حياتهم أى فى فترة شيخوختهم هذه الشيخوخة التى تستبدها النسيان كل النسيان ورغم هذا فإن مواقف عمال النقل المشترك التى كانت بمثابة رد الجميل لثورة يوليو لما قدمت لهم من أجور شخصية ومزايا مختلفة قد ساندت ثورة يوليو وجمهرتها شعبيا ومدنيا خلال زيارة مستر دلاس لمصر عام ١٩٥٣.. كما ساندتها فى أزمة مارس ١٩٥٤ هذه المساندة العمالية التى أنقذت ثورة يوليو وعساكرها وترتب عليها منح البكباشى جمال عبدالناصر لقب الرئيس وأكدت سلطة عسكرة يوليو بقيام الجمهورية المصرية الثانية الجمهورية الناصرية.

الجمهورية الناصرية.. عسكره واشتراكية

فى البدء كانت العسكرة.. هذه العكسرة التى حققت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ واصطدمت بالعمال وأصدرت قانون الإصلاح الزراعى لصالح فقراء الفلاحين وألغت الملكية وأقامت جمهورية اللواء محمد نجيب وألغت كذلك الألقاب والأحزاب والدستور وعسكرة كل محاكمات ثورة يوليو وعسكرة الحياة العمالية والنقابية وقضت على الجمهورية المصرية الأولى خلال أزمة مارس ١٩٥٤. وبقوة العسكرة قامت الجمهورية المصرية الثانية برياسة البكباشى جمال عبدالناصر أى الجمهورية الناصرية الاشتراكية التى لم يعد يقودها ويترأسها البكباشى. بل جمال عبدالناصر ذلك الرئيس المصرى الذى قد تعرض للاغتيال أثناء خطابه فى هيئة التحرير بميدان المنشية بالاسكندرية فى يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ بواسطة فاشية جماعة الإخوان المسلمين هذه الفاشية الإخوانية التى عضت أناملها حسرة وتندما بسبب مساندة البكباشى جمال عبدالناصر ومجلس قيادة ثورة يوليو ضد اللواء محمد نجيب وعسكرته والجماهير المدنية والديمقراطية المصرية خلال أزمة مارس السابقة التى كانت بمثابة فرصتها فى الوصول إلى السلطة كما يقول المؤرخ الإخوانى الأستاذ محمود عبدالحليم الذى يؤكد أيضا أن الإخوان كانوا يحملون الضغينة للرئيس عبدالناصر الذى أصبح رئيسا للجمهورية المصرية الثانية حيث فصل وطرد القائمقام أحمد شوقى والقائمقام يوسف صديق.. الضابط الشيوعى المشهور رغم أنه أقل منهما رتبة عسكرية وأن الضابط

الثانى هو صاحب الفضل فى نجاح الثورة وكذلك إخراج اللواء محمد نجيب والكثير من ضباط الجيش ويقول الأستاذ المؤرخ الإخوانى أيضا.. وما أصدق ما يعبر عن هذه الحالة النفسية فى جمال عبدالناصر ما جاء فى كتاب صفحات من التاريخ للأخ الأستاذ صلاح شادى فى صفحتى ١٩٦ و١٩٧ حيث يقول:

وعجيبة هذه النفس البشرية إذا أصابها الكبر ولم تعوزها الحاجة إلى الله وكنت أعلم انه (يقصد جمال عبدالناصر) لا يحب من أن أبدوا أمام الناس معه على المستوى الذى تنهض عليه علاقتنا الحقيقية فالناس من حوله يقومون ولا يقعدون وترتعد فرائصهم ولا تسكن وتنحنى جباههم ولا تنهض وتسره هذه الانحناءة لشخصه فتضفى على صاحبها حينئذ رضاء وعلى العكس كان يرى فى كل من رفع رأسه عدوا ولا يسأل بعد ذلك ماذا يقدم: فكل ما يقدمه مرفوض لأن رأسه المرفوعة كانت تعنى عنده عدم الولاء. وكنت أسمع شعاره الذى أطلقه «ارفع رأسك يا أخى» فأوقن أنه شعار بلا مضمون.. ولم يغب عنى أننى أستطيع أن أكسب وده بقليل من الإغضاء ومزيد من الإطراء.. ولكن لا أكون فى هذه الحال متسقا مع نفسى وكرامتى وفضائلى.

تلك هى بعض مظاهر الضغينة بين فاشية الإخوان والرئيس جمال عبدالناصر التى تفجرت بمحاولة اغتياله فى ميدان المنشية بالإسكندرية مواجهة دموية وعنيفة ومع هذا فقد كان ذلك الصراع منطقيا بين عسكرة يوليو وفاشية الإخوان المسلمين ولكنه لم يكن منطقيا عند نشوبه بين عسكرية يوليو والقوى المدنية والديمقراطية المعارضة سلميا والمختلفة سلميا مع الجمهورية الثانية التى بادرت بحل نقابة الصحفيين وإعفاء المسئولين فى الجامعات سلطات مغلقة لمنع الطلاب من الاضرابات والعمل على إعداد قانون لحماية الثورة وتقديم عدد من السياسيين والحزبيين إلى محكمة الثورة منهم السيدة زينب الوكيل حرم الزعيم مصطفى النحاس وحسين أبوالفتح صاحب جريدة المصرى وأبوالخير نجيب رئيس تحرير جريدة الجمهور المصرى الذى كان شجاعا فى المحاكمة كما اعتقل مئتين من العمال والمثقفين الشيوعيين واليسازيين.

وفى هذا السياق غير المنطقى صدر قرار بتحديد إقامة الرئيس الجليل الزعيم مصطفى النحاس دون مراعاة لسنة ودوره الوطنى ومواقفه فى حياته الوطنية المصرية والديمقراطية

المصرية وتوسط الرئيس نهرو الزعيم الهندى الذى حضر لزيارته فى منزل المحدد إقامته فيه وذلك بالإضافة إلى معاملة الرئيس المخلوع اللواء محمد نجيب معاملة سيئة وتحديد إقامته فى منزله دون مراعاة أيضا لزمالة السلاح والكفاح ضد الملك والإقطاع.. ولكن ها هى الوطنية المصرية التى زاد شأنها فى ظل ثورة يوليو ولكن للأسف والحزن معا فقد كانت وطنية مصرية تئز بالطغيان حتى على صناع ثورة يوليو والمختلفين معها سلميا والمعارضين لها سلميا أيضا.

وإذا تابعنا الوطنية المصرية الحديثة منذ نهوضها خلال ثورات الشعب المصرى ضد جيوش الحملة الفرنسية وضد عساكر المماليك والعثمانين مما دفعها إلى اختيار أفندينا محمد على واليا على مصر ومما دفعها أيضا إلى حماية مصر ونظام أفندينا بالتصدى لحملة فريزر الإنجليزية وتصفيتها سنة ١٨٠٧ فسوف يرى الإنسان المصرى أن وطنيته فى تطور مستمر فى مواجهة عسكرة الاقطاع والسخرة والتخلف والاحتلال يؤيد ذلك ثورة سنة ١٩١٩ الوطنية التى فرضت مظاهر المجتمع المدنى بزعامة سعد باشا زغلول تم بزعامة مصطفى النحاس باشا الذى استطاع تفعيل الوطنية المصرية خارج الحدود بإقامة علاقات أخوية مع الزعيم الهندى البارز مهاتما غاندى والزعيم الهندى الكبير نهرو والزعيم الإيرانى المناضل الدكتور محمد مصدق ولهذا ينبغى القول بأن الزعيم مصطفى النحاس أول من حقق للوطنية المصرية مكانتها خارج الحدود فى القارة الآسيوية التى كانت تكافح وجود الاستعمار الانجليزى وذلك بقصد قيام ثورة لتحالف وطنى ضد الاستعمار.

ولذلك فإن البكباش جمال عبدالناصر الذى حقق سلطته بواسطة عسكرة يوليو وخلع ثيابه العسكرى بعد أن تبوأ رياسة الجمهورية الثانية قد بادر بتوطيد الوطنية المصرية والعمل على تعاظم شأنها بحيث تصبح وطنية مصرية ثورية فى مواجهة الاحتلال الانجليزى والاستعمار الأمريكى وخلف بغداد قوذلك بالتوجه العاجل والسريع صوب حركة التحرر العمالية المعادية للاستعمار حيث حضر مؤتمر باندونج فى اندونيسيا الذى حضره قادة حركة التحرر الكبار مثل الرئيس نهرو رئسى جمهورية الهند والرفيق تيتو رئيس جمهورية يوغسلافيا الاشتراكية والرئيس سوكارنو رئيس جمهورية أندونيسيا والرفيق شوا ين لاى

وزير خارجية الصين الشعبية والرئيس نكروما رئيس جمهورية غانا الأفريقية أو الرئيس جمال عبدالناصر رئيس الجمهورية المصرية.

هكذا خرجت الوطنية المصرية إلى العالم والعالمية مما جعلها وطنيةً مصرية تحررية تنتمى وتنتسب إلى عالم التحرر الوطنى الأمر الذى استفز الاستعمار الإنجليزىْ والأمريكى والفرنسى فأوعزوا إلى صنيعتهم إسرائيل إلى توظيف فاشيتها الصهيونية والعدوانية فى استفزاز مصر التى كانت ترعى قطاع غزة الفلسطينى منذ عام ١٩٤٨.

وعلى الفور خطا الرئيس جمال عبدالناصر بالوطنية المصرية التحررية خطوة ثانية صوب العالم الاشتراكى والاشتركية باعتبار ذلك العالم الذى كان يتزعمه الاتحاد السوفيتى الحليف الرئيسى لدول وشعوب حركة التحرر العالمية المناهضة للاستعمار وبفضل هذه الخطوة الثانية حصل الجيش المصرى على صفقة من الأسلحة التشكيلية لكى يستطيع مواجهة الجيش الإسرائيلى ومواجهة أى عدوان استعمارى محتمل على مصر حيث يبدو أن الرئيس عبدالناصر كان عازما كل العزم على دفع الوطنية المصرية إلى مواجهة الاستعمار والاستغلال معا مما سوف يؤدى إلى الصدام المحقق مع الاستعمار والصهيونية وفعلا فقد بادرت الوطنية المصرية بالصدام من خلال الاعتراف بدولة الصين الشعبية ثم بتأميم شركة قناة السويس البحرية العالمية.

ومما يذكر أن تأميم قناة السويس الذى كان يضاهى من حيث القيمة الأدبية والمادية لتأميم البترول الإيرانى فى عهد حكومة الدكتور محمد مصدق.

ولقد استقبل الشعب المصرى تأميم قناة السويس بفرحة لا حدود لا إلى درجة أن هذه الفرحة كانت فى جوهرها وفى حقيقيتها استفتاءً شعبياً لا تهليليا على رياسة جمال عبدالناصر للجمهورية المصرية الثانية.

وبالتالى فإن البكباشى عبدالناصر قد حصل على سلطته بواسطة عسكرة ثورة يوليو وكذلك فقد حصل الرئيس عبدالناصر على شرعيته بشعبيته التى تولدت لحظة تأميم شركة قناة السويس البحرية العالمية. مما جعله يحظى بظاهرة عبادة الفرد.

ولذلك قام الاستعمار وحليفته إسرائيل بشن حرب العدوان الثلاثى على مصر الذى دبرته ونفذته إنجلترا وفرنسا وإسرائيل بقصد وأد الوطنية المصرية العظيمة التى ازدادت

اشتعالا بقيادة الرئيس جمال عبدالناصر رغم أن بعض رفاقه من ضباط ثورة يوليو انخلعت قلوبهم من صدورهم خوفا وفزعا من العدوان الثلاثى إلا جمال عبدالناصر والشعب المصرى وقواه الوطنية واليسارية ولهذا فإن الشعب المصرى قد استفتى عليه مرة ثانية بارادته الحرة يوم خطبته فى صلاة الجمعة بالأزهر الشريف خلال وقوع العدوان الثلاثى على مصر.

ذلك هو الاستفتاء الشعبى الثانى الذى حظى به الرئيس جمال عبدالناصر تأكيدا لرياسته وزعامته الوطنية أثناء المعارك الفدائية والشعبية المسلحة ضد عساكر العدوان الثلاثى فى مدينة بورسعيد الباسلة.. هذه المعارك التى اشترك فيها القوى الوطنية واليسارية وانتهت بجلاء العدوان الثلاثى.

وخلال ذلك العدوان الاستعمارى والصهيونى على مصر الذى قد تصدت له الوطنية المصرية بقوة انفعلت الشعوب العربية بقيادة قواها اليسارية التى قد تضامنت معها بشكل إيجابى ومادى حيث بادر العمال السوريون بتفجير أنابيب النفط المملوكة للشركات الاستعمارية بالإضافة إلى المظاهرات الشعبية المساندة للشعب المصرى فى أغلب الأقطار العربية.

وفى سياق ذلك التضامن العربى انبثقت القومية العربية التى كانت مجرد أفكار وأحلام محبوسة فى صدور القوى التقدمية واليسارية العربية ومن ثم تشكلت أول مؤسسة من مؤسسات القومية العربية تمثلت فى تأسيس اتحاد العمال العربى فى عام ١٩٥٦.

وبالتالى فلم يعد الرئيس عبد الناصر رئيساً وزعيماً للوطنية المصرية بل أصبح الزعيم الأوحد اللقومية العربية.

ولذلك باتت الوطنية المصرية ذات شأن متعاظم على المستوى العربى والعالمى مما دفع الرئيس عبد الناصر إلى تدعيم الوطنية المصرية من خلال تمصير بنوكها وشركاتها الأجنبية ومحمل اقتصادها تحت قيادة المؤسسة الأقتصادية التى كان يرأسها الطيار حسن إبراهيم عضو مجلس قيادة ثورة يوليو ثم طور حزب ثورة يوليو الشمولى أى حزب هيئة التحرير إلى حزب شمولى جديد بأسم الأتحاد القومى وذلك بجانب وضع أول دستور مصرى جمهورى

ومن ذلك الحزب السلطوى الجديد والدستور الجديد تولد مجلس الأمة كأول برلمان نيابى فى ظل سلطة ثورة يوليو.

هكذا ترسخت أركان الوطنية المصرية وحققت سلطاتها الدستورية والتشريعية والتنفيذية وذلك بجانب سلطتها الحزبية وسلطاتها النقابية التى كانت جزءا من سلطة الوطنية المصرية الحاكمة بقيادة الرئيس عبدالناصر مما بهر الشعوب العربية الوطنية المصرية بزعامة عبدالناصر إلى حد الرغبة الحارة والاشتياق الصارخ للوحدة العربية مع مصر التى قد بدأت بالوحدة بين الشعب السورى والشعب المصرى فى عام ١٩٥٨.

ولقد كان موافقة الشعب المصرى والشعب السورى على هذه الوحدة بمثابة استفتاء شعبى ثالث لعى زعامة الرئيس جمال عبدالناصر مصريا وعربيا.

ومن خلال الوطنية المصرية والقومية العربية المعادية للاستعمار والصهيونية تجلت ظاهرة الناصرية كمشروع وطنى وقومى مضاد للاستعمار والصهيونية ثم تجلت بعد ذلك كمشروع للاشتراكية والعدل الاجتماعى معادى لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان حيث بدأت هذه الاشتراكية وتطبيقها بتأميم شركات وبنوك رأس المال فى مصر مما أدى تغيير اسم حزب الاتحاد القومى إلى حزب الناصرية الشمولى إلى اسم الاتحاد الاشتراكى حتى يتطابق مع مرحلة التأميمات الاشتراكية ولكن للأسف فإن هذه الأمجاد الناصرية قد تمت فى إطار العسكرة التى بدت فى إشاعة المحاكمات العسكرية وفى وجود العساكر بكثرة فى الحياة المدنية والمناصب المدنية وفى إطار الوحدانية السياسية والشمولية الحزبية والسلطوية النقابية وذلك رغم شعبية عبدالناصر والناصرية على المستوى المصرى والعربى.

الإشتراكية الناصرية بين عسكرتين

لا خلاف على أن الإشتراكية الناصرية المنبثقة من الوطنية المصرية بقيادة الرئيس عبد الناصر كانت سبب الأسباب فى نهوض القوى الوطنية واليسارية والتقدمية فى الوطن العربى مما أدى إلى وقوع إنقلابات وتغييرات بواسطة العناصر العسكرية من اليساريين والشيوعيين وأعضاء أحزاب البعث العربى مما يعنى أن العسكرة العربية باتت ظاهرة ثورية فى سوريا والأردن والعراق واليمن والسودان وحتى المملكة العربية السعودية حيث كانت

عسكرة يوليو مصدر هذه الظاهرة العسكرية والثورية وذلك رغم وقوع انقلابات عسكرية سابقة على إنقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر ففى العراق عام ١٩٣٧ وقع إنقلاب عسكرى ضد الملك فيصل بقيادة الجنزال الكردى بكر صدقى ثم وقع إنقلاب الجنرال حسنى الزعيم فى سوريا ثم إنقلاب الجنرال سامى الحناوى فى سوريا وكلها إنقلابات عسكرية غير مصحوبة بتغييرات سياسية وإجتماعية.

ولكن عسكرة ثورة يوليو الرائدة كانت تتميز بعلو شأن الوطنية المصرية وربطها بحركة التحرر العالمية ودول المعسكر الإشتراكى مما جعلها تفرز الناصرية كظاهرة وطنية وظاهرة إشتراكية فى قلب العالم العربى وفى قلب شعوب ودول التحرر الوطنى كما أنها كانت عسكرة مزدوجة تبدو فى عسكرة السلطة الناصرية وفى عسكرة المشير عبد الحكيم عامر نائب رئيس الجمهورية ووزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة التى كانت تُعبر عن عسكرة الجيش المصرى والقوات المسلحة.

وكلا العسكرتين كانتا تحاصران الإشتراكية الناصرية حصاراً تاماً.. وأن كانت عسكرة الجيش هى الأقوى من الناحية الواقعية حيث كانت تهمين على شركات وبنوك مؤسسات القطاع العام الإشتراكية بضباطها وكذلك على المخابرات العامة المخيفة وعلى السجن الحربى الرهيب وعلى المباحث الجنائية العسكرية وعلى الكثير من مناصب المحافظين وبعض الوزراء وعلى الجيش المصرى وسياسياته وحروبه وعلى المحاكم العسكرية وبالتالى فقد كانت هذه هى المسئولة عن هزيمة عام ١٩٥٦ أمام الجيش الإسرائيلى فى صحراء سيناء وهى أيضاً المسئولة عن تفكيك الوحدة السورية والفشل فى حرب اليمن وكذلك هى المسئولة عن هزيمة الجيش المصرى للمرة الثانية أمام إسرائيل فى حرب عام ١٩٦٧.

أما عسكرة السلطة الناصرية فقد كانت تهيمن على قرارات الوحدانية السياسية وعلى الشمولية الحزبية وعلى النقابات العمالية والمهنية السلطوية وعلى السلطة التشريعية والوزارة والبوليس السياسى.

ولقد ظلت هاتين العسكرتين منسجمتان ظاهرياً فى التصدى العنيف للمعارضين والأصدقاء المخالفين فى الرأى للسلطة الناصرية فى القطر المصرى وفى القطر السورى من الجمهورية العربية المتحدة مما أدى إلى تفشى التعذيب والتصفيات الجسدية فى مصر

وسوريا مما أدى أيضا إلى فسخ الوحدة بين مصر وسوريا والإطاحة بها وحتى خلال الوحدة نشب صراع مرير بالتآمر والشتائم بين عسكرتنا المصرية المزدوجة وبين عسكرة ثورة لواء الركن عبد الكريم قاسم بالعراق الشقيق ولكن يبدو الإنسجام بين عسكرة السلطة الناصرية وعسكرة المشير عبد الحكيم عامر كان يخفى خلافات بينهما بسبب فشل عسكرة الجيش فى حرب العدوان الثلاثى وفى حماية الوحدة المصرية السورية وفى حرب اليمن بالإضافة إلى تفشى الفساد بين الكثير من ضباط الجيش من أزلام المشير عبد الحكيم عامر الذين كانوا يشكلون البيروقراطية فى القوات المسلحة ذات الغلبة والتسلط فى الحياة المصرية عموماً.. مما دفع الرئيس عبد الناصر الزعيم والرئيس وصاحب الشخصية الكارزمية المؤثرة إلى مواجهة عسكرة المشير وفسادها بالقول دون الفعل عندما حذر فى خطاب له عام ١٩٦١ من ظهور طبقة رأسمالية جديدة ثم كرر ذلك القول فى خطاب آخر فى عام ١٩٦٣ عندما تيقن من فساد عسكرة الجيش وزيادة ثرائها من نهب القطاع العام وشركاته حيث كان ذلك القطاع الإشتراكى تحت إشراف لجنة عسكرية برياسة المشير عامر.. وكذلك ثرائها من حرب اليمن ومع ذلك فلا حياة لمن تنادى فالفساد الجيشى أصبح متسلطا على الإشتراكية الناصرية وقطاعها العام الإشتراكى مما يعنى أن الزعيم والرئيس جمال عبد الناصر كان يخشى تفجيرا الموقف مع عسكرة المشير والبيروقراطية العسكرية فى الجيش المصرى.

ولذلك لم يستطع الزعيم والرئيس عبد الناصر التصدى لهذه العسكرة البيروقراطية إلا بعد هزيمتها أمام الجيش الإسرائيلى فى عام ١٩٦٧ هذه الهزيمة التى لم تكن هزيمة للعسكرية المصرية الحديثة والعتيدة. بل كانت هزيمة مخزية لعسكرة المشير والبيروقراطية العسكرية ولقد تجلى ذلك التصدى الحتمى والضرورى عندما حاولت عسكرة المشير هذه بفجر ووقاحة تعويض هزيمتها إلى نصر داخلى من خلال الإستيلاء على الحكم فى مصر.. ولكن الشعب المصرى العظيم قد سبقها بمظاهراته الشعبية التى غطت المدن والبنادر والقرى المصرية مطالبة ببقاء جمال عبد الناصر رئيساً لمصر حتى يتم النصر المبين على الأستعمار والصهيونية وكان ذلك هو الأستفتاء الشعبى والحر الرابع الذى يؤكد سلطة وشرعية الرئيس عبد الناصر وإشتراكية الناصرية التى قضت على فلول عسكرة المشير عامر المهزومة التى تسببت فى احتلال أرض سيناء والجولان وغزة والضفة الغربية فى فلسطين.

هكذا سقطت عسكرة المشير عبد الحكيم عامر وتحررت فيها الإشتراكية الناصرية بفضل استفتاء شعبى بادر به الشعب المصرى تمسكا بالرئيس جمال عبد الناصر وإشتراكيته الناصرية فى ظل هزيمة يونيو ١٩٦٧ أمام إسرائيل.

ولقد رد الرئيس عبد الناصر على ذلك الأستفتاء بقولته المشهورة.

الشعب يقول وأنا معه.

ومع هذا فقد ظلت الإشتراكية الناصرية مصحوبة بالعسكرة التى تصدت لمظاهرات العمال والطلاب فى عام ١٩٦٨ التى كان تحتج على الأحكام المخففة التى صدرت ضد قادة سلاح الطيران المصريين المسئولين عن هزيمتنا العسكرية حيث رد الرئيس عبد الناصر على هذه المظاهرات بقوله أيضا.. إذا لم نقود فسوف نحكم.. وذلك بالإضافة إلى استمرار الوحدانية السياسية والشمولية الحزبية ممثلة فى بقاء الإتحاد الإشتراكى والنقابية السلطوية فى النقابات العمالية والمهنية وحتى الإنتخابات النيابية الأخيرة فى الفترة الناصرية لم يسمح بالإشتراك فيها إلا لأعضاء الإتحاد الإشتراكى وبالتالى فكل مصرى لم يكن عضواً فى حزب الإتحاد الإشتراكى لا يسمح له بالمشاركة فى الإنتخابات البرلمانية والنقابية والتعاونية مما يتنافى مع الإشتراكية الديمقراطية كسلطة.. تلك هى شوائب سلطة الإشتراكية الناصرية ممثلة فى العسكرة والوحدانية السياسية والشمولية الحزبية والسلطوية والنقابية ومما يذكر أن هذه الشوائب قد شابت أيضا الإشتراكية السوفيتية مما أدى وللأسف لسقوطها.

ورغم ذلك فقد استمرت الإشتراكية الناصرية حتى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر فى عام ١٩٧٠ هذه الوفاة المفاجئة التى استقبلها الشعب المصرى والشعوب العربية وشعوب دول التحرر الوطنى وشعوب الدول الإشتراكية بالحزن البالغ والشديد وأن كان الشعب المصرى لم يحزن عليه فقط بل بادر بالإستفتاء الحر المباشر على حكم الرئيس جمال عبد الناصر وعلى زعامته وإشتراكيته الناصرية.. ومن ثم فالرئيس عبد الناصر هو رئيس الجمهورية المصرية الوحيدة هو الذى حكم مصر بعسكرته وسلطته وشعبيته وشرعيته بفضل الإستفتاءات الشعبية والحرة والمباشرة التى كرمه بها الشعب المصرى وها هى.

الأستفتاء الأول يوم تأميم قناة السويس.

الأستفتاء الثانى يوم خطبة الجمعة فى الأزهر خلال العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦.

الأستفتاء الثالث يوم إعلان وحدة مصر وسوريا.

الأستفتاء الرابع يومى ٩ و١٠ من يونيو ٦٧ عندما تنحى عبد الناصر بعد هزيمة الجيش المصرى إمام إسرائيل.

الأستفتاء الخامس يوم وفاته فى عام ١٩٧٠

إن هذه الأستفتاءات كانت بمثابة سلطة للوطنية المصرية وكذلك سلطة للإشتراكية الديمقراطية كما أرادتها الجماهير المصرية الكادحة والفقيرة.

سلطة الديمقراطية الإشتراكية

مهما تنوعت الأسماء والنعوت التى أطلقت على أحداث يومى ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧ .. أى أحداث هزيمتنا العسكرية المنكرة أمام جيش العدو الصهيونى فقد كانت فى حقيقتها تجربة شعبية جديدة وخلاقة فى ممارسة الديمقراطية كوسلة كفاحية صاغها شعبنا المصرى العظيم فى مواجهة عسكرة إسرائيل الفاشية والعنصرية وفى مواجهة عسكرة الجيش المصرى وعسكرة المشير عبد الحكيم عامر البيروقراطية المهزومة والفاشلة.. ويقصد الوصول بها عاجلاً إلى الحفاظ إلى غاية إجتماعية هى.. الإشتراكية.. وهذه التجربة التى لم تضمنها سطور الكتب قد هيأت لنفسها مناخاً حراً وصناعياً من أى غبار للتسلط البوليس والعسكرى.. ولذلك كانت تجربة ديمقراطية نفاذة حيث وصل شعاعها حتى أعمق أعماق الدولة والمجتمع كاشفاً كل ابعادهما الإيجابية والسلبية على السواء حتى أصبح عمق الدولة والمجتمع كتاباً مفتوحاً أمام عيون الجماهير التى كشفت أهوال العسكرة التى اشاعت الفساد والإستعداد فى قلب **الإشتراكية الناصرية** والتى كانت سبب من الأسباب فى كل حروب الخارج المصرى وفى الحرب مع إسرائيل من جراء وأدها للديمقراطية المصرية بإعتبار أن الديمقراطية وحدها هى المدخل الرئيسى للعنصر العسكرى.

ولذلك فقد توسعت الامكانية الحقوقية للجماهير الشعبية بمقتضى هذه الديمقراطية المكتسبة توسعا فاق كل الامكانيات التى تحققت من حصول العمال والفلاحين على نصف المقاعد فى مجلس الأمة هيئات الحكم المحلى ومجالس إدارة الشركات بالإضافة إلى حصول العمال على أجور سخية وساعات عمل أقل وحماية قضائية من الفصل التعسفى وامتصاص مستمر للبطالة وكذلك احتضان الفلاحين وتوزيع الأرض الزراعية عليهم وبفضل هذه الامكانياة الحقوقية التى أوجدتها هذه التجربة الديمقراطية والشعبية يومى ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧ استطاعت الجماهير المصرية إبقاء المناضل عبدالناصر قائدا ورئيسا فى مواجهة عسكرة إسرائيل الفاشية وعسكرة الجيش والمشير عبدالحكم عامر الفاشلة والمهزومة وكذلك إعطائه أى الرئيس عبدالناصر الحق كل الحق فى إعادة البناء العسكرى والسياسى والتصدى لعسكرة المشير وأزلامه وعسكرة إسرائيل ومن وراءها وذلك من أجل حماية مصر الثورة والتحرر والاشتراكية وذلك عن طريق إشاعة الديمقراطية الاشتراكية ويبدو أن كل هذا أن هذه التجربة التى تمتعت بأساس اجتماعى شعبى ومضمون اجتماعى تقدمى وثورى بالتأكيد تجربة ديمقراطية شعبية اشتراكية أصيلة وكانت أيضا تطبيقا متطورا لنصوص الميثاق الوطنى التى خضرتها الحياة فى مناخ يونيو ١٩٦٧ التى تتحدث عن الديمقراطية فى قــوله أن الديمقراطية هى توكيد لسيادة الشعب ووضع السلطة كلها فى يده وتكريسها لتحقيق أهدافه.. وتقول أيضا .. إن الديمقراطية بمعناها الحرفى هى سلطة مجموع الشعب وسيادته سلطة الديمقراطية الاشتراكية.

- إن الشعب يطالب وأنا معه - هذا ما قاله المناضل عبدالناصر فى خطابه يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٧ تدعيما للديمقراطية الاشتراكية كسلطة تعنى بالتأكيد عملية مصالح العمال والفلاحين والمثقفين وكل الفقراء وتعنى تأصيل الثورة فى مواجهة الظلم الاجتماعى على ضوء ما نص عليه الميثاق بقوله:

وإنما قيمة الثورة الحقيقية بحدى شعبيتها وبمدى ما تصر عليه الجماهير الواسعة وبمدى ما تعنيه من قوى هذه الجماهير لإعادة صنع المستقبل وبحدى ما يمكن أن توفر لهذه الجماهير من قدرة على فرض ارادتها على الحياة.

وذلك من أجل استمرار الحوار الشعبى الذى قد نشأ فى رحاب ٩ يونيو ١٩٦٧ لمناقشة أسباب الهزيمة العسكرية وطرق ازالتها بلا حواجز تخنقه أو تسكته ليستمر حرا وصافيا كما بدأ حيث عبرت فيه الجماهير عن كل ما فى صدورها من هموم ومصاعب ومشاكل فرضتها العسكرة المصرية المزدوجة. وباشرت من خلاله حقها المقدس فى النقد والنقد الذاتى بشجاعة واعية بعيدا عن التهور والحماقة عملا بالميثاق وتطبيقا له.. إن ممارسة النقد والنقد الذاتى تمنح العمل الوطنى دائما فرصة تصحيح أوضاعه وملاءمتها مع الأهداف الكبيرة للعمل.. إن أى محاولة لإخفاء الحقيقة أو تجاهلها يدفع ثمنها فى النهاية نضال الشعب وجهده للوصول إلى التقدم.

على هذا الأساس الديمقراطى أمسكت الجماهير بتلابيب عدد من السلبيات التى ولدتها عسكرتنا المزدوجة فى هذه الأيام والتى كان أبرزها ما يلى:

أولاً: تضخم السيطرة العائلية والعسكرية

كان أبرز السلبيات التى تعرض لها الحوار الشعبى هو تضخم السيطرة العائلية والعسكرية على وظائف الدولة بمعنى أن العائلات الاقطاعية وشبه الاقطاعية والعائلات الغنية القديمة عموما قد سيطرت بواسطة أشخاصها وأبنائها وأقاربها وأصهارها على قمم الحياة الوظيفية فى كل مؤسسات الدولة الملكية القديمة وذلك مثل العائلات التى ينتسب إليها العديد من كبار الضباط والقضاة والمديرين ورؤساء وأصحاب المؤسسات والشركات وأعضاء مجلس البرلمان الملكى.. والتى تشكل من خلال علاقات القرابة والمصاهرة والنسب والمصلحة احتكارا للسيطرة الوظيفية من أجل مصالح هذه العائلات٠ والفئات الاجتماعية التى تملك خبرة غير قليلة فى فن السيطرة السلطوية والوظيفية والحفاظ على الوظائف الكبيرة والمكانات الكبيرة حيث كانت توزع أفرادها على عضوية الأحزاب الرجعية القديمة حتى لا ينقرض نفوذها داخل أجهزة الدولة لأى ضعف أو اهتزاز من جراء التغييرات الحكومية والوزارية التى كانت تحدث فى العهد الملكى نتيجة لتعاقب وتبادل الأحزاب السيطرة الوزارية والحكومية وقتئذ.

ولقد أصبح ذلك الاحتكار العائلى والخفى الذى وجد مساندة من عسكرة المشير عبدالحكيم عامر وضباطه الذى انتشروا بكثرة كبغاث الطير فى الحياة المدنية والوظائف المدنية بمثابة فجوة تسرب من خلالها أبناء هذا الحلف العائلى للوصول بغير حق إلى الوظائف ذات التأثير والنفوذ فى دولة العمال والفلاحين والمثقفين وكل الفقراء التى كانت تتجلى فى سلطة الاشتراكية الناصرية.

ونظرا لأن العسكرة المزدوجة كانت ذات بأس شديد فى فترة الوطنية المصرية بعد ثورة يوليو وفى فترة التحول الاشتراكى الناصرى فقد اختصت أشخاص الحلف العائلى والرجعى بواسطة المصاهرة والمصلحة المتبادلة والمشتركة التنبيش عن قرابات قديمة ومصاهرات قديمة ولهذا فقد أصبح الحلف العائلى والرجعى قادر على حماية أبنائه فى شكل الوظائف العليا فى الحكومة وفى القطاع العام الاشتراكى الذى قد هيمن عليه تحالف العساكر اوأبناء العائلات الفنية القديمة مما جعل اشراف الملكية والاقطاعية اشراف الجمهورية الاشتراكية.

ولذلك فقد أحس الشعب المصرى بفطرته أن تضخم السيطرة والعسكرية كان سبب الأسباب فى وجود هذه الهزيمة العسكرية التى نعيش فى مرارتها حتى الآن وذلك من جراء الاضرار التى نشأت من هذه السيطرة مثل:

١ - غياب الديمقراطية والحريات العامة والنقابية وذلك باعتبار أن هذه الديمقراطية وحرياتها مقدمة ضرورية لأى نصر عسكرى.

٢ - تعطيل مبدأ الفرص المتساوية بحرمان أبناء الشعب العامل من العديد من الوظائف الهامة والمناسبة التى قد شغلت أيضا عن طريق أصحاب المؤهلات العسكرية والعائلية.

٣ - حبس الكفاءات الشابة من أبناء الشعب الكادح والفقير عن الوظائف الهامة التى قد شغلت زيضا عن طريق المؤهلات العائلية والعسكرية ولهذا فقد تعطل شعار الإنسان المناسب فى المكان المناسب.

٤ - وقف تغذية الوظائف الهامة والكبيرة بالشباب من أبناء العمال والفلاحين لاستقرار واستمرار عجائز الحلف العائلى والعسكرى فى هذه الوظائف ذات الامتيازات وتشبثهم بها وذلك عن طريق مد أجل الخدمة حتى أرذل العمر وعن طريق تعقب هذه الوظائف والقفز

إليها من الحكومة والجيش إلى القطاع العام ومن شركة إلى شركة.. ويتم ذلك كله بفضل الامتيازات العسكرية والعائلية.

٥ ـ تغليب السلطة العسكرية والبيروقراطية على سلطة الاشتراكية الناصرية لوجود كبار الموظفين حملة المعارف البيروقراطية والعسكرية من أشخاص الحلف العائلى والعسكرى الذين لا يتمتعون بأى وجدان ديمقراطى واشتراكى ولهذا نرى موجة من التعالى فى أجهزة الدولة الأمنية والمدنية على التنظيمات الشعبية مخالفة بذلك الديمقراطية االاشتراكية ونص الميثاق الذى يقول.. إن سلطة المجالس الشعبية المنتخبة يجب ان تتأكد باستمرار فوق سلطة أجهزة الدولة التنفيذية فذلك هو الوضع الطبيعى الذى نظم سيادة الشعب.

ثانياً: الحصانات البيروقراطية والعسكرية

ومن السلبيات التى ناقشتها الجماهير المصرية خلال محنة الهزيمة العسكرية المعاناة العسكرية والبيروقراطية التى تعتبر غطاءً سلطوياً مرهوباً وغطائر قانونياً لحماية الموظف وخاصة إذا كان عسكرياً بحيث لا يستطيع أى مواطن عادى أن يوجه إليه النقد أو يناقشه بصراحة أثناء تأديه عمله دون أن يتهم هذا المواطن المسكين بالأعتداء على موظف عمومى أثناء تأديه عمله وهذه التهمة موجبه للحبس والغرامة بنص القانون الذى يؤكد حصانات أخرى خفية وضارة تحت شعار الصالح العام ونتيجة لهذا تتمكن العناصر البيروقراطية والعسكرية فى حماية هذه الحصانات من ممارسة فسادها وعدوانيتها بإضاعة حقوق الناس دون خوف من مساءلة ودون حساب وبسبب ذلك تنتشر الفلسفة الأستسلامية بين الجماهير التى تعبر عنها أمثالها الشعبية التى تقول.. لا تعادى من قال فعل.. والتى تقول.. دا المية ما بتطلعش العالى.. وأن كل هذه المعانات ظاهرة ومستترة من مخلفات الماضى وأمارة من أمارات ظلم الإنسان لاخيه الإنسان بواسطة الدولة القديمة والحديثة حيث باشرت الدولة القديمة أعمال الظلم المنظم عن طريق تحصين السلطة العامة حتى تنتزع المهابة وتكتسب أحترام العادة الخرافى.. ولهذا كانت توضع القوانين الخاصة بشأن قداسة وحصانات الموظفين الذين كانوا يمثلون وضعاً ممتازاً باعتبارهم هيآت السلطة العامة التى يجب أن تتعامل مع المواطنين من خلال الخوف والإحترام معاً.

ونتيجة لهذا كله فالشئ والطبيعى أن تصبح الدولة فى مصر فى عهد ملوك أسرة محمد علـى من طراز الدولة القديمـة ولكن الشئ غير الطبيعى أن تصبح الحصانات البيـروقراطية مـوجـودة فى دولة تحـالف العمـال والفلاحين والمثقفين التى تمضى نحـو الإشتـراكيـة والتى تحقق وجودهـا بثورة يوليو.. والمعروف أن الثـورة هـى تغـييـر المجـتـمع كمـا وضعهـا المناضل عبـدالـنـاصـر.. ولذلك فإن استمرار الحصـانات البيروقـراطية والعسكرية كحزام من الخوف حول الأجـهـزة الحكوميـة معـزولة عن الجمـاهـير وفى وضـع مقـابل لهـا حيث مـازالت هذه الجماهير تنظر إليها على أنها لم تعد دولتها وآداتها لتحقيق غاياتها المنشودة والطموحة.

وبسـبب هذا لا تنمو عـلاقات الود بين الشـعب ودولة الشعب التى يتم التعامل معها بإحترام مفرط لا يقل عن الخوف وبالتالى لا تتمتع أجهزة الـدولة كثيراً بثقة الجماهير من أبسط الناس بدليل مـظاهر ثلاث.. أولهـا أن أدب الـتـخـاطب مع الموظفين وخـاصـة كبارهم مـازال مشـحـونا بشكل فظ ومفرط بكلمـة.. بيه.. و.. باشا البغيضة جدا والكريهة جداً والتى تشير إلـى النفاق الاجـتـمـاعى والتى تدل أيضـاً على أن الموظفين لا يتـعـاملـون مع الشـعب كـخدام لمصاحله بل يتعاملون معه من مركـز السيـادة.. وثانيهـا الحـالات التى يـتـعـرض فيهـا المواطنـون للتعـامل مع مـؤسـسـا الأمـن والمؤسـسـات الحـقـوقـيـة حيث يضطرون اضطراراً إلى اللجـوء إلـى المحـامى والأستعانة به لتوضيح مواقفهم التى لا يمكنهم التعبير عنها سواء كانوا متهمين أو مجنى عليهم ولكن للعمل أسـاسـاً على توفيـر الثقـة والطمـأنينة لموكليه حتى لا تضيع حقـوقهم بواسطة هذه المؤسسـات التى لا يرتاحون إليها نفسياً حتى الآن.. ثـالثها تفشى النفاق الإجتماعى فى الحياة والمجتمع يؤكد ذلك مـا تفيض به أعمـدة الصحافة اليومية من سطور النعى والتهنئة والشكر والتى تنشر مجاملة وتقرباً للسادة كبار الموظفين بدافع من الخوف وحده ولقد تزايد تفشى هذا الوباء لدرجة أنـه أصـاب التنظيمـات الشـعبية والثـقـافـيـة التى أصبـحت للأسف لا يفـوتهـا أى مناسبة تمس كبار الموظفين فى الحكومة والشركات دون أن تؤكد ولاءها وتبرز عواطفها الكاذبة من خلال نعى أو تهنئة أو شكر تنشره فى الصحافة اليومية .

ثالثا: التفاوت فى الدخول والأجور

وكـذلـك الـتـفـاوت فى الـدخـول والأجـور قـد غـطى الحـديث عنه حيـزاً كـبـيـراً من الحـوار الشـعبى الـعـام بعد الهـزيمـة العـسكرية حيث قـد تحـدثت الجـمـاهـير بحـرارة بالغة عن هذا

التفاوت غير السليم من ناحية اتساع المدى بين الحدود الدنيا والعليا ومن ناحية التقتير الشحيح فى العطاء الذى صاحب الحدود الدنيا والإسراف إلى حد السفه فى العطاء الذى لازم الحدود القصوى وكان حديث الجماهير يستهدف التنبيه إلى وجود خلل فى عدالة توزيع الناتج الإجتماعى فى رحاب الإشتراكية الناصرية والتنبيه أيضاً إلى نمو الطابع الطفيلى فى الدخول عموماً بحيث أصبحت بعض الفئات الأجتماعية الطفيلة تحصل بغير حق على دخول سخية جداً وبدون أن تبذل فى تعاملها أية مساهمة جادة فى العمل الوطنى تتناسب مع حجم ما تحصل عليه من عطاء وهذا يتعارض مع مرحلة تحولنا الإشتراكى. وذلك بالإضافة إلى تفشى الفساد كمصدر للثروة.

ويبدو التفاوت واضحاً فى الفرق الشاسع بين الدخول الضئيلة التى لا تزيد على عشرات الجنيهات سنوياً والتى يجعل عليها بشق الأنفس فقراء الفلاحين من مالكى ومستأجرى القراريط من الأرض والباعة السريحة وأصحاب أكشاك السجاير ومحلات البقالة الصغيرة وأغلبية الحرفيين وبين الدخول الكبيرة والجنونية التى يحصل عليها كبار ملاك الأرض الأغنياء والملاك العقاريين وتجار الجملة ونصف الجملة وأصحاب السيارات والمصانع والورش الكبيرة والمتوسطة الذين ينشطون جميعاً على أرضية القطاع الخاص الذى مازال يشكل فى قلب حياتنا الإقتصادية ٨٠٪ فى الزراعة و١٢٪ فى الصناعة الإستراتيجية و٤٠٪ فى الصناعة التحويلية و٨٦٪ فى التجارة الداخلية و١٨٪ فى النقل والمواصلات.

وهذه المجالات الإقتصادية تعطى الفرصة الذهبية لحصول العناصر المستغلة على دخول مرتفعة وخيالية على حساب الشعب والمجتمع يؤدى ذلك ما يقرره العامل أحمد السودانى عضو المكتب التنفيذى بالاتحاد الإشتراكى بميت غمر ورئيس الجمعية التعاونية لصناعة النحاس والألمنيوم بقوله:

- أن صاحب ورشة تصنيع الألمنيوم التى تضم ثلاثة عمال وأربعة صبيان ويحصل على سبعة أطنان من خام الألمنيوم يحقق ربحاً صافياً قدره ١٨٠ جنيها نظير كل طن يقوم بتصنيعه وهذا يعنى أنه يحقق ربحاً خالصاً قدره ١٣٦ جنيهاً فى الشهر هذا بخلاف حصوله على عشرة أطنان أخرى من السوق السوداء تحقق له ربحاً لا يقل عن مائتى جنيه شهرياً ويقرر هذا العامل أيضاً أن صاحب ورشة الصفيح يحصل على ١٥ طناً من خام الصفيح

لتصنيعها يحقق ربحا صافياً قدره ١٥٠٠ جنيه فى الشهر ومن المؤسف أن الأجهزة الضريبية لا تستطيع أن تمسك بحقيقة هذا الدخول بسبب عمليات التلاعب والتهريب المستمرة عن طريق التوزيع الصورى للملكيات على الأخوة والزوجات والأولاد والأقارب من شيالى الملكية.

وهذا التفاوت الشاذ للدخول الرأسمالية رغم وجود سلطة الإشتراكية الناصرية قد انتقلت عدواه إلى مجال الأجور فى القطاع العام الإشتراكى بالائحة العاملين بالشركات الصادرة بالقرار الجمهورري رقم ٣٣٠٩ لسنة ١٩٦٦ حيث قد تم بمقتضاها تقسيم أجور عمال القطاع العام إلى إثنى عشر فئة مالية تبدأ بالفئة الثانية عشر التى تحدد أجرها بمبلغ ٦٠ جنيها سنويا وتنتهى بالفئة الممتازة التى تحدد بداية أحدها بمبلغ ١٨٠٠ جنيها سنويا هذا بخلاف الامتيازات المالية وغيرها التى يحصل عليها شاغلى هذه الفئة حيث كانت لا تقل على مبلغ ٥٠٠ جنيه فى السنة بخلاف السيارات الخاصة. وتناول البزنس وممارسة الفساد.

ورغم أن هذه الأرقام جافة جدا ولا يعتريها الحياء إلا أنها توضح حقيقية التفاوت الشديد فى الأجور فى فترة الاشتراكية الناصرية حيث تصبح النسبة بين حدها الأدنى والأقصى حسب الأرقام السابقة واحد إلى ثلاثين وإذا أضفنا امتياز البدلات فإن هذه النسبة تتمادى وتتسع حتى تصبح واحد إلى أربعين وإن كان النقابى السلطوى صلاح غريب رئيس اتحاد نقابات عمال مصر كان بقدر هذه النسبة بواحد إلى خمسة وخمسين هذا بخلاف مبالغ العمولات والسمسرة التى كان يحصل عليها قيادات القطاع العام من العسكريين ومن المدنيين بينما كان الوضع فى كوبا الاشتراكية التى تشابه بلادنا من حيث الصعاب خلال مرحلة التحول الاشتراكى لا يزيد أعلى أجر فى الدولة عن أجر العامل الفنى.

وهذا لا يعنى أن الجماهير المصرية تبغى تطبيق اشتراكية الفقر أو تطالب بمساواة خيالية وساذجة بل تبغى قطع أوصال الشواشى العليا غير المثمرة فى شجرة الدخول والأجور وفى الوقت نفسه فإن الجماهير لا تمانع فى إعطاء أجور أكثر سخاء من الأجور الحالية للكفاءات العبقرية العلمية والعملية علما ابأن أصحاب هذه الكفاءات يعيشون فى جو من الصوفية بحيث لا يشدهم كثيرا بريق الكسب والمال وعلى العموم فإن الجماهير الشعبية لم تناقش هذا الموضوع إلا بدافع الخوف من الاضرار التى يسببها فى هذه المرحلة مثل:

١ - تفشى التطلعات الطبقية التى تدفع بالضار إلى الانحراف للحصول على المال للجوء إلى السرقة والرشوة والاتجار فى السوق السوداء باعتبار أن هذه الأعمال من أعمال الشطارة المشروعة من قبل العرف الرأسمالى السائد وفقا لفلسفة القائلين:

ملك الملوك إذا وهب لا تسأله عن السبب.

الله يعطى من يشاء فقف على حد الأدب.

٢ - تحدد قاعدة الملكية الرأسمالية بفضل تكاثر النقود لدى أصحاب الدخول الكبيرة هذه النقود التى مازالت السند الرئيسى للملكية فى رحاب الاشتراكية الناصرية.

٣ - تزايد تجميد عشرات الملايين من الجنيهات واكتنازها فى بناء المنازل بعد أن تم انتزاعها كدخول من الخياة الاقتصادية.

٤ - زيادة الاستهلاك الترفى الذى تمارسه أصحاب الدخول والأجور الكبيرة كاستهلاك السيارات الخاصة الملاكى التى قد زاد عددها على ٦٠ ألف سيارة علما بأن السيارات التى تستعمل فى الجمهورية لنقل الناس والبضائع لا تقارب نصف عدد هذه السيارات الملاكى كاستهلاك الثلاجات وأجهزة التكييف وأدوات التجميل التى يتم استيرادها من الخارج.

٥ - إضعاف جو الرضى الاجتماعى بين الجماهير الشعبية وبالتالى تزايد صراعها الطبقى.

طريق الأمل والخلاص

لا يوجد على وجه الأرض طريق يوصل إلى الأمل والخلاص غير طريق الاشتراكية الذى اختاره الشعب المصرى عن قناعة وإيمان والذى سوف يؤدى إلى تحقيق أمله فى الحرية والسعادة وفى النصر الحاسم على الاستعمار وعميلته إسرائيل فعلى نفس هذا الطريق الاشتراكى شهد العالم كله الصمود الاسطورى للشعب الفيتنامى العظيم الذى استعصى على الهزيمة أمام العدوان الأمريكى الشرس.

ولهذا فإن شعبنا يتمسك باصرار بالسير فى هذا الطريق رغم تعرجاته الصعبة هذه التعرجات التى قد جعلت الشعب يحاول جاهدا توفير ضمانات صلبة لكى لا تتمكن أن قوة خائنة أو عملية من إبعاده عن مساره الحتمى فى هذا الطريق مستغلة فى ذلك وجود حالة

صعبة من حالات التعرض المفاجئ لأى منعطف عبر الطريق.. وهذه الضمانات التى يطالب بها الشعب تتمثل فى إشاعة الديمقراطية الإشتراكية كسلطة فى كل نواحى الحياة والمجتمع وفى كل مؤسسات الدولة بما فى ذلك القوات المسلحة والمؤسسات النقابية والحقوقية ولكن لا يمكن إشاعة هذه الديمقراطية إلا من خلال تحقيق السمات الثورية التالية.

اولاً: وجود الأحزاب الاشتراكية المتعددة التى تقود وينظم الديمقراطية الإشتراكية.

ثانياً: القيام بعملية مسح إجتماعى لجميع شاغلى الوظائف الهامة والكبيرة بقصد إبعاد نفوذ العسكر والعسكره عن مؤسسات الدولة.

ثالثاً: الغاء جميع الحصانات القانونية وغير القانونية التى يتمتع الموظفون بها وكذلك إمتيازاتها.

رابعاً: أعطاء الجماهير الشعبية وحدها الحق فى إنتخاب وعزل كبار الموظفين وخاصة المحافظين ومديرى الأمن والقضاء المدعين العموميين ورؤساء الشركات والمؤسسات.

خامساً.. ضرورة تعميل وتفليح الوظائف القيادية أى شغلها بالعمال الخلص والفلاحين الخلص الموهوبين المحبوبين للشعب وأهل الولاء للإشتاكية والبساطة ومعرفة فن معاملة الجماهير هؤلاء المعروفين بالقدرة الحازمة فى تسيير العمل المشترك الذى يقوم به الناس فى المصانع والمزارع.

سادساً.. تخفيض الدخول الكبيرة بشكل حازم.. وكذلك الأجور الكبيرة بحيث ترتبط بالأقدامية والكفاءة والضاعة ومنطقة العمل والزيادة فى الدخل القومى وبحيث تصبح أجور العمال الفنيين هى أعلا درجات السلم الأجرى وبحيث لا تزيد نسب الأجور عن واحد إلى عشرة.(*)

ذلك المقال كتبته عن الديمقراطية الشعبية التى انبعثت عفوا وتلقائيا بواسطة الشعب المصرى العظيم كرد على فاشية الصهيونية وجيشها الإسرائيلى العدوانى وكرد كذلك على عسكرة الجيش عسكرة المشير عبد الحكيم عامر وكرد على الوحدانية السياسية والشمولية الحزبية والنقابية السلطوية.

(*) مجلة الكاتب. فبراير ١٩٦٨ ـ مقال «عطية الصيرفى» العامل بشركة أوتوبيس وسط الدلتا.

وكان من المستحيل أن تنشر مقالة هذه فى ظل عسكرة المشير ووحدانية الرئيس عبدالناصر.. ولكنها نشرت فى مجلة تابعة لوزارة الثقافة فى مناخ الديمقراطية الشعبية التى لا شأن للسلطة الناصرية بها.. هذه الديمقراطية التى دفعتنى إلى القول بصراحة فى برنامج تليفزيونى فور الهزيمة العسكرية نظمه الأستاذ لطفى الخولى واعدته المذيعة القديرة سلوى حجازى وحضره عدد من الشخصيات المصرية والعربية منهم الأستاذ الأخضر الإبراهيمى سفير الجزائرى فى مصر..

أن الديمقراطية هى المدخل الرئيسى للنصرالعسكرى ولا يوجد نصر عسكرى بدون ديمقراطية.. وذلك ضمن حديثى فى ذلك البرنامج.. مما جعل الشاعر صلاح جاهين الذى كان موجوداً فى الاستوديو إلى مصافحتى قائلاً.. أن هذا الكلام لا يقوله إلا العامل عطية الصيرفى..

فشكرته متعجباً لما قاله حيث فكرت وفكرت حتى وصلت إلى قناعة بأن كلمة الديمقراطية كانت كلمة ممنوعة منعاً تاماً فى فترة الإشتراكية الناصرية إلى حد أن الشاعر صلاح جاهين قد فوجئ بكلمة ديقمراطية يرددها عامل مصرى فى مجمع من المثقفين فى برنامج تليفزيونى غير آبه باجتيازه للخط السلطوى والأخير الذى لم يخترقه مثقف مصرى خوفاً من الأختراق الذى كان يؤدى إلى الأحتراق.

وأكثر من هذا فعندما قرأ صديقى الشاعر فؤاد حداد مسودة كتابى المعنون بعنوان عسكرة الحياة العمالية والنقابية الذى نشر بعد هزيمتنا العسكرية فى عام ١٩٦٧ قد بهرته جداً وشدته جداً عبارة وطنية ثورة يوليو. وطنية تنز بالطغيان.

وهذا ما دفعنى إلى كتابة مقاله طويلة بعنوان.. هل الناصرية تأديب وتهذيب وإصلاح وقدمتها لمجلة الطليعة حيث وافق عل ينشرها كلا من الأستاذ لطفى الخولى رئيس التحرير والأستاذ مشيل كامل سكرتير التحرير.. ولكنها قوبلت بالاعتراض الشديد من الأستاذ أبوسيف يوسف والأستاذ عبدالمنعم الغزالى مما يعنى أن الديمقراطية الشعبية التى بعثت فور هزيمتنا العسكرية والتى لم تبعث بقانون فرضت نفسها ووجودها بعض الشىء وكان من الممكن استمرارها لولا بقاء الوحدانية السياسية والشمولية الحزبية والسلطوية النقابية وما يصاحب كل ذلك من عسكرة سلطوية قابعة فى سلطة الاشتراكية الناصرية.

مصادرة كتاب بأمر العسكرة

حتى يعرف الإنسان المصرى الإبن والحفيد أن العسكرة إذا حكمت بلداً من البلدان فلابد أن تحكمها بواسطة عبادة الفرد وحكم الفرد بوحدانيته السياسية وشموليته الحزبية ونقاباته السلطوية وفسلفته القائمة على فكرة السيادة دون فكرة الحرية مما يؤدى حتما إلى نفى الآخر وجودا وجسدا وروحا بصرف النظر عن الزمان والمكان والوضع الإجتماعى الذى تتسلطن به العسكرة.

وتأكيد لذلك فلابد من عرض هذه الواقعة الصغيرة.

استـــهل عـــام ١٩٦٤ فى شهرة الأول بتحسين أحوال المسجونين والمعتقلين اليساريين والشيوعيين المصريين فى سجن الواحات الرهيب المسمى بمنفى المحاريق الذى كـان المأوى العقابى للشيوعيين والاخوان المسلمين حيث سمحت السلطة بقراءة الجرايد والكتب وفى هذه الصحف قرأت إعلاناً نشرته مؤسسة الثقافة العمالية التى يرأس مجلس إدارتها الدكتور حلمى مـراد.. وذلك بشأن مسابقة تأليف كتاب بعنوان.. دور العمال فى المجتمع الاشتراكى والإنتاج ومكافأة الفائز الأول تحددت بمبلغ خمسين جنيها وكان مبلغاً كبيراً فى هذه الأيام.

وفى سجن الواحات بادرت بإعداد وتأليف ذلك الكتاب وقسمته إلى ستة فصول هى «مهام جديدة للحركة العمالية والنقابية» «بلادنا تعانى من الفقر والتخلف» «ثورة يوليو نقطة تحول فى تاريخ بلادنا مضاعفة الإنتاج ومشاكل التطبيق» «واجبات مباشرة أمام الحركة العمالية والنقابية» «حماية النظام الاشتراكى».

وبشأن الديمقراطية الاشتراكية الناصرية قلت فى الكتاب ولقد شهدت بلادنا الديمقراطية فى مجال التطبيق ممثلة فى مشاركة العمال فى الوزارة وفى مجلس الأمة ومجالس الحكم المحلى وفى عضوية مجالس إدارة الشركات.

ولكن للأسف فإن هذه الديمقراطية مازال يصاحبها بعض الجوانب السلبية التى أثرت على الحريات النقابية والتى أثرت أيضاً على إحساس الجماهير العاملة نحو التغييرات فى بلادنا بسبب السلبيات التالية:

١ - تدخل بعض الجهات الإدارية فى شئون العمال والنقاباتع

٢ - تحكم واستبداد البيروقراطية الممثلة فى رؤساء وأعضاء مجالس الشركات.

٣ - وجود بعض النقابيين الوصوليين من أصدقاء أصحاب الأعمال السابقين على رأس النقابات العمالية.

ولهذا فإنى اطالب القيادات العمالية أن تعلم أن الديمقراطية هى وسيلة كفاحية إلى غاية أجتماعية فالديمقراطية وما يندرج تحتها من حريات مثل حرية الرأى والحرية النقابية كلها وسائل كفاحية.

وبشأن التنظيم السياسى قلت فى الكتاب.. يقول الميثاق أن الحاجة ماسة إلى خلق جهاز سياسى جديد داخل إطار الاتحاد الاشتراكى العربى الذى يجند كل العناصر الصالحة للقيادة وينظم جهودها ويبلور الحوافز الثورية للجاهير ويتحسس إحتياجاتها ويساعد على إيجاد الحلول الصحية لهذه الاحتياجات.

إن هذا التنظيم سيكون بمثابة القاعدة التى تنطلق الديمقراطية الاشتراكية من صلبها محلقة فى سماء حياتها الجديدة مضيئة الطريق أمام حركة الجماهير لزيادتها واتساعها من أجل خدمة البناء والتصنيع وإن أهم شئ ويجب الاهتمام به هو اليقظة من أجل محاربة تسلل القيادات الرجعية والانتهازية التى تجيد تغيير لونها والتى تمارس النفاق بجدارة والتى سيطرة من قبل على هيئة التحرير.. حزب ثورة يوليو.. الوحيد والشمولى.. وكذلك حزب الاتحاد القومى والتى دبرت الانفصال الرجعى فى سوريا.

لذلك فعلى الجماهير العاملة أن تعلم أن النفاق السياسى والاجتماعى يتزايد فى هذه الأيام من جانب العناصر الرجعية لكى تتعايش مؤقتاً حتى تتحين أى فرصة لتتشب مخالبها فى أعناق شعبنا ولهذا فلابد من الحذر الشديد فى أختيار أعضاء التنظيم السياسى الذى يعتبر خير تتويج لثورتنا الاشتراكية من أجل هذا أرى من المفيد إبراز الآتى.

أولاً: ضرورة تعميل وتفليح التنظيم السياسى بشكل مناسب بمعنى زيادة نسب العمال من أصحاب الأيدى الخشنة. وكذلك زيادة نسب الفلاحين الفقراء والمعدمين فى كافة مستويات التنظيم السياسى.

ثانياً: من الضرورى أن يكون من بين أعضاء التنظيم السياسى أصحاب التاريخ فى معاداة ومقاومة الاستعمار والاقطاع ورأس المال.

ثالثاً: على أعضاء التنظيم السياسى أن يعيشوا وسط الجماهير فى القرى والمصانع وفى الصحارى والبرارى وأقاصى البلاد.

رابعاً:على كل عضو فى التنظيم السياسى أن يقدم تقريراً وافياً ومفصلاً عن مصادر دخله منذ عشرين سنة.

ذلك هو الكتاب الذى قمت بخطة وتأليفه فى كراسة مغلفة تغليفاً بدائياً بالخيط والإبرة حسب ظروف السجن ثم سلمته للزملاء الذين قاموا بإرساله إلى زوجتى إفراج عكرش فى ميت غمر حيث بادرت بإرساله إلى مؤسسة الثقافة العمالية بالقاهرة.

وبعد الإفراج عنى وعن المسجونين والمعتقلين اليساريين وحدت خطابا من مؤسسة الثقافة العمالية فى انتظارى فى منزلى وقد تضمن الخطاب تهنئتى بالفوز بالمرتبة الأولى واستحقاقى للجائزة الأولى وقدرها مبلغ خمسين جنيهاً عن تأليف الكتاب المعنون بعنوان.. دور العمال فى المجتمع الاشتراكى والإنتاج.

ولذلك ضحكت فى عبِّى وقلت لزوجتى العزيزة إفراج.. ضاقت فلما استحكمت حلقاتها.. فرجت وكنت أظنها لا تفرج.. وذلك نظراً لأن جميع العمال المفرج عنهم من سجن الواحات خرجوا إلى سجن الحياة الذى كان سجناً صعباً جداً وكئيبا جداً بالنسبة لهم بسبب ما تعرضوا له من بطالة وجوع حيث انصرفت عنهم نقاباتهم العمالية خوفاً من السلطة وطمعاً فى ترضية السلطة التى كانت وللأسف سلطة الاشتراكية الناصرية مما اضطر هؤلاء العمال المفرج عنهم إلى التسول من مكاتب وزارة الشئون الإجتماعية ومعونة الشتاء بالقاهرة التى كانت تفتح خراطيم المياه عليهم لفض تجمهرهم بقصد حصولهم على معونات هذه الهيئة ولقد تعرضت شخصياً للحبس بتهمة الاعتداء على موظف عمومى أثناء ممارسة هذا التسول ورغم هذه الهموم المعيشية التى قد حاقت بى وبأمثالى من العمال المفرج عنهم من منفى الواحات إلا أننى كنت فى حالة من الفرحة لحصولى على الجائزة الأولى فى مسابقة مؤسسة الثقافة العمالية التى سوف يترتب عليها حصولى على مبلغ خمسين جنيهاً بالتمام والكمال.

ولذلك ذهبت إلى القاهرة بالمجان حيث اعتاد زملائى عمال النقل على تكريمى بالركوب المجانى ووصلت إلى دار مؤسسة الثقافة العمالية فى الموعد المحدد لاستلام مبلغ الجائزة حيث قابلنى سكرتير الدكتور حلمى مراد رئيس مجلسى إدارة المؤسسة وطلب منى الإنتظار بمدرج المحاضرات حيث توافد المتسابقون فى هذه الجائزة وبعد مرور ساعة من الوقت لاحظت تسلل المتسابقون وتركونى وحدى يتيماً فى قلب المدرج.. وخلال ذلك لاحظت دخول بعض الأشخاص إلى قاعة المدرج لكى يتفحصوا شكلى وملامحى وكأنى أحد القرود المحبوسة حبساً انفرادياً فى قفص بحديقة الحيوان فتوجست خيفة حيث ظننت أننى تحولت من فائز إلى سجين حتى أتانى شخصا تبدو عليه الأبهة وقدم لى نفسه كمدرس بالجامعة وطلب منى مناقشة الكتاب موضوع المسابقة.

وبدأت المناقشة ثم تحولت إلى محاوله إقناعى بتغيير أفكار الكتاب مما جعلنى أتيقن أن سيادته واحداً من عسكرة البوليس السياسى ولهذا قلت يا سيدى هل لديك أولاد فقال الرجل نعم لدى ولد فقلت له وأنا لدى بنت جميلة فهل يمكن أن نتبادل فاندهش حضرة الضابط من هذه المفاجأة التى وصلتها بقولى.. إذا كان من الممكن مبادلة الاولاد فعلينا مبادلة الأفكار وانتهت المناقشة وقلت فى نفسى لله يا زمرى.. وتوجهت إلى سكرتير الدكتور رئيس المؤسسة وسألنى عن المناقشة فقلت بمراره يا أستاذ سيبك لا مناقشة ولا مكافأة ولا يحزنون وكل ما أرجوه من سيادتك أن تعطينى مخطوط الكتاب فأحضره لى على الفور قائلاً.. الدكتور حلمى زعلان منك فقلت فى ضيق اللى يزعل يشرب من البحر وعدت إلى زوجتى فى ميت غمر بدون مليم واحد.

وبدافع العناد الطبقى بادرت بطبع الكتاب بدار الثقافة التى يديرها الأستاذ محمد الجندى وقمت بتوزيعه ونشره بنفسى على العمال والنقابات والدارسين فى المعاهد العمالية والاشتراكية مما استفز البوليس السياسى الذى حولنى إلى أمن الدولة بالقاهرة باعتبارها سلطة التحقيق والاتهام الخاصة وكانت التهمة الموجهة ضدى من المباحث العامة ونيابة أمن الدولة هى تهمة قلب نظام الحكم بواسطة كتاب عنوانه.. دور العمال فى المجتمع الاشتراكى والإنتاج.

وفى تحقيق نيابة أمن الدولة إعترفت بتأليف الكتاب وطبعه ونشره وتوزيعه مما دفع هذه النيابة إلى تحويلى فى نفس اليوم إلى محكمة أمن الدولة الخاصة التى عقدت بمحكمة باب

الخلق بالقاهرة بدون محامين وبدون جمهور من الناس وفى هذه المحكمة الخاصة والسرية سألنى القاضى عن الكتاب فأكدت اعترافى أمام نيابة أمن الدولة ثم سألنى عن أسباب تأليفه وطبعه ونشره فقلت القصد من هو تخليص الاشتراكية الناصرية من سلبياتها وذلك بجانب مدحها والثناء عليها ففاجأنى القاضى بقوله.. لا تمدح.. ولا تذم.. روح.

هكذا حوكمت بإيعاز من عسكرة مباحث أمن الدولة وبواسطة عسكرة نيابة أمن الدولة التى قدمتنى إلى محكمة أمن الدولة الخاصة فى جلسة سرية وهى أيضاً إحدى حلقات العسكرة هذه العسكرة المزدوجة والغليظة والتى أساءت إلى ثورة يوليو وإلى الاشتراكية الناصرية وطبعت على جنيها بصمات التأديب والتهذيب والإصلاح.

الناصرية تأديب وتهذيب وإصلاح

يا شجرة خضرة مين اللى حولك شومة

الشاعر اليسارى فؤاد حداد

هكذا وصف الشاعر الشعبى فؤاد حداد الرئيس جمال عبد الناصر ولكن من حوله من شجرة خضراء ظليلة ومثمرة إلى شومة جافة لا وظيفة لها غير التأديب.. تأديب الآخر وزجره وقمعه واضطهاده وقهره دون مراعاة أن الآخر أيضاً إنسان له رأى وفكر وعقيده ومصلحة وإن لضباط الأحرار قد أسسوا تنظيمهم وقاموا بانقلابهم العسكرى الذى قد حظى بلقب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من أجل هذا الإنسان الآخر ولهذا فقد رفعت حركة يوليو فى أول عهدها شعار يقول.. إرفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الظلم والاستبداد.. ولكن ذلك الشعار الثورى كان مجرد كلام مكتوب بحبر على ورق..

ومن هنا فإن جذور التأديب العقابى للناصرية ضد خصومها ومعارضيها والمختلفين معها تعود إلى طبيعة العسكرة وعادات وأعراف العساكر الذين يقضون حياتهم فى القشلاق العسكرى بين زجر الضبط ورهبة الضبط وما ورثوه من التراث العسكرى المغولى والمملوكى والعثمانى من حق أبدى يقضى بأن تقوم سلطة الحكم كل الحكم على أكتاف حملة السلاح وحدهم ولا سياسة إلا سياسة العسكرة مما يجعلهم يديرون شئون حكم بلادهم كما تدار الضياع الاقطاعية.. وبالتالى يعبثون بالحياة المدنية والمجتمع المدنى ولا يأبهون بمزاج

الجماهير المدنية ونفسيتها الاجتماعية ولهذا فالعسكرة تمقت الديمقراطية كل الديمقراطية وما يندرج تحتها من حريات عامة ونقابية وشخصية بهدف تحقيق حكم السادة دون حكم الرعية وما ينبثق منها من معارضة وتعدد الاحزاب والنقابات وممارسة الاحتجاجات بالرأى والكلمة والتقاضى والشكاوى والاضرابات والاعتصامات والتظاهرات وتبادل السلطة المركزية والمحلية ونظراً لأن البكباشى والرئيس والزعيم جمال عبد الناصر لم يستطع أن يتخلص من داء العسكرة كما تخلص منها الجنرال ديجول فى فرنسا والجنرال ايزنهاور فى أمريكا فإنه أصبح شخصية كارزمية مؤثر ومتناقضة حيث ظل بعضها شجرة خضراء وبعضها شومة جافة وغليظة مما جعل الناصرية ذات العطاء ناصرية تأديب عقابى صارم لا يوجه إليه نقد ولا يسرى عليه قانون.

فالصدام الدموى والعسكرى ضد عمال كفر الدوار المسالمين والمطالبين بحقوقهم المشروعة وقتلهم بالجملة تأديب وتشكيل المجلس العسكرى لمحاكتهم تأديب واجراءات محاكمتهم ومكانها وزمانها تأديب وحتى وصدور الحكم عليهم بالسجن والشنق وطريقة إعلان الحكم تأديب وكذلك التصديق على الحكم بإعدامهم وسجنهم وتأديبهم والتصدى للاقطاعى عدلى للوم الذى واجه السلطة بحمل السلاح ومحاكمته عسكرياً تأديب ولكنه تأديب مخفف جداً لأنه ليس نفراً من انفار الطبقة العاملة المصرية.

وأن مواجهة عمال شركة الغزل والنسيج الشوريجى بامبابة فى عام ١٩٥٣ المتظاهرين والمطالبين بحقهم من تنفيذ قانون غلاء المعيشة بواسطة الدبابات والمصفحات وسجنهم بالجملة تأديب.

وإن القاء الدستور وحل الأحزاب دون جماعة الأخوان المسلمين تأديب وكذلك أعتقال العمال النقابيين والمثقفين اليساريين ودعاة الديمقراطية ومعارضى ثورة يوليو تأديب.

وانشاء محاكم الثورة ومحاكم الغدر والمجالس العسكرية لمحاكمة الشخصيات المدنية والحزبية والعسكرية المعارضة تأديب.

وحبس الزعيم الوطنى مصطفى النحاس وزوجته السيدة زينب الوكيل حبساً فعلياً مصحوباً بالإهانة تأديب.

والإعتداء على قاضى قضاه مصر الدكتور عبد الرازق السنهورى فى مكتبة بمجلس الدولة بواسطة عساكر يوليو تأديب.

وكذلك إهانة البطل القائمقام يوسف صديق وحبسه وزوجته دون مراعاة لدوره فى ثورة يوليو تاديب.

وحبس القائمقام احمد شوقى دون مراعاة لموقفه ليلة ثورة يوليو تاديب.

وحبس القائمقام رشاد مهنا لخلافه مع ثورة يوليو تأديب.

وأن تفشى التعذيب الوحشى الذى وصل إلى حد نفخ الرجال من أدبارهم فى القرن العشرين هذا التعذيب الذى تعرض له المسجونون والمعتقلون الشيوعيون واليساريون وأعضاء جماعة الاخوان المسلمين تأديب.

وفتح السجن الحربى لأول مرة وتحويله إلى جهنم للمعتقلين.. تاديب.

كما أن ممارسات الضابط الوحش والفاشستى اللواء حمزة البسيونى مدير السجن الحربى تاديب فى تاديب فى تاديب.

وحرمان عائلات المعتقلين والمسجونين من صرف اجور ابنائها خلاف الحال فى العهد الملكى الذى كان الذى كان يصرف إعانات شهرياً للمعتقلين وذلك تأديبا على المعارضين للملكية

ومن طرائف التأديب النقابى الناصرى غير المباشر تبدو فى تشريد آلاف العائلات من جراء حرمان افرادها من دخول وأجور الأباء والازواج المسجونين والمعتقلين فى الفترة الناصرية.

ذلك التأديب الذى أصاب محرر بجريدة الأهرام لنشرة نعى الشهيد اليسارى شهدى عطية الشافعى الذى مات بسبب تعذيبه تعذيباً وحشياً فى سحن أوردى ابو زعبل عام ١٩٦١ حيث أوجز نعى الشهيد شهدى عطيه الشافعى.

فى قول الشاعر العربى أبو تمام الذى قال:

فتى مات بين الضرب والطعن ضربة.. تقوم مقام النصر إن فاته النصر.

وللحزن فإن التأديب العقابى للناصرية قد تخطى الحدود المصرية بقوة العسكرة الناصرية المزدوجة بعسكرة الجيش والمشير عام. هذه العسكرة التى اغتالت الضابط الشيوعى اللواء عفيف البزرى رئيس أركان الجيش السورى.. كما اغتالت المناضل فرج الله الحلو سكرتير الحزب الشيوعى السورى اللبنانى الذى تم تحليل جسده فى حامض الكبريتيك للتخلص من الجريمة التأديبية للعسكره الناصرية.. وذلك بالإضافة إلى تدبير المؤامرات الانقلابية ضد ثورة العراق بقيادة لواء الركن عبد الكريم قاسم.

ذلك هو التأديب العقابى الناصرى الذى جعل من الرئيس جمال عبد الناصر هذه الشجرة الخضراء والمثمرة شومة غليظة على الناس كل الناس فى مصر الذين يحبونه حباً جاماً فقد كانوا يحبونه جداً ويخافون خوفاً شديداً من سلطته شديدة البأس مما جعل المخبر السياسى جالساً متربعاً فى وجدان المصريين جميعاً بحيث أصبح ذلك المخبر اللعين أكثر فزعاً ورعباً للناس من البصاص فى العهد المملوكى والعثمانى وذلك رغم شعبية الرئيس عبد الناصر الواسعة.

ولذلك فقد كان الحب الشديد الذى يحظى به الرئيس عبد الناصر تشويه الخوف الشديد بعكس الزعيم سعد زغلول والزعيم مصطفى النحاس اللذين كانا من رؤساء الوزراء المصريين اللذين يتمتعان بالحب الشعبى الصافى والخالى من شوائب الخوف ولهذا كانا يحكمان بشعبيتهما الواسعة دون سلطتهما بخلاف الرئيس جمال عبد الناصر الذى كان يحكم مصر بلسطته أكثر ما كان يحكم بشعبيته الواسعة جداً جداً جداً مصرياً وعربياً ومع هذا فقد عجز عجزاً تاماً فى التصدى لعسكرة الجيش والمشير عبد الحكيم عامر ولم يتصدى لعسكرة الجيش هذه إلا بفضل انتفاضة الشعب المصرى يومى ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧ للاستفتاء الشعبى على بقاءه أى عبد الناصر قائداً ورئيساً بعد هزيمتنا العسكرية أمام إسرائيل وذلك فى مواجهة عسكرة الفاشية الصهيونية وعسكرة الجيش والمشير عامر المهزومة.

وهكذا تحولت شجرة الناصرية الخضراء إلى شومة.. هذه الشومة التى جلبت لنا البكباشى أنور السادات وفرضته نائباً لرئيس الجمهورية ثم رئيسا للجهورية حيث عبث بالشجرة الناصرية الخضراء بفضل هذه الشومة التى سلمها لخليفته جنرال الطيران حسنى

مبارك فوظفها فى محو وازالة الشجرة الناصرية الخضراء ومازالت الشومة موجودة وقائمة فى وجوه الناس كل الناس طالما حكم العسكر والعسكرة يا شجرة خضرة خضرا .. مين اللى حولك شومة هذه الشومة التى جعلت الوطنية المصرية وطنيةتنز بالطغيان وجعلت من القومية العربية قومية تنز أيضا بالطغيان وبوفاة الرئيس عبد الناصر وظف ذلك التأديب العقابى فى وأد الوطنية المصرية والقومية العربية والاشتراكية الناصرية ومازالت الشومة اللعينة تفرض وجودها فى مصر المعاصرة والأمر الغريب أن ذلك التأديب العقابى والناصرى قد لازمه التهذيب الناصرى أى النظرية الناصرية والفكرا لناصرى فى مراحل الوطنية المصرية والقومية العربية والاشتراكية الناصرية حيث تجلى التهذيب الناصرى فى كتاب فلسفة الثورة وفى مقدمة دستور سنة ١٩٥٤ وفى الميثاق الوطنى وفى مجمل خطابات عبدالناصر ولم يقل لنا أحد من الذى طرح ذلك الفكر الناصرى من وحى ضميره وعقله ومن الذى صاغه وخطه بيده وقلمه هل هو البكباشى والرئيس عبد الناصر بنفسه أو القاضى الشيوعى احمد فؤاد عضو قيادة الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى أو الدكتور راشد البراوى الأستاذ محمد ابو العلا أو الأستاذ حمدى السيد مستشاره القانونى أو هو الأستاذ محمد حسنين هيكل فالله ورسوله أعلم.

مع العلم أن الرفيق لينين قائد الثورة الاشتراكية العظمى فى روسيا القيصرية سنة ١٩١٧ هو الذى قد أنتج أغلب كتابات وأدبيات هذه الثورة الاشتراكية مطوراً ومجدداً كل أفكار كارل ماركس فردريك إنجلز الاشتراكية وذلك من حيث الفكر والصياغة معاً .. وكذلك فعل الرفيق ماوتس تونج قائد الثورة الإشتراكية المعينية سنة ١٩٤٩ .. وحتى الزعيم النازى الألمانى أدولف هتلر الذى وصل إلى الحكم فى ألمانيا بواسطة إنتخابات ديمقراطية هو الذى وضع الفكر النازى والعنصرى فكر الاشتراكية الوطنية الألمانية من خلال نشر كتابه المشهور المعنون بعنوان.. كفاحى .. والجدير بالذكر أن كتاب كفاحى هذا قريب الشبه بكتاب فلسفة الثورة الذى قدم فيه البكباشى جمال عبد الناصر طموحه وأحلامه من خلال قوله فى فلسفة الثورة.

ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البعد حولها لتبحث عن وضعها وظروفها فى المكان وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه وما هو مجالها الحيوى وميدان نشاطها ودورها الإيجابى فى هذا العالم المضطرب.. هكذا قال هتلر فى كتابه كفاحى.

ثم يقـــول.. وأنا أجلس أحيانا فى غرفة مكتبى وأسرح بخواطرى فى نفس الموضوع.. أسائل نفسى ما هو دورنا الإيجابى فى هذا العالم المضطرب.. وأين هذا المكان الذى يجب أن تقدم فيه بهذا الدور واستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا من أن يدور عليها نشاطنا وأن نحاول الحركة فيه بكل طاقاتنا.

أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا إرتبطت مصالحنا بمصالحها أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة أفريقية شاء القدر أن تكون منها وشاء القدر أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها هذا صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالماً إسلامياً تجمعنا وإياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب وإنما تشدها حقائق التاريخ.

ولست أدرى لماذا أذكر دائما عندما أصل إلى هذه المرحلة من أفكارى وأنا جالس وحدى قصة مشهورة للشاعر الإيطالى الكبير بيراندلوا ست شخصيات تبحث عن ممثلين.. إن ظروف التاريخ مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه.. ولست أدرى لماذا يخيل دائما أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به.. ثم لست أدرى لماذا يخيل إلى أن هذا الدور الذى أرهفه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا يشير إليها أن نتحرك وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه فإن احداً غيرنا لا يستطيع القيام به.

ولقد أمنت بالجندية طول عمرى والجندية تجعل للجيش واجباً وحداً هو أن يموت على حدود وطنه. فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطراً للعمل فى عاصمة الوطن وليس على حدوده ومرة أخرى دعونى أنبه إلى أن الهزيمة فى فلسطين والأسلحة الفاسدة وأزمة نادى الضباط لم تكن المنابع الحقيقية التى تدفق منها السيل. لقد كانت كلها عوامل ساعدت على سرعة التدفق. ولكنها كما سبق أن قلت لا يمكن أبداً أن تكون هى الأصل والأساس.

وإذن لماذا وقع على الجيش هذا الواجب.. قلت أن هذا السؤال طالما ألح على خاطرى ألح علينا ونحن فى دور التأمل والتفكير والتدبير بعد ٢٣ يوليو.. لقد كانت أمامنا ضرورات

مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب أن نقوم بالذى قمنا به. كنا نقول إذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به.. وكنا نقول كنا نحن الشبح الذى يؤرق به الطاغية أحلام الشعب وقد آن لهذا الشبح أن يتحول إلى الطاغية فيبدد أحلامه هو.

إننا كنا نشعر شعوراً يمتد إلى أعماق وجودنا بأن هذا الواجب واجبنا.

ويقول البكباشى عبد الناصر أيضاً:

كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرب ما بين أفرادها إطار واحد يبعد عنهم إلى حد صراع الأفراد والطبقات وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب وأن يكون فى استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض وأن يكون فى يدهم عناصر القوة المادية ما يكفل لهم عملاً سريعاً حاسماً.. ولم تكن هذه الشروط تنطبق إلا على الجيش.. وهكذا لم يكن الجيش وحده هو الى حدد دوره فى الحوادث.. وإنما على العكس كان أقرب إلى القمة.. وكانت الحوادث وتطوراتها هى التى حددت للجيش دوره فى الصراع الكبير لتحرير فلسطين.

وكنا فى حاجة إلى الاتحاد فلم نجد وراءنا إلى الخلاف وكنا فى حاجة إلى النظام فلم نجد إلا الفوضى وكنا فى حاجة إلى العمل فلم نجد وراءنا إلا الخضوع والتكاسل ومن هنا وليس من شئ وآخر أخذت الثورة شعارها: **(الاتحاد..... النظام..... العمل)**

ويواصل البكباشى عبد الناصر سرد أفكاره فيقول:

ذهبنا نلتمس الرأى من أهل الرأى والخبرة من أصحابها ومن سوء حظنا لم نعثر على شئ.. كل رجل قابلناه لم يكن يهدف إلا إلى قتل رجل آخر.. وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف إلا إلى قتل فكرة أخرى ولو أطعنا كل ما سمعناه لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار.

وإنهالت علينا الشكاوى بالآلاف ومئات الآلاف ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروى لنا حالات تستحق الإنصاف أو مظالم يجب أن يعود إليها العدل لكان الأمر منطقيا ومفهوماً ولكن كان معظم ما كان يرد إلينا لم يزد أو ينقص من أن يكون طلبات انتقام كأن الثورة قامت لتكون سلاحا فى يد الأحقاد والبغضاء.

ولو أن أحداً سألنى فى تلك الأيام ما هو أعز ما يملك لقلت له على الفور أن أسمع مصريا قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لإخوانه المصريين وأن أرى مصريا لا يكدس وقته لتسفيه آراء مصرى آخر.. وكان هناك بعد ذلك أنانية فردية مستعجلة كانت كلمة أنا على كل لسان وحين جاء فى واحد من أصدقائى يقول لى أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الإنجليز.. وأنت فى نفس الوقت تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر فى عملها.

. إستمعت إليه وكان فى خيالى أزمتنا الكبيرة.. أزمة شقى الرحى. أزمة تجعلنا أن نتحد صفاً واحداً ونتسى الماضى وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الضائعة لقيم الأخلاق.. ولم ننسى الماضى ولم أشأ أنا فى ذلك ولو شاء كل الذين شاركوا فى ٢٣ يوليو ولكن القدر شاء. وتاريخ شعبنا والمرحلة التى يمر بها.

ويضيف البكباشى عبد الناصر فيقول:

وجاءت الحرب العالمية الثانية وما سبقها بقليل على شبابنا فألهمته وأشاعت لنا فى خلجانه هذا اتجاهنا اتجاه جيل بأكمله يسير إلى العنف.. وأعترف ولعل النائب العام لا يوأخذنى بهذا الأعتراف. أن الأغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة على أنها العمل الإيجابى والذى لا مقر من الأقدام عليه وإذا كان يجب أن ننقذ مستقبل وطننا.. وفكرت فى أغتيال كثيرين.. فكرت فى أغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا ولم أكن وحدى فى هذا التفكير.. وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الإتجاه.. ما زلت أذكر عن اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع فى الطريق إلى نهايته كنا قد أعددنا العدة للعمل واخترنا واحداً قلنا إنه يجب أن يزول وانطلق نحوه الرصاص وانسحبت فرقة التنفيذ وأدرت محرك سيارتى وإنطلقت أغادر المسرح الذى شهد عملنا الإيجابى الذى رتبناه.. وفجأة دوت فى سمعى أصوات وصريخ وعويل وولولة امرأة ورعب طفل.

هكذا طرح البكباشى جمال عبد الناصر أفكاره التى تضمنت أحلامه وطموحاته هذه الأفكار المتقاربة من أفكار ادولف هتلر الزعيم النازى الألمانى بشأن مسألة المجال الحيوى ومسألة تشخيص البطل أو الزعيم المنتظر ومسألة الإرهاب الفردى وممارسته وقد اختلفت عبد الناصر عن هتلر فى مسألة تغليب العسكر والعسكرة على الحياة المدنية والجماهير

المدنية ويعود هذا الأختلاف إلى الطريقة التى وصل بها كل منهما إلى السلطة فالزعيم النازى هتلر وصل إلى السلطة فى ألمانيا بواسطة إنتخابات ديمقراطية حصل فيها على ثلاثة عشر مليون صوت إنتخابى كما أن حزب العمال الوطنى الإشتراكى الألمانى قد أحرز نجاحاً متوفقاً فى عدد من الإنتخابات البرلمانية بينما وصل البكباشى عبد الناصر بواسطة انقلاب عسكرى.

وبالتالى فقد كان عبد الناصر قد فقد الثقة فى الجماهير الشعبية قبل الإنقلاب العسكرى وبعده بدليل ميله الشديد إلى تحويل المجتمع المدنى المصرى إلى قشلاق عسكرى تتوحد فيه الناس بالقوة قوة الضبط والربط لا قوة الحب والمحبة والعلاقات الأخوية والوطنية والإجتماعية وبالتالى فلابد أن تنتظم الناس فى رحابه فى طابور عسكرى كل حسب رتبته العسكرية وذلك لكى تعمل وتنتج بالأمر العسكرى تحت شعار الإتحاد النظام العمل ومن هذا المنطق الكافر بالشخصيات المدنية والجماهير المدنية رأى عبد الناصر أن علاقات هؤلاء بعضهم ببعض تصطبغ بالكراهية والعداء إلى عدان كل شخصية مدنية تريد أن تقتل غيرها وتفتك بها وكان مصر تحولت إلى غابة وحشية.

ولم يلتفت البكباشى جمال عبد الناصر إلى أن التطبيق العملى لشعار الأتحاد والنظام والعمل الذى هو شعار عسكرة يوليو قد أوجد شكلا من الرهبة المخيفة جدا والمفزعة جداً من العسكرى وأى عسكرى مما أدى إلى إشاعة النفاق والتزلف حتى يأمن الإنسان المصرى على حياته ورزقه وخاصة بعد أعدام العاملين الشهيدين خميس والبقرى مما أدى إلى تفكيك العلاقات الطبقية بالذات بين الطبقات الإجتماعية وخاصة الطبقة العاملة المصرية التى قد تجمعت فلولها فى النقابات السلطوية وهيئة التحرير حزب ثورة يوليو الشمولى والوحيد.

وفضلاً عن هذا فإن ذلك التنظير الناصرى وما يسوده من عسكرة قد ولد لنا حكم الفرد المطلق ووحدانيته السياسية. هذا الفرد هو البطل الذى لمح إليه البكباشى جمال عبد الناصر فى فلسفة الثورة ومن ثم ظهرت لنا الشمولية الحزبية ممثلة فى تطوير هيئة التحرير إلى الإتحاد القومى حزب ثورة يوليو الشمولى والمركزى الذى قاد الحياة النيابية والحركة النقابية والعمالية بعد عسكرتها بضابط الجيش مثل الصاغ طعيمة فى هيئة التحرير والصاغ خالد فوزى فى الروابط العمالية واليوزباشى وفاء حجازى فى نادى العمال.. ومما

يذكر أن فكرة الإتحاد القومى قد جلبت إلى مصر من دولة البرتغال ذات النظام الفاشستى ثم تتطور التنظير والتفكير الناصرى أو التهذيب الناصرى فخلع عن نفسه بعضاً من ثوب العسكر وطبيعة العسكرة هذه الطبيعة التى لم تترجم إلى واقع عملى بدليل أن عسكرة يوليو المزدوجة تواصل ماراستها القمعية هنا وهناك بينما كانت عبارات التنظير الناصرى الجديد التى قد تتجلى فى مقدمة دستور سنة ١٩٥٦ وتتردد على المنابر وتتداولها الأغنيات المذاعة هذه العبارات التى تقول نحن الشعب المصرى.. الذى إنتزع حقه فى الحرية والحياة بعد معركة متصلة من السيطرة المعتدية من الخارج والسيطرة المستغلة من الداخل نحن الشعب المصرى.. الذى تولى أمره بنفسه وأمسك زمام شأنه بيده غداة النصر العظيم الذى حققه بثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وتوج به كفاحه على مدى التاريخ.

نحن الشعب المصرى.. الذى إستلهم العظة من ماضيه وإستلهم العزم من حاضره فرسم معالم الطريق إلى المستقبل متحرر من الخوف.. متحرر من الحاجة متحرر من الذل.. يبنى بعمله الإيجابى وبكل طاقاته مجتمعاً تسوده الرفاهية ويتم له فى ظلاله القضاء على الإستعمار وأعوانه.. القضاء على الإقطاع القضاء على الإحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم.. إقامة جيش وطنى قوى.. إقامة عدالة إجتماعية.. إقامة حياة ديمقراطية سليمة..

نحن الشعب المصرى.. الذى يؤمن بأن لكل فرد حقاً فى يومه. ولكل فرد حقاً فى غده.. ولكل فرد حقاً فى فكرته.. حقوقاً لا سلطان عليها أبداً لغير العقل والضمير.

نحن الشعب المصرى.. الذى يقدس الكرامة والعدالة والمساواة بإعتبارها هى جذوراً أصيلة للحرية والسلام.

نحن الشعب المصرى.. الذى يشعر بوجوده متفاعلاً فى الكيان العربى الكبير ومتداد مسئولياته والتزاماته حيال النضال العربى المشترك لقوة الأمة العربية ومجدها.

نحن الشعب المصرى.. الذى يعرف مكانة على ملتقى القارات والبحار هذا العالم بقدر تبعات رسالته التاريخية فى بناء الحضارة ويؤمن بالإنسانية كلها ويوقن أن الرخاء لا يتجزأ وإن السلام لا يتجزأ.

نحن الشعب المصرى.. بحق هذا كله ومن أجل هذا كله.. نرسى هذه القواعد والأسس دستوراً ينظم جهادنا ويصونه ونعلن اليوم هذا الدستور وتنبثق أحكامه من صميم كفاحنا

ومن خلاصة تجاربنا ومن المعانى المقدسة التى اقتنعت بها جموعنا ومن القيم الخالدة التى سقط دفاعاً عنها شهداؤنا ومن أجل المعارك التى خاضها أباؤنا وأجدادنا جيلاً بعد جيل.

من حلاوة النصر ومن مرارة الهزيمة.. نحن الشعب المصرى وبعون الله وتوفيقه وهداه.

نملى هذا الدستور وتقرره ونعلنه بمشئتنا وارادتنا وعزمنا الأكيد وتكفل له القوة والمهابة والإحترام.

وأى إحترام هذا فى ظل وجود السجن الحربى وقائده اللواء حمزة البسيونى فى مصر وسوريا والتعذيب والتصفيات الجسدية فى مصر وفى سجن المزة بسوريا.

ومع ذلك فقد تقدم التهذيب الناصرى أى التفكير والتنظير الناصرى من مرحلة الوطنية المصرية صوب الاشتراكية الناصرية وذلك كرد ثورى على السقوط الرجعى للوحدة بين مصر وسوريا حيث دعا الرئيس عبد الناصر إلى عقد مؤتمر القوى الشعبية فى فبراير ١٩٦٢ الذى اقتصرت عضويته على الأعضاء بالإتحاد القومى حزب ثورة يوليو الذى أقر الميثاق الوطنى فى يوم ٣٠ يونيو ١٩٦٢ وانبثق منه الإتحاد الإشتراكى بدلاً من الإتحاد القومى.. وللأسف فكل ذلك التقدم والتطور فى الفكر الناصرى قد لازمته العسكرة المزدوجة عسكره المشير والجيش والعسكرة الناصرية والوحدانية السياسية والشمولية الحزبية والنقابية السلطوية.

ورغم السلبيات المشار إليها فقد تجلت سطور الميثاق الوطنى بملامح الإشتراكية الناصرية حيث تقول:

إن الشعب المعلم أراد لطلائعه الثورية أن ينضم إلى صفوف العمل الجماهيرى وأوكل إلى جيشه الوطنى مهمة عملية البناء ثم راح يشرف بوعى وجداره على التحول الرائد الخلاق نحو الإشتراكية الديمقراطية التعاونية.. إن الثورة بالطبيعة عمل شعبى تقدمى أن الثورة الحقيقية بما تعبر به عن الجماهير الواسعة.. إن الديمقراطية هى توكيد السيادة للشعب ووضع السلطة كلها فى يده.. كذلك فإن الإشتراكية هى الترجمة الصحيحة لكون الثورة عملاً تقدمياً.. أن الديمقراطية والإشتراكية من هذا التصور تصبحان امتداداً واحداً للعمل الثورتى.

أن الديمقراطية هى الحرية السياسية.. والإشتراكية هى الحرية الإجتماعية.

أن الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تنفصل عن الديمقراطية الإجتماعية.

أن الديمقراطية لا يمكن أن تتحقق فى ظل سيطرة طبقة من الطبقات. أن الديمقراطية حتى بمعناها الحرفى هى سلطة الشعب.

يقول الميثاق.. أن التنظيمات الشعبية وخاصة التعاونية والنقابية تستطيع أن تقوم بدور مؤثر وفعال فى التمكين للديمقراطية السليمة أن هذه التنظيمات لابد أن تكون قوى متقدمة فى ميادين العمل الوطنى الديمقراطى.. ولقد سقط الضغط الذى كان يخنق حرية هذه المنظمات ويشل حركتها.. أن تعاونيات الفلاحين فضلاً عن دورها الإنتاجى هى منظمات ديمقراطية قادرة على التعرف على مشاكل الفلاحين كذلك فقد آن الوقت لكى تقوم نقابات العمال الزراعين إن نقابات عمال الصناعة والتجارة والخدمات قد توصلت بقوانين يوليو العظيمة إلى مركز طليعى فى جبهة النضال الوطنى.

أن العمال لم يصبحوا سلعة فى عملية الإنتاج وإنما أصبحت قوى العمل مالكه لعملية الإنتاج ذاتها شريكة فى إداتها شريكة فى إدارتها وتقول المقدمة النظرية للإتحاد الإشتراكى.

منذ أن قامت لثورة ٢٣ يوليو وارتبطت بمبادئها الستة وانتقل نضال الشعب للتحويل الإشترواكى بعد قرارات يوليو ١٩٦١ إقتضت مراحل الكفاح قيام تنظيم شعبى هو الإتحاد الإشتراكى العربى.

إن الإتحاد الإشتراكى العربى هو الطليعة الإشتراكية التى تقود الجماهير وتعبر عن إرادتها وتوجه العمل الوطنى وتقوم بالرقابة الفعالة على سيره فى خطة السليم فى ظل مبادئ الميثاق.

وهو الوعاء التى تلتقى فيه مطالب الجماهير وإحتياجاتها ويضم الإتحاد الإشتراكى العربى كتنظيم سياسى شعبى لقوى الشعب العاملة ويتمثل فيه تحالف هذه القوى فى إطار الوحدة الوطنية ويتحلى أهدافه فى الآتى:

- تحقيق الديمقراطية السليمة ممثلة بالشعب وللشعب لتكون الثورة بالشعب.
- تحقيق الثورة الإشتراكية التى هى ثورة الشعب العامل.
- دفع إمكانيات التقدم ثورياً لصالح الجماهير.

ـ حماية الضمانات التى قررها الميثاق وهى كفالة الحد الأدنى لتمثيل العمال والفلاحين فى جميع التنظيمات الشعبية والسياسية على جميع مستوياتها بحيث يراعى فى تنظيمات الإتحاد الإشتراكى نفسه أن تكون نسبة العمال والفلاحين ٥٠٪ على الأقل بأعتبارهم أغلبية الشعب التى طال حرمانها من حقوقها الأساسية.

ذلك هو الميثاق الوطنى بأعتباره أهم وثيقة نظرية للإشتراكية الناصرية حيث ركز الميثاق على أن العسكر والعسكرة يمثلان وحدهما الطليعة الثورية للشعب المصرى التى بادرت بالثورة المصرية عموماً وثورة يوليو خصوصاً مما يعنى نفى كل القوى الوطنية ودورها النضالى وأعتبار العسكر المصريين وحدهم بأنهم رسل الحرية والأستقلال فى مصر الحديثة وذلك دون كل القوى الوطنية وتضحياتها منذ الثورة العرابية وبشأن الديمقراطية التى وردت فى الميثاق فى الحياة التعاونية والحركة النقابية العمالية فقد كانت ديمقراطية نظرية فقط حيث كانت ومازالت النقابات العمالية نقابات سلطوية معادية للديمقراطية وكذلك الحال فى الجمعيات التعاونية التى كانت سلطوية والسلطوية هى بنت العسكرة ومن هنا فالميثاق يعتبر وثيقة نظرية للإشتراكية الناصرية القائمة من الناحية الواقعية على مبدأ المركزية دون الديمقراطية وعلى مبدأ عبادة الفرد فالفرد هو الرئيس جمال عبد الناصر المسنود بسلطته التى اكتسبها بالعسكرة والتى تشوبها العسكزة وأصبغت عليه صبغة الحاكم الفرد وكذلك وعلى شعبيته مصرياً وعربياً التى خطى بها بسبب مواقفه الوطنية القومية والتحررية والإشتراكية وأصبغت عليه صبغة عبادة الفرد وما يتدرج تحتها من وحدانية سياسية وشمولية حربية وسلطوية نقابية مما يعنى أنه كان يحكم بصبغة حكم الفرد وبواسطة عبادة الفرد أى أنه كان حاكما مزدوج الطبيعة ثم تأتى إلى آخر الأدبيات الناصرية متجلية فى خطب الرئيس عبد الناصر.

ففى مدينة حلب عام ١٩٥٨ خطب فقال:

تعلن للعالم أجمع أن الجمهورية العربية المتحدة قد كونت كلها اتحاداً قوميا من أجل كل فرد من أبنائها.

وفى يوم ٦ إبريل ١٩٨٥ يوجه مندوب شركة كولمبيا للإذاعة سؤالاً إلى الرئيس عبد الناصر يقول فيه:

فى هذا الصيف سيكون قد مر على قيام ثورتكم ستة سنوات فما الذى تحقق من أهدافكم.

الرئيس عبد الناصر يرد قائلاً.. لقد كانت لهذه الثورة حين قامت ستة مبادئ مشهورة أعلنتها.

اولاً.. القضاء على الأستعمار وأعوانه وأظن هذا الهدف قد تحقق.

وثانياً.. القضاء على الإقطاع وأظن أننا قطعنا شوطاً كبيراً فى تحقيق هذا الهدف فلقد حددنا ملكية الأرض ووزعنا عدداً منها على الفلاحين فكان الهدف الثالث هو القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم ولا أظن أن هناك من يدعى أنه بقيت سيطره لرأسمال على الحكم وكان هناك بعد ذلك إقامة عدالة إجتماعية ولقد حاولنا ومازلنا نحاول إقامة مجتمع تسوده الرفاهية.

ثم هناك هدف إقامة جيش وطنى ولقد حققنا ذلك إلى حد بعيد ثم كان الهدف السادس هو إقامة حياة ديمقراطية سليمة ولقد تمكنا من أن نبدأ ببعض خطوات فى هذا الطريق.

سؤال.. إن أعداؤكم يقولون إنك دكتاتور فما هو رأيكم؟

الرئيس عبد الناصر.. إن أعدائنا يستطيعون أن يقولوا ما يحلو لهم وإذا كان الحرص على تعبئة جميع قوة الشعب وتوجيهها إلى بناء دولة مستقلة ديكتاتورية فأنا إذن ديكتاتور.

سؤال.. هل تستطيعون أن تحددوا ما هو الوقت المناسب لقيام ديمقراطية كاملة أعنى وجود أحزاب منظمة فى بلادكم؟

الرئيس عبد الناصر.. أن الولايات المتحدة الآن قوة وأنك إذا عدت إلى الأيام الأولى من تاريخ بلادكم أيام حرب التحرير وإذا تذكرت ما كان يقوله رئيسكم الأول جورج واشنطن فى حديثه المشهور أنه لا يوافق على نظام تعدد الأحزاب.

ولقد أجرينا أخيراً إنتخابات عامة فى مصر وقلت صراحة إننا سنعترض فعلاً على بعض الرجعيين والشيوعيين.

وفى يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥٨ خطب الرئيس عبد الناصر فقال:

وحينما تمكنت منا الحزبية وتمكنت منا الأحقاد وفتحت بلادنا للمستعمر ومن هذا هو الإتحاد القومى إتحاد يجمع بين أبناء الوطن العربى الواحد لا إنحراف إلى اليمين ولا

إنحراف إلى اليسار لقد وجهنا كل جهودنا لتحقيق الحرية وخطب فى يوم ٢١ فبراير ١٩٥٩ فقال:

لقد زيفوا الشعارات فى الماضى ليخدعوكم.. لقد زيفوا شعارات الديمقراطية.. وقامت مصر سنة ١٩٢٣ ديمقراطية سياسية ولكن قامت هذه الثورة لأن الديمقراطية السياسية التى نادوا بها وطبقوها سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٥٢ إنما هى تزييف للشعارات.

وخطب فى يوم ٣ مارس ١٩٥٩ فقال:

وكلنا نذكر الماضى ونعلم كيف كانت الأحزاب تعمل فى خدمة الأستعمار.

اليوم نعلن أن هذه الديمقراطية هى للشعب وإن الأحزاب كانت ترتبط بالأستعمار وليس لها مكان بيننا. وقد إكتشفنا أن ديمقراطيتنا ستتبع من إرادتنا من أرضنا وستكون لهذا الشعب.. إننا نعتمد على الديمقراطية التى تتبع من أرضنا.. وأننا نعرف جيدا الديمقراطية الخائنة.

- وبعد ثورة العراق وبعد أن إنحسر الشيوعيون فى البلاد آثرنا أن نحاول بكل وسيلة من أجل وحدة الصف ا لعربى ولكن حكام العراق وعلى رأسهم قاسم العراق «أى لواء الركن عبد الكريم قاسم قائد الثورة العراقية». تنكر لهذه الجمهورية ولجأ إلى العراق فى هذا الوقت زعماء من شيوعى بلدنا خانوا بلدهم وخانوا وطنهم ونذروا أنفسهم على أن يكونوا العامل الأساسى للوقيعة بين الشعب العربى وسحق القومية العربية.. وكان الحزب الشيوعى فى مصر منذ عام ١٩٥٢ يتلقى تعليماته من الحزب الشيوعى الإيطالى.. إن الشيوعيين عملاء لأنهم رضوا لأنفسهم أن يبيعوا بلادهم للأجنبى وأن يتلقوا التعليمات لينفذوها وأن الحزب الشيوعى هنا فى سوريا إنما كون من العملاء الذين كانوا يتلقون الوحى من خارج بلادهم بل يتلقون الأموال أيضاً.

فإذا قام الشيوعيون فى بغداد وكتبت صحفتهم لتخدع شعب العراق وتقول إن الشعب السورى مع شيوعى العراق ومع الشيوعيين السوريين الذين لجأوا إلى العراق ليتهم كانوا هنا اليوم ليروا هذه الآلاف بل مئات الألوف التى خرجت لتشييع شهيد العراق.

إن دفاع السيد خروشوف.. رئيس الإتحاد السوفيتى.. عن الشيوعيين فى بلدنا لا يمكن أن يقبله الشعب العربى حيث قال إن الرئيس عبد الناصر حينما يتحدث عن الشيوعية والشيوعيين فإنه يلجأ إلى لغة المستعمرين.. إن هذا القول تحريفاً للواقع لأننا أعلنا دائماً إن سبيلنا هو التضامن العربى ولابد لقيام الوحدة من موافقة الشعب العربى. إن الشيوعيين كشفوا النقاب عن خططهم من الجمهورية العربية المتحدة التى أثبتت الحياد الإيجابى ورفضت التبعية.

ـ وفى دمشق خطب الرئيس عبد الناصر فى يوم ١٥ مارس ١٩٥٩ فقال:

ـ لقد امتد حقد الشيوعيين العرب علينا فى مصر وجابهونا بحملات كثيرة ولكننا جابهتاهم.. ولم تخضع لتهديدهم وضغطهم.. ولكن الشيوعيين الذين هزموا فى مصر ثم هزموا فى سوريا وجدوا لهم النصير فى بغداد .. وقاسم الشعب العربى الباسل فى العراق يكافح من أجل حريته وديمقراطيته ولكن الشيوعيون يملئون الشعارات الزائفة .. أنهم يعلنون شعار الديمقراطية وليس شعار الديمقراطية فى الشيوعية إلا الدكتاتورية الحمراء ولا سفك الدماء وهم يقولون بالديمقراطية ومبادئ الديمقراطية وليست الديمقراطية إلا الشعارات التى يتستر خلفها شيوعيو العراق ووجد الشيوعيون فى العراق فى قاسم العراق النصير الذى آواهم وحماهم أن الشيوعيين أيها الاخوة فى العراق يحاولون إن يصفوا العناصر القومية الشريفة.

وفى حفل القوات العسكرية المدرعة فى ٣٠ مارس ١٩٥٩ خطب فقال:

واليوم أيها الأخوة تقوم ضدنا فى البلاد العربية حملة كراهية مسعورة يقوم بها الشيوعيون الذين يقتلون القومية ويقتلون الوطنية من أجل إقامة حكم مبنى على الحكم الاقلية الشيوعية وكما قضينا على الإستعمار والسيطرة سنقضى على العملاء الشيوعيين.

وفى يوم ١٧ إبريل ١٩٥٩ صرح الرئيس عبد الناصر للصحفى الهندى كرانجيا فقال:

لقد سعيت عدة مرات للإلتقاء بقاسم إلا أنه تجنب مقابلتى.

سؤال.. لماذا تجنب اللقاء؟

الجواب.. فقد تبين لنا أن الشيوعيين سيطروا عليه وراحوا يفتالون ثورة العراق نفسها وإن الثورة الوطنية اختفت فى العراق ولقد استقال سفير العراق فى القاهرة وإن قاسم

أخفق فى جعل الثورة تعطى للعراق النظام الدولى وترك الإرهاب الشيوعى يتولى حكم البلاد.

س.. ولكن هل ترون يا سيادة الرئيس أنكم رددتم بشئ من العنف على ذلك الخطأ كما يبدو لكم أن قاسم والشيوعيون عرب على أى حال. فهل لم يكن فى وسعكم أن تتريثوا على أمل إعادتهم إلى رشدهم؟

الجـواب.. إن الشيوعيون العرب فقدوا عروبتهم بعد أن باعوا أنفسهم للنفوذ الأجنبى. ولقد وجدت لزاماً على أن أنبه مواطن إلى هذا الخطر.

س.. شكراً يا سيادة الرئيس إذ لا يمكننى المجادلة فى هذا التفكير ولكن أود لو زدتم بعض النقاط إيضاحاً إننى أدرك من كلامك أنه إذا كان الخطر مقصوراً على العراق وحده لماذا رضيتهم أن تتدخلوا ولكن مادمتم ترى أن هذا الحالة السائدة فى العراق مشكلة كل العرب.

الجـــواب.. إن المعلومات المحققة التى اكتشفناها كشفت خطة شيوعية الغرض منها الإستيلاء على العراق وإنشاء دولة شيوعية فى هذه المنطقة العربية على أن يعقب ذلك اتفاق فى سوريا ومصر وكان الشيوعيون دبروا إحداث إنقلاب آخر فى سوريا وكان بكداش.. زعيم الحزب الشيوعى السورى.. قد عاد لهذا الغرض إلى الشرق الأوسط حيث راح يعمل مع اللواء عفيف البزرى رئيس أركان الجيش السورى.. والشيوعيون فى حزبهم السرى ولقد قضت الثورة على محاولتهم فوراً.

سؤال.. ما هو أهم خلاف بينهم وبينكم يا سيدى

الجـــواب.. لقد دمغوا القومية العربية بطابع يختلف عن طابعها الأصلى وهو التمسك بعدم الإنحياز وأسلوبهم هو أن يرفعوا شعارات الديمقراطية المزيفة ويطالبون بقيام أحزاب.

سـؤال.. قال الزعيم العراقى كامل الكادرجى أن المشكلة الرئيسية بينكم وبين حزبه أن تتم الوحدة مع الديمقراطية ولكنكم رفضتم قبول أى إتحاد فيدرالى كما رفضتم قيام أحزاب سياسية فى العراق وقد غير الكادرجى موقفه عندما صرح بأنه من أنصار الديمقراطية الموجهة.

الجواب.. وأما فيما يتعلق بمسألة الديمقراطية فإنى أذكر أننى كنت فيما مضى من أشد المؤمنين بها وبنظام الإحزاب إلا أننى أدركت بعد ذلك وأيدته التجربة أنه لو ترك الحل للأحزاب على الغارب لوجدناها تتحول إلى قواعد للنفوذ الأجنبى. ونحن نحاول تطوير ديمقراطية مناسبة لظروفنا الخاصة ومنظمتنا السياسية المعروفة.. الإتحاد القومى.. يجرى الآن توسيعها بحيث تعتمد على جمهرة الشعب.. ومن الانتخابات التى تجرى فى القرى والمراكز ونحن نعتزم جعل التعاونيات الريفية أساس الديمقراطية التى تعتمد عليها الإتحاد القومى.

ويختتم الصحفى الهندى كرانجيا مع الرئيس عبد الناصر بسؤال يقول.. هذا كلام جميل وشرح طيب يا سيدى الرئيس.. ولكن كل هذا يضعكم فى مركز صعب جداً حقاً.. لقد سمعت عن مخاوف أعربت عنها بعض الدوائر القومية العربية ومؤداها أن الشقاق بين القاهرة وبغداد يضعف الوحدة العربية أمام عدوكم الأكبر أى أمام إسرائيل بينما يؤدى النزاع بين القاهرة وموسكو إلى تعريض الشرق الأوسط لعدوكم الآخر وهو الأستعمار الغربى.. فإذا فرضنا أن أتفق العدوان من جديد على شن هجوم كالهجوم الذى وقع على بورسعيد فى خريف سنة ١٩٥٦ فهل حسبتم عواقب مثل هذا الهجوم.

فأجاب الرئيس عبد الناصر قائلا:

- بغداد دائماً كانت بعيدة عن معركتنا مع إسرائيل.. ولسنا نستطيع أن ننتظر من العملاء مساعدات أكثر مما كنا ننتظر من نورى السعيد فعلينا أن نعتمد على أنفسنا وأن نترك الزمن وقوى القومية العربية ليعملا على إعادة العراق إلى حظيرة العرب.

هكذا ظل الخطاب الناصرى يستبد به الزهو القومى حتى هزيمتنا العسكرية فى عام ١٩٦٧ التى أدت إلى هزيمة عسكره الجيش والمشير عبد الحكيم عامر وإنسحابها من الحياة المصرية ولم يبق غير الرئيس عبد الناصر وشعبيته التى قد ساندته فى يومى ٩ و١٠ من يونيو ١٩٦٧ فى مواجهة الهزيمة العسكرية مما جعله يخطب فيها قائلاً.. الشعب يقول وأنا معه.. ثم أصدر بيان ٣٠ مارس وقد صاحب ذلك ما نشرته الصحف القومية من شعارات تقول بسقوط دولة المخابرات أى دولة عسكرة المشير عامر ولذلك فقد بادرت الجماهير

العمالية والطلابية بالتظاهر احتجاجاً على أحكام قادة ضابط الطيران المسئولين عن هزيمتنا العسكرية ظناً منهم أن حكم العسكرة والمخابرات قد سقط بإنتحار المشير عبد الحكيم عامر والقبض على آزلامه من العسكريين ولكن الرئيس عبد الناصر قد فاجأ الجميع بعبارته السلطوية المشهورة.. إذا لم نقود فسوف نحكم.. وذلك بالإضافة إلى القبض على المتظاهرين بواسطة المباحث وقيادات الإتحاد الإشتراكى.

لقد كان القصد من عرض ملامح التهذيب الناصرى أو قل الأدب الناصرى هو معرفة تأثير العسكرة على نشوء الناصرية وتطورها من فترة الوطنية المصرية إلى فترة القومية العربية إلى فترة الإشتراكية الناصرية.. حيث كشف لنا الأدب الناصرى أن الناصرية طوال عمرها الذى انتهى بوفاة الرئيس جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٧٠ كانت ذات جذور تنتسب إلى العسكرة يؤيد ذلك الغياب التام والمطلق لكل مظاهر المجتمع المدنى التى استبدلت بمظاهر مجتمع عسكرى. وتتميز الناصرية كسلطة بإنها حققت شعبية ملحوظة جداً فى مصر والوطن العربى إلى حد أنها قد أفرزت ظاهرة عبادة الفرد التى حظى بها الرئيس عبد الناصر دون غيره من رؤساء الجمهوريات المصرية.

ولذلك فالأدب الناصرى مضاد للديمقراطية وحرياتها العامة والنقابية والإجتماعية مضاد للأحزاب ووجددها وتعددها وبالتالى فالعسكرة هى المسئولة عن سقوط الوحدة المصرية السورية وهى أيضاً المسئولة عن الحرب الكلامية والتآمرية بين سلطة الجمهورية العربية المتحدة بقيادة الرئيس عبد الناصر وبين ثورة العراق بقيادة اللواء عبد الكريم قاسم.

إن هذه الحرب قد بدت ملامحها فى حديث الرئيس عبد الناصر للصحفى الهندى كرانجيا الذى قد تأفف كثيراً من حديث الرئيس عبد الناصر لعدوانيته على الثورة العراقية المجيدة والتى قضت على حلف بغداد الأمريكى الإنجليزى حيث كان يود الرئيس عبد الناصر السيطرة على الثورة العراقية لضمها إلى الوحدة المصرية السورية جبراً وإكراها ولا جدال فى أن عسكرة الوحدة المصرية السورية كانت وراء هذه الحرب المشار إليها ومما يذكر أن تلك العسكرة قد انقسمت على نفسها وأسقطت الوحدة العربية بين مصر وسوريا رغم الشعبية التى حظيت بها هذه الوحدة كما أن هذه العسكرة التى لم ينكرها الأدب الناصرى كانت هى سبب من الأسباب فى هزيمة مصر العسكرية أمام إسرائيل فى حرب

عـام ١٩٦٧ وهـى التى جلبت السـادات رئيسـاً لمصر كمـا كانت هى أيضاً تمثل الجانب المظلم خلال ترجـمـة الأدب الناصـرى إلى واقع مادى وملموس الذى تجلى فى الإصـلاح الناصـرى والإشتـراكيـة الناصرية التى زلزلت قداسة الملكية للمرة الثالثة فى تاريخ مصر فالمرة الأولى خلال تطبيق الإشتراكية الإقطاعية فى العهد الفرعونى حيث كانت الأراضى الزراعيـة كلها ملكا للدولة الفرعونية والمرة الثانية خلال تطبيق إشتراكية أفندينا مـحـمـد على السـان سيمونية حيث كانت حكومـة الوالى محـمـد على تملك الصنعة والمصانع ويملك الأراضى الزراعيـة بعـد طرد الملتزمين المماليك والعثمانيين والمشايخ المصريين.. هذه الأراضى التى أعطت بعضها للفلاحين المصريين الفخ مقابل إيجار يسلم لخزينة دولة أفندينا محمد على.

ولقد تحققت الإشتراكية الإقطاعية الفرعونية بطريقة سلطوية لا شعبية وكذلك تحققت إشتـراكيـة افندينا محمد على بطريقـة سلطوية وعسكرية.. على نفس الطريقـة السلطوية والعسكرية تحققت الإشتراكية الناصرية التى استهلت وجودها بإصلاحات وطنية وإجتماعية تجلت فى صـدور وتنفـيـذ قانون الإصـلاح الزراعى وتوزيع الأراضى على فـقـراء الفـلاحـين وزيادة أجور عمـال الزراعة والتراحيل من ٣-٤ قروش إلى ١٢,٥ قرش يومياً. وإلغـاء الملكيـة والألقـاب الطبقـيـة مثل لقب بك ولقب باشا وبادرت بشجاعة وطنية ملحوظة بتأميم شركة قناة السويس وتمصير الإقتصاد المصرى وبنوكه وشركاته التى كان يسيطر عليها الخواجات والأجانب واليهود وحـددت صفـات ومهام أعـضـاء مـجلس الشركـات الرأسـمـاليـة وتأميم مجموعـة شركات بنك مصر وأنشأت المؤسسة الإقتصادية برياسة الطيار حـسـن إبـراهيم عضو مـجلس ثورة يوليو التى سيطرت على شـركات بنك مصـر التى كانت تتحكم فى إدارة ٢٢٧ شـركـة صناعيـة وتجارية كـمـا تتـحكم فى ٤٠٪ من مـجـمـل وواقع الجـهـاز المصـرفى.. وبجانب ذلك فقـد أسست الناصرية صندوق التأمينات الإجتماعية الذى تحول إلى مؤسسة التأمينات والمعاشات للعاملين فى القطاعين العام والخاص والحكومة.

ثم تخطو النـاصرية خطوتها التقـدمية صـوب الإشتـراكية ومن ثم تتسمى بالإشتـراكيـة الناصرية ممـا أفزع الأستـعمـار والاستـغـلال والصـهيونية فى حين أن الشـعب المصرى قد استقبل ميلاد هذه الإشتراكية الناصرية بالرضى الإجتماعى غير المحدود.

ولقد بدت تجليات الإشتراكية الناصرية بصدور قانون توزيع الأرباح على عمال المؤسسات والشركات وبصدور قانون مشاركة العمال فى مجالس إدارة الشركات وبصدور قانون الحد الأعلى للمرتبات وبصدور قانون تخفيض ساعات العمل اليومى إلى سبع ساعات وصدور قانون تخفيض إيجار المساكن والضريبة العقارية على المساكن ثم صدور قوانين توفير الحماية القضائية ضد فصل العمال تعسفياً أو نقلهم اكراهياً من العمل هكذا تجلت الإشتراكية الناصرية به لظهور فى مجال الحياة الإجتماعية وعلاقات العمل والعمال خلال شهور سنة ١٩٦١.. ثم بدأت تتجلى أيضاً فى نفس العام وما بعده فى المجال الأقتصادى فاممت ١٤٩ شركة تجارية وصناعية وأسست القطاع العام الذى أصبح شريكا فى ٩١ شركة وحدد ملكية الأشخاص الرأسمالية فى ١٥٩ شركة ونظمت منشآت تصدير القطن وملكية مكابس القطن وأسقطت التزام شركة ترام القاهرة وشركة ليبتون الخاصة بكهربة القاهرة.. وأصدرت قانون الإصلاح الزراعى للمرة الثانية ونظمت مؤسسة التأمينات الإجتماعية وأصدر لائحة تنظيم العمل والعمال وإجراءات ترشيح العمال فى مجالس إدارة الشركات وأصدرت قانون بمنع الأجانب من تملك الأراضى الزراعية.. وقانون التأمين والمعاشات لموظفى الدولة ومستخدميها المدنيين فى وتحويل بعض الشركات والمنشآت إلى القطاع العام . وصدور قانون بتأميم ١٤ شركة للأدوية وتأميم ثمانى شركات للمقاولات والنقل والملاحة وإدماج ١٦ شركة من شركات النقل وسبع شركات جديدة وتعيين مجالس إدارة مؤقتة لها.

ثم صدرت قرارات جمهورية متتالية بضم الكثير من الشركات إلى القطاع العام وإلغاء عقود وإستغلال المناجم والمحاجر الممنوحة للقطاع الخاص بالإضافة إلى تأميم شركات النقل البرى والنهرى.

كل هذه التغييرات والتأميمات الإجتماعية والإشتراكية وقعت بطريقة سلطوية فى أعوام ٦١ و٦٢ و١٩٦٣ أعوام التحول الإشتراكى أو التطبيق الإشتراكى الناصرى هذا التطبيق الإشتراكى الذى قُدم للشعب المصرى وطبقاته الأجيرة والفقيرة والمتوسطة خدمات لم تحدث من قبل فى الصحة والعلاج وفى مجال العلم والتعليم حيث خرجت الجامعات المصرية الكثير جدا جدا من أولاد الفقراء الذين اشغلوا مناصب الأطباء والمحامين والمحاسبين

والصيادلة والمهندسين والضباط والقضاه بفضل التعليم المجانى وامتدت خدمات الإشتراكية الناصرية إلى مجال التموين والمواد الغذائية المدعمة والمواد الخام المدعمة التى كانت سبباً فى ثراء وإنتعاش الطبقة المتوسطة وامتدت كذلك إلى مجال النقل والإسكان وخدمات الأمن القومى وحرب الخارج ضد إسرائيل حيث مَوَّل القطاع العام الإشتراكى حرب عام ١٩٦٧ الحاسرة وجرب الإستنزاف وحرب سنة ١٩٧٣ المجيدة.

ولكن هذه الإشتراكية الناصرية العظيمة تخللتها العسكرة طولاً وعرضاً وفوقاً وتحتاً حيث هيمنت عليها عسكرة المشير عامر والجيش بواسطة لجنة الإشراف على القطاع العام برآسة المشير عبد الحكيم عامر الذى حول ذلك القطاع الإشتراكى إلى وسيَّه خاصة للسادة ضباط الجيش مما أفزع الرئيس عبد الناصر من ظهور طبقة رأسمالية جديدة من الضباط العاملين فى شركات ومؤسسات القطاع العام الذين قد أشاعوا الفساد والاستبداد فى جنباته ولهذا حذر مرتين من ظهور هذه الطبقة مرة فى إحدى خطبه فى عام ١٩٦١ ومرة ثانية فى إحدى خطبه أيضاً فى عام ١٩٦٣ ولكن بشكل ضمنى وذلك خوفاً من عسكرة المشير عامر كما ثبت أخيراً من مذكرات الدكتور مراد غالب التى جاء فيها أن الضابط على شفيق سكرتير المشير عامر قد حرك مدفعية الجيش المصرى صوب منزل الرئيس جمال عبد الناصر فى عام ١٩٦٢ أى خلال فترة التحول الإشتراكى بقصد اغتياله وعائلته مما يعنى وجود صراع حاد بين عسكرة المشير التى تسيطر على كل أسلحة الجيش المصرى وقتئذ وعسكرة الرئيس عبد الناصر المسنودة فقط بسلاح الطيران المصرى وشعبيته التى لم يلجأ إليها ولم يستنفرها فى هذا الصراع الخفى بين عسكرة المشير وعسكرة الرئيس.

ولكن لماذا كان هذا الصراع؟

إن وقت ذلك الصراع يحدد لنا أسبابه وغاياته هذه الأسباب التى تبدو فى وجود القطاع العام الإشتراكى وما به من كنوز وثروة تفتن العابد دون أن يستطيع الشعب الإقتراب منها والإطلاع على مقدمات هذه الكنوز العامة والثروة العامة التى باتت مملوكة للشعب كل الشعب ولكنها كانت بتداول بين عسكرة الرئيس وعسكرة المشير وذلك دون رقابة الشعب عليها.

وخلال بداية التداول السلطوى والعسكرى للقطاع العام الإشتراكى الجديد لم تكن فى مصر حياة ديمقراطية تسمح للشعب المصرى فى الدخول كطرف فى إدارة القطاع

الإشتراكى ومراقبته ومن ثم انفردت عسكرة الرئيس وعسكرة المشير فى السيطرة على القطاع العام الإشتراكى من منطلق القانون العسكرى المغولى القائل بضرورة قيام السلطة على أكتاف حملة السلاح ولا توجد سياسة غير سياستهم ويديرون شئون الحكم كما تدار الصناع وفى سياق هذه السيطرة الثنائية ظهرت طموحات وأطماع بين عسكرة المشير وعسكرة الرئيس وأطماع فدار الصراع بينهما بعيداً عن الشعب كما كان يدار بين والأجناد والعساكر المماليك بعضهم ببعض دون الشعب المصرى الذى كان يقف متفرجاً هكذا كان الحال بين عسكرة الرئيس وعسكرة المشير فى سنوات التحول الإشتراكى.

ونظراً لغياب أخبار السلطة فى الفترة الناصرية فإننى أميل بعض الميل إلى أن العسكرة أو السلطة الناصرية كانت تدافع عن طموحاتها لتحقيق العدل الإجتماعى للشعب المصرى فى حين أن عسكرة المشير عامر كانت ذات أطماع فئوية وشخصية فى القطاع العام الإشتراكى التى كانت تراه مجرد غنيمة يستحقها ضباط الجيش بإعتبارهم حملة السلاح وفقاً للقانون المغولى بدليل أن أولى الوظائف التى أدت إلى الثروة فى هذه الأيام كانت وظيفة ضابط الجيش التى كانت أكثر الوظائف فساداً واستبداداً فى شركات ومؤسسات القطاع العام وهو ما حذر منه الرئيس عبد الناصر أكثر من مرة.

وبصرف النظر عن فساد هذه العسكرة المزدوجة فإنها هى المسئولة الرئيسية عن الإطاحة بالإصلاح الإشتراكى الناصرى من خلال هزيمة مصر أمام إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ حيث كان هدف من الأهداف أمام إسرائيل وأمريكا ليس هزيمة الجيش المصرى فقط بل هزيمة الوطنية المصرية الإشتراكية الناصرية كدولة ومجتمع مما نودى إلى الصلح مع إسرائيل والإنسحاب من مواجهتها تاركه العرب كل العرب يواجهون الصهيونية العالمية بدون مصر العظيمة التى سوف تكون حتماً فى قبضة حاكم رأسمالى معادى للمعسكر الإشتراكى والإشتراكية نفسها وصديق حميم للإستعمار الأمريكى والصهيونية العالمية.. كل هذا حدث بفضل العسكرة وعساكرها المسئولين عن هزيمة مصر عسكرياً ثم إقتصاديا وإجتماعياً ثم روحياً وأخلاقياً مما أدى إلى إختفاء الإشتراكية الناصرية وتضاءل شأن الوطنية المصرية فى حركة التحرر والقومية والعربية وذلك كما سبق أن اختفت مصر الحديثة واشتراكيتها وإمبراطوريتها إلى أسسها وإلى مصر محمد على.

ولا أغالى أن قلت أن العسكرة وحدها هى المسئولة عن هزيمتنا العسكرية وهى المسئولة أيضاً عن تصفية الإشتراكية الناصرية من خلال إختيار انور السادات رئيسا لمصر بعد وفاة الرئيس الزعيم عبد الناصر حيث أثبتت الأيام أن السادات كان يضمر العداء اللدود للإشتراكية الناصرية ولهذا ينبغى إدانة العسكرة المصرية فى كل زمان ومكان .

جمهورية السادات فاشية وخيانة

أن العسكرة البوليسية والبونابرتية والاستبداد الشرقى أو الدينى أو العنصرى كلها مرادفات لإسم الفاشية شكلاً وموضعاً وهدفاً ومضموناً.. ومن ثم فالدولة الفاشية والجماعة الفاشية كلاهما عدو لدود ومبين للمجتمع الديمقراطى المدنى وعدد لدود ومبين أيضاً لدولة العدل الإجتماعي وأداة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان وبالتالى فالجمهورية المصرية الثالثة.. أى جمهورية الرئيس المقتول أنور السادات لم تكن جمهورية العسكرة فقط ولكنها جمهورية الفاشية لإنها مارست تغليب دين على دين وطبقة على طبقة وحزب على حزب وفكر على فكر تغليباً مطلقاً وهذه هى الفاشية بعينها وذلك بالإضافة إلى تكفير المعارضين له وإتهامهم بالإلحاد فى أول سابقة من نوعها فى مصر الحديثة.

فالرئيس السادات ضابط بالجيش المصرى الملكى من أسرة فقيرة هى قرية ميت أبو الكوم بمحافظة المنوفية فالأب كان يعمل موظفا بوزارة الحربية ولما خرج على المعاش اشتغل عامل تليفون بعيادة الطبيب العسكرى المشهور الدكتور مظهر عاشور.

وقد تزوج السادات مرتين الأولى زوجة ريفية والتالية السيدة جيهان السادات.

وفى أول حياته العسكرية ضبط فى خلية جاسوسية تعمل فى خدمة الجيش النازى الألمانى وكانت الخلية تضم الراقصة حكمت فهمى وقد تم ضبط هذه الحلبة فى الباخرة النيلية المملوكة لحكمت فهمى وكان ضابط سلاح الاشارة انور السادات من المقبوض عليهم ولقد تردد وقتئذ أن ضابط سلاح الإشارة أنور السادات لم يكن عضواً فى خلية الجواسيس هذه بل كان مجرد فنى قد تم استدعاؤه لإصلاح أجهزة اللاسلكى المعطلة التى كانت تستخدم فى الإتصال بالألمان.

ولكن يبدو أن الضابط أنور السادات كان مبهوراً بالألمان بزعامة أدولف هتلر وبالجيش الألمانى بقيادة الجنرال روميل الذى كان يواصل زحفه على مصر من الصحراء الغربية.. وذلك مثله مثل الكثير من المصريين الذين كانوا يمقتون الإنجليز واستعمارهم لمصر مما جعله يهيأ نفسه كضابط فى الجيش المصرى الملكى ليستقبل جيوش الجنرال روميل عندما تحتل مدينة الإسكندرية ثم مدينة القاهرة بقصد تحقيق طموحاته العسكرية فى ظل الملك فاروق الفاشستى المزاج والهوى الذى كان ينتظر دخول الجيوش الألمانية على أحر من الجمر ولكن تسرى الرياح بما لا تشتهى السفن حيث هزم الجيش الألمانى على مشارف الإسكندرية ولقد كانت واقعة القبض على الضابط أنور السادات فى الحادثة المشار إليها سابقاً سبباً فى إرتباطه بالملك فاروق وحاشيته الملكية ولهذا كان هروب الضابط السادات واشتغاله سائق سيارة هنا وهناك هروباً متفق عليه بدليل أن البوليس السياسى لم يتعقب السادات ولم يراقبه أبداً أبداً.

وعندما نظم الملك فاروق تنظيمه الفاشستى المدنى المكون من الأولاد السبع أبناء الخالات التركيات براسة حسين توفيق ابن توفيق أحمد باشا وكيل وزارة الحربية إنضم إليه أنور السادات واشترك فى اغتيال وزير المالية الوفدى أمين عنان سنة ١٩٤٦ ومما يذكر أن السادات اشترك فى جريمة هذا الإغتيال اشتراكاً غير مباشر حيث قام بوظيفة الناضورجى ثم هرب خلال الحادثة. مما كان يدل على جبنه.

وعندما نظم الملك فاروق أيضاً تنظيمه الفاشستى العسكرى المكون من ضباط الجيش والمسمى بالحرس الحديدى الذى حاول اغتيال الزعيم الوطنى مصطفى النحاس رئيس حزب الوفد عدة مرات إنضم إليه أنور السادات كمجرد نفر.

وخلال ذلك النشاط الفاشستى والإرهابى الذى شارك فيه أنور السادات يقول بعض من عارفيه أنه قام بوظيفة لبيس الملك فاروق الذى يقوم بخلع حذاء الملك فاروق وإلباسه إياه أثناء قيامه بصلاة الجمعة.

ومقابل ذلك عاد السادات إلى الجيش وحصل على رتبة بكباشى ثم إنضم إلى تنظيم الضباط الأحرار.

وبشأن مسألة عودة انور السادات إلى الجيش المصرى بعد فصله وإبعاده لم يقل لنا أحد عنها شيئاً وهل هناك سابقة مماثلة فى الجيش المصرى.. كما لم يخبرنا أحد عن الوقت الزمنى الذى إنضم فيه الضابط الملكى أنور السادات إلى تنظيم الضباط الأحرار وهل إنضم قبل حادث اغتيال الضابط الوطنى عبد القادر طه بواسطة منظمة الحرس الحديدى الملكى والعسكرى أو بعده وما هى المؤهلات الموضوعية لإشتراكه فى تنظيم الضباط الأحرار واختباره عضوا فى رئاسة ذلك التنظيم العسكرى والسرى ثم اختياره عضواً فى مجلس قيادة الثورة رغم عدم فعاليته فى صفوف الضباط الأحرار على مستوى أسلحة الجيش الملكى ورغم هروبه الإنتهازى بدخوله السينما هو وزوجته وتحريره محضر شرطة لإثبات وجوده فى السينما ليلة قيام الإنقلاب العسكرى للضباط الأحرار.

كل هذه الغاز لم يفسرها شهود الحركة المباركة للجيش المصرى المكابدين والمشاهدين وحتى السادة المؤرخين لم يفكوا طلاسم هذه الألغاز التاريخية بشأن الرئيس السادات.

وبجانب هذه الألغاز المحيرة فقد مارس البكباشى انور السادات منهجاً إنتهازياً طويل المدى هو المنهج الذى يقول تمسكن حتى نتمكن ولهذا لم يشارك فى أى صراع بين عسكرة الرئيس وعسكرة المشير وكذلك فى أى صراع سلطوى مما جعله كشخص إمعه ومنافق إلى أبعد الحدود ولعلنا نذكر حديثه بالراديو وكتابه المعنون بعنوان.. يا ولدى هذا عمك جمال.

والأمر الغريب ما تردده الصحف أخيراً بشأن عمالته للأمريكان بدليل علاقته بالمدعو كمال أدهم رئيس المخابرات السعودية وعميل المخابرات الامريكية فى الشرق العربى وبدليل اختفائه أربع أيام خلال زيارته لأمريكا عندما كان رئيساً لمجلس الأمة وبدليل استفزازه الوقح والمتعمد للقادة السوفيتى الذين كانوا يسلحون جيشنا.. وبدليل انفتاحه على أمريكا وإسرائيل بعد وفاة الرئيس عبد الناصر مما دفع بعض الصحف الوطنية إلى إتهامه بالخيانة.

وأن بعض هذه الإتهامات قد وقعت فى عهد الرئيس عبد الناصر فهل لم يحط علماً بها مع أنه كان يعرف المكان الذى يقوم فيه الذئب بتدريب إبنه وتعليمه.. ولهذا فإن كان يدرى فتلك مصيبة وأن لم يدر فالمصيبة أعظم ومع هذا فقد اختاره الرئيس عبد الناصر بعد

هزيمة سنة ١٩٦٧ نائباً أول لرئيس الجمهورية من منطق الوحدانية السياسية التى يتمتع بها وحده فى إدارة شئون مصر.

ولكن لماذا اختاره بذاته دون أن يختاره زكريا محيى الدين بإعتباره شخصية وطنية يمينية من الممكن أن تغازل أمريكا فى حدود الوطنية المصرية فقط.

أن خفايا هذه المسألة الخطيرة قد ماتت بموت الرئيس عبد الناصر الذى يبدو أنه وظف السادات بهدف مغازلة أمريكا وإسرائيل لا بإعتباره شخصية يمينية ووطنية ولكن بإعتباره عميل تطمئن إليه أمريكا وإسرائيل كما أثبتت الوثائق البريطانية أخيراً وخلال توظيف السادات فى وظيفته هذه مات الرئيس جمال عبد الناصر الذى حزنت على الدنيا دنيا القومية العربية والتحرر العالمى والإشتراكية.. دنيا الفقراء والاجراء والكادحين فى مصر والدول العربية.. بيثما فرحت لوفاته كل قوى الاستعمار الصهيونية وعندئذ إلتف اليسار الناصرى وعسكرته وورثوا سلطة مصر وحكم مصر إلى النائب الأول أنور السادات وفقاً للقانون المغولى والمملوكى الذى يقضى بقيام الحكم على اكتاف حملة السلاح بمعنى أن البكباشى أنور السادات ورث البكباشى جمال عبد الناصر.

ومن هنا فقد ورث الرئيس السادات عسكرة الرئيس جمال عبد الناصر وواحدانيته السياسية وشموليته الحزبية وسلطويته النقابية والحكم بفكرة السيادة دون فكرة الحرية وذلك دون شعبيته على المستوى المصرى والعربى ودون وطنيته وإشتراكيته وقوميته وفور أن جلس الرئيس السادات على عرش مصر بيسر وسهولة الأمر الذى فاق اطماعه وطموحاته وأحلامه وهذا ما جعله يضحك فى عبّه قائلاً لنفسه تمسكنت حتى تمكنت ومن ثم فلابد من المحافظة على عرش . عرش مصر المحروسة.

وفى سبيل ذلك فلابد من التخلص من عسكرة عبد الناصر وحوارييه اليساريين فى السلطة والجيس وفى البرلمان والإتحاد الإشتراكى الذين كان يعتبرهم السادات أصدقاء للسوفيتيين الممقوتين منه شخصياً.

ولقد بدأ السادات معركته هذه بإحداث إنقسام بين اليسار الناصرى واليمين الناصرى فى الإتحاد الإشتراكى ومجلس الأمة لإدراكه ان الانتهازية السلطوية تسيطر على مجمل

الناصريين فالكثير منهم من أتباع الملوك وأنصار كل من غلب هذا من جهة ومن جهة أخرى كان يدرك أيضا أن الناصريين المتشددين أصبحوا عرايا من الغطاء الناصرى وشعبيته هذا الغطاء الذى دفن مع الرئيس عبد الناصر فى قبره وبالتالى لم يعد يملكون غير نفوذهم القوى فى الجيش والشرطة والإعلام والنقابات العمالية والسلطوية هذا النفوذ الذى كان مبغوضاً من الشعب لمعاداته للديمقراطية ومجمل الحريات العامة بسبب ما يشوبه من عسكرة.

ومن هنا بادر الرئيس المقتول أنور السادات باستفزاز الحكام الناصريين شركاؤه فى الحكم والسلطة فسقطوا جميعاً فى شراك استفزازه باستقالتهم الجماعية من الوزارة بقصد إحداث فراغ دستورى يؤدى إلى قيام الجماهير المصرية دون أن تقعد من أجل خاطرهم حيث رد عليهم الرئيس السادات بإنقلاب عسكرى فى يوم ١٥ مايو ١٩٧١ قاده جنرال الشرطة ممدوح سالم وجنرال الجيش محمد أحمد صادق وجنرال الحرس الجمهورى اللواء الليثى ناصف حيث تم القبض على وزراء الشرطة والحربية والإعلام وغيرهم دون أن تتحرك الجماهير فى زقاق واحد من أزمة مصر.

هكذا حقق الرئيس السادات إنقلابه ضد الإشتراكية الناصرية وقادتها وعسكرتها بواسطة جزء من العسكرة الناصرية وبالتالى بدأ يفتح ذراعيه ترحيبا بالإستعمار الأمريكى ورأس المال المصرى والعربى والأجنبى.

ولذلك فقد كان إنقلاب الرئيس السادات إنقلاباً مضاداً ورجعياً لما يحمله من مضمون إجتماعى رأسمالى صرف ومضامين سياسية أخرى مضادة للوطنية المصرية والقومية العربية لخدمة أمريكا وإسرائيل يؤكد ذلك ما نشرته الوثائق البريطانية عن سنة ١٩٧٠ حيث قالت أن الحكومة الإسرائيلية شعرت بإرتياح من احتمال تسلم أنور السادات لرئاسة مصر خلفا للرئيس جمال عبد الناصر عندما تسربت أخبار مرضه. فنشرت الوثائق هذا الإرتياح بأنه يرجع إلى توقع أن السادات ليناً وأنه يحب الظهور ومن الممكن التأثير عليه من خلال زوجته السيدة جيهان كما أن الولايات المتحدة ستصبح لها قدرة فى التأثير على السادات أكبر من قدرتها فى التأثير على عبد الناصر.. الأهالى يوم ١٠ يناير ٢٠٠١.

هكذا تؤكد الوثائق البريطانية وجود علاقة تربط الرئيس السادات بالولايات المتحدة الأمريكية هذه العلاقة التى دفعت الرئيس السادات إلى تقديم خدمة لانظير لها للاستعمار

الأمريكي والأوروبى معاً تمثلت فى قيامه بإنقلاب يوم ١٥ مايو ١٩٧١ ضد الإشتراكية الناصرية وقادتها.

أن ذلك الإنقلاب المضاد والرجعى كان بمثابة البروفة المحلية والنهائية للإنقلاب الذى دبره وقاده ونفذه جوربا تشوف ضد الإشتراكية فى الإتحاد السوفيتى والمعسكر الإشتراكى مما يعنى أن أنور السادات هو جوربا تشوف الروسى.. وأن جوربا تشوف هو أنورالسادات المصرى.

وتغطية لذلك الإنقلاب الخطير بادر الرئيس السادات بتعيين عدداً من الوزراء اليساريين وأصدقاء اليساريين فى حكومته مثل الدكتور فؤاد مرسى وزير التموين والدكتور إسماعيل صبرى وزير التخطيط والدكتور مراد غالب وزير الإعلام والنقابى كامل العقيلى وزيز لشئون القصر الجمهورى وفى الحركة النقابية العمالية والسلطوية سمح بوجود اثنين من النقابيين اليساريين فى عضوية الإتحاد العام للنقابات هما عبد العظيم المغربى سكرتيراً للإتحاد العام للنقابات وأحمد الرفاعى نائباً للرئيس ذلك الإتحاد العمالى والسلطوى ثم اضطر اضطراراً إلى خوض حرب عام ١٩٧٣ ضد إسرائيل هذه الحرب المجيدة التى كانت وللأسف حرب تحريك لا حرب تحرير على حد قول الكاتب «يوسف إدريس» وقتئذ لأن هذه الحرب لم تشبع طموحات العسكرية المصرية العظيمة فى تحرير الأرض المصرية والعربية من العدو الصهيونى.

ومما يذكر أن مناقشات حرب أكتوبر كشفت على لسان المشير الجمسى أحد قادة هذه الحرب أن الرئيس السادات قد أتصل بصديقه الصهيونى كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة لإبلاغه بأن هذه الحرب هى حرب محدودة وذلك دون أن يخبر القيادة العسكرية الميدانية لحرب أكتوبر مستغلا فى ذلك وحدانيته السياسية مما أعتبره الكثير من المصريين خيانة.

وفى مجال الديمقراطية التى كان يتعطش لها الشعب المصرى فقد مارسها الرئيس السادات بشكل مظهرى ومسرحى حيث قام بحرق أشرطة التفتيش للمباحث فى مبنى وزارة الداخلية وهدم سور سجن طره وفكك الإتحاد الإشتراكى وحوله إلى حزب مصر ثم إلى

الحزب الوطنى وعدد تأسيس الأحزاب وأجرى الإنتخابات المحلية والإنتخابات العامة بقليل من التزوير مما سمح لليسار الناصرى والماركسى إلى الوصول إلى مقاعد البرلمان والمحليات.

وخلال ذلك تلقت مصر مئات المليارات من الدولارات كمعونات وقروض لم تصب كلها فى التنمية والخزانة العامة بل ذهبت إلى جيوب الرئيس السادات وازلامه من الحكام ومن الرأسماليين ولقد ترتب على ذلك ثراء المئات والمئات وباتت الوظيفة والمكانة السلطوية تؤديان إلى الثروة كما تخبرنا دراسة الباحثة سامية سعيد المعنونة بعنوان الوظيفة تؤدى إلى الثروة وبالمناسبة فإن المدعو عصمت السادات الموظف الصغير وشقيق الرئيس السادات أنور السادات جمع عدة مليارات جمعها أثناء حكم شقيقه أنور السادات كما قرر المدعى العام الإشتركى.

وحتى نتعرف أكثر وأكثر على السادات بإعتباره رئيس الجمهورية المصرية الثالثة فلابد من عرض لمحات من سيرة شقيقه عصمت السادات الذى بدأ حياته بوظيفة كومستبل بالبوليس ثم فصل من هذه الوظيفة وبعد قيام ثورة يوليو اشتغل مراسلاً لجريدة الجمهورية ثم إنتقل إلى مدينة السويس حيث نشط فى تجارة الحشيش والمخدرات ونقلها بواسطة سيارات نقل البترول وضبط فى قضية البازحيرم وزكى حيرم وبفضل شقيقه البكباشى أنور السادات عضو مجلس ثورة يوليو فلت من هذه القضية بإعتباره مرشداً وشاهد ملك.. ثم اشتغل مديراً لفرع شركة أتوبيس شرق الدلتا بالسويس ثم ضبط فى قضية غير سوية بواسطة مباحث النقل وضرب علقة ساخنة وتم سجنه رهن التحقيق عدة شهور وبعد ذلك نقل ليعمل مديراً لأتوبيس شركة شرق الدلتا بميت غمر.. وأثناء حرب أكتوبر سنة ١٩٦٧ اتهم النقابى اليسارى محمود سعدون بتهمة التهكم على عساكر المشير عامر المهزومة والهاربة ولهذا قدم إلى محكمة عسكرية حكمت ببرائته.. وفى هذه الأيام تكونت جبهة عمالية ونقابية ضد النقابى السلطوى رفعت ابوالحمايل رئيس النقابة العامة لعمال النقل وذهب إليه بعض الزملاء العمال اليساريين والتقى به فى سكنه الفقير فى ميت غمر وناقشه فى مسألة تدعيم هذه الجبهة المضادة لخصمه النقابى رفعت ابوالحمايل فرد قائلاً أنا رجل غلبان ولا أستطيع التصدى للنقابى رفعت أبوالحمايل.

ولكن هذا الرجل الغلبان والفقير قد تحول إلى ملياردير فى جمهورية شقيقه أنور السادات التى انبثق من خلالها نواة طبقة رأس المال المصرى الكبير.

ومن أجل تثبيت أقدام رأس المال الجديد فى الحياة المصرية وربطة برأس المال العالمى والشركات متعددة الجنسية أشاع الرئيس السادات استثمار رأس المال العربى والأجنبى بدون حدود وبدون شروط فى مصر.

وخدمة لرأس المال المصرى والعربى والأجنبى بدأ الرئيس السادات أيضاً فى العبث الشديد فى القطاع العام وشركاته بتخسيره ثم تفكيكه بقصد محاولة القضاء على الإشتراكية الناصرية.

وتبع ذلك محاولة إهدار الحقوق العمالية والمساس بتدعيم السلع التموينية مما أثار الصراع الطبقى من خلال أنتشار الأضرابات والمظاهرات الإحتجاجية فى مدن المحلة وشبرا الخيمة وحلوان والتبين التى قتل فيها الكثير من العمال بواسطة عسكرة السادات وذلك بالإضافة إلى المظاهرات الشعبية فى المدن والبنادر والقرى المسماه بالحوادث المؤسفة التى كانت بمثابة ردود إحتجاجية ضد الشرطة المصرية ووحشيتها وقتل المواطنين بالجملة.

ومن جراء هذه الممارسات المعادية الإشتراكية الناصرية وقطاعها العام ومكاسب العمال وحقوق الإنسان المصرى بادر الشعب المصرى بإجراء استفتاء شعبى برفض الرئيس السادات وإسقاط جمهوريته المصرية الثالثة وقد تجلى ذلك الاستفتاء ومقدماته باضرابات العمال والطلاب ومظاهراتهم منذ عام ١٩٧١ حيث ظلت المناطق الصناعية والجامعات المصرية والشارع المصرى عموماً فى حالات غضب وسخط على الرئيس السادات مما جعل الطلاب والعمال والجماهير الشعبية بقيادة اليسار الماركس واليسار الناصرى مستعدين للإطاحة بالرئيس السادات وجمهوريته الثالثة ولقد تحددت هذه الإطاحة عفوياً وتلقائياً باستفتاء الرفض أى رفض رئاسة السادات واستفتاء السقوط أى سقوط جمهوريته الثالثة بواسطة الاضرابات والمظاهرات الشعبية التى عمت القاهرة والإسكندرية وجميع المدن المصرية يومى ١٨ و١٩ من يناير سنة ١٩٧٧ دون أن تستطع عسكرة السادات وشرطته من التصدى لها مما دفع الرئيس السادات إلى محاولة الهرب من مصر ولهذا فلم ينقذه غير تدخل الجيش

والقوات المسلحة استبد الغضب الشديد بالرئيس من هذا الاستفتاء العملى المضاد له مما جعله يطفح بفاشيته الكامنة فى أحشائه هذه الفاشية التى حاول إبرازها رويداً رويداً حيث كتب نائب رئيس وزارته محمد عبد السلام الزيات أخيراً يقول:

أن الرئيس السادات حاول جعل الإتحاد العام لنقابات عمال مصر تابعاً لرآسة الجمهورية وكذلك منظمة الشباب كان ذلك فى ديسمبر ١٩٧١.. ثم قال له السادات إنه فى حاجة إلى شباب رجالة يضربون ويقتحمون لقد كلمت محمد عثمان إسماعيل ومعه عدد من نواب الصعيد بأن يعدوا لنا فرقا من طلبة الجامعات يسلحونها ويدربونها وهناك الأخوان المسلمين يمكن كمان يتصدوا للطلبة اللى لهم لون مش ممكن حوادث الجامعات تنتهى إلا بالطريقة دى العنف وحده هو الذى يوقف هذه المهازل والبذاءات أنا مش فاضى لحوار وسياسة روح حاورنى.

هكذا طفح الرئيس السادات بفاشيته حيث حاول تحويل الإتحاد العام لنقابات عمال مصر إلى منظمة فاشية سلطوية ورآسية هدفها التصدى للعمال المصريين وإحتجاجاتهم الاضرابية بالعنف الفاشستى وذلك بقصد محاولة تصفية القادة النقابيين اليساريين والشعبيين جسديا كما كان يفعل ادولف هتلر فى ألمانيا النازية ولكن السادات لم يوفق فى ذلك بسبب النفوذ القوى الذى يتمتع به النقابيون اليساريون فى الحياة العمالية والنقابية.. وكذلك لم يوفق أيضا فى تحويل منظمة الشباب إلى منظمة فاشية ورئاسيه أى تابع لرآسة جمهورية الرئيس السادات نظراً لأن منظمة الشباب هذه كانت تحت نفوذ الشباب اليسارى الناصرى والماركسى ولذلك فقد اضطر الرئيس السادات إلى بعث فاشية صعيدية وعنصرية ودينية بواسطة مجموعة من النواب الناصريين الرجعيين واليمنيين الذين تحول إلى أزلام للرئيس السادات مثل اولاد عبد الآخر النواب والوزراء.

ولقد تم بعث هذه الفاشية الساداتية بتعيين أمين الإتحاد الإشتراكى بأسيوط محمد حافظ إسماعيل محافظاً لأسيوط التى حولها كلها قشلاق عسكرى فاشستى لتجنيد وتدريب العناصر الشبابية الفاشستية بالإضافة إلى تسليح الآلاف من طلبة الجامعات بالسلاح الأبيض والفلوس بقصد التصدى للطلاب اليساريين الناصريين والماركسيين على السواء وتصفية نشاطهم السياسى فى الجامعات بالإضافة إلى تصفية أجسادهم ومن

قشلاق أسيوط الذى كان يقوده المحافظ محمد عثمان إسماعيل أحد قادة الإتحاد الإشتراكى سابقاً تفرخت الفاشية الإسلامية التى قتلت المئات من الأشقاء المسيحيين الأقباط فى محافظة أسيوط وفى محافظات الصعيد كما فرخت الجامعات المصرية قطاعاً من هذه الجماعات الفاشية التى أشاعت الرعب فى الحياة المصرية إلى حد أن الشعب المصرى كان يعيش بين فاشيتين فاشية السلطة وفاشية الجماعات الإسلامية وخلال ذلك أشاعت مخابرات الرئيس السادات وبوليسة السياسى بأن الأديره المسيحية المنتشرة فى الصحراء الغربية قد تحولت إلى ترسانات مسلحة استعداد للحرب ضد أشقائهم المسلمين مما هيأ الجو لقيام فتنة طائفية وحرباً دينية بين الأشقاء المسلمين والمسيحين.

وفعلاً فقد ترتب على ذلك وقوع صدامات متعددة بين المسلمين والمسيحين دون مراعاة أن الجميع مصريين. مصريين. مصريين بالتثليث.

وقد صاحب هذه الصدامات أعتقال الأنبا شنوده بطريرك الكنيسة الوطنية الأرثوذكسية لأول مرة فى مصر الحديثة.

ومما يذكر أن الموقف الفاشستى للرئيس السادات تجاه الأشقاء المسيحين المصريين كان تدعيماً منظما لفاشية الجماعات الإسلامية مما يدعونى إلى القول بأن الرئيس السادات كان حاكما فاشستياً مصاب بالعمى السياسى لأنه قد استنفر المصريين والمسيحين لحرب بعضهم بعضاً حرباً عنصرية ترفضها الشعب المصرى بل لأنه فى هذه الفترة بادر بخيانة العرب كل العرب بقيامه مفاجأة بزيارة إسرائيل مستغلاً فى ذلك وحدانيته السياسية اعترافاً منه بضرورة الصلح بين مصر وإسرائيل بذريعة السلام والرخاء.. ولهذا نسأل الأجيال المصرية المتعاقبة أين السلام الساداتى والرخاء الساداتى.

ويبدو العمى السياسى الذى استبد بالرئيس السادات فى أنه قد خسر الجلد والسقط بسبب زيارته لإسرائيل حيث خسر الجماعات الإسلامية الفاشية التى خرجت من عباءته الفاشية السادتية وخسر كل القوى الوطنية والديمقراطية واليسارية والعمالية والقبطية بما فى ذلك جماعة الأخوان المسلمين باستثناء أزلامه وطبقة رأس المال الذى عمل على تواجدها كبديل للإشتراكية الناصرية.

أن هذه الخسارة التى حاقت بالرئيس السادات قد سببت له حالة من السعار الفاشستى والسلطوى بصدور قوانين فاشستية وشاذة مثل قانون العيب وحماية الجبهة الداخلية التى

أعطت للمدعى العام الإشتراكى سلطة تجاوزت سلطات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام حيث أصبح من حقه إتهام المواطنين بالكفر والإلحاد دون أن يشق صدورهم.. مع أن الله وحده هو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

ولقد أنصب ذلك السعار الساداتى على الحركة العمالية وقادتها اليساريين حيث سلط عليهم المدعى العام الإشتراكى وعسكرته السياسية بإتهام كل العمال النقابيين اليساريين بالكفر والإلحاد بقصد منعهم من الترشيحات والإنتخابات النقابية العمالية وذلك دون أن يحدث ذلك لأعضاء النقابات المهنية من المحامين والأطباء والمهندسين وغيرهم مما يعنى أن السعار الفاشستى والساداتى كان مضمونه طبقى وعنصرى وشاذ.

وحتى لا يقال أن ذلك افتراء على الرئيس المقتول أنور السادات فلابد من عرض بعض صكوك الكفر والإلحاد التى أصدرها المدعى العام الإشتراكى والبوليس السياسى الساداتى.. وهذا صك من الصكوك الفاشستية التى قد شاعت فى القرون الوسطى فى أوربا.

....

السيد عطية عبد الواحد الصيرفى

ناظر بشبين الكوم

ميت غمر شارع أحمد راتب

بعد التحية..

مرسل صورة من تقرير السيد/ المستشار المدعى العام الإشتراكى الذى قرر فيه اعتراضه على ترشيحكم لعضوية مجلس إدارة اللجنة النقابية للعاملين بالشركة.. شبين الكوم..

جاء الإحاطة فى ٢٩-٨-١٩٧٩

وتقبلوا التحية

مدير عام الإدارة لشئون العاملين

عبد السميع فراج

جمهورية مصر العربية

المدعى العام الإشتراكى

تقريـر

بأسباب الأعتراض على ترشيح العامل عطية على عبد الواحد الصيرفى مرشح لعضوية مجلس إدارة اللجنة النقابية للعاملين بشركة اتوبيس وسط الدلتا.. بشبين الكوم..

بما أن العامل عطية على عبد الواحد الصيرفى رشح نفسه لعضوية مجلس إدارة اللجنة النقابية للعاملين بشركة أتوبيس وسط الدلتا بشبين الكوم وقد جاء بمذكرة مباحث أمن الدولة أن العامل المذكور شيوعى سبق أعتقاله عام ١٩٥٩.

أتهم فى القضية ١٦٣ سنة ١٩٥٩ عابدين رقم ٣٨ وصدر ضده حكم من محكمة أمن الدولة العليا بتاريخ ٤-٦-١٩٦١ بالسجن خمس سنوات وغرامة مائة جنيه وأفرج عنه فى ١٠-٤-١٩٦٤ وظل تحت مراقبة الشرطة لمدة خمس سنوات بعد إنتهاء مدة العقوبة.

تم ضبطه بتاريخ ٢٢-١-١٩٧٧ لإتهامه فى القضية ١٠٠ لسنة ٧٧ أمن الدولة العليا تنظيمات شيوعية وأمرت النيابة بحبسه.

لازال على معتقداته الشيوعية ويعمل على الترويج لها فى أوساط العاملين فى الشركة.

وجاء بكتاب نيابة أمن الدولة أنه:

أتهم فى المحضر ٢٨ لسنة ٥٩ عليا -١٦٣ سنة ١٩٥٩ أمن دولة بتهمة إدارة تنظيم جمعية ترمى إلى سيطرة طبقة على غيرها من الطبقات الأمر المطبق عليه المـواد ١٩٨- أو ٩٨ه عقوبات وصدر الحكم فيها بجلسة ٤-٧-١٩٦١ بالسجن لمدة خمس سنوات وغرامة ١٠٠ جنيه وسبق إتهامه فى المحضر ١٠٠ سنة ١٩٩٧ ولم يشمله قرار الإتهام.

وإذ سئل المرشح المذكور أقر بإعتقاله وإتهامه والحكم عليه على النحو الوارد بمذكرة مباحث أمن الدولة وبما أن المادة الثالثة من القانون رقم ٢٣ لسنة ١٩٧٨ بشأن حماية الجبهة الداخلية والسلام الإجتماعى تنص على أنه لا يجوز أن يرشح لعضوية المجالس المحلية أو الجمعيات التعاونية أو مجالس إدارة النقابات العمالية أو المهنية أو إتحاداتها أو الهيئات أو مجالس إدارة الشركات المساهمة أو لمؤسسات الصحيفة كل من يدعو أو يشترك فى الدعوة إلى مذاهب تنطوى على إنكار للشرائع السماوية أو تتنافى مع أحكامها مما تخطر المادتان ٩٨ أو ١٧٤ من قانون العقوبات.

وعلى المدعى العام الإشتراكى إذا قامت دلائل جدية على أن مرشحا قد أتى أفعالاً ما تنص عليه فى الفقرة السابقة أن يعترض على الترشيح بتقرير سبب بناء على تحقيق يجريه. ويبلغ هذا التقرير إلى المرشح وإلى الجهة التى تتلقى طلبات الترشيح قبل الموعد التحدد لإجراء الإنتخابات بخمسة عشر يوماً على الأقل وتصدر الجهة ذات الشأن قرارها فى هذا الأعتراض.

ولما كان من المسلم به أن الإلحاد نتيجة حتمية لازمة الشيوعية فأساسها المادية التى تعادى الأديان جميعها وتدعها أفيون الشعوب وتنكر الروح والبعث والآخرة والجزاء الأخروى بل تنكر وجود الله سبحانه وتعالى وتعمل على رد المؤمنين عن دينهم وبما أن المذكرة الإيضاحية للقانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٧٨ أبانت عن أن المقصود بالإنكار الوارد فى المادة الثالثة إنكار ما مسلم به فى الشرائع السماوية الثلاث جمعاً بالضرورة من إيمان بوجود الله ووحدانيته وإيمان بالحساب وبالثواب والعقاب وبوجود عالم الغيب والشهادة والمقصود بذلك الدعوة أو الأشتراك فى الدعوة إلى المذاهب المادية التى تتضمن ضمن أسس اعتناقها هذه الأفكار وهى المبادئ التى أشارت إليها المادة ١/٩٨ من قانون العقوبات والمعنى بهذه المذاهب هو المذهب الشيوعى كما ورد بالمذكرة الإيضاحية للقانون ٦٣٥ سنة ١٩٥٤ المادة ١/١٨ من قانون العقوبات.

ولما كان ذلك وكان كل ما تتطلبه المادة الثالثة سالفة البيان هو توافر الدلائل الجدية على أن المرشح يدعو أو يشترك فى الدعوة إلى مذاهب تنطوى على أنكار الشرائع السماوية أو تتنافى مع أحكامها وقد توافرت الدلائل على أعتناق المرشح محل هذا الأعتراض المذهب الشيوعى ودعوته له وذلك من تاريخه السياسى بمباحث أمن الدولة على النحو الوارد بمذكرتها والذى تأيد بكتاب النيابة العامة وهو مالم يجحده المرشح.

لذلك قررنـا..

أولاً.. الأعتراض على ترشيح العامل عطيه على عبد الواحد الصيرفى لعضوية مجلس إدارة اللجنة النقابية للعاملين بشركة أتوبيس وسط الدلتا بشبين الكوم.

ثانياً.. إبلاغ المعترض ضده والجهة التى تتلقى طلبات الترشيح بصورة من هذا التقرير.

ذلك هو صك من صكوك الكفر والإلحاد التى أصدرها وأشاعها المدعى العام الإشتراكى بناء على قوانين العيب وحماية الجهة الداخلية ذات الطبقية العنصرية والفاشستية التى أصدرها الرئيس السادات بعد زيارته لإسرائيل فى سنة ١٩٧٧ بقصد إرهاب وتخويف معارضى السادات من القوى الوطنية والديمقراطية والسياسية والإسلامية والمسيحية.

والجدير بالذكر أن صلوك الكفر والإلحاد هذه قد رفضها القضاء المصرى وأدانها قد مست الكثير من النقابيين الذين عارضوا بشدة زيارة الرئيس للقدس وذلك من يحرموا من عضوية النقابات العامة وبالتالى تظل الحركة النقابية سلطوية فى خدمة السلطة والسلطان.

ولقد صاحب ذلك اشتعال الفتن الطائفية التى أشعل نارها الرئيس السادات الذى زاد سعاره السلطوى إلى حد الهوس الفاشستى مما أدى إلى حرب المصريين بعضهم لبعض أى حرب المسلمين المصريين ضد اشقائهم المسيحين المصريين فى أحياء القاهرة وخاصة حى الزاوية الحمراء وفى بعض قرى الصعيد.

وخلال هذه الحالة المزاجية الفاشستية للرئيس السادات وظف حكمه الفردى المطلق ووحدانيته السياسية إلى أعتقال كل معارضيه ومنتقديه وكل من يتهمه بالخيانة للوطنية المصرية والقومية العربية والإشتراكية الناصرية إلى الأعتقال بالجملة وكان من بين المعتقلين الأستاذ محمد حسنين هيكل ورموز الجماعات الإسلامية ورموز الكنيسة المرقسية الوطنية والشخصيات اليسارية والوطنية.

حتى جاء اليوم السادس من أكتوبر سنة ١٩٨١ حيث هيأ نفسه لحضور الحفل العسكرى التقليدى بذكرى الأنتصار العسكرى فى أكتوبر ١٩٧٣.

فى هذا اليوم ارتدى الرئيس السادات وتقمش بثيات عسكرى مشابه للثياب التى كان يرتديها مثله الأعلى الفوهرر الألمانى ادولف هتلر زعيم ألمانيا النازية كما أجبر ضباطه من قيادات القوات المسلحة بإرتداء نفس الثيات الهتلرية ومشى الجميع مشية الأوزه ذات

الخطوات العسكرية المتباهية حتى وصل إلى مقعده فى الحفل العسكرى حيث جلس يستعرض صفوة الجيش المصرى وعساكره وضباطه.

ومن قلب هذه الصفوة انطلقت العديد من الرصاصات التى زغردت فى الهواء الطلق ثم احتضنت الرئيس السادات فمات منكباً على وجهه وسط وزرائه وضباطه مما يذكرنا بموت شبيهة والى مصر عباس باشا الأول الذى قضى على إشتراكية افندينا محمد على ثم مات أيضاً منكبا على وجهه ولذلك فقد كُوفىء الرئيس المقتول أنور السادات بجنازة كئيبة يمشى فيها فقط بعض الحكام والوزراء والخوجات الأجانب والصهاينة مما جعلها استفتاء شعبياً برفض حكم الرئيس المقتول وهذا هو الأستفتاء الثانى على رفض الجمهورية الثالثة جمهورية السادات وبالتالى يصبح الرئيس المقتول أنور السادات قد أستفتى عليه الشعب المصرى بشأن رفضه مرتين.

المرة الأولى... أستفتى عليه الشعب المصرى بشأن رفضه وإسقاطه بمظاهرات يناير ١٩٧٧ حيث كان حياً بحكم ويمارس سلطاته الفاشستية.

المرة الثانية... أستفتى عليه الشعب المصرى برفضه وإسقاطه من خلال الفرحة الشعبية بموته ومقاطعة جنازته مما يعنى أن الشعب المصرى قد رفض الرئيس المقتول انور السادات حياً وميتاً وعندئذ ظهر القانون المغولى والمملوكى القاتل أن السلطة كل السلطة.. والحكم كل الحكم.. يقومان على أكتاف حملة السلاح.. فالأمر أمرهم والنهى نهيهم وفى ظلهم العسكرى تدار البلاد كما تدار الضياع.

ومن هنا تنشأ ضرورة وراثة السلطة وتداولها بين العسكر وحدهم.

وتقيداً لهذه الضرورة الوراثية والعسكرية فقد أصبح جنرال الطيران حسنى مبارك رئيساً للجمهورية خلفاً للبكباشى والرئيس المقتول أنور السادات.

مات العسكرى.. يحيا العسكرى

■■■

٧

حكم العكسر
فى مصر المحروسة
من الدولة الفرعونية
حتى حكم مبارك

جمهورية الرئيس مبارك

عسكرة . وعساكر . وعولمة أمريكية

- الجنرال يحكم مصر
- الملامح السلطوية للرئيس مبارك
- صراع الجنرلات
- الأمة - الجيش - والمستقبل
- العسكرة ووراثة السلطة
- قشلاق الحياة المصرية المعاصرة
- العسكرة والثورة المضادة
- صلاه للضابط الامبراطورى
- التزوير الانتخابى مصرى الجنسية
- مصر العسكرة شبه مستعمرة
- مستقبل مصر المحروسة .. بعيد .. بعيد
- صبح مصر ليس ببعيد

الجنرال يحكم مصر

يعتبر عبدالعزيز باشا فهمى عضو الجمعية التشريعية ورئيس محكمة النقض. ومؤسس ورئيس حزب الأحرار الدستوريين وعضو لجنة وضع دستور سنة ١٩٢٣ وواحد من أهم رموز ثورة سنة ١٩١٩ ووزير الحقانية.. أحد المشاركين فى وضع بعض مظاهر المجتمع المدنى فى مصر الحديثة..

فالباشا كان ثمرة من ثمار بوادر المجتمع المدنى التى تواجدت فى عهد الخديوى إسماعيل من خلال نهوض الوطنية المصرية رداً على عسكرة والى مصر سعيد باشا التى فرضت وأشاعت السخرة العمومية والسخرة فى حفر قناة السويس التى مات فيها الآلاف من العمال والفلاحين المصريين.. ففى فترة هذا النهوض الوطنى والمدنى أنشئت مدرسة الحقوق التى تتلمذ بها أبناء الصفوة المصريين بجانب أبناء الفقراء الذين انتسبوا إلى هذه المدرسة الحقوق بالمجان وكان من بينهم الطالب عبدالعزيز فهمى ابن الشيخ حجازى عمر من قرية كفر المصيلحة وصناعته فقى. وليس فقيه وقد تخرج من هذه المدرسة عام ١٨٨٦ ..

ذلك هو عبدالعزيز باشا فهمى أحد دعاة المجتمع المدنى رغم ميوله اليمينية والإقطاعية تشهد بذلك مناقشاته ومساندته لدعاة المجتمع الديمقراطى المدنى فى لجنة وضع الدستور المشار إليها.. ويشهد بذلك ايضا مواقفه ثم استقالته من وزارة الحقانية احتجاجاً على التعسف الذى لحق بالقاضى الشرعى البارز الشيخ على عبدالرازق من الملك فؤاد ومشيخة الأزهر بسبب كتابه الرائع المعنون بعنوان (الإسلام وأصول الحكم) الذى فضح فيه أطماع الملك فؤاد بشأن اختياره وتنصيبه خليفة للمسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانية فى تركيا..

وما يذكر أن ذلك الباشا قد عاش آخر أيامه فى قريته كفر المصيلحة مركز شبين الكوم منوفية حيث قدم لقريته هذه خدمات كثيرة فى مجال التعليم وفى مجال التشغيل. ولهذا فقد كانت نسبة التعليم فيها أعلى نسبة فى قرية مصرية. وكذلك الحال فى مجال التشغيل إلى حد أنه وظف حمير الأرامل الفقيرات فى مصلحة البريد. ولهذا كان يقال عن هذا الباشا .. انه شغل كل العاطلين فى قريته.

ومن الطبيعى أن عائلة مبارك قد استفادت من خدمات الباشا التى وصلت إلى الطالب محمد حسنى مبارك الذى التحق بالكلية الحربية فى عام ١٩٤٧ فى دفعة (الكورلا) لأن عام وباء الكوليرا .. ومن ثم احترف العمل العسكرى حتى أصبح جنرالاً للطيران المصرى فى حرب سنة ١٩٧٣ المجيدة.. وفجأة اختاره الرئيس المقتول أنور السادات نائباً لرئيس الجمهورية واختار ايضاً صديقه وزميله فى دفعة الكوليرا عام ١٩٤٧ وزميله فى الدراسات العسكرية والأكاديمية فى موسكو المشير محمد عبدالحليم أبوغزالة ملحقاً عسكرياً بالسفارة المصرية فى أمريكا..

ونظراً لأن الرئيس المقتول كان مزاجه متقلباً وشكاكاً فى أتباعه فى القوات المسلحة مما أدى إلى استبدالهم بالشلح أو بالقتل كما حدث للمشير احمد بدوى القائد العام للجيش المصرى حيث انتهى المطاف به إلى اختيار صفيه وخليله المشير أبوغزالة وزيراً للدفاع وقائداً عاماً للجيش وعضواً فى قيادة الحزب الوطنى الحاكم.. وفى تقديرى ان اختياره كان أمراً أمريكياً يؤيد ذلك بعض الدلائل التى سوف نتعرض لها فى حينها..

ومات السادات وأصبح جنرال الطيران ونائب رئيس الجمهورية حسنى مبارك رئيساً للجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة عملاً بالقانون المغولى والمملوكى الذى يقضى بوراثة العسكر للعسكر وبضرورة أن تقوم السلطة كل السلطة والحاكم كل الحكم على اكتاف حملة السلاح من العسكريين وفور هذه الوراثة السلطوية والعسكرية. بادر الرئيس مبارك بترسيخ حكم العسكر والعسكرة وهدم ومحو كل مظاهر الحياة المدنية والمجمع المدنى فى مصر المعاصرة..

وهنا ينبغى أن نتذكر قرية كفر المصيلحة التى أنجبت واحداً من بناة المجتمع المدنى وآخر من مؤسسى وبناة حكم العسكر والعسكرة فى مصر المحروسة.

وقد بدأ الرئيس مبارك بتدعيم وتضخيم حكم العسكر والعسكرة بنقل مقر رئاسة الجمهورية من قصر عابدين المدنى والذى يقع فى قلب الحياة المدنية بمدينة القاهرة إلى قلعة عسكرية شيدت على أرض القوات المسلحة المصرية فى حرم سلاح الطيران المصرى. هذه القلعة التى سميت بقصر رئاسة الجمهورية. وهكذا فعل الرئيس مبارك عكس ما فعله الخديوى اسماعيل الذى انتقل من القلعة رمز الاستبداد المملوكى والعثمانى إلى قصر عابدين المدنى..

إذن فإن الرئيس مبارك قد أثبت مبكراً أنه يخشى من رعيته ويطمأن لعساكره دون أن يتعظ أن الرئيس السادات قد قتل بواسطة عساكره دون أن يقتل بواسطة رعيته.

ثم أسرع إلى اشاعة العسكرة وحكم الفرد المطلق والوحدانية السلطوية والسياسة بإصدار قانون الطوارئ: قانون الأحكام العرفية والعسكرية واستمراره أكثر من عقدين من الزمن حتى تنفس الناس كل الناس العسكرة وأدركوا أنهم يعيشون فى قشلاق عسكرى.. ومن أجل شيوع هذه العسكرة المزمنة فقد توحدت ثم تحزبت فى شعب مترابطة هى:

- شعبة رئاسة الجمهورية والحرس الجمهورى..
- شعبة الجيش والقوات المسلحة وفروعها وجيوشها..
- شعبة الشرطة بعد عسكرتها خلافاً لنص الدستور..
- شعبة السلطة التنفيذية أى الوزارة ومصالحها وهيئاتها التى استولى عليها جنرالات الجيش والشرطة فى مناصب المحافظين ورؤساء المدن والمصالح والهيئات وعمد البلاد ومشايخها..
- شعبة وزارة العدل والحقانية من خلال تعيين المئات من خريجى الشرطة فى مناصب النيابة. وتعيين العشرات من الضباط فى مناصب القضاة.. ومن خلال نيابة أمن الدولة ومحاكم أمن الدولة. الخاضعين للأحكام العرفية والعسكرية والحاكم العسكرى.. وفضلاً عن هذا فالقائد الأعلى للقوات المسلحة هو الذى يعين قضاتنا الكبار. رئيس محكمة النقض ورئيس المحكمة الدستورية العليا. ورئيس مجلس الدولة. ورؤساء الهيئات القضائية..

وحتى السلطة التشريعية أى مجلس الشعب والشورى تقع فى قبضة القائد الأعلى للقوات المسلحة الرئيس حسنى مبارك الذى بيده حلها وعقدها.. ولله الأمر من قبل ومن بعد..

هكذا أصبحت الأمة المصرية محكومة بالعسكرة وعساكرها باعتبارها سلطة واحدة لا يحدها حد إلا مشيئة الجنرال وواحدانيته السياسية والسلطوية وبواسطتها يملك المسافة بين حرف الكاف وحرف النون. أى يقول للشىء كن فيكون..

الملامح السلطوية للرئيس مبارك

ان الحاكم وكل حاكم مدنى أو عسكرى. ديمقراطى أو استبدادى لابد ان تكون له ملامحه.. فالجنرال ديجول رئيس الجمهورية الفرنسية كان يحظى بملامح ديمقراطية رغم عسكريته. والجنرال إيزنهاور ايضا الرئيس الأمريكى كان يتمتع بملامح ديمقراطية.. ولا يعنى هذا إلا أن مؤسسات المجتمع الديمقراطى المدنى هى التى جعلت من الجنرال ديجول والجنرال ايزنهاور حاكمين ديمقراطيين خاضعين تمام الخضوع لمؤسسات المجتمع المدنى هذه المؤسسات التى تعرضت للهدم والمحو والازالة فى مصر منذ عام ١٩٥٢ بقوة العسكرة وحكم العساكر المتمردين على الديمقراطية والمجتمع المدنى والأمة المصرية مصدر السلطات ولذلك فقد اختص السادة حكامنا العسكريون بملامح سلطوية خاصة فالرئيس مبارك باعتباره عكسرياً بصفته وبطبيعته اكتسب ملامح سلطوية تتجلى فى الملامح التالية:

الملمح الأول: عظمة الرئيس أنا

هل يوجد حاكم يسمى أنا؟!

فأجاب الذى عنده علم من الكتاب قائلاً نعم يوجد كثير من الحكام يسمى الواحد منهم أنا تعبيراً عن زهوه السلطوى ووحدانيته السياسية وشموليته الاستبدادية.. فالحاكم «أنا» ظاهرة سلطوية تطفح بها المجتمعات البشرية من حين لآخر عندما تتورم المؤسسة العسكرية وبتضخم نفوذها ويستبد بها الغرور الذاتى والأطماع النهبوية فتتمرد على أمها الأمة التى ولدتها وأرضعتها وظلت تقويها وتغذيها بالأبناء ومع هذا فقد استغلت قوة الضعف وقوة القهر التى تحتكرها وقضت على السلطة كل السلطة وأفرزت حاكماً يسمى «أنا».

وأول حاكم لقب نفسه بلقب «أنا» هو الفرعون المصرى «منفتاح» فرعون سيدنا موسى عليه السلام الذى قال فى حشد من الناس «أنا ربكم الأعلى» ثم قالها من بعده كثير من الحكام الطغاة منهم الملك لويس الرابع عشر الذى قال قولته المشهورة «أنا الدولة والدولة أنا».

وفى هذا المقام ينبغى التذكير بأن نبينا محمد ﷺ قد استخدم لفظ أنا ولكن فى مجال التواضع وإنكار الذات النبوية العظيمة فقال: «أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد».

ولذلك فقد قوبلت تصريحات الرئيس حسنى مبارك الصحفية الذى قالها فى يوم ٨ مايو ١٩٩١ قد قوبلت بعدم الرضى من جانب أغلبية المواطنين الذين استمعوا إلى قوله..

أنا لا أخضع للضغوط من بعض القوى التى لا تستطيع أن تعى التقييم للظروف.. ولدى رؤية شاملة لهذه الظروف وتقدير للتوقيت الذى يتم فيه تغييرها. وأقول وأؤكد ان الضغوط الكثيرة لن تؤدى إلى شىء و«لأننى» فى النهاية المسئول وليس الذى يطالبنى بالتغيير هو المسئول فإذا نفذت ما تريده هذه القوى ثم تحدث مشكلة لا تعلم هذه القوى خيوطها الأصلية و«أنا» أقدر على توقيت التغيير لأنى أحرص على المصلحة العامة..

هكذا ردد الرئيس عبارة «أنا» من منطلق الاختصاصات الدستورية لرئيس الجمهورية التى تصرخ فى وجوه المصريين زاعقة «أنا الدولة والدولة أنا».

فالدستور المصرى سامحه الله قد أعطى للرجل الفرد رئيس الجمهورية حق الهيمنة المطلقة على السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية التى باتت بشهادة الواقع المصرى سلطة واحدة فى قبضة العسكرة وعساكرها..

والغريب أن كل هذه الحقوق الدستورية والخرافية التى يتمتع بها رئيس الجمهورية الفرد لا تقابلها مسئولية ولا يواجهها مساءلة لعدم نص الدستور المصرى على مساءلة الرئيس أمام مجلس الشعب المغلول السلطة فى سحب الثقة من رئيس الجمهورية.. وبذلك فقد تحصن الرئيس حصانة مطلقة بدعوى أنه صاحب مكانة سيادية مطلقة متفق عليها شعبيا مما جعله خارج المساءلة القضائية والبرلمانية والشعبية على السواء «لا يسأل عما يفعل وهم يسألون».

فى ظل هذه الوضعية السيادية. فرئيس الجمهورية المصرية يرى الأمور وفقاً لشعار «انا الدولة والدولة أنا».

ولذلك فقد انفرد وحده بصنع قرار إرسال الجيش المصرى إلى السعودية للمشاركة فى حرب الخليج ضد الشعب العراقى الشقيق تحت قيادة الجيوش الأمريكية والإنجليزية.. وهو الذى عسكر الحياة المدنية بتعيين آلاف ضباط الجيش والشرطة فى قيادة المناطق المدنية وهو الذى قلب المجتمع المصرى رأساً على عقب من خلال إنقلابه الاجماعى الجذرى بواسطة سلطاته التنفيذية والتشريعية ذات المضمون الاجتماعى لصالح طبقتها الاجتماعية الجديدة التى صنعتها صنعاً سلطوياً بطريقة غير مجتمعية. ممثلة فى طبقة رأس المال الطفيلى والكبير التابع لرأس المال الأجنبى. هذه الطبقة التى احتكرت ثروة مصر ونهبت قطاعها العام..

ولذلك فالويل للأمة المصرية الأجيرة والفقيرة والكادحة والمنتجة إذا لم تنهض. فالمجاعة قادمة مثل مجاعات الفاطميين والأيوبيين حيث أكل الناس لحم الحمير والبغال والكلاب وأكلوا بعضهم بوحشية ضارية.

الملمح الثانى: مبارك الدولة والثورة والمستقبل

ان استمرار الجنرال الرئيس مبارك فى حكم مصر. وازاحة الجنرال بينوشيه من حكم شيلى. ثم تنحية الجنرال اهارتو من حكم أندونيسيا أمر يوجب التفكير فى شخصية الرئيس مبارك كظاهرة عسكرية وسلطوية فريدة فى تاريخ مصر المعاصر والحديث وباعتبارى عاملاً يسارياً فإننى أوجه النقد الشديد إلى المثقفين والمفكرين المصريين فى صفوف القوى الوطنية واليسارية لأنهم جميعاً قد غفلوا أو عجزوا عن رؤية ظاهرة مبارك الدولة والثورة والمستقبل.. وبالتالى فلم يقولوا للشعب المصرى شيئاً عن أسباب وجود هذه الظاهرة السلطوية البالغة الأهمية ومدى تأثيرها فى الحياة والمجتمع..

ولذلك فقد صرفوا النظر عن كيفية نشوء دولة العسكرة المعاصرة التى حققت ثورة سلطوية مضادة رجعية رأسمالية ذات مضامين مادية وروحية عميقة تهدد بظروف قد تهدم المجتمع المدنى المصرى وتزيل قيم الوطنية المصرية وأخلاقيات الشعب المصرى النبيلة والسامية..

فإذا كان والى مصر محمد على مؤسس مصر الحديثة. مصر الامبراطورية العربية. مصر الاشتراكية السان سيمونية. والرئيس عبدالناصر مؤسس مصر التحرر والاشتراكية الناصرية المعادية للاستعمار والصهيونية. والرئيس المقتول أنور السادات مؤسس مصر الانفتاح. مصر الصلح مع العدو الصهيونى والتبعية لأمريكا. مصر البروفة الحقيقية لانقلاب جورباتشوف الروحى فى الاتحاد السوفيتى وطن الاشتراكية فإن الرئيس حسنى مبارك مؤسس مصر الخصخصة وبيع القطاع العام وهدم الاشتراكية الناصرية. مصر حرب الخليج وسحق الشعب العراقى الشقيق. مصر البروفة العملية لانقلاب يلتسين الروسى الذى هدم الاشتراكية السوفيتية وهؤلاء الحكام جميعاً كانوا ضباطا عسكريين فالأول والثانى والثالث كانوا ضباطا برتبة بكباش فى حين أن الرئيس مبارك يحظى برتبة جنرال أى أنه أعلاهم رتبة عسكرية وأكثرهم حفظاً وفهماً للناموس العسكرى وقوته والذى طبق تعاليمه بدهاء شديد فى إدارة شئون مصر فور وصوله إلى منصب رئيس الجمهورية.

ولقد تجلى ذلك فى قيامه بتأسيس دولة مركزية شمولية عسكرية من سلطة واحدة لا من سلطات مستقلة. دولة محررة من مضامين ثورة يوليو الاجتماعية والاقتصادية. دولة اعتمدت على استفتاءات تهليلية باطلة وانتخابات مزورة وباطلة بشهادة أحكام المحكمة الدستورية العليا وقضاء مجلس الدولة ومحكمة النقض. دولة ذات إعلام خرافى يقوده عسكرى سابق اعلام يفوق اعلام جوبلز وزير الدعاية النازى فى ألمانيا الهتلرية إعلام يجعل المرء يرى الديك حماراً والجمل يلج فى سم الخياط.. وبواسطة تلك الدولة الجبارة بادر الرئيس مبارك بتحقيق ثورة رأسمالية رجعية مضادة مقننة يباركها الفرع التشريعى فى الدولة وتساندها النقابات العالية السلطوية ويهلل لها الاعلام والصحف الحكومية. وقد بدأها رويداً رويداً وخطوة خطوة من خلال تغييرات جذرية هادئة فى كل شىء وفقاً لتعليمات البنك الدولى وصندوق النقد الدولى.. وقد بدت تلك التغييرات فى ظهور أمتين فى المجتمع المصرى أمة الأسياد ورأس المال ضئيلة العدد. وأمة الاجراء والفقراء والقوى المنتجة. من الرعايا الأكثر عدداً والأشد فقراً.. ومن هنا برزت عبقرية الرئيس مبارك من خلال توظيف دولته الاستبدادية فى تحقيق ثورته الرأسمالية والرجعية التى حدثت بدون ضجة وبدون جمهرة. فالشعب المصرى لم ينفعل بها أو ضدها تبعاً لمزاجه الذى تسيطر عليه

اللامبالاة من جراء تغريبة وتغييبه مما أدى إلى انحراف صراعه الطبقى الذى اصبح يتم أغلبه بالتحايل والنصب والجريمة والبلطجة ويتم القليل منه بواسطة الاضرابات والمظاهرات والانتفاضات المحلية والمحدودة..

هكذا شيد الرئيس مبارك دولة رأس المال المالى والطفيلى التابع والكبير. دولة السوق والبورصة والغرف التجارية والبنوك البالغ عددها منذ سنوات (واحد وثمانين) بنكا عدد فروعها ١٥٤٢ فرعاً تجاوزت موازناتها ٣١٦ مليار جنيه وودائعها ٢٠٦ مليار جنيه. هذه هى دولة رأس المال المالى والسمسرة والبزنس والمضاربة والنصب والتحايل والشيك والبرتستو والافلاس والفقر والبطالة. وليست دولة الصناعة والمصانع والإنتاج والتصدير والعمالة والتشغيل والرخاء والخبز والحرية للمصريين.

- ذلك هو مستقبل مصر مبارك والعسكرة. وبالتالى فقد توقفت رسالته ولم يبق أمامه إلا تتويج دولته وثورته باستخلاف غيره بطريقة ديمقراطية وبواسطة اختيار ديمقراطى لا تشوبه شوائب العسكرة والسلطوية والقرابة العائلية.

ان هذا الاستخلاف الديمقراطى هو ضرورة وطنية إذ انه الطريق المصرى الوحيد المؤدى إلى قيام مجتمع ديمقراطى مدنى تتقدم فى ظله التقنية الاقتصادية والاجتماعية الرشيدة والمستقلة ويتوافر فيه الرخاء والخبز والحرية ومن ثم يتجنب شعبنا المصرى حدوث قارعة تأتى بها العفوية ذات الحضور المباغت كريح صرصر عاتية.

الملمح الثالث: مبارك والواحدانية السياسية

تتميز مصر بأنها مجتمع الواحدانية السياسية والسلطوية ووطن العسكر والعسكرة الشمولية رغم حياتها المضيئة مثل شمسها الساطعة على ضفاف النيل حيث ظهرت هذه الحياة مبكرة متزامنة مع بزوغ فجر الضمير الإنسانى فى مصر العتيقة لأول مرة فى التاريخ البشرى مما جعل الحياة المصرية القديمة ترفض العبودية ونظامها العبودى الذى كان يغشى حياة البشر فى بابل وفارس واليونان وغيرها من بلاد المعمورة.. مصر التى لم تشهد عبودية الإنسان لأخيه الإنسان بسبب خروجها المبكر من عصر مصارعة الطبيعة إلى عصر مصارعة الإنسان لأخيه الإنسان أى خروجها من مجتمع الشيوعية البدائية والمساواة

الفطرية إلى مجتمع الاقطاع الذى كان يعتبر فى العصر السحيق نظاماً متقدماً جداً متخطياً بذلك المجتمع العبودى وعلاقاته الوحشية التى كانت تستبيح بيع العبيد ذكرانا وإناثاً وتهدر حياتهم وأعراضهم بغير حساب وتعاملهم معاملة حيوانات الجر ومن هنا.. كانت مصر القديمة تحظى بأرقى نظام اجتماعى فوق كوكبنا الأرضى تقوده دولة مدنية ذات حضارة وسط محيط عبودى يحاصرها من كل جانب مما اضطر الدولة المدنية الفرعونية إلى تحصين مصر ضد الغزو العبودى الذى يهددها مستعينة فى ذلك بالجغرافيا وعبقرية المكان كما يقول العلامة جمال حمدان ومستعينة ايضا بتحالف الواحدانية السياسية للفرعونية مع الواحدانية الدينية فى الفرعون الملك والإله.. ولكن هذه الواحدانية المزدوجة عاقت تطور المجتمع المصرى القديم رغم وجود عوامل تقدمه زراعياً وصناعياً ومعمارياً وإدارياً وعمليا وفنيا.. مما ادى إلى شيخوخة الدولة الفرعونية كدولة وحضارة ومجتمع امام الغزو العبودى الفارسى الذى كان فاتحة لتعاقب الغزاة وهجراتهم البشرية كما سبق شرحه..

ولقد أخذ الغزاة كلهم بنظام الواحدانية السياسية والسلطوية القائم على اكتاف حملة السلاح من العسكر بدلاً من الواحدانية السياسية والدينية المزدوجة. التى لم تظهر إلا بعد الفتح العربى لمصر حيث حكم الغزاة العرب والفواطم والأيوبيين والمماليك والعثمانيين وعساكرهم مصر بالواحدانية السياسية السلطوية المختلطة بالواحدانية الدينية. مما أدى إلى شيوع الجهل والتخلف والانحطاط والفساد والاستبداد فى صفوف الأمة المصرية غير المحاربة أمة الفلاحين والصناع.. وحتى والى مصر محمد على الذى أخذ بنظام الواحدانية السياسية القائم ايضا على اكتاف حملة السلاح خلال بناء مصر الحديثة.. ولكن هذه الواحدانية اعتراها الوهن بنهوض الوطنية المصرية فى عهد الخديوى اسماعيل الذى انبثقت منه بوادر المجتمع المدنى التى تطورت رويداً رويداً حتى تعاظم شأنها فى سنوات ثورة سنة ١٩١٩.

وللأسف فإن نظام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ العسكرى الذى قام ايضا على اكتاف العسكر حملة السلاح الذى أخذ بالوحدانية السياسية والسلطوية قد اغتال كل مظاهر المجتمع المدنى والحياة المدنية فى مصر الحديثة.

وكذلك فقد تشبث الرئيس السادات بنظام الواحدانية السياسية والسلطوية فى كل سياساته حتى مات وسط عساكره دون أن تموت الواحدانية السلطوية والسياسية التى ورثها جنرال الطيران حسنى مبارك فجعلها وحدانية عسكرية ذات قبضة حديدية ودهاء غير محدود وخبرات سلطوية وانقلابية لا نظير لها فى مصر الحديثة..

والتى أسرعت بثورتها الرأسمالية المضادة أخطر انقلاب اجتماعى مضاد تعرفه مصر الحديثة حيث تم تفكيك طبقات المجتمع المصرى فى أول سابقة اجتماعية مصرية. هذا التفكيك الذى هدم الطبقات المتوسطة والطبقة العاملة والفلاحين وكل الطبقات الفقيرة والشعبية فتحولت إلى أنقاض وفلول طبقية جمهور من الرعية والرعايا.

وقد صاحب هذا التفكيك الطبقى والهدم الاجتماعى تصنيع طبقة سلطوية حاكمة ومالكة هى طبقة رأس المال المالى الكبير والطفيلى التى تكونت صناعياً من ضباط الجيش والشرطة الرأسماليين الذين تراكمت ثرواتهم بواسطة وظائفهم العامة واستغلال نفوذهم السلطوى.. ومن الوزراء والمحافظين وكبار الموظفين الذين قد جمعوا ايضا ثرواتهم بواسطة وظائفهم العامة واستغلال نفوذهم السلطوى ايضا. ومن أهل المكانة البرلمانية والحزبية من أعضاء مجلسى الشعب والشورى والحزب الوطنى بواسطة مكانتهم السلطوية.. هؤلاء هم الذين كونت منهم واحدانية الرئيس مبارك طبقتها الرأسمالية الحاكمة والمالكة بطريقة سلطوية وليست بطريقة مجتمعية. إذ ان الطبيعى ان يفرز المجتمع طبقاته وشرائحها الاجتماعية..

ومن هنا فقد انقسم المجتمع المصرى المعاصر إلى أمتين وإلى طبقتين. أمة الأسياد وطبقة الأسياد الحاكمة والمالكة.. وأمة الرعايا.. وطبقة الرعايا الكادحين والمنتجين والأجراء والفقراء الذين يمثلون الأغلبية المصرية.

ولم تكتف الواحدانية السياسية المعاصرة بذلك بل بادرت بتشويه العقل المصرى بواسطة إعلامها ورشوة المثقفين ليفتونا بقولهم ليس فى الإمكان أبدع مما كان بدليل تبريرهم الوجود الأزلى لواحدانية الرئيس مبارك الذى يعامله المثقفون المصريون معاملة النص المقدس. ولهذا فإن أقلامهم لا تنتقد العتبات المقدسة للرئيس مما يعنى أن سيادته قد أصبح ملكا إقطاعيا لا يوجه إليه نقد ولا يسرى عليه قانون..

ولكن أين الاحزاب السياسية المعارضة من ذلك.. ان هذه الاحزاب المظهرية التى أوجدها الرئيس المقتول بغرض الزينة السلطوية لعهده.. هذه الاحزاب ذات وجود محدود ومغلول بفعل نظام السلطة التى تدعى أن هذه الأحزاب جزء منها مما جعلها أحزاباً شبيهة بأشجار البلاستيك عديمة الرائحة لونها باهت وظلها حار!!

ومن جراء ذلك تفشى الخواء السياسى لانفراد الواحدانية بوجودها المطلق من خلال رئيس للجمهورية يتأبد فى منصبه حتى الموت وحزب حاكم شمولى يستحوذ على البرلمان والوزارة ومناصب المحليات ومجالسها وطبقة رأسمالية تحتكر الثروة المصرية فى بنوكها وبطونها..

إن هذه الواحدانية السياسية بلغ استبدادها بتكفير المعارضين لها باعتبارهم مشركين سياسيين يرفضون ويكفرون بواحدانية الرئيس مبارك مما أوجب اتهامهم علنا بالإلحاد ومن ثم ينبغى معاقبتهم.. هكذا فعلت مباحث أمن الدولة ونيابة أمن الدولة والمدعى العام الاشتراكى مع العمال النقابيين اليساريين بقصد حرمانهم من الترشيحات والانتخابات فى نقابتهم العمالية.

هكذا فعلت واحدانية الرئيس مبارك ـ واحدانية الأرض الزائلة مع عشرات من العمال اليساريين النقابيين المغضوب عليهم وليسوا أبداً من الضالين..

ومن هنا تفشى الخواء السياسى فى صفوف المصريين خوفاً وفزعاً من إرهاب الواحدانية السياسية التى أشاعت حربها واستبدادها ضد معارضيها فى أرزاقهم وفى رأيهم وفى أحزابهم ونقاباتهم وفى حريتهم وأخيراً فى دينهم حتى يتحقق مشروعها فى تحقيق مجتمع رأسمالى طفيلى هابط متخلف ممثلاً فى السكوت كل السكوت والاستقرار كل الاستقرار حتى يتفرغ الناس كل الناس للولاء ولاء إكراهيا. هكذا شاعت العسكرة الحاكمة فى مصر..

الملمح الرابع: مبارك بين عبادة الفرد وحكم الفرد

كان المثقفون المصريون فى العصر الوسيط عصر الفواطم والأيوبين والمماليك والعثمانيين يتصفون بالشجاعة والموضوعية ومواجهة السلاطين غير آبهين بسيوفهم وسياطهم فإبن مماتى كتب كتابه الشهير «الفاشوش» فى حكم قراقوش.. تنديدا وسخرية بالحكم الأيوبى..

ومؤرخنا المقريزى شخص الحاكم المملوكى والعسكرى المملوكى بقوله بأنه اشرس من الذئب وأزنى من القرد. وألص من الفأرة.. وكذلك فعل المؤرخون المصريون فى تلك الفترة مثل ابن إياس والسخاوى والجبرتى فى تشخيص الحكم المملوكى والعثمانى ووحشيته ودمويته وخوزقته للمصريين الذين كانوا يتصايحون قائلين «يارب يا متجلى. اهلك العثمانلى».

وحتى والى مصر محمد على مؤسس مصر الحديثة فقد نعتوه بقولهم انه قد بنى قصرا وهدم مصرا.. وانه «سرق القمل من على أقفيتنا.. نحن المصريين»..

وعلى خلاف ذلك فالسادة المثقفون المعاصرون قد كتبوا فى كل شىء ماعدا المساس ولو بحفيف الريح الناعمة فى ذات الرئيس مبارك لخوفهم من الاختراق الذى يؤدى بهم إلى الاحتراق.. والعياذ بالله..

ولذلك فقد أجمع الضمير المصرى المستتر خوفاً وهلعاً على ان مصر المعاصرة تدار شئونها بنظام حكم الفرد المطلق..

وذلك على خلاف حكم عبادة الفرد باعتباره وسيلة سلطوية وشعبية معاً يتولد من خلالهما حكم الزعيم الفرد وليس حكم الحاكم الفرد..

فالحاكم الفرد المطلق يستمد وجوده وشرعيته من سلطته الاستبدادية ذات الطبيعة العسكرية فى أغلب الأحيان. ومثل هذا الحاكم المستبد لا يعبأ بالشعب وإرادته الحرة ولا يبالى بالأمة باعتبارها مصدر السلطات..

أما الزعيم الحاكم الفرد فإنه يستمد وجوده وشرعيته من مصدرين. الأول سلطته والثانى شعبيته وشخصية الكارزمية المؤثرة فى الناس وفى كل من حوله مما يجعله زعيماً شعبياً وحاكما فردياً يمارس حكمه بواسطة سلطته الفردية. وشخصيته وشعبيته ومن ثم فقد تواجد حكم عبادة الفرد والزعيم الفرد بشكل محدود..

ومما يذكر ان العالم فى عصوره القديمة والوسيطة والحديثة قد تفشت فى آرجائه ظاهرة حكم الفرد المطلق. بينما لم تتواجد إلا نماذج محدودة من ظاهرة عبادة الفرد وحكم الزعيم الفرد وذلك من خلال حكم الملكة الفرعونية «حتشبسوت» و«الملك تحتمس الثالث»

المسمى بتابليون العصر القديم. اللذين قد حظيا بشعبية كبيرة لما حققاه من رخاء وازدهار وانتصارات عسكرية فى مصر القديمة.. كما تكررت ظاهرة عبادة الفرد فى الدولة الرومانية ذات الطبيعة العبودية وحكم الفرد المطلق خلال حكم «يوليوس قيصر» و«أغطس قيصر» الذين اكتسبا شعبية كبيرة بسبب ما حققاه من انتصارات عسكرية فى عهد الجمهورية الرومانية ثم الامبراطورية الرومانية.. وفى الشرق الأسيوى والعربى تفشت ظاهرة حكم الفرد المطلق التى قد طفحت بظاهرة الاستبداد الشرقى خلال حكم العسكر والعسكرة واستمراره آلاف السنين. فى عهود «حمورابى» و«بنوخذ نصر» فى بابل و«قورش» و«قمبيز» فى فارس و«جانكيز خان» فى سهوب آسيا و«السلاطين العثمانيين» فى تركيا..

هؤلاء الحكام الآسيون هم الذين ابتدعوا حكم العسكر والعسكرة وحكم الفرد المطلق.. ولذلك كان من المأمول أن تتوارى هذه الظواهر السلطوية الاستبدادية نتيجة لثورات العصر الحديث التى أشاعت حقوق الإنسان وحقوق الشعوب فى التحرر والاستقلال..

ولكن ذلك لم يحدث لاعتبارات كثيرة منها صراع الطبقات وتنافس الاستثمار ورأس المال على الأسواق ومناطق المواد الخام واستغلال الشعوب المقهورة..

ومن جراء ذلك ظهرت ظاهرة عبادة الفرد وحكم الزعيم الفرد فى الاتحاد السوفيتى فى شخص الرفيق ستالين. وفى شخص الزعيم الألمانى النازى «أدولف هتلر» وفى شخص الدوتش «موسيلينى» فى ايطاليا الفاشية..

وفى مصر المحروسة تجلت ظاهرة حكم الزعيم الفرد وعبادة الفرد فى شخص الوالى محمد على خلال سنوات حكمه الأول ثم تحولت ظاهرة عبادة الفرد محمد على إلى ظاهرة حكم الفرد المطلق بسبب ما مارسه من قهر ضد المصريين بواسطة عساكره وعسكرته..

مع العلم ان ملامح ظاهرة عبادة الفرد قد تجلت بوضوح فى شخص الزعيم الوطنى سعد باشا زغلول وفى شخص خليفته الزعيم مصطفى النحاس زعيما حزب الوفد حزب الأغلبية الشعبية فى مصر الملكية..

ثم تجلت بوضوح اكثر فى شخص الرئيس جمال عبدالناصر زعيم ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بعد أن تعاظمت شعبيته بعد تنفيذ الاصلاح الزراعى وتأميم قناة السويس وتحصير

الاقتصاد المصرى وعدائه لأمريكا والصهيونية وقيام اشتراكيته الناصرية وذلك بالاضافة إلى شخصيته. الكارزمية المؤثرة تلك الظاهرة التى لم تتأثر لغياب الحريات العامة والنقابية وفتح السجون والمعتقلات لمعارضيه ومخالفيه. بدليل الاستفتاءات الشعبية والعفوية التى سبق الاشارة إليها والتى اكدت زعامته لمصر والأمة العربية..

ولكن ظاهرة عبادة الفرد هذه لم يرثها الرئيس المقتول أنور السادات ولم يرثها ايضا الرئيس حسنى مبارك الذى يمارس سلطته من خلال حكم الفرد المطلق مما يعنى انه يحكم مصر من خلال سلطته دون شعبيته.. وتعويضاً لذلك فقد اضطر الرئيس مبارك إلى تضخيم عسكرته وتغليظها فى الحياة المدنية المصرية بالمزيد من توظيف ضباط الشرطة والجيش فى مجمل المناصب المدنية كما سبق ذكره..

ومن هؤلاء السادة الضباط طفحت ظاهرة الصفوة العسكرية بجانب صفوة رأس المال وصفوة النقابيين السلطويين وقيادات الحزب الوطنى الحاكم باعتبار كل هذه الشخصيات السلطوية المصطفاه البديل التعويضى والاجتماعى لظاهرة عبادة الفرد والتى تتولد من شعبية للحاكم الفرد والزعيم.

الملمح الخامس: مبارك والجمهورية الوراثية

لا جدال فى ان المجتمعات العبودية والاقطاعية هى التى فرخت الدولة الطبقية باعتبارها جهازاً طبقيا يستخدم الجيش والشرطة فى قمع واستعباد واستغلال الطبقات المنتجة والعاملة والمقهورة من العبيد والأقنان والفلاحين والعمال وان هذه الدولة الطبقية هى التى طفحت بالدولة الوراثية ذات الطبيعة الأسرية والعائلية وكذلك بالدولة ذات الطبيعة الوراثية الفئوية والعسكرية..

فالدولة الوراثية والعائلية قد ظهرت مبكراً على ضفاف النيل حيث انتقلت وتداولت بالوراثة بين الفرعون الجد والفرعون الابن والفرعون الحفيد.. كما وجدت نفس هذه الدولة فى الصين وفارس وبابل وآشور ومقدونيا وفى الدولة العبرية على أرض فلسطين التى أقامها الملك داوود فورثها الملك سليمان بن داوود..

ولقد شهد العصر القديم ظهور الدولة الوراثية الفئوية والعسكرية التى كان يحتكر وراثتها القادة العسكريين فى دولة إسبرطة والدولة الجمهورية الرومانية. والدولة الامبراطورية الرومانية وفى مواجهة هاتين الدولتين التى تنتقل فيها السلطة بالوراثة الأسرية والوراثة الفئوية العسكرية ظهرت الدولة الديمقراطية التى تنتقل وتتداول بواسطة الانتخاب الديمقراطى المباشر فى اليونان.. كما ظهرت فى دولة الخلفاء الراشدين فى المدينة المنورة بشبه الجزيرة العربية التى انتقلت وتداولت بالشورى بين الخلفاء الراشدين ولكن هذه الدولة التى قامت على الشورى قد انقلبت وتحولت بواسطة انقلاب تآمرى قام به معاوية بن أبى سفيان واتباعه من الأمويين الذين كانوا يطلقون على أنفسهم مقولة تقول إنهم أشراف الجاهلية وأشراف الإسلام معاً. ولهذا تحولت دولة الراشدين هذه إلى ملك عضو حتى حيث بادر معاوية باعتباره رأس هذه الدولة الأموية إلى توريث ابنه يزيد بن معاوية بطريقة سلطوية حيث وقف خطيب أموى وسلطوى فى جمع من الصفوة الأموية فقال:

- إذا هلك هذا وأشار إلى معاوية ثم قال فهذا وأشار إلى يزيد بن معاوية. ثم قال ومن لم يرض بهذا فهذا. وأشار إلى سيفه..

وبفضل هذه البيعة السلطوية والإكراهية تأسست الدولة الأموية الوراثية والعائلية. التى انتقلت إلى العباسيين ثم العثمانيين فى تركيا..

وفى مصر عادت الدولة الوراثية العائلية فى العصر الطولونى والفاطمى والأيوبى. أما فى عر المماليك فقد ظهرت الدولة الوراثية العائلية والدولة الوراثية الفئوية والعسكرية ولكن هذه الدولة المملوكية والوراثية بنوعيها العائلى والفئوى العسكرى قد تم محوها فور وقوع الغزو العثمانى لمصر الذى اكتفى بتعيين الباشا التركى لإدارة شئون مصر نيابة عن الخليفة العثمانى. حتى تم اختيار محمد على واليا على مصر حيث عادت الدولة الوراثية والأسرية التى تداولت بين أولاد وأحفاد الوالى محمد على حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وكان من مهام ثورة يوليو القضاء على النظام الملكى واعلان الجمهورية.. وفى ظل هذه الجمهورية التى قامت على اكتاف حملة السلاح عادت إلى مصر الدولة الوراثية الفئوية

والعسكرية التى يتوارثها العسكر وفقاً للقانون المغولى والمملوكى الذى يقضى بقيام السلطة على اكتاف حملة السلاح من العسكريين ولهذا فقد تداولت دولة ثورة يوليو بين اللواء محمد نجيب ثم البكباشى جمال عبدالناصر ثم البكباشى المقتول أنور السادات ثم جنرال الطيران حسنى مبارك..

ولكن الرئيس مبارك راودته فكرة سلطوية جديدة بشأن التغيير فى شكل وراثة الحكم والسلطة فى مصر المعاصرة وكان مصدر هذه الفكرة استمرار حكمه الطويل والممتد. وذلك بقصد إضفاء الطبيعة المدنية على حكم العسكر والعسكرة فى مصر الذى بات ممقوتاً على المستوى القومى والعالمى.. وفى سبيل ذلك وظف الرئيس مبارك عبقريته السلطوية ودهائه السياسى الذى يفوق دهاء والى مصر محمد على مؤسس مصر الحديثة الذى ذبح المماليك مرة واحدة باعتبارهم المصران الأعور لسلطته ودولته..

ولذلك فقد بادر الرئيس مبارك بتقليد أفندينا محمد على فقام بذبح الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة وطبقة الفلاحين باعتبار هذه الطبقات الشعبية هى المصران الأعور لدولته وعسكرته وواحدانيته السياسية والسلطوية بما تسببه من صراع وقلق وسخط وغضب فى الحياة والمجتمع يشهد بذلك تفشى الاضطرابات والمظاهرات والانتفاضات المحلية ضد النظام والشرطة التى كانت تسمى بالحوادث المؤسفة مما دفع العسكرة الحاكمة إلى تدبير وتنفيذ هذه المذبحة الاقتصادية والاجتماعية بواسطة قوانين الخصخصة وبيع القطاع العام وإهدار الاصلاح الزراعى وتصنيع طبقة رأس المال الكبير لكى تحتكر السلطة والثروة معاً..

وفور قيام هذه الطبقة الرأسمالية والسلطوية معاً ونهوضها فرض الاستقرار السياسى نفسه وختم على قلب المجتمع فشاع السكوت وانحرف الصراع الطبقى وانعدم وجود الشخصية العامة المصرية على المستوى المحلى والقومى ولم تعد هذه الشخصية العامة متواجدة إلا فى مجال كورة القدم فى شخص الكابتن الجوهرى والكابتن صالح سليم وفى مجال الفن فى شخص الفنان عادل إمام وفى شخص الراقصة فيفى عبده..

ذلك هو الاستقرار الذى حققه الرئيس مبارك مما جعل طبقة رأس المال وحدها ترى فيه أنه مؤسسها ومخلصها وأنه حقق وجودها الاقتصادى والسلطوى وقدم لها الحماية بشأن جرائمها فى حق الشعب والوطن ولهذا فقد باركتها موقفه فى عدم تعيين نائب لرئيس

الجمهورية. هذا النائب الذى سوف يكون حتماً من المؤسسة العسكرية..

ومن هذا المنطلق هرولت هذه الطبقة الجديدة وأشخاصها باعتبارهم أهل الصفوة المصرية بترشيح الرئيس مبارك فترة رياسية رابعة بحيث تكون هذه الفترة الأخيرة. فترة انتقال إلى دولة مدنية (مظهرية) يستخلف فيها الرئيس مبارك من يراه أبرز شخصية مصرية مدنية على المستوى المصرى والعربى والدولى وباعتباره المصرى الوحيد الذى يحظى بتقدير العالم الرأسمالى والعولمة..

ولكن نظراً للقبول الضئيل والساخر لهذا الوريث من جهة والقبول الساخط والغاضب لهذا الوريث ايضا من جهات اخرى فقد بادر الرئيس مبارك بنفى فكرة هذا الاستخلاف العائلى والأسرى اكثر من مرة.. وفضلاً عن ذلك فإنه من المرجح أنه استشعر غضب مؤسسته العسكرية من ذلك الاستخلاف الرئاسى المضاد للقانون المغولى والمملوكى المعمول به فى مصر والذى يقضى بأن يقوم الحاكم كل الحكم على اكتاف حملة السلاح من العسكريين.. وهذا ما دفع الرئيس مبارك إلى التفكير فى اختيار نائب لرئيس الجمهورية من قبل العسكر والعسكرة المصرية الحاكمة حتى يقضى على فكرة الإستخلاف التى تحاول قيام وتأسيس أسرة حاكمة تتوارث وتتداول رئاسة الجمهورية المصرية. بدلاً من توارثها وتداولها بين قادة العسكر والعسكرة..

الملمح السادس: مبارك والاستفتاء التهليلى

عرفت مصر المحروسة مبكراً ظاهرة الاستفتاء الشعبى خلال اختيار أفندينا محمد على والياً على مصر فى سنة ١٨٠٥ حيث بادر الناس كل الناس فى القاهرة إلى اختيار أفندينا محمد على والاستفتاء على تنصيبه والياً على مصر..

هكذا صنع الشعب المصرى من نفسه سلطة شعبية فعالة لأول مرة فى مصر.. هذه السلطة الشعبية التى فرضت حاكماً مركزياً على مصر فى مواجهة الخلافة العثمانية المترامية الأطراف.

والجدير بالذكر ان ذلك الاستفتاء الشعبى قد ولدته العفوية التى تميز بها الشعب المصرى العظيم فى تفجير ثورته الكامنة وثوراته عبر التاريخ..

كما شهدت فرنسا وطن الثورة الفرنسية المجيدة استفتاءً مغايراً دبرته ونفذته بعيداً عن الجماهير الفرنسية مما جعله استفتاءاً سلطويا وتهليلياً. حيث اصدر الجنرال نابليون بونابرت باعتباره رئيس سلطة الثورة الفرنسية قراراً باجراء استفتاء بشأن الموافقة على ممارساته السلطوية والسياسية وبقاء نظام القنصلية مدى الحياة.. ثم اجرى استفتاء آخر بشأن اقامة الامبراطورية الفرنسية.

ونظراً لأن هذين الاستفتاءين كانا بأمر من سلطة الجنرال نابليون بونابرت فقد كان كلا منهما استفتاء تهليلياً قصده إشهار سلطة العسكرى الأول فى فرنسا ثم جاء نابليون ابن الأخ فوظف الاستفتاء السلطوى والتهليلى فى تدعيم سلطته البونابرتية المستبدة..

ومع النهوض الديمقراطى فى القرن التاسع عشر انتشرت ممارسة الاستفتاء الشعبى فى الدول الديمقراطية الأوروبية من منطلق أن الأمة مصدر السلطات.. ومن ثم فقد أصبح الشعب ومجموع الناخبين سلطة شعبية فعالة فى مواجهة السلطة التنفيذية والسلطة القضائية. ولهذا فقد قال الفقيه الفرنسى «أميل أوليفيه»:

ان مبدأ سيادة الأمة بغير نظام الاستفتاء الشعبى ليس سوى خدعة لأنه لا يتحقق إلا فى لحظة واحدة كل أربع أو ست سنوات فى اللحظة التى يضع فيها الناخب ورقة فى صندوق الانتخاب.. وبعد ذلك تظل سيادة الأمة فى سبات عميق حتى يحل الانتخاب التالى. أما الاستفتاء الشعبى فإنه يجعل السيادة الشعبية يقظة دائماً. كما يجعلها مسيطرة على أعمال النواب ومقومة لانحرافهم.

وللعلم فإن الاستفتاء السلطوى والتهليلى الذى ابتدعه حكم العسكر والعساكر فى مصر يبدأ بمقدمة دستورية تتجلى فى ترشيح مجلس الشعب المصرى الذى يسيطر عليه حزب العسكرة الحاكم بصرف النظر عن تزويره وبطلانه.. رئيس الجمهورية حسنى مبارك لشغل منصب رئيس الجمهورية دون منافسة لفترة ثانية ثم ثالثة ثم رابعة.. ثم، ثم دون مراعاة ان هذا المجلس التشريعى يخضع خضوعاً مطلقا لسلطة رئيس الجمهورية المسفتى عليه من قبل والمرشح فيما بعد. ولله الأمر من قبل ومن بعد..

والأمر الغريب ان مجلس الشعب الذى قام بترشيح الرئيس مبارك لفترة رئاسية رابعة

قد كتب عنه التقرير الاستراتيجى لجريدة الأهرام الحكومية «أنه فقد الثقة والاعتبار» وطالب التقرير من الرئيس مبارك نفسه بضرورة حله واجراء انتخابات نيابية جديدة. كما قضت المحكمة الدستورية العليا ببطلان جميع الانتخابات النيابية فى عهد الجمهورية الرابعة جمهورية الرئيس مبارك. كما قضت ايضا محكمة النقض ومحاكم مجلس الدولة بتزوير كل انتخابات هذه المجالس البرلمانية فى عهده ايضا.. مما جعل العسكرة الحاكمة ذات شرعية مهزوزة وباطلة..

وبناء على الوجود النيابى والبرلمانى الباطل والمزور فإن مجمل الاستفتاءات على رئيس الجمهورية التى حققت آمال وأحلام طبقة رأس المال المالى الحاكمة والمالكة. والتى هدمت طموحات الطبقات الشقية الفقيرة والأجيرة والمنتجة فى حياة أفضل.. هى استفتاءات سلطوية وتهليلية ومرفوضة. ومع هذا فقد رحب بها وهلل لها طبقة رأس المال الكبير وعناصر الصفوة الرأسمالية.. بالاضافة إلى مبايعة القوات المسلحة وسلاح الطيران بالذات الذى قام باستعراض للطائرات الحربية التى رسمت اسم مبارك فى السماء المصرية تتويجاً لهذه المبايعة العسكرية على خلاف نصوص الدستور ورحم الله الدستور..

أما الذين رفضوا مبايعة الرئيس وقاطعوا الاستفتاءات الأربعة بشأن اختياره فهم جميع أهل القاع الاجتماعى المصرى فى المدن والأحياء والقرى والبنادر الذين يمثلون أغلبية الأمة المصرية الكادحة والأجيرة.. يؤيد ذلك اضطرار الشرطة المصرية إلى القيام بملء بطاقات الاستفتاءات وحشوها فى صناديق الانتخابات نيابة عن الناس كل الناس الذين يرددون قائلين.. كيف أذود الطير عن شجر.. ذقت المر من ثمره.. ومع هذا فقد تراوحت نتائج هذه الاستفتاءات السلطوية والتهليلية ما بين المطلق وشبه المطلق أى فى دائرة التسعات ٩٩٩, ٩٩٪.. وكم ذا بمصر من المضحكات..

هكذا تحقق الاجماع فى اختيار الرئيس مبارك مما يجعل الإنسان المصرى يعض الأنامل حسرة وتندما لما يراه فى الدويلة العبرية الصهيونية العنصرية اسرائيل من انتخابات يهودية ديمقراطية خالية من البطلان والتزوير.. بينما تتفشى فى مصر العتيدة والعظيمة التزوير والبطلان الانتخابى..

ان هذه المقارنة الصعبة تدعو الإنسان المصرى الفرعونى القبطى العربى المسلم والمسيحى إلى التفكير والتأمل فى هذه المسألة المستقبلية فى مصر المحروسة..

وينبغى ان يصب التفكير والتأمل على سبب الأسباب فى هذه المسألة باعتبارها مصيبة المصريين كل المصريين. هذه المصيبة التى حاقت بالأمة المصرية من جراء تجريدها من اعتبارها مصدر السلطات نتيجة لتقول حكم العسكر والعسكرة عليها مما أدى إلى إنعدام استقلال السلطة القضائية والسلطة التشريعية فى مواجهة السلطة التنفيذية. سلطة العسكرة ورئيس الجمهورية والحكومة ووزرائها.. وبالتالى فلم يتواجد فى مصر مؤسسات مدنية تستطيع مواجهة المؤسسة العسكرية المصرية وحدها عند حدودها فى مجال حرب الخارج المصرى فقط.. كما هو الحال فى اسرائيل الصهيونية العنصرية الناشئة ذات الأرومة الصهيونية العنصرية المشوهة من الناحية القومية وذات المؤسسات المدنية القوية التى استطاعت ان تحد من تغول المؤسسة العسكرية الصهيونية على الحياة المدنية فى اسرائيل ولذلك فإن الاستفتاء السلطوى والتهليلى لاختيار رئيس الجمهورية المصرية سوف يظل مفروضاً على الأمة المصرية حتى تتواجد المؤسسات المدنية وحتى تتشامخ ويتعاظم شأنها وتصبح قادرة على تحجيم العسكرة الحاكمة بدفعها خطوة إلى الخلف صوب قشلاقها العسكرى حتى تتفرغ لحرب الخارج المصرى والتصدى للعدو الذى يتربص بمصر من جهة الشرق..

الملمح السابع: شعبنا يعيش بين فاشيتين

يؤكد الواقع المصرى المعاصر أن شعبنا المصرى يعيش عيشة قاسية يسودها الفساد والاستبداد والجريمة والفقر والبطالة فى ظل عسكرة حاكمة ذات ملامح فاشية بعنفها وارهابها وقهرها للشعب المصرى عماله وفلاحيه وفقرائه وكادحيه بمقتضى استمرار قانون الطوارىء والأحكام العسكرية باعتبارها ممثلة لطبقة رأس المال المالى الكبير الأشد رجعية وعنصرية وإرهاباً. وهذه هى الفاشية بعينها التى هى حالة الذروة خلال احتدام الصراع الطبقى المضاد ضد الأمة المصرية الكادحة والمنتجة.

وقد وظفت تلك الفاشية المصرية التى طفحت بها العسكرة الحاكمة فى تغليب دين على دين وطبقة على طبقة وحزب على حزب وفكر على فكر وتغليب فئة على فئة تغليباً مطلقاً

على أرض الوطن المصرى وعلى ضفاف النيل.. فالزعيم الوطنى سعد باشا زغلول وخليفته الزعيم الجليل مصطفى النحاس باشا أطلقا شعاراً وطنياً وعملا على تنفيذه وهو شعار «الدين لله والوطن للجميع»..

ولكن هذا الشعار الوطنى تعمدت العسكرة الحاكمة والمعاصرة على اهماله وإغفاله باستبعاد الاقباط أى المصريين المسيحيين من شغل مناصب الوزارات السيادية ووظائف المحافظين وسكرتيرى المحافظات ورؤساء المدن ورؤساء الهيئات العامة ووظائف رؤساء وقادة الجيوش ومديرى وحكمدار الأمن ورؤساء وضباط المباحث وتحديد دخول كليات الجيش والشرطة بعدد محدود وضئيل والمعاناة فى بناء وترميم الكنائس ويتعامل تلفاز الدولة مع الأقباط كالأيتام على موائد اللئام..

كما تستغل سلطة العسكرة الحاكمة تسخير الدين الإسلامى الحنيف فى تكفير العشرات من العمال المصريين النقابيين واليساريين المعارضين للسلطة والنظام واتهامهم بالإلحاد خلال مشاركتهم فى الانتخابات والترشيحات النقابية والعمالية بقصد عزلهم عن جماهيرهم العمالية وابعادهم عن النشاط النقابى وعضوية مجالس إدارة النقابات العمالية..

حدث هذا الاتهام الفاشتى والعدوانى بواسطة مباحث أمن الدولة ونيابة أمن الدولة والمدعى العام الاشتراكى فى عهد الرئيس المقتول أنور السادات وفى عهد الرئيس حسنى مبارك.. ومما يذكر أن واحداً من السادة المدعيين الاشتراكيين الذى أصدر عشرات القرارات بشأن تكفير العمال اليساريين كان متورطاً فى ممارسة الفساد حتى أذنيه..

هكذا استغلت سلطة الرئيس مبارك الدين الإسلامى الحنيف فى تكفير العمال النقابيين دون المهنيين النقابيين من محامين وأطباء ومهندسين مما يثبت أن هذه السلطة المصرية قد مارست تصرفات فاشياً وعنصرياً.. كما اختصت نفسها بوظيفة لم يحظ بها الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.. لأن الله وحده يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

ومن مظاهر هذا التغليب السلطوى.. تغليب طبقة رأس المال الكبير الحاكمة والمالكة على مجمل الطبقات المتوسطة والشعبية من خلال تمييز طبقة رأس المال باحتكار الثروة

والسلطة معاً والتجاوز عن جرائمها المالية وغير المالية ومن خلال إعفاءتها الضرائبية والجمركية.

ويمتد ذلك التغليب إلى الحزب الوطنى الحاكم باحتكاره الوزارة ومناصب المحافظين ورؤساء الهيئات وعضوية مجلس الشعب والشورى والنقابات العمالية والمجالس المحلية. بينما الاحزاب الأخرى تصول وتجول فى هامش الحياة المصرية. ولذلك فقد تغلب الفكر الرأسمالى الطفيلى على كل الأفكار الوطنية والديمقراطية والاشتراكية والداعية إلى العدل الاجتماعى وحقوق الانسان وذلك فى مجال التلفاز الحكومى والصحف الحكومية..

ومن أمارات التغليب فى مصر المعاصرة تغليب العسكر والعسكريين من ضباط الجيش والشرطة على الشخصيات المدنية من علماء ومثقفين وأساتذة جامعات وكبار موظفين وأطباء ومهندسين.. فالشخصيات العسكرية تحصل على أجور ومزايا خرافية وتحتكر الوظائف القيادية فى الحياة المدنية وذلك دون الشخصيات المدنية مهما كان علمها وخبراتها فإنها لم ولن تحظ إلا بفتات الفتات من المائدة الوطنية.. وبالاضافة إلى مظاهر التغليب الفاسستى للعسكرة الحاكمة فلابد من إبراز المردود التعسفى لقانون الطوارىء والأحكام العسكرية من اعتقالات بالجملة وتعذيب وقتل وتصفيات جسدية للمصريين إلى حد أن نسبة التصفيات الجسدية قد بلغت ذروتها وتضاعفت مرات ومرات فى عهد الرئيس مبارك بواسطة الشرطة وذلك خلال الاضرابات العمالية السلمية والمطلبية وخلال الاحتجاجات التظاهرية فى الريف والبنادر والمدن بسبب تجاوزات الشرطة وتعذيبها وقلتها للمواطنين.. ومن آخطر مظاهر تطبيق قانون الطوارىء تقديم العمال والنقابيين والمعارضين إلى محاكم أمن الدولة وإلى محاكم القضاء العسكرى الذى لا يتمتع بالاستقلال القضائى لتبعيته لوزير الدفاع وقيادة المؤسسة العسكرية.. تلك هى أمارات تعسف حكم العسكر والعسكرة الذى وصل إلى درجة الفاشية فى مصر المعاصرة.

وقد صاحب هذه الفاشية السلطوية ظهور فاشية الجماعات الإسلامية التى قامت بتكفير الناس كل الناس ومارست التصفيات الجسدية للأخوة الاقباط فى قرى الصعيد. وللمثقفين من معارضيها. وان كان اعلامها ينفى عنها هذه التهمة ويدعى أن التصفيات الجسدية كانت تستهدف رجال السلطة فقط لانها قد استفزتهم بفسادها واستبدادها..

هذه هى فاشية الجماعات الاسلامية التى قد تصارعت وتناطحت مع فاشية السلطة مما أدى إلى كمونها إلى حين وانسحاب قادتها مؤقتا متسترين بالتقية مع ان خطابها مازال موجودا يتردد فى الشارع المصرى لاعتماده على مظالم الحكومة وفسادها وتزويرها فى الانتخابات وفى الامتحانات وفى كل شىء بالاضافة إلى تفشى الرشوة والفقر والبطالة مما جعل ذلك الخطاب دعوة إلى الصراع الطبقى مغلفة بالتحريض الدينى.. **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾** صدق الله العظيم.

وعلى العكس فالفاشية السلطوية ليس لها خطاب مقنع ومؤثر اللهم خطاب كورة القدم وفقه كورة القدم وترديد سيرة نجوم الكورة والتعليق على مسلسلات التلفاز المصرى المترفة والمملة للناظرين والسامعين الواعيين.. وذلك بالاضافة إلى خطابات الرئيس مبارك ذات الطابع التبريرى..

ولذلك فإن عسكرة السلطة أصبحت فاشية تعسفية عبثية وان كانت قد نجحت فى تحويل الصراع الطبقى السوى والواعى بقصده إلى صراع طبقى عبثى عشوائى يتم ممارسته من خلال الجريمة بأنواعها وبواسطة السلطة التى تنامت فى القاع الاجتماعى المصرى وفى مدارس البنين والبنات وفى الجامعات وفى نوادى الصفوة. ولا ينسى الشعب المصرى ممارسات الجريمة والبلطجة بواسطة ابن الوزير الشاذلى وابن الملياردير البرلمانى أبوالعينين وابن المليونير البرلمانى شلاضم التى أدت إلى قتل طالب جامعى وأسرة كاملة. ولذلك فإن محاكم الجنح ومحاكم الجنايات تنظر سنويا قرابة ستة ملايين قضية من قضايا الجريمة والبلطجة مما يعنى ان الشعب المصرى يعيش فى حرب وحشية حرب المسلمين للأقباط وحرب الفقراء للفقراء وحرب الاغنياء للفقراء وحرب الحكومة وعسكرتها الفاشية للفقراء والأجراء.

وفى سياق هذه الحرب الداخلية بادرت السلطة بتغليب أمنها القومى على الأمن العام وتغليب حرب الداخل على حرب الخارج كما يشهد واقع الحال المصرى.. هذه ملامح فاشية السلطة.. وملامح فاشية الجماعات الاسلامية الكامنة إلى حين.. هاتين الفاشيتين اللتين تجتمعان على حياة الشعب المصرى الذى يعيش بينهما سواء كان راضياً أو ساخطاً حيث يخشى الشعب من تحالفهما وتقاربهما بفعل أزمة سلطوية طارئة.. وإزاء هاتين الفاشيتين فلابد من

النضال العنيد للخلاص من العسكرة وقيام المجتمع الديمقراطى المدنى مجتمع المشاركة الشعبية الذى يقضى على كل مظاهر الفاشية واستبدادها وفسادها فى الحياة المصرية.

صراع الجنرالات

ظلت مصر المحروسة مسرحاً لحرب وصراع العسكر بعضهم بعضاً مما أدى إلى قتل وشلح العشرات من السلاطين المماليك بالاضافة إلى قتل المئات من الأمراء المماليك وجميعهم ايضا من العسكر وقتل الآلاف من الأجناد فى ظل العسكرة المملوكية طمعاً فى السلطة والسلطان.. ولا ننسى أن مذبحة المماليك المشهورة فى القلعة كانت حلقة من حلقات الصراع بين عساكر أفندينا محمد على وبين عساكر المماليك فى مصر..

ولكن هذا النوع من الصراع بين العسكر قد توارى فى مصر الملكية ثم ظهر فور قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التى قامت على اكتاف حملة السلاح من العسكر والعسكريين..

ولقد ظل ذلك الصراع شائعاً وملحوظاً فى السنوات الأولى لهذه الثورة حيث تصارعت أسلحة الجيش مع بعضها البعض مما ادى إلى سجن واعتقال العشرات من ضباط الجيش.. ولقد كان أبرز هذه الصراعات. الصراع بين القائمقام رشاد مهنا وضباط الثورة وأعضاء مجلسها.. والصراع بين الضابط البطل يوسف صديق وبين مجلس قيادة الثورة والصراع بين اللواء محمد نجيب وخالد محيى الدين وبين ضباط مجلس الثورة بقيادة البكباش جمال عبدالناصر.. وبعد أزمة مارس ١٩٥٤ توقف الصراع العسكرى العلنى بين ضباط المؤسسة العسكرية ولم يعد إلا تأففات يتأفف بها الضباط هنا وهناك..

ولكن الصراع قد عاد بعنف مستتر بين عسكرة المشير عبدالحكيم عامر وبين عسكرة الرئيس جمال عبدالناصر إلى حد وجود إنقسام فى داخل القوات المسلحة وإلى حد محاولة دك منزل الرئيس عبدالناصر بالمدفعية بغية القضاء عليه وعلى أسرته. هذه المحاولة التى بادر بها الضابط على شفيق سكرتير المشير عامر.. كما يقول الدكتور مراد غالب فى مذكراته التى نشرتها جريدة الأهرام..

وفى عهد الرئيس المقتول أنور السادات نشب ذلك الصراع بين الرئيس وبين وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة الفريق محمد فوزى وانتهى هذا الصراع بسجن الفريق ثم

تكرر الصراع بين الرئيس السادات وبين حليفه السابق الفريق محمد صادق الذى قد تم عزله من الجيش ثم انتقل الصراع بين البكباش والرئيس أنور السادات وبين صفيه وخليله اللواء الليثى ناصف قائد الحرس الجمهورى الذى قد تم قتله خارج مصر فى ظروف غامضة.. كما ان حادث قتل القائد العسكرى المحبوب الفريق احمد بدوى ورفاقه الإثنى عشر قائداً عسكرياً وسقوط طائرة بمطار واحة سيوة تعتبر واقعة من وقائع الصراع بين الرئيس السادات وجنرالات الجيش بدليل ان القائد العسكرى الذى حل محل الفريق فى وزارة الدفاع وفى قيادة القوات المسلحة هو المشير محمد عبدالحليم ابوغزالة الملحق العسكرى فى السفارة المصرية فى أمريكا ورجل البنتاجون أى وزارة الدفاع الأمريكية. مما يوحى إلى أن هذه الحادثة كانت مدبرة وكانت مقصودة للخلاص من الضابط الشعبى الفريق أحمد بدوى ورفاقه المخلصين..

وكان آخر حلقة من صراع العسكر فى عهد السادات هى الخلاف الحاد بين الرئيس السادات وبين صديقه السابق الفريق سعد الدين الشاذلى رئيس أركان القوات المسلحة خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣.. ان هذه الحروب والصراعات فى صفوف الصفوة العسكرية لا يهتم بهم الناس كل الناس فى مصر لكراهيتهم للعسكر بسبب تغولهم على حياتهم المدنية مما جعلهم يعلقون على هذه الصراعات قائلين «اللهم اهلك الظالمين بالظالمين واخرجنا منها سالمين»..

وتتميز صراعات الصفوة العسكرية بالسرية والكتمان مثل سرية السلاملك ودهاليز الحريم فى القصور العثمانية التى كانت مفرخة للقتل والغدر بالجملة.. حيث قتل أحد السلاطين العثمانيين فى دهاليزها سبعة عشر شقيقاً أى كل أشقائه مرة واحدة لكى ينفرد وحده بالجلوس على عرش الخلافة العثمانية.

هكذا يحدث تقريباً فى صفوف الصفوة العسكرية مما يجعل الانسان البسيط يستبد به الشك فى حوادث العسكريين التى باتت لغزاً محيراً بحيث تتهامس الناس قائلين. إن انتحار المشير عبدالحكيم عامر لغز وموت عبدالناصر لغز. وقتل اللواء الليثى ناصف لغز.. وحادثة الفريق آحمد يدوى لغز وقتل الرئيس السادات لغز.. هذه الألغاز وغيرها التى حدثت فى صفوف الصفوة العسكرية سوف تجد من يحل طلاسمها لكى تصبح دروساً مستفادة للأجيال المصرية القادمة..

ولذلك يبدو أن صراع الصفوة العسكرية لا يظهر إلا إذا تغولت هذه الصفوة فى الحياة المدنية وحاولت ان تسيطر على الأمة التى انتجتها والتى مازالت تعولها..

ومن هذا المنطلق نشب صراع بين الرئيس مبارك وبين المشير أبوغزالة وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة رغم انهما كانا صديقين عندما كان الرئيس مبارك جنرالاً للطيران وكان أبوغزالة جنرالاً بسلاح المدفعية وكلاهما من أتباع الرئيس المقتول أنور السادات ومن أصدقاء الادارة الامريكية.. والأمر الغريب أن هذا الصراع قد تسربت أخباره ووقائعه ورواياته المتعددة التى تحكى وتقول ان المشير أبوغزالة قد استبد به الغرور والزهو لحظة قتل الرئيس السادات واغتياله عندما انتفض واقفاً مشيراً بعصا المارشاليه إلى القاتل الفار مصدراً الأوامر بمطاردته بينما وقع مبارك تحت المقاعد وخلفه رجال الحرس الذين دفعوه بعيداً بشكل لا يليق. هكذا قال «الدكتور روبرت سيرنجبورج» فى كتابه الجيش والديمقراطية فى مصر..

وبعد تنصيب الرئيس مبارك رئيساً للجمهورية وجد وزير دفاعه وقائد جيشه المشير أبوغزالة متحكماً ومسيطراً على قيادة الحزب الوطنى الحاكم وعلى الوزارة ووزرائها وعلى المؤسسة العسكرية وضباطها من خلال كسب ودهم بالمرتبات السخية والمزايا الخرافية إلى حد السماح بتعاطى العمولات والاستيلاء على أراضى الدولة وأراضى الغير وزيادة الانفاق العسكرى وإرسال المئات من الضباط إلى أمريكا بذريعة التدريب والتدريس..

ان هذه الوضعية غير المنطقية لممارسات المشير أبوغزالة أقلقت الرئيس مبارك فعمل على ابعاده من قيادة الحزب الوطنى الحاكم ومع هذا فقد ظل المشير يمارس نفوذه فى الحزب الوطنى والوزارة ويتحدث فى المؤتمرات السياسية ويبدى آراءه الداعية إلى تغليب المؤسسة العسكرية على كل مؤسسات الدولة والمجتمع وتبرير المزايا التى يحصل عليها ضباط الجيش وأن العدو الرئيسى للشعب المصرى هى ليبيا وليست اسرائيل وضرورة الارتباط المصيرى بالولايات المتحدة.. وعندئذ حاول الرئيس مبارك شلحه من مناصبه العسكرية حيث عرض عليه منصب نائب رئيس الجمهورية فوافق المشير أبوغزالة ولكنه اشترط ان يبقى وزيراً للدفاع وقد ساندته أمريكا فى موقفه هذا حيث اخطرت الرئيس

مبارك بضرورة استمرار أبوغزالة فى مناصبه العسكرية مما أدى إلى تحجيم مبارك فى صراعه من المشير المتأمرك.. ومن أجل تحجيم سطوة المشير فى مجلس الوزراء فقد عين الرئيس مبارك لواء الشرطة أحمد رشدى المعروف بحزمه وعزمه ونزاهته المالية وزيراً للداخلية بهدف التصدى لتجار المخدرات والتصدى كذلك لسطوة المشير أبوغزالة فى مجلس الوزراء..

وزيادة فى محاولات تحجيم ذلك المشير المسنود على الحائط الأمريكى فقد عين الرئيس مبارك ايضا العديد من اتباعه فى المواقع الهامة بالقوات المسلحة للحد من سطوة المشير فى القوات المسلحة التى قد حولها إلى قبيلة تسودها العلاقات الأبوية بدلاً من علاقات الضبط والربط العسكرى مثلما كان يفعل المشير عبدالحكيم عامر وفقاً للمبدأ القائل «فى البدء كان الجيش»..

وفجأة تثور وتتمرد قوات الأمن المركزى من جراء ما حاق بها من سخرة ومظالم وذلك فى يومى ٢٥ و٢٦ فبراير ١٩٨٦ وعلى الفور يبادر المشير أبوغزالة إلى تصفية التمرد بقوات الجيش ليثبت للرئيس مبارك أنه المنقذ الوحيد وان القوات المسلحة هى القادرة وحدها على مواجهة حرب الداخل المصرى والشعب المصرى وليس وزير الداخلية وعساكره وضباطه..

ولذلك فقد ضربت له أمريكا تعظيم سلام باعتباره فتى الفتيان الموالى لها ولاءً غير محدود تشهد بذلك تجاوزه للسرية المصرية والوطنية والعربية والعسكرية عندما قام بابلاغ أمريكا بخط سير الطائرة المصرية التى تحمل مجموعة الفدائيين الفلسطينيين الذين اختطفوا السفينة الايطالية (اكيلى لاورو ٢٢) فى نوفمبر ١٩٨٥ مما ادى إلى قيام الطائرات الأمريكية إلى اعتراض الطائرة المصرية وارغامها على الهبوط والقبض على المختطفين.. ومن هنا فقد اعتمدته أمريكا دون غيره من المسئولين المصريين ليكون المفاوض المصرى الأول لديها ولهذا كانت ترجىء زيارات الرئيس مبارك وترحب بزيارات السيد المشير أبوغزالة الذى كان يستقبله فى المطار الأمريكى وزير الدفاع ووزير الخارجية ومستشار الأمن القومى ونائب الرئيس الأمريكى..

وعند عودته سالماً إلى أرض الوطن كان يستقبله فى المطار كل اعضاء مجلس الوزراء فى مصر تعظيماً للمشير..

ولذلك فقد حاول المشير ربط المؤسسة العسكرية المصرية والوطنية بالولايات المتحدة وسياستها الاستعمارية والعدوانية من خلال بعثات التدريب السنوية للضباط ومن خلال المعونة السنوية التى تزيد مبالغها على مليار وثلث من الدولارات للقوات المسلحة المصرية. ومن خلال القروض العسكرية التى قد بلغت وقتئذ أربعة مليارات ونصف من الدولارات. وذلك بخلاف عمولات شراء السلاح والتلاعب فى أسعار نقل السلاح التى فضحها البرلمان الأمريكى ذلك هو المشير أبوغزالة الذى كان يتفنن فى ممارسة حرب الضرائر مع صديقه وزميله الرئيس مبارك.

ان حرب الضرائر هذه قد فرضت على الرئيس مبارك مما جعله يوظف دهاءه فى مواجهة هذه الحرب الخفية بقصد كسبها. حيث أسرع فى تنفيذ وصايا أمريكا ووصايا البنك الدولى وصندوق النقد الدولى من خلال قيامه بالانقلاب الاقتصادى والاجتماعى خطوة خطوة. هذا الانقلاب الذى قضى قضاءً مبرماً على الاشتراكية الناصرية وقطاعها العام ومكاسبها الاجتماعية للعمال والموظفين والفلاحين وكل الطبقات الكادحة وذلك بقصد قيام مجتمع رأسمالى ترتبط مصالحه بأمريكا ورأس المال الأجنبى والصهيونى..

هكذا حصل الرئيس مبارك على الرضى كل الرضى من السيد الأمريكى. وذلك على حساب المشير أبوغزالة. ومن ثم فقد انتصر انتصاراً حزئياً فى حرب الضرائر التى تندلع عادة بين الجنرالات العسكريين.

وفى سياق هذه الحرب الخفية فوجىء الرأى العام المصرى فى اطار السيسيين والمثقفين فقط ثورة الأقلام المصرية المعارضة على ممارسات المشير أبوغزالة السياسية والعسكرية وعلى مسألة الاتفاق العسكرى وعلى مسألة مزايا ضباط القوات المسلحة. وعلى مسألة البزنس والعمولات وتجارة السلطة.. ان ثورة الاقلام هذه لا يمكن ان تحدث أبداً فى بلد يحكمها العسكر والعسكرة إلا إذا كانت مسنودة بقوة شعبية ذات نفوذ وسلطان فى القاع الاجتماعى المصرى ولكن هذه القوة الشعبية غير متواجدة أصلاً.. فما هو السند الذى اعتمدت عليه ثورة الأقلام المحدودة التى يمارسها طليعة الكتاب المعارضين والشرفاء حتى لا يتعرضوا للويل الثبور وعظائم الأمور من المؤسسة العسكرية وضباطها وقضائها العسكرى وسجنها الحربى اللعين..

ومن هنا فقد كان السند غير المباشر لهذه الثورة القلمية هو الرئيس مبارك وشخصيات مؤسسة الرئاسة بدليل المقابلة التى تمت بين الرئيس مبارك والمرحوم الأستاذ عادل حسين آمين حزب العمل الذى شجعه الرئيس على مواصلة الحملة على سلبيات المؤسسة العسكرية. كما ورد فى كتاب **الجيش والديمقراطية فى مصر** المشار إليه سابقاً وبدليل ان سلطة العسكرة المالية لم تكلف النيابة العامة أو النيابة العسكرية بالتحقيق مع قادة ثورة الأقلام هذه وما قدمته من انتقادات صارخة للمؤسسة العسكرية.. والجدير بالذكر ان مؤسسة الرئاسة كانت فى حاجة إلى هذه الثورة بعد أن أحيطت علماً بالغزل والمغازلة بين المشير أبوغزالة وبين الجماعات الدينية الأمر الذى أدى إلى زيادة شعبيته فى صفوف هذه الجماعات الدينية التى غفرت له علاقته المشبوهة مع أمريكا وممارساته الضالة والفاسدة..

ولذلك فإن الحاجة إلى ثورة الأقلام هذه قد آتت أكلها فى حينها حيث بدأت الادارة الأمريكية فى التخلى عن صاحبها المشير أبوغزالة بعد ان قامت ثورة الأقلام بتعريته وكشف عوراته الأخلاقية وعاهاته السلوكية فأصبح مفضوح السيرة مبطوح الرأس. معدوم الشعبية.. وبالتالى فقد سقط اسمه ورسمه من الكشوف الأمريكية..

وعلى الفور بادر الرئيس مبارك إلى شلحه من مناصبه العسكرية والسياسية واحالته على المعاش **وتلك الأيام تداولها بين الناس**..

وعندئذ جفت الأقلام وطويت الصحف بشأن العسكر والعسكرة. ففى البدء كان الجيش. دون الأمة.. وبالتالى فلا همس ولا حديث عن السادة العسكر الحاكمين باعتبارهم قدس الأقداس ومن يخترق فسوف يحترق ولا يلومن إلا نفسه..

الأمة والجيش والمستقبل

لم تعرف مصر القديمة حكم العسكر والعسكرة للمدنيين والحياة المدنية لأنها أمة عظيمة قد أنجبت جيشاً خاضعاً لها لم يستقل ابدا ابدا أنه يحتكر وحده قوة العنف وقوة القهر ضد آمه وأمته. ولذلك كان يقوده القضاة والأفراد المدنيين تحقيقاً لشعار..

«فى البدء كانت الأمة»

ولذلك كانت العقيدة العسكرية للجيش المصرى القديم.. الالتزام المطلق بحرب الخارج المصرى. وليس الداخل المصرى..

ولكن الغزاة المستوطنين والمحتلين وكلهم من العسكر كان شعارهم يقول فى البدء كان الجيش.

ولذلك حبسوا الأمة المصرية فى مجال الزرع والضرع وفى مجال الحرفة والصنعة.. حتى صارت الأمة المصرية. أمة من الفلاحين والصناع وليست أمة من المحاربين حتى عهد محمد على وفى هذا العهد الحديث بدأت الأمة المصرية فى المشاركة فى صنع وتأسيس جيشها المصرى الحديث الذى حقق قيام الامبراطورية المصرية فى عهد محمد على والذى تخلص من قادته وضباطه الأجانب بالثورة العرابية وبثورة سنة ١٩١٩ ثورة الأمة المصرية وذلك ظل الجيش إبناً وفياً مخلصاً لأمته المصرية فلم يتطاول عليها أو يفرد عضلاته العسكرية ضدها لادراكه ان الأمة المصرية هى أمة التى حملته ووضعته وأرضعته الوطنية المصرية ومازالت تعوله بأموالها وتفديه بأبنائها المصريين..

ولكن ذلك الجيش الوطنى قد تجاوز حدوده ضد أمته المصرية بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ التى تمت بانقلاب عسكرى من خلال إشاعة حكم العسكرة للحياة المدنية المصرية بحيث لم تعد الأمة المصرية مصدر السلطات بل أصبح الجيش وحده مصدر السلطات مستغلاً انه يحتكر قوة العنف وقوة القهر وبالتالى فقد أصبحت عقيدته العسكرية حرب الداخل المصرى أولاً وحرب الخارج المصرى ثانياً ومن جراء ذلك ظلت الأمة المصرية فى قبضة حكم العسكر والعسكرة طوال نصف قرن قابلة للزيادة فى جعلها أمة من الرعايا وليست أمة من المواطنين تلك هى العسكرة المصرية التى حكمت وتأبدت ومازال يتربع على عرشها الرئيس حسنى مبارك الذى يقوم وحده مقام الأمة المصرية. ولهذا فقد فاض الكيل فى مصر المعاصرة..

ومما يذكر ان عبارة فاض الكيل هذه هى عنوان على برنامج مدون على الانترنت متضمناً سؤالاً للرئيس مبارك بشأن إقرار ذمته المالية وذمة أبنائه وأسرته.. وفعلاً فقد فاض الكيل فى الحياة المصرية من حكم العسكر والعسكرة. هذه العسكرة ذات الفيروس الذى شاع وانتشر فى كل الشخصيات المدنية من أزلام السلطة والحزب الوطنى الحاكم الفاسدين والمستبدين والمزورين مما جعل العسكرة وباءً قومياً متوطناً فى مصر..

ومن مظاهر فاض الكيل من هذه العسكرة ما دونته الكتابات المصرية العمالية.

● فمنذ عام ١٩٥٦ اتسمت المؤسسة العسكرية بعدد من الاتجاهات تذكر منها.. انتزاع سلطة التقرير السياسى بكاملها وتأكيد سلطتها فى الميادين الاقتصادية والاجتماعية وأحكام أشد على مجمل الحياة العامة.

الدكتور أنور عبدالملك

● ومن الأمثلة التى يكاد المقال يحصيها فى الامتيازات العسكرية والاستشارات العسكرية لا أريد أن اطيل فيها.

الدكتور اسماعيل على الاهالى «١٤/١٠/١٩٨٤»

● وعادت المؤسسة الأمنية دون حياء تمارس عادتها فى تعذيب المواطنين وقهر آدميتهم تحت سمع القانون ونصره وما من شك فى أن دخول المؤسسة العسكرية مجال الادارة والاقتصادى قد أدى أو فى طريقه أن يؤدى إلى الخلط بين طبقتها السيادية وطبقتها الاقتصادية والاستثمارية..

ثم أليس من حقنا أن نخشى إلى ان يؤدى دخول المؤسسة العسكرية إلى مضمار المضاربة العقارية الذى يلهث بالركض فيه بليونيرات الانفتاح اليوم إلى ارتباطها بطريقة أو أخرى بمصالح هؤلاء المليونيرات.

الدكتور محمد نور مرجان «الأهالى ١٩/١٢/١٩٨٤»

● وهناك تساؤل آخر.. هل المبادىء الاستراتيجية العسكرية تعتبر أمراً يخص العسكريين وحدهم.

وهل تحديد أهداف التحرك العسكرى المحتمل. وهل ترتيب الأعداء المحتملين. مثل هذه الأمور من اختصاص العسكريين وحدهم.

يقول المشير أبوغزالة انه لا يخضع فى مفاوضاته مع أمريكا لأى ضغوط. وهذا كلام غير معقول.

عادل حسين «الشعب فى ١٠/٧/١٩٨٦»

● بناء الجيوش لا يكون أبداً بالسلفيات والقروض. واستجداء الخبز من الخارج. ولست بعاتب على الرئيس عندما يرفض الاستماع للمطالبين بخفض نفقات القوات المسلحة..

ثم ان الرئيس لم يحدد لنا بوضوح أى النفقات العسكرية التى يرفض تخفيضها..

ثم ماذا يقول الرئيس فى النفقات الجارية للقوات المسلحة وهل من المعقول ان تتضخم هذه النفقات لتعادل النفقات الجارية لموظفى الدولة كافة..

ولم أعجب فى حياتى قد عجبى من قول المشير أبوغزالة رداً على من يطلبون بترشيد الميزانية العامة للدولة بأن نفقات القوات المسلحة لا علاقة لها بهذا الموضوع. ولا أدرى ماذا أراد المشير بهذا القول بأن ميزانية القوات المسلحة لا تخضع للتخفيض والترشيد.

الدكتور إبراهيم دسوقى أباظة «الوفد ١٩٨٦/٧/٢»

● قال أمين هويدى فى حواره.. إذا لم تتمكن الدولة من زيادة دخلها القومى وزيادة دخل الفرد والعائلة وتقريب الفوارق بين الطبقات وركزت على زيادة الانفاق العسكرى فإنها تهدد أمننا القومى.

ويقول أمين هويدى أيضا.. من الضرورى إعداد خطة تعبئة ممتازة تؤدى على أن يعطى الفرد المجند عائداً عالياً. واعادة التوزيع الاستراتيجى وتحديد عدونا الرئيسى والاهتمام بالرأس المقاتل. وتخفيض حجم الذيل الادارى.

أن الشركات المنتجة للسلاح تدفع فى كل صفقاتها عمولات للوسطاء فى التعاقد تضيف ثمنها فى النهاية إلى ثمن السلاح..

قال رئيس الجمهورية ببساطة.. ان اتفاقنا العسكرى ينقسم إلى قسمين الأول للمرتبات.. والثانى للإعاشة. أى أن التسليح يتم كاملاً اعتماداً على هبات وقروض الولايات المتحدة الأمريكية..

حسين عبدالرازق «الاهالى ١٩٨٦/٧/١»

● أن الرقابة البرلمانية على الموازنة السنوية للدولة لن تكون جادة ومثمرة إلا إذا شملت ميزانية وزارة الدفاع والانفاق العسكرى بأنواعه.

الدكتور وحيد رأفت «الوفد ٨٦/٧/١٠»

● فضباط القوات المسلحة لهم كل الحق ان يحصلوا على مزايا الفئات الأخرى.. ولكن أن يصل الأمر إلى ان يضيع الكورنيش فى الاسكندرية. وقد تملكت القوات المسلحة أغلب مساحاته. فهذا أمر غير مرغوب فيه..

لقد تعددت النوادى والثكنات والمستشفيات بل والمساكن التى تقدر بآلاف الوحدات السكنية لضباط القوات المسلحة.

أمين هويدى «الاهالى ١٩٨٦/٧/٢»

● ودعونا حتى من قصة التسهيلات العسكرية والمناورات المشتركة.. فنائب الرئيس الأمريكى الذى يزورنا بعد أيام يعلن قائلاً.. ثلاثة شركاء فى المنطقة هى اسرائيل ومصر والأردن. اذن فأمننا القومى لا تهدده الولايات المتحدة واسرائيل..

فيليب جلال «الاهالى ١٩٨٦/٧/٢٠»

● ولم يصل إلى علم الناس أن ثمة تشريعات صدرت ترخص للدولة التنازل بالجملة عن حقوق ملكيتها فى العقارات التى كانت حيازة وزارة الدفاع من أجل التصرف لأغراض السكن وغيرها لضباط القوات المسلحة..

كما لم يصل إلى علم الناس أن قوانين صدرت تجيز لرئيس الجمهورية إعفاء وزارة الدفاع من أحكام القوانين المالية وقانون الموازنة العامة..

الدكتور وحيد رأفت «الوفد ١٩٨٦/٨/٢١»

● وفى تقديرى أن هذا الجدل ليس بقصد الحديث عن مسائل الانفاق العسكرى والامتيازات العسكرية.. بقدر ما يمثل حديثاً غير مباشر فى مسألة أكبر هى دور العسكريين فى الحياة السياسية المصرية ومدى تهديدهم لإطارها الديمقراطى النسبى.

الدكتور أحمد عبدالله «العرب ١٩٨٦/٩/١٠»

● أولاد البلد تعظيم سلام للمشير أبوغزالة

محمد عبدالقدوس «١٩٨٦/١٠/١٤»

● ويوم الثلاثاء الماضى اعلن المشير أبوغزالة ان القوات المسلحة المصرية بدأت فى تنفيذ وانشاء ١٧ مدينة عسكرية بالصحراء. وانه تم بالفعل إنشاء ١٢ مدينة منها.

جمال سليم «صوت العرب ١٩٨٦/١٠/١٦»

● أن اضعاف الشعب تزيد من قوة الجيش وكان القصد تحويل الجيش إلى قوة بوليس داخلية تحمى نظام الحكم المدنى الذى اغتصبه من أسموا أنفسهم ثوارا.

الدكتور محمد عصفور «الوفد ١٩٨٦/٥/٢٨».

● وافاجأ اليوم التالى لنشر تلك الكلمة بعناوين بالبنط العريض بالصفحة الأولى من الجرايد اليومية.. القوات المسلحة تؤيد مبارك لفترة رئاسية ثانية..

سعيد الغنام «الاحرار ١٩٨٧/٧/٦»

● ضرورة المناقشة فى برلمان غير مزور. للموازنة العسكرية.

مصباح قطب «الأهالى ١٩٨٧/٩/٢٨»

● صرح الرئيس مبارك عقب افتتاحه المرحلة الأولى من مشروع المدينة العسكرية بمدينة الهايكستب التى تبلغ مساحتها ١٢ ألف فدان وتصل تكاليفها إلى ٢٦٢ مليون جنيه. بأن القوات المسلحة هى الدرع الواقية لهذا البلد فى الحرب والسلم.

الدكتور محمد حلمى مراد «الشعب ١٩٨٨/١١/١٠»

● ووضعاً للأمور فى نصابها هو ان القضاة العسكريين ليسوا قضاة على الاطلاق.

عادل عيد المحامى «الشعب ١٩٨٨/١١/٨»

هذه لمحات من ثورة أقلام الأمة المصرية على حكم العسكرة. هذا الحكم الذى كان ومازال سبب الاسباب فى كل المصائب التى حاقت بالأمة المصرية ووطنيتها وحروبها الدفاعية العادلة وثروتها المادية والروحية ومجتمعها الديمقراطى المدنى مجتمع المشاركة الشعبية فى إدارة الشئون المصرية.

ان هذه الأمة المصرية تبحث عن مستقبلها ومستقبل أبنائها هذا المستقبل الذى لم ولن يتحقق إلا بانسحاب آخر عسكرى من الحياة المدنية وانسحاب روح العسكرة المستبدة حتى لو ادعت الوطنية المصرية فإن وطنية العسكرى المصرى تنز بالطغيان وتطفح بالاستبداد وتقهر الأمة المصرية دون مراعاة انها هى التى انجبت العسكرى المصرى والطاغية.

ولكن كيف ينسحب ذلك العسكرى المتسلط ويذهب إلى قشلاقه لكى يستعد لحرب الخارج المصرى ويتصدى لعدونا الرئيسى الجاثم فوق بوابتنا الشرقية والمحدد فى اسرائيل الصهيونية والعنصرية والنازية.

ان هذا العسكرى لن ولم ينسحب لإدراكه ان الأمة المصرية وقواها الوطنية واليسارية والديمقراطية وأحزابها عاجزة عن مواجهته والتصدى لطغيانه.

هكذا أدرك العسكرى المتأبد فى حكم مصر.. ولكنه ادراك غير صحيح لأن الأمة المصرية أمة صابرة ولكن ثوريتها كامنة فى أحشائها إلى حين من الدهر حتى تأتيها العفوية كضرورة تدفعها إلى النهوض المباغت فتنفجر ثوريتها الكامنة كريح صرصر عاتية هكذا حدث فى مواجهة جيوش الحملة الفرنسية فور هروب المماليك والمشايخ فتنفضت الأمة المصرية بثوريتها حماية للأرض والعرض.. وهكذا حدث فى الثورة العرابية من جراء مظالم السخرة العامة والسخرة فى حفر قناة السويس..

وحدث كذلك فى ثورة سنة ١٩١٩ ذات الطبيعة العفوية التى فجرت ثورية الشعب المصرى الكامنة بسبب مظالم سخرة الاحتلال الانجليزى فى الحرب العالمية الأولى وبسبب مظالم رأس المال والاقطاع للعمال والفلاحين المصريين والتى أثمرت مظاهر المجتمع المدنى والتى قد فرضت وجودها العفوى والتلقائى على البورجوازية المصرية وزعيمها سعد زغلول ومن هنا تعددت الاحزاب الوطنية واليسارية وتعددت النقابات العمالية الحرة والمستقلة وانتشرت الاضرابات والمظاهرات العمالية والفلاحية والطلابية وتحرك الفلاحون المطالبون بالخبز والحرية. وحمل الفدائيون العمال والطلاب والمثقفون السلاح فى وجه الاحتلال الانجليزى وعملائه. وهكذا تجلت مظاهر المجتمع المدنى فى مصر شبه الاقطاعية وشبه المستعمرة بفضل ثورة ١٩١٩ العفوية والتلقائية..

وإذا دققنا النظر فى أمور الواقع المصرى المعاصر فسوف نرى ان الغضب الاجتماعى يتزايد والسخط الطبقى يتراكم والضيق يستبد بالناس كل الناس من الفساد والاستبداد والبطالة والفقر والقهر حتى فاض الكيل مما يعنى أن الثورة المصرية تقترب من المخاض الذى سوف تحدده العفوية المباغتة حيث تأتى الثورة مصحوبة بالمستقبل الذى يتجلى فى

قيام مجتمع ديمقراطي مدني مجتمع المشاركة الشعبية في السلطة وتبادلها . مجتمع الرخاء والخبز والحرية باعتباره مقدمة ديمقراطية زمنية تؤدي إلى مجتمع اشتراكي ديمقراطي تتعدد فيه الأحزاب والنقابات ويتوارى في رحابه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ..

العسكرة ووراثة السلطة ..

إن المستقبل الذي قد تحدثت عنه بحب وشوق أمر محتمل مثلما حدث في دولة شيلي بأمريكا اللاتينية حيث استطاع الشعب الشيلي أن يطيح بالعسكرة وحكم الجنرال بينوشيه الموالي لأمريكا الذي قاد انقلابا عسكريا دمويا ضد حكم الرئيس "الليندي" اليساري والمنتخب الذي قتله الانقلابيون في مكتبه أثناء مقاومته لهم بسلاحه الشخصي مما أدى إلى قيام حكم عسكري فاشي قتل الآلاف من المعارضين خدمة للاستعمار الأمريكي .. ومثلما حدث في دولة إندونيسيا حيث أطاح الشعب الإندونيسي بحكم الجنرال سوهارتو الموالي كذلك لأمريكا الذي قاد انقلابا عسكريا ضد حكم الزعيم الوطني أحمد سوكارنوا محرر إندونيسيا . هذا الانقلاب الذي قتل أكثر من مليون مناضل يساري ..

ولكن واقع الحال في مصر مختلف فالرئيس مبارك جنرال عسكري يمارس حكما تشوبه العسكرة وحكم الطوارئ المستمر إلا أنه يختلف عن الجنرال الشيلي بينوشيه وعن الجنرال الإندونيسي سوهارتو .. كما أن مصر تختلف عن شيلي وعن إندونيسيا .

فالشعب المصري كما سبق ذكره قد استهل وجوده الحياتي والحضاري في مجتمع إقطاعي ومدني خلال العصر الفرعوني ومن ثم فلم يعرف عبودية الإنسان لأخيه الإنسان .. هذه العبودية التي كانت تغطي شعوب العالم باستثناء الشعب المصري .

ولكن هذه العبودية بدأت تزحف على مصر وشعبها رويدا رويدا خلال نهايات العصر الفرعوني ثم تفشت وانتشرت واستقرت خلال حكم الغزاة وعسكرتهم الغاشمة .

ولم تتوارى هذه العبودية بعض الشيء إلا في مصر الحديثة في عهد أسرة محمد علي بظهور بعض ملامح الحكم المدني التي قد تجلى بعضها فور نزول الخديوي اسماعيل باشا من القلعة باعتبارها كعبة الاستبداد والعسكرة الطاغية إلى قصر عابدين . وسط أهالي القاهرة ..

ثم أخذت هذه الملامح المدنية والسلطوية يعتريها المد والجزر حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي انبثقت منها الاشتراكية الناصرية .. وللحقيقة فلا نجد لهذه الاشتراكية الناصرية وطنيتها المصرية وقوميتها العربية ومساعدتها لشعوب التحرر الوطني ومعاداتها للاستعمار والاستعمار الأمريكي والصهيونية بالذات وانحيازها للعدل الاجتماعي وطبقات العمال والفلاحين والحرفيين وكل الأجراء والفقراء وتمصيرها للاقتصاد المصري وبنائها للقطاع العام وتنميتها المستقلة وقيامها بالإصلاح الزراعي ..

ولكننا نأخذ عليها العسكرة وحكم العسكرة واستبدادها وطغيانها إلى حد أن وطنيتها كانت وطنية تنز بالطغيان كل الطغيان كما سبق ذكره ، ونأخذ عليها أيضا وحدانيتها السياسية والسلطوية من خلال حكم فردي مطلق . حزب سلطوي واحد . نقابات سلطوية وحدانية . جمعيات تعاونية سلطوية وحدانية . سلطة وحدانية هي السلطة التنفيذية التي يهيمن عليها الرئيس عبد الناصر كما يهيمن على السلطة القضائية والسلطة التشريعية .

ومما يذكر أن العسكرة الناصرية ووحدانيتها كانت مزدوجة من خلال عسكرة الرئيس عبد الناصر ووحدانيته السياسية والسلطوية مما دفع الكاتب صلاح عيسى إلى وصفه بأنه الكل في واحد .. ومن خلال عسكرة المشير عبد الحكيم عامر ووحدانيته السياسية والسلطوية في مؤسسة القوات المسلحة التي تحولت إلى مجرد قبيلة شيخها المشير عبد الحكيم عامر الأمر الذي أدى إلى هزيمة العسكرة المصرية الحديثة والعظيمة في كل حروب العرب مع إسرائيل..

هكذا اضطرنا الحديث عن المستقبل إلى إيجاز ما ذكرناه حيث أدى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر إلى توظيف القانون المغولي والمملوكي الذي يقضي بتوريث السلطة كل السلطة والحكم كل الحكم للعسكريين من حملة السلاح حيث اندفع عساكر الناصرية بجنون صارخ إلى تنفيذ القانون المغولي بتوريث البكباشي أنور السادات كل التركة الناصرية باشتراكيتها وإصلاحاتها وإنجازاتها وعسكرتها المزدوجة ووحدانيتها خلفا للبكباشي جمال عبد الناصر ..

ولم تمض أيام معدودات على وراثة هذه التركة السلطوية التي ورثها بالصدفة الرئيس المقتول حتى فوجئ عساكر الاشتراكية الناصرية وعساكر الوحدانية الناصرية بأن الرئيس المقتول أنور السادات كان عدوا لدودا للاشتراكية الناصرية وزعيمها جمال عبد الناصر وأنه رجل أمريكا وربما تل أبيب أيضا وأنه قد ضحك على ذقن جمال عبد الناصر وذقون رجاله وعساكره متسترا بالتقية كما يفعل أتباع المذهب الشعبي . ومن ثم تشبث بالعسكرة الناصرية ووحدانيتها السياسية والسلطوية وبادر بإهدار اشتراكيتها ومحمل إنجازاتها مما أهله إلى الإسراع بتقديم العديد من الخدمات الكبرى للاستعمار الأمريكي ودولة إسرائيل الصهيونية .

الخدمة الأولى .. القيام بانقلاب عسكري داخلي ضد عساكر الاشتراكية الناصرية ووزرائها ورجالها في حزب الاتحاد الاشتراكي مما يذكرنا بحرب عساكر المماليك وانقلابهم ضد بعضهم البعض وكان ذلك أول انقلاب عسكري ضد نظام اشتراكي في العصر الحديث .

الخدمة الثانية .. وقد ترتب على ذلك الانقلاب العسكري بداية هدم الاشتراكية الناصرية من خلال الانفتاح الاقتصادي لرأس المال العالمي والاستثمارات الأجنبية والعربية وتخسير القطاع العام بتعيين اللصوص والمنحرفين في قياداته ..

الخدمة الثالثة .. بواسطة الخدمة الولي والثانية فقد قاد الرئيس المقتول أنور السادات أعظم خدمة لرأس المال العالمي والشركات المتعددة الجنسية

والاستعمار الأمريكي والصهيوني تمثلت في تقديم البروفة العملية والتامة لما حدث في الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي بواسطة الرئيس جورباتشوف عميل أمريكا والصهيونية كما سبق ذكره .

الخدمة الرابعة .. إهانة الجنود الروس في مطار القاهرة بتفتيشهم وخلع ملابسهم .. وإهانة القادة السوفييت في عقر دارهم على حد قول الدكتور مراد غالب سفير مصر في موسكو .

الخدمة الخامسة .. تحجيم حرب أكتوبر المجيدة واغتيال طموحات العسكرية المصرية العظيمة بشأن تحرير الأرض المصرية والعربية وذلك بطرد العسكري المصري النابغة الفريق سعد الدين الشاذلي وبإفشاء أسرار حربنا هذه لوزير خارجية أمريكا الصهيوني كيسينجر ..كما قال الفريق الجمسي في إحدى الندوات مما جعل حربنا هذه حرب تحريك لا حرب تحرير على حد قول الكاتب الكبير الدكتور يوسف إدريس .

الخدمة السادسة .. زيارة الرئيس المقتول أنور السادات إلى القدس المحتلة وإلقاء خطاب الكنيست الإسرائيلي .

الخدمة السابعة .. توقيع معاهدة كامب ديفيد التي نصت على أن تظل سيناء المصرية أرضا منزوعة السلاح وفرضت على الشعب المصري إعطاء بتروله إلى العدو الصهيوني وأشياء أخرى .

ولقد رد الشعب المصري على هذه الخدمات والخيانات باستفتاءات شعبية ثلاث تستهدف رفض الرئيس المقتول أنور السادات وتطالب بسقوطه حيا أو ميتا وها هي ..

الاستفتاء الأول حدث يومي ١٨ و١٩ من يناير ١٩٧٧ بانتفاضة الشعب المصري في القاهرة والإسكندرية وكل المدن المصرية مما دفع الرئيس المقتول إلى محاولة الهرب إلى السودان ..

الاستفتاء الثاني .. حدث يوم قتله في احتفال عسكري وسط الجيش

الاستفتاء الثالث .. حدث يوم جنازته في قلب الثكنات العسكرية حيث لم يحضرها إلا بعض حكامه وازلامه مع الكثير من الخواجات الأمريكيين

والصهاينة بينما رفض الشعب المصري حضور هذه الجنازة الاستعمارية الكريهة التي تمت في ثكنات الجيش وفور هذه الجنازة ظهر القانون المغولي والمملوكي الذي يقضي بان تقوم السلطة والحكم كل الحكم علي أكتاف حملة السلاح ..

وبفضل ذلك القانون المغولي والمملوكي ورث جنرال الطيران محمد حسني مبارك سلطة مصر وحكم مصر حيث مات العسكري أنور السادات وليحيا العسكري محمد حسني مبارك مما يعني أن سلطة مصر ظلت تتوارث وراثة فئوية وعسكرية لم يتنبأ أحد متى تنتهي . وكيف تنتهي هذه الوراثة السلطوية والفئوية العسكرية للحكم في مصر التي لن تختفي إلا بخروج الشعب المصري من قشلاق السلطة وحكم العسكر والعسكرة المعاصرة .. إن هذا الخروج هو المستقبل الذي يتحدد بنظري في الخروج إلي مجتمع المشاركة الشعبية أي المجتمع الديمقراطي المدني باعتباره بوابة مجتمع الاشتراكية الديمقراطية الجديدة .

قشلاق الحياة المصرية المعاصرة ..

إن جنرال الطيران محمد حسني مبارك الذي بات رئيسا لمصر قد أثبتت الأيام أنه يخشي من رعيته أكثر مما يخشى من أمريكا والعولمة مما جعله يكثف العسكرة السلطوية والوحدانية السياسية والسلطوية اللتين قد ورثهما من الرئيس المقتول أنور السادات .

وكان مصدر هذه الخشية التي استبدت بالرئيس مبارك هو إصراره على تنفيذ المشروع الرأسمالي الذي بدأه الرئيس المقتول أنور السادات مما يؤدي إلى ارتباط مصر برأس المال العالمي والشركات المتعددة الجنسية وأمريكا ..

ولقد بدأ الرئيس مبارك حكم مصر بالإفراج عن المعتقلين السياسيين الذين قبض عليهم الرئيس المقتول والمعتقلين الذين قبض عليهم بعد قتله وموته .. حيث قابل الكثير منهم بالقصر الجمهوري مما دفع البعض إلى القول بأن صبح الديمقراطية المصرية قد طلع بمجيء الرئيس مبارك ..

ولكن بعد شهر وعدة أيام بادر الرئيس مبارك بعقد المؤتمر الاقتصادي الأول تحت شعار فصل الإدارة عن الملكية في القطاع العام بقصد إصلاح مساره وبقصد تطويره .. مع العلم أن الإدارة لا تنفصل عن الملكية إلا في حالة ملكية السفيه والمجنون وفي حالة ملكية الطفل القاصر ..

لقد كان هذا المؤتمر وشعاره دليلا قاطعا على عزم الرئيس مبارك على المضي قدما في تنفيذ مشروع الرئيس المقتول الذي اغتاله مشروع الاشتراكية الناصرية ..

ولقد كان من المستحيل مواصلة تنفيذ المشروع الساداتي إلا في إطار قشلاق عسكري تحكمه العسكرة والوحدانية السياسية والسلطوية بصدور قانون الطوارئ العسكري واستمراره بدون نهاية حماية لمَن الدولة وليس أمن الوطن ولإدارة القشلاق الذي يحتوي المصريين كل المصريين ..

وفي ظل هذا القشلاق الرهيب والكئيب حاولت السلطة تجميل نفسها بوجود أحزاب معارضة لا تستطيع تبادل السلطة أو حتى المشاركة في السلطة مع الحزب الوطني الشمولي والحاكم في شياخة صغيرة في قرية صغيرة في مصر المعاصرة وحتى صحف المعارضة لا يمكنها أن تتخطى الحدود المرسومة وإلا تعرضت للمصادرة وتعرض محرروها للويل والثبور وعظائم الأمور ..

وفي كنف ذلك القشلاق المصري باتت السلطة التنفيذية برياسة الرئيس مبارك باتت سلطة مطلقة بغير حدود خلافا لثوابت الفقه الدستوري في العالم ومن ثم تغولت وتغلبت على السلطة القضائية والسلطة التشريعية بقوة وحدانيتها وعسكرتها مما يضفي عليها صفة الفاشية وسلطة رأس المال المسلح .. ومن ثم فسيادته يقول للشيء كن فيكون في مصر المعاصرة ..

ومن هنا أصبح الرئيس مبارك المهيمن الأوحد على كل القوى المادية من مؤسسات عسكرية وأمنية وقضائية وعقابية وتنفيذية في الوقت الذي كانت فيه القوى الروحية في قبضته وملك يمينه .. فالإذاعة والتليفزيون والصحف القومية

ومؤسسات الثقافة ونوادي الشبان وملاعب الكرة والمساجد وخطباء المساجد تحت أمره وكذلك النقابات العمالية الرسمية والسلطوية وبعض النقابات المهنية ومجمل الجمعيات التعاونية والأهلية كلها في خدمة عسكرة السلطة ووحدانيتها ..

وبواسطة هذه القوى المادية والروحية ترسخت العسكرة وحكمها ووحدانيتها الأمر الذي مهد الحياة المصرية المعاصرة إلى قيام ثورة رجعية مضادة أخذت شكل انقلابات مادية وروحية حدثت رويدا رويدا بهدوء ..

العسكرة والثورة المضادة ..

لك الحمد حتى ترضى ... هكذا تردد العسكرة المصرية ووحدانيتها السياسية والسلطوية من خلال سياساتها وعلاقاتها بإله الشر الأمريكي وأبالسته الصهاينة بقصد طمأنته بشأن الاستمرار في تنفيذ المشروع الساداتي الرأسمالي . بثورة مضادة وانقلابات في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية ..

ومن هذا المنطلق بدأت الثورة المضادة الهادئة بواسطة الإعلام المصري السلطوي الجبار بجانب الصحف القومية مثل جريدة الأهرام التي أصدرت مجلة بعنوان أيامنا الحلوة وبجانب كتاب السلطة ورأس المال المسلح ..

وبواسطة شرطة مباحث أمن الدولة التي تشبه الجستابو في ألمانيا النازية في بطشها وجبروتها وإرهابها الفظيع .. وبواسطة النقابات العمالية الرسمية والسلطوية وقادتها من أزلام السلطة والسلطان ..

وبواسطة الحزب الوطني الحاكم والشمولي وهيمنته على الحياة والمجتمع في مصر المعاصرة ..

وبواسطة مجلس الشعب الذي جاء أغلب أعضائه بالتزوير الانتخابي بشهادة قضاء محكمه وقضاء مجلس الدولة والقضاء المصري عموما ..

هكذا جمعت العسكرة ووحدانيتها وسائل التضليل والتبرير والتخويف والإرهاب ومباركة النقابات العمالية وموافقة سلطة التقنين والتشريع في جبهة سلطوية واحدة للثورة والانقلاب ضد العمال المصريين والاشتراكية الناصرية

وقطاعها العام مما أدى إلى إصدار قانون الخصخصة وبيع القطاع العام ومما أدى أيضا إلى إلغاء تشريعات العمل والعمال ومجمل المكاسب الاشتراكية التي حصل عليها العمال في فترة الاشتراكية الناصرية ..

وبعد فترة هدوء اجتماعي بادرت العسكرة المصرية باعتبارها سلطة رأس المال المسلح بانقلابها المضاد الثاني ضد قانون الإصلاح الزراعي والفلاحين المصريين الفقراء الذين طردوا من أرضهم الزراعية بقوة العسكرة والشرطة ومباحثها لكي تعود إلى ملكية كبار الملاك الأغنياء .. مع العلم أن الأرض الزراعية ظلت مملوكة ملكية عامة طول عصر الفراعنة وحكم الغزاه حتى حكم الخديوي سعيد باشا ..

وقد تبع ذلك قيام العسكرة بإلهاء الناس كل الناس بالكورة وفقه الكورة ونجوم الكورة وبالمسلسلات التليفزيونية ونجومها ودفعهم دفعا إلى اليأس والقنوط والإحباط والاغتراب الاجتماعي وبالإضافة إلى الانشغال بالكسب الحرام والنصب والاحتيال وتجارة الممنوع والتلاعب بالشيكات وممارسة الشطارة والفهلوة والرشوة والاختلاس والبلطجة والجريمة .. وآفة الدروس الخصوصية والغش في الامتحانات والتزوير الانتخابي مما أدى إلى اختفاء الحب والرحمة والشفقة والأمانة والصدق والفضيلة والمروءة والصمود الشجاعة والتضامن والتآخي وحب الوطن والإنسانية وأغلب القيم الروحية والأخلاقية التي تضاءل شأنها وممارستها في مصر المعاصرة..

وفي هذا السياق الانقلابي المادي والروحي بادرت العسكرة بتفكيك المجتمع المصري بحيث تحولت طبقاته الوسطى وطبقاته الفقيرة والأجيرة والكادحة من العمال والفلاحين والحرفيين وجماهير البروليتاريا المهنية من مدرسين ومحامين ومهندسين وأطباء وموظفين بالحكومة والقطاعين العام والخاص إلى فلول طبقية مبعثرة هنا وهناك ..

ومع هذا التفكيك الطبقي والاجتماعي لطبقات الرئيسية في المجتمع المصري قامت العسكرة بتأسيس طبقتها الرأسمالية الكبيرة والطفيلية الحاكمة

والمالكة من الرأسماليين العسكريين وضباط الشرطة ومن الوزراء والمحافظين وكبار موظفي الدولة السابقين واللاحقين وزوجاتهم ومن الرأسماليين القدامى ..

والغريب أن هذه الطبقة الجديدة والمالكة لم تظهر بطريقة مجتمعية أي بواسطة المجتمع وصراعاته الطبقية وتراكماته المالية وتطوره الاقتصادي بل ظهرت بشكل سلطوي واصطناعي ..

ومن ثم فهذه هي طبقة العسكرة الحاكمة ووحداتيتها وهي رأسمالية العسكرة المصرية أيضا يؤيد ذلك هيمنة العسكرة على سوق المال وعلى البورصة والسوق وهيئات المال حيث يمكنها تغليب مطالب العولمة وأمريكا على مطالب الشعب المصري واقتصاده ومعيشته باعتبارها سلطة رأس المال المصري المسلح ..

ومما يذكر أن هذه الثورة المضادة وانقلاباتها المتتالية بواسطة العسكرة المصرية ووحداتيتها السياسية والسلطوية كانت بمثابة خدمة عظمى قدمت أيضا للاستعمار الأمريكي ورأس المال العالمي في عهد الرئيس مبارك حيث كانت هذه الثورة المضادة هي البروفة العملية لما قام به فيما بعد الرئيس الروسي الرجعي يلتسين عميل أمريكا والصهيونية بانقلابه على السلطة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي السابق كما سبق ذكره ..

ولذلك فقد تزاملت روسيا المعاصرة مع مصر المعاصرة في الفقر المدقع والبطالة الصارخة والاستبداد السلطوي والفساد الذي بلغ ذروته فالوزراء والمحافظون وكبار الحكام والنواب وأعضاء الحزب الحاكم هنا وهناك فاسدون سرقوا مال الشعب ورحلوه إلى خارج البلاد تحت سمع وبصر السلطة والشرطة وضابطها الإمبراطوري ..

صلاة للضابط الإمبراطوري ..

ظهر أول ما ظهر الضابط الإمبراطوري المتخصص في محاربة الإنسان لحساب السلطة والسلطان مقابل امتيازات خرافية وصلاحيات سلطوية ليس لها حدود ..

وقد ظهر أول ما ظهر الضابط الإمبراطوري كظاهرة سلطوية إرهابية ودموية وفاشستية في روما القديمة خلال ثورة العبيد بقيادة العبد الثائر سبارتكوس.. ثم ظهر ذلك الضابط الوحش في عهد الإمبراطورية الرومانية ..

وفي مصر الحديثة ظهر ذلك الضابط الإمبراطوري في شخص ضابط البوليس التركي المتمصر إسماعيل حمدي بك الذي عينه الخديوي سعيد باشا مديرا للأمن في ساحات حفر قناة السويس بعد اشتداد التمردات الفلاحية في ساحات الحفر ضد التسخير ، حيث بادر ذلك الضابط الإمبراطوري بإرهاب الفلاحين المسخرين وتخويفهم وتعذيبهم وجلدهم وسجنهم بالجملة وإهانتهم بحلق شواربهم طوال فترة التسخير بقصد تكثيف أشغال السخرة ومضاعفتها ، ولذلك فقد كوفئ ذلك الضابط الإمبراطوري بصدور قرار خديوي بتعيينه بوظيفة محافظ لمدينة بورسعيد الجديدة..

وخلال فترة الاحتلال الإنجليزي لمصر حتى بدايات ثورة سنة ١٩١٩ طفحت ظاهرة الضابط الإمبراطوري في شخص الضابط الإمبراطوري جورج بك فليبيدس الذي عينته عسكرة الاحتلال الإنجليزي بوظيفة مأمور ضبط العاصمة – القاهرة – الرجل الذي جمع بين أصابعه كل خيوط التحقيقات السياسية التي جرت بشأن الاغتيالات السياسية التي باشرها الفدائيون المصريون بدءا بقضية اغتيال بطرس غالي باشا رئيس الوزراء بواسطة البطل الفدائي والنقابي إبراهيم الورداني .. ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى وأعلنت معها الأحكام العسكرية البريطانية في البلاد كان هو الأمين على تنفيذ كثير من الإجراءات التي رأت السلطة العسكرية أن تتخذها ضد الثوريين المصريين والهيئات الوطنية ..

هكذا بدأت ظاهرة الضابط الإمبراطوري في مصر الحديثة التي قد تزايدت في العصر الملكي من خلال ضابط القلم السياسي ثم تضخمت رويدا رويدا في ظل حكم العسكر والعسكرة بقيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

وفي مصر المعاصرة حيث أرادت العسكرة السلطوية تغليب أمن الدولة علي الأمن القومي وتغليب حرب الداخل المصري علي حرب الخارج المصري ، تعاظم شأن الضابط الإمبراطوري أي ضابط مباحث أمن الدولة الذي بات جالسا متربعا في الوجدان المصري مما جعل الخوف مصري الجنسية .

والأمر الغريب أن الساسة والمثقفين والحزبيين والمعارضين والناس كل الناس في مصر يتابعون سياسات السلطة المعاصرة ويحكمون عليها من خطب الرئيس مبارك وبياناته العامة والصحفية وما يردد في مجلس الشعب الشورى وما يقول الوزراء وتنشره الصحف القومية . ومن ثم يخطئون لأن كل سياسات السلطة وعسكرتها ووحدانيتها يتضمنها فقط ممارسات الضابط الإمبراطوري ضابط أمن الدولة باعتباره الأمين العام علي أسرار سلطة رأس المال المسلح في مصر المعاصرة فالرئيس مبارك يخطب مرددا ومؤكدا بعدم تزوير الانتخابات ومع هذا تزور الانتخابات بواسطة سيادة الضابط الإمبراطوري .. وفي مسألة دعم الانتفاضة الفلسطينية التي بدأت ببداية الألفية الميلادية الثالثة بادر الشعب المصري بتقديم الدعم الغذائي للشعب الفلسطيني الذي يعاني الحصار والاعتداءات الإسرائيلية الصهيونية المؤيدة من أمريكا فإذا بالضابط الإمبراطوري يمنع المصريين ويدعوهم إلي عدم التبرع بذريعة أن الشعب الفلسطيني لا يستحق أي دعم ..

لقد سمعت كل هذا بنفسي ومع غيري من اكثر من ضابط إمبراطوري في مدينة العريش وفي مدينة ميت غمر .. مع أن السلطة تدعو بواسطة إعلامها إلي هذا الدعم باعتباره موقفها الوحيد في مواجهة إسرائيل والصهيونية .

ولذلك فالضابط الإمبراطوري .. ضابط مباحث أمن الدولة .. يحظي بامتيازات خرافية وصلاحيات غير محدودة في ظل حكم العسكرة المصرية مما أدى إلي قتل وسجن وتعذيب الآلاف من المصريين في ظل حكم العسكر والعسكرة أي سلطة رأس المال المسلح الذي مضي عليه أكثر من ثلاثة عقود والذي سوف يستمر إلي أجل غير مسمي مما جعل استحالة حصر ضحايا

الضابط الإمبراطوري في مصر الحديثة والمعاصرة .. ولهذا فلم ولن يستطيع باحث أو مؤرخ ولوج هذه المسألة إلا في حالة عودة المجتمع الديمقراطي المدني في مصر المحروسة .. وعندئذ يخفي الموت الضابط الطاغية وضحاياه مما يدفع الأجيال القادمة إلي صب اللعنات علي آبائهم وأجدادهم المصريين حكاما ومحكومين .

والضابط الإمبراطوري المذكور يمنع ويمنح الطلاب من الالتحاق بكلية الشرطة والكليات الحربية .. وكذلك من الالتحاق بالوظائف الهامة وهو الآمر الناهي في النجاح والسقوط في الانتخابات النيابية والنقابية والمحلية والتعاونية .

ومن هنا فالضابط الإمبراطوري .. ضابط مباحث أمن الدولة باعتباره وحشا سلطويا قد فرض علي الناس كل الناس في مصر المحروسة صلاة واجبة مع أن الصلاة وأي صلاة هي لله عز وجل ولكن عبودية العسكرة ووحدانيتها هذه الوحدانية التي لا تكون إلا لله وحده هي التي مكنت الضابط الإمبراطوري . ضابط مباحث أمن الدولة من فرض هذه الصلاة بجبروته وهذه هي الصلاة .

"صـــــــلاة"

أبانا الذي في المباحث . نحن رعاياك . باق لك الجبروت . وباق لنا الملكوت . وباق لمن تحرس الرهبوت .

تفردت وحدك باليسر . إن اليمين لفي الخسر . أما اليسار ففي العسر . إلا . الذين يماشون . إلا الذين يعيشون يحشون بالصحف المشتراة العيون . فيعشون . إلا الذين يشون . إلا الذين يوشون ياقات قمصانهم برباط السكوت ! تعاليت . ماذا يهمك ممن يذمك ؟ اليوم يومك يرقي السجين إلي سدة العرش .

والعرش يصبح سجنا جديدا وأنت مكانك . قد يتبدل رسمك واسمك . ولكن جوهرك الفرد لا يتحول

الصمت وشمك . والصمت وسمك والصمت - حيث

التفت – يرين ويسمك . والصمت بين خيوط يديك

المشبكتين المصمغتين يلف الفراشة .. والعنكبوت .

أبانا الذي في المباحث . كيف تموت . وأغنية

الثورة الأبدية ليست تموت !؟

الشاعر أمل دنقل

التزوير الانتخابي مصري الجنسية ..

عرفت مصر الحديثة الانتخابات فور نزول الخديوي إسماعيل باشا من القلعة باعتبارها رمز الموت والقتل والرهبوت وكعبة الاستبداد المصري والعسكرة وذلك لكي يقيم بقصر عابدين وسط أهالي القاهرة مما يعني قيامه بخطوة مدنية ترتب عليها ظهور بوادر صبح المجتمع المدني في مصر الحديثة من خلال نشر الصحف والمدارس السياسية والفكرية وتأسيس مجلس الشورى والنواب بالانتخابات العامة ثم تأسس بعده العديد من النقابات العمالية وجمعيات العوايد بواسطة الانتخابات .. وتلا ذلك تأسيس جمعية شوري القوانين ومجالس المديريات والبلديات ثم الجمعية التشريعية كل ذلك قد تم بالانتخابات الخالية من التزوير الانتخابي تحت إشراف الاحتلال الإنجليزي والسلطة المصرية .

وبفضل ثورة سنة ١٩١٩ وضع الدستور المصري أجريت أول انتخابات نيابية دستورية لانتخاب أعضاء أول برلمان دستوري في مصر الحديثة .. وفي هذه الانتخابات نجح حزب الوفد بزعامة سعد زغلول بأغلبية ساحقة مما مكنه من تشكيل أول وزارة وطنية دستورية في مصر برئاسة سعد زغلول ولكن قتل السيردار الإنجليزي قائد الجيش المصري وتنفذ بواسطة بعض الفدائيين المصريين تسبب في سقوط الوزارة وحل هذا البرلمان الذي سقط في انتخاباته رئيس الوزراء عبد الفتاح يحيى باشا بدائرة منيا القمح أمام شاب وفدي من طبقة الأفندية ..

وفي الانتخابات الدستورية الثانية نجح حزب الوفد أيضا بأغلبية ساحقة وانتخب الزعيم سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب مما يعني أن مظاهر المجتمع المدني كان لها تأثيرها في مواجهة عسكرة الاحتلال الإنجليزي والملك فؤاد ..

ولذلك فقد لجأ الملك فؤاد بمساندة الإنجليز إلى ممارسة التزوير الانتخابي لأول مرة في مصر الحديثة بواسطة وزير داخليته ورئيس وزرائه رجل المال والاقتصاد الطاغية إسماعيل باشا صدقي أبو التزوير الانتخابي في مصر الحديثة ..

ولكن نضال الشعب المصري تصدى للتزوير الانتخابي عدة مرات من خلال نجاح حزب الوفد . حزب الأغلبية الشعبية . وبالتالي فقد شهدت الحياة الحزبية المصرية في العهد الملكي الانتخابات المزورة لصالح الأحزاب الملكية وانتخابات حرة وديمقراطية لصالح حزب الأغلبية الشعبية بزعامة مصطفى النحاس حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ..

وللأسف فإن ثورة يوليو وسلطتها الوطنية وما اعتراها من عسكرة ووحدانية سياسية وسلطوية قد جارت على الديمقراطية والحريات العامة وجعلت الانتخابات النيابية والنقابية وانتخابات العمد مغلولة بأغلال العنصرية والفاشستية بربطها بعضوية الاتحاد القومي ثم الاتحاد الاشتراكي ثم عضوية الحزب الوطني الشمولي والحاكم .. ومع هذا فقد حدث التزوير الانتخابي في فترة الاشتراكية الناصرية رغم أن المرشحين كلهم كانوا أعضاء بالاتحاد الاشتراكي.

ثم تفشى التزوير الانتخابي في فترة الرئيس المقتول أنور السادات وفي عهد الرئيس مبارك بالإضافة إلى التلاعب في الإجراءات الانتخابية وقوانينها إلى حد أن التزوير الانتخابي بات مصري الجنسية في الانتخابات النيابية والمحلية والنقابية مما دفع القوى الوطنية واليسارية إلى مقاومة التزوير الانتخابي وإجراءاته باللجوء إلى القضاء المصري العظيم الذي أصدر مئات الأحكام القضائية التي كشفت وفضحت السلطة وعسكرة السلطة واتهمتها بتزوير الانتخابات حيث أصدر قضاء مجلس الدولة ومحكمة النقض وقضاء الاستئناف

والمحكمة الدستورية العليا أحكاما ومبادئ قضائية تدين التزوير الانتخابي عموما وتنص على ضرورة الإشراف القضائي على الانتخابات..

ولكن العسكرة ووحدانيتها السياسية والسلطوية في مصر المعاصرة لا تستطيع البقاء بدون انتخابات مزورة لأنها مرفوضة شعبيا من الأمة المصرية ولأنها في حاجة ضرورية إلى شرعية دستورية تكتسي بها حتى ولو كانت مزيفة ومظهرية .. وذلك في مواجهة الرأي العام الدولي في هذه الفترة التي اقتربت فيها المسافات بين الدول والأمم والشعوب بفضل ثورة الاتصالات الكونية ..

وفضلا عن هذا فإن شخص النائب والمشرع الذي حصل على عضويته النيابية والتشريعية بالتزوير هو عضو في حزب السلطة وعبد من عبيد حسناتها مما جعل ولاؤه المطلق لحكم العسكرة ووحدانيتها .. ومن ثم فهو صانع القوانين والتشريعات التي تخدم مصالح السلطة وفسادها واستبدادها . وهو أيضا حامي حماها من أي نقد أو هجوم على سلطة العسكرة ووحدانيتها ..

ولذلك فإن الضابط الإمبراطوري .. ضابط أمن الدولة .. والمشروع المزور عضو الحزب الحاكم .. والنقابي المزور الذي حصل على منصبه النقابي بالتزوير وعضو المحليات الذي حصل أيضا على عضويته بالمجالس المحلية بالتزوير الانتخابي هؤلاء جميعا أعمدة العسكرة وسلطتها ووحدانيتها السياسية والسلطوية من خلال مراكزهم ومن خلال قيادتهم للحزب الوطني الحاكم ..

وبالتالي فسوف يأتي حين من الدهر تكتشف فيه الأجيال المصرية القادمة أن أجدادهم وحياتهم وتشريعاتهم وقوانينهم بطلان في بطلان مما يدفعهم إلى محاسبة المتسببين . ولكن أين هؤلاء السادة المتسببين .! .. إنهم جميعا في قبورهم مجرد عظام نخرة ..

مصر العسكرة شبه المستعمرة ..

كانت مصر الملكية شبه مستعمرة وشبه إقطاعية ولكنها لم يكن بها عسكرة غليظة ووحدانية مطلقة مما اضطر السلطة الملكية إلى مناقشة حرب فلسطين في عام ١٩٤٨ في البرلمان المصري بمجلسي النواب والشيوخ ..

وبقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تحررت مصر من الإقطاع ثم تحررت من الاستعمار بفضل ثورة يوليو وكفاح الشعب المصري ومساندة العمال العرب الذين فجروا أنابيب البترول في سوريا وبفضل تضامن الاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي وسلاحه وتهديداته لدول العدوان الثلاثي .. إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر في عام ١٩٥٦ وبسبب هيمنة العسكرة ووحدانيتها السياسية والسلطوية خاضت مصر الحرب ضد إسرائيل بقرار منفرد وذلك بقيادة المشير عبد الحكيم عامر الذي لا ترقي معارفه العسكرية والقتالية عن درجة شاويش وبقيادة قائد ميداني مشغول برئاسته للنادي الأهلي للكرة القدم هو الفريق عبد المحسن كامل مرتجي مما أدي إلي هزيمة العسكرة الناصرية ووحدانيتها أمام إسرائيل التي احتلت سيناء .. ومن ثم باتت مصر شبه مستعمرة من أحقر استعمار استيطاني صهيوني عنصري وفاشستي

ولكن العسكرية المصرية باشرت مقاومة احتلال سينا بحرب الاستنزاف العظيمة ضد الجيش الإسرائيلي مما أدي إلي حرب أكتوبر ١٩٧٣ في عهد الرئيس المقتول أنور السادات رجل أمريكا الكامن والمستكن في رحم سلطة الاشتراكية الناصرية حتى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر حيث ظهر رئيسا بلا منافس ووريثا وحيدا للسلطة الناصرية وعسكرتها ووحدانيتها .

ومن هنا وظف علاقته بأمريكا ووظف حرب أكتوبر المجيدة بهدف التخلص الشكلي فقط من الاحتلال الإسرائيلي لسيناء المصرية بحيث تتحرر تحت علم مصر دون سيف مصر لحمايتها وحماية الحدود المصرية مع دولة إسرائيل الفاشستية وقد تم هذا فعلا من خلال زيارته للقدس وتوقيعه معاهدة

كامب ديفيد تحت رعاية أمريكا .. وكان ذلك مقابل أن تصبح مصر شبه مستعمرة أمريكية .

وهكذا ظلت مصر العظيمة شبه مستعمرة أمريكية حتى قتل الرئيس السادات وورثه نائبه جنرال الطيران حسني مبارك باعتباره الوريث الوحيد لحكم السادات وعسكرته ووحدانيته .

وبفضل هذه العسكرة الوراثية ووحدانيتها بادرت السلطة المصرية بترسيخ وضعية مصر المعاصرة باعتبارها شبه مستعمرة أمريكية من خلال تطبيع المجتمع المصري بالنمط الأمريكي والغربي في المأكل والمشرب والثقافة واختيار الوزارة والوزراء وربط الاقتصاد المصري بذيل رأس المال الأمريكي والعالمي وبذيل الشركات المتعددة الجنسية .. والاعتماد علي اقتصاد السوق الرأسمالي والتنسيق مع البورصات الرأسمالية العالمية وإعداد كل شيء مادي أو روحي للبيع الشرف للبيع والأخلاق للبيع والدين للبيع والوطن للبيع والأعراف للبيع والإنسان للبيع ، أجزاء جسم الإنسان للبيع .

بالإضافة إلي الاعتماد علي أمريكا في الغذاء والكساء والتسليح والمعونات والقروض والخضوع المطلق لسياسات البنك الدولي ومؤسسة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي .

ومن منطلق أطعم الفم تستحي العين فإن كل السياسات الخارجية لمصر شبه المستعمرة تتطابق مع السياسة الأمريكية حتى في مسألة فلسطين والعدوان الإسرائيلي الأمريكي علي أرضها وشعبها .

وذلك بجانب موجات الخصخصة للصناعة والتجارة والتعليم والصحة وخدمات النقل والطرق والمياه والصرف الصحي والإطاحة بالإصلاح الزراعي وتفشي الفقر والبطالة وتحويل الأمة المصرية إلي أمتين ، أمة ضئيلة العدد من المصريين الشباعى والأغنياء ، وأمة من الأغلبية المصرية من الفقراء والأجراء والمنتجين وإن مجمل هذه السياسات الرأسمالية وما صاحبها من فساد واستبداد

في مصر شبه المستعمرة قد ساعدت علي قيام نظام العولمة الأمريكي والصهيوني في شكله وموضوعه .

ومما يذكر أن مصر شبه المستعمرة كان لها دور فعال في قيام العولمة وما سببه للعالم من حروب عنصرية وإرهاب رأسمالي وبلطجة الدول الكبرى وخراب للدول الفقيرة وفقر وبطالة وانتشار الأمراض والمخدرات وتجارة الرقيق .

ويبدو دور مصر شبه المستعمرة ما قدمته من بروفات وتجارب انقلابية مضادة ورجعية تم تنفيذها في الإطاحة بالاتحاد السوفيتي والمعسكر الاشتراكي .. حيث أن هذه الإطاحة كانت هي العامل الأول والرئيسي في ظهور نظام العولمة الأمريكي والصهيوني ، أما العامل الثاني فقد تجلي في حرب الخليج ضد الشعب العراقي عام ١٩٩٠ .

إن هذه الحرب كانت بمثابة الإعلان العالمي لظهور العولمة العسكرية والوحشية في أعلي ذروتها وكان هذا الإعلان أشبه بخطاب الهر هتلر في عام ١٩٣٩ لينذر العالم بضرورة الحصول علي مجال حيوي للشعب الألماني .

ولقد كانت هذه الحرب حربا عدوانية ونازية في كل ملامحها وللأسف فإن مصر شبه المستعمرة هي التي أعطت الترخيص بهذه الحرب وشاركت فيها بقرار منفرد من وحدانيتها السياسية والسلطوية بحيث لم يشترك في هذا القرار العدواني البرلمان المصري أو يتم الاستفتاء عليه بواسطة الشعب المصري ..

وللحزن الشديد أن القرار المصري بشأن هذه الحرب قد أهدر قداسة وهيبة أرض الجزيرة العربية .. الأرض التي مشى عليها الرسول صلى الله عليه وسلم و الأمين جبريل والصحابة والتابعين ونزل عليها الوحي وجمع القرآن الكريم .

إن هذه الأرض المقدسة قد مشى عليها الجنود الأمريكيين واليهود الصهاينة بسلاحهم وعتادهم وعدوانهم ثم عسكروا فيها عسكرة لا نهاية لها ..

عسكرة تسيء إلي الحرم المكي الشريف وإلي الحرم النبوي الشريف وتهدر كرامة الشعوب العربية من مسلمين ومسيحيين ..

والخوف كل الخوف من هؤلاء العساكر الأمريكيين والصهاينة أن يمهدوا للاحتلال أرض ومدن الجزيرة العربية بواسطة إسرائيل وجيشها الصهيوني جيش العولمة الأمريكي ، وخاصة المدينة المنورة حيث الحرم النبوي الشريف بذريعة أن هذه المدينة كان يسكنها يهود بني قريظة وبني النظير وبني قينقاع .. ومن ثم فعسكر مصر تقع عليهم المسئولية التاريخية فيما حدث وفيما يحدث وذلك باعتبارهم أصحاب قرار حرب الخليج وبفضل سياساتهم باتت مصر شبه مستعمرة أمريكية وبالتالي فهي أيضا شبه مستعمرة للعولمة الأمريكية والصهيونية بمعني أنها عضو قاعدي في إدارة العولمة ومن ثم فالبطالة في مصر عولمة . والفقر في مصر عولمة . والخصخصة للمصانع وطرد العمال وتشريدهم عولمة والإطاحة بالخدمات الصحية والتعليمية والخدمات البلدية عولمة وقانون الطوارئ عولمة ومحاكمة المدنيين أمام المحاكم العسكرية ومحاكم أمن الدولة عولمة والاستبداد والفساد عولمة وخنق الحريات السياسية والعامة عولمة وتزوير الانتخابات للحصول علي نائب تابع للسلطة عولمة وإعدام العشرات وبالجملة عولمة وإشاعة التعذيب والقتل السياسي عولمة ، ووجود عشرة آلاف معتقل في سجون صخرية لمدة تزيد علي عشرة سنوات عولمة وملاحقة المظاهرات المضادة لإسرائيل وأمريكا وقتل المتظاهرين عولمة والخضوع للسلام الصهيوني الأمريكي عولمة ..

ولا يعني كل ما سبق إلي أن مصر شبه المستعمرة تقوم بدور الجناح العسكري للعولمة الأمريكية الصهيونية لحرب الداخل المصري حتى لا يقاوم سياسات ومصالح العولمة ويتم الرضوخ لأمريكا وإسرائيل .

مستقبل مصر المحروسة بعيد بعيد ..

لقد جلب حكم العسكر ووحدانيته السياسية والسلطوية علي مصر أوضاعا متخلفة تحوطها ظلمات فوقها ظلمات من خلال جعلها مستعمرة

أمريكية أو شبه مستعمرة للعولمة الأمريكية والصهيونية .. ومن ثم فقد عادت مصر إلي مرحلة التحرر الوطني والثورة الوطنية .. وكأن التاريخ يعيد نفسه ولكن بصورة متغيرة إذ أن هذه المرحلة الوطنية الجديدة بالغة الشدة والقسوة والصعوبة لأن الطرف الاستعماري الأمريكي الحالي الذي تواجهه يتميز بالوحدانية المطلقة في العالم والعنصرية الصارخة والفاشستية والدموية والعدوانية التي تتضاءل النازية أمامها ، فالرئيس الأمريكي هو هتلر مضروب في ألف مرة في إبادته للبشر والشعوب .. ويتميز بأنه ممثل القوة العظمي الكونية ولهذا ينفرد وحده بقرار إبادة الشعوب وقهرها .. ويتميز كذلك بقيادته وهيمنته علي حلف العولمة الاستعمارية والرأسمالية ولهذا لا توجد أي قوة عالمية تناطح أمريكا في ممارسة جبروت القوة والطغيان .

وذلك علي خلاف مرحلة التحرر والثورة الوطنية خلال الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩ وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. حيث كان الطرف الاستعماري وقتئذ هو إنجلترا التي كانت دولة عظمي وإمبراطورية كبري لا تغرب عن ممتلكاتها الشمس .. ومع هذا فقد كانت هناك بعض الدول الاستعمارية تناطحها وتصارعها علي المصالح الاستعمارية في العالم مثل فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، وحتى ألمانيا النازية بقيادة أدولف هتلر وجبروته كان هناك من يقاومها من الدول الاستعمارية .

ولذلك فقد كانت الثورة الوطنية في مصر كانت تجد من يساندها من الدول الكبرى منها فرنسا والاتحاد السوفيتي والصين والدول الاشتراكية .. بالإضافة إلي أن السلطة المصرية وأحزابها كانت تساند الثورة الوطنية بأشكال ومواقف مختلفة أما الثورة الوطنية الجديدة في مصر العسكر والعسكرة لا ولم تجد نصيرا لها تقريبا في داخل مصر أو خارج مصر في ظل هيمنة العولمة الأمريكية والصهيونية ..

ومما يذكر أن مصر القديمة قد تعرضت لوضع مماثل فور احتلال روما لمصر بقيادة الإمبراطور الروماني أغسطس قيصر قبل الميلاد بقصد استغلالها وفرض السلام الروماني عليه جبرا وإكراها ..

حيث كانت الإمبراطورية الرومانية سيدة العالم التي لم تضارعها دولة على الأرض بعد أن تخلصت من ثورة العبيد بقيادة العبد الثائر سبارتكوس وبعد أن هزمت القائد والمحارب الأفريقي هانيبال واحتلت وطنه قرطجنة – تونس حاليا – وبعد أن هزمت جيش كليوباترا في معركة أكتيوم البحرية .. واحتلت مصر مما جعلها تفرض السلام الروماني على مجمل العالم القديم بفضل ما لديها من جبروت القوة ..

هكذا فعلت عولمة الشر الأمريكية الصهيونية التي احتلت مصر لكي تحاول فرض السلام الأمريكي على العالم المعاصر بفضل جبروت قوتها والشبيه الثاني لهذه العولمة الأمريكية الطاغية هو جنكيز خان وجيوشه الوحشية التي اجتاحت السهوب الأسيوية والصين والهند وأثبت أنه سيد العالم ولا تستطيع أمة من الأمم التصدي لما لديه من جبروت القوة والطغيان ..

ولكن جبروت القوة والطغيان لدى الرومان وجيوش جنكيز خان قد تآكل رويد رويدا مع مرور الأيام وسقطت الدولة الرومانية وإمبراطورية جنكيز خان ..

ومما يذكر أن الشعب المصري قد تمرد على السلام الروماني واعتنق المسيحية واعتبرها وطنا احتجاجا على الاحتلال الروماني لمصر واحتجاجا على وثنيتهم وعبوديتهم ولقد استمر ذلك الاحتجاج متواصلا في مواجهة الرومان الوثنيين والرومان الذين اعتنقوا المسيحية فيما بعد وخلال ذلك الاحتجاج قدم المصريون المسيحيون آلاف آلاف آلاف الشهداء الذين لجأوا إلى الانتحار الاستشهادي حتى تحررت مصر من الاحتلال الروماني بفضل تحالف أقباط مصر مع الفتح العربي..

ذلك هو الاحتلال الروماني وجبروت قوته وطغيانه الذي واجهته مصر القبطية وشعبها العظيم الذي لم يفرط في دينه ووطنه ، إن هذا الاحتلال يتكرر في مصر المعاصرة من خلال الهيمنة الأمريكية والعولمة الأمريكية الصهيونية وما لديها من جبروت للقوة المطلقة لفرض السلام الأمريكي على مصر

وفلسطين والأمة العربية ونهب أرضها وثرواتها والعبث بإسلامها ومسيحيتها والإطاحة بتراثها الثقافي والأخلاقي لصالح أمريكا التي لا جذور لها ولصالح الصهيونية التي لا حضارة لها كما يقول أدولف هتلر الذي يقول أيضا .. عندما تقوم لليهود دولة فإنها سوف تكون دولة بلا حدود ..

هكذا فعل حكم العسكر والعسكرة ووحدانيته بالشعب المصري حيث وضعوا على أكتافه وأكتاف أجياله القادمة عبء التحرر الوطني والثورة الوطنية لمواجهة العولمة الأمريكية الصهيونية وجبروت قوتها وشرها المستطير بالإضافة إلى مواجهة قوى أنصار هذه العولمة في مصر من حكام وعساكر غلاظ شداد ومؤلفة قلوبهم وطبقات رأسمالية طفيلية تعتمد حياتها على الفساد والاستبداد هذه القوى المصرية التي يهمها جدا أن تظل مصر شبه مستعمرة أمريكية أو شبه مستعمرة لعولمة الأمريكية الصهيونية من منطلق مصالحها ..

ولذلك فإن مستقبل مصر المحروسة بعيد .. بعيد .. ولكن .. ولكن

صبح مصر المعاصرة ليس ببعيد ..

ولكن الشعب المصري قد أحس بفطرته مبكرا أن مصر خلال حكم الرئيس المقتول أنور السادات قد باتت شبه مستعمرة أمريكية .. ثم شبه مستعمرة للعولمة الأمريكية الصهيونية التي هي أعلى مراحل الاستعمار .. وبالتالي فقد أدركت القوى الوطنية واليسارية المصرية أنها تعيش مرحلة التحرر الوطني والثورة الوطنية ولكن بشكل مختلف تماما عن مرحلة الثورة الوطنية السابقة .ز من حيث جبروت قوة الطرف الاستعماري الأمريكي وعسكرته ووحدانيته الكونية التي لا يناطحها أحد وعولمته التي تحتوي كافة الدول الاستعمارية ودكتاتوريته الإرهابية لقوى رأس المال الأشد رجعية وعنصرية واستعمارا على حد تعبير الزعيم الاشتراكي البلغاري "ديمتروف" .. ومن حيث أيضا جبروت حكم قوة رأس المال المصري المسلح وعسكرته ووحدانيته الذي تخلى عن حرب الخارج المصري لصالح حرب الداخل المصري حفاظا على أمن الدولة دون الأمن القومي بقصد الالتزام المطلق بالسلام الأمريكي العسكري والمسلح

الذي فرض عبوديته على البشرية المعاصرة وهيمن على مصر والوطن العربي خدمة لمصالحه البترولية وحماية لعميلته الصهيونية دولة إسرائيل ..

ومما يذكر أن الوطنية المصرية قد استشعرت الخطر كل الخطر مبكرا من الاستعمار الأمريكي خلال مقاومتها للاستعمار الإنجليزي مما دفعها إلى إطلاق شعار يقول .. لا أمريكا ولا دولار .. يسقط الاستعمار ..

كما لا ننسى للاستعمار الأمريكي أنه حاول تكرار ممارسات الإمبراطورية الرومانية بشأن الإطاحة بالمسيحية المصرية وكنيستها الوطنية حيث حاول غزو الكنيسة المصرية المرقسية بإشاعته التبشير الإنجيلي بين المصريين المسيحيين والمسلمين لصالح كنيسته الإنجيلية وسيادتها في مصر تمهيد لوراثة الاستعمار الإنجليزي فيما بعد .. ولكن أبناء كنيستنا الوطنية والأقباط المصريين أحبطوا هذه الغزوة الأمريكية في حينها ..

ولذلك فقد بادر الشعب المصري بالنضال الوطني ضد التبعية السلطوية لأمريكا والصهيونية بدءا بانتفاضة الشعب المصري يومي ١٨و١٩ يناير ١٩٧٧ ضد الرئيس المقتول أنور السادات . هذا النضال الطبقي والسياسي الذي هو في جوهره نضال وطني قصده تحرير مصر من الاستعمار الأمريكي وعولمته الصهيونية ، ولقد باشر هذا النضال كل القوى الوطنية واليسارية في مصر المعاصرة من خلال المواقف التالية ..

. المواقف الوطنية للقضاء المصري العظيم

للأسف فلم تلتفت القوي الوطنية المصرية إلي أهمية مواقف القضاء الوطني الدستورية والقانونية والموضوعية والمحايدة والعادلة في العقود الثلاثة الماضية ، هذه المواقف التي سوف توصف عبر التاريخ المصري بأنها مواقف وطنية غرضها تحرير مصر شبه المستعمرة الأمريكية للعولمة والصهيونية .

إن هذه المواقف الوطنية تتجلي في أحكام القضاة المصريين المسلمين والمسيحيين بالقضاء الجزئي والكلي والقضاء العالي وقضاء النقض وقضاء مجلس الدولة وقضاء المحكمة الدستورية العليا .

ولقد تجلت هذه الأحكام القضائية في الحكم ببراءة جميع عناصر القوي الوطنية واليسارية المتهمين في قضية الانتفاضة الشعبية يومي ١٨ ، ١٩ يناير ١٩٧٧ ضد الرئيس المقتول أنور السادات . وفي الحكم ببراءة عمال السكة الحديد المضربين من أجل مطالبهم الذي قضي أيضا بأن الإضراب العمالي حق مشروع .

كما تجلت في مئات الحكام القضائية ضد التعذيب والاعتقال وإهدار حقوق الإنسان وضد فصل العمال والموظفين وتشريدهم وضد عدم دستورية الانتخابات وضد تزوير الانتخابات النيابية والنقابية والمحلية وضد الفساد السلطوي والاستبداد السلطوي ... إن مجمل هذه الأحكام القضائية العظيمة يتجلي في مضمونها قمة النضال الوطني ضد جبروت أمريكا والعولمة وجبروت حكم رأس المال المصري . هذا النضال الذي شارك فيه المحامون الوطنيون واليساريون ..

المواقف الوطنية للطبقة العاملة المصرية

لا أغالي أن قلت أن الطبقة العاملة المصرية صاحبة التاريخ الطويل والمجيد قد أدركت بحسها الطبقي أن مصر في عهد الرئيس المقتول باتت شبه مستعمرة أمريكية ثم باتت شبه مستعمرة للعولمة في ظل الرئيس مبارك .. ومن ثم فإن واجبها الطبقي الوطني والأخلاقي يتحدد في النضال المطلبي أي الاقتصادي أو الوطني ولهذا فقد شهدت العقود الثلاثة الماضية مئات الإضرابات والمظاهرات والاعتصامات التي قتل فيها من قتل من العمال وسجن من سجن في المحلة وكفر الدوار وشبرا الخيمة وحلوان وفي السكة الحديد .

ثم تضاعف ذلك النضال العمالي الاقتصادي والوطني في مواجهة نظام الخصخصة وبيع القطاع العام وفي مواجهة بدعة المعاش المبكر للعمال الذي كان في حقيقتها موت مبكر للعمال المصريين .

وظل النضال العمالي مستمر ففي عام ١٩٩٨ مارس العمال المصريون ١٢٤ إضرابا واعتصاما ومظاهرة احتجاجية وفي عام ١٩٩٩ مارس العمال ١٦٤ إضرابا واعتصاما ومظاهرة احتجاجية وفي عام ٢٠٠٠ مارس العمال ٢٠٣ إضرابا واعتصاما ومظاهرة احتجاجية ، كل هذه النضالات المطلبية والوطنية ضد العولمة وسلطة رأس المال المصري وحكمه .

حرب الفلاحين الوطنية

سبق أن خاض الفلاحون المصريون في العصر الحديث حربا وطنية في عدد من المناسبات الوطنية والثورية مثل حربهم ضد حملة فريزر الإنجليزية سنة ١٨٠٧ هذه الحرب التي خاضها فلاحوا رشيد وقراها .. وحربهم ضد السخرة خلال حفر قناة السويس وحربهم مع الثورة العرابية وتضامنا مع ثورة سنة ١٩١٩ ثم حربهم الأخيرة ضد صدور قانون بإلغاء الإصلاح الزراعي الذي حققته الفترة الناصرية سنة ١٩٥٢ .

إن إلغاء الإصلاح الزراعي قد صدر في عهد الرئيس مبارك بأمر من صندوق النقد والبنك الدولي مما أدي إلي طرد الفلاحين من أرضهم وتشريدهم بجبروت السلطة وهذا ما دفع الفلاحون إلي المقاومة دفاعا عن أرضهم فسقط منهم القتلى والجرحي وقبض علي الكثير منهم منذ صدور قانون طردهم من الأرض الزراعية ففي سنة ١٩٩٨ قتل ٢٠ فلاحا وأصيب برصاص الشرطة ١٨٩ فلاحا وقبضت الشرطة علي ١٢٧ فلاحا وفي سنة ١٩٩٩ قتل ٤٢ فلاحا وأصيب ٢٤٢ فلاحا وقبض علي ٢٨٤ فلاحا وفي عام ٢٠٠٠ قتل ٣٤ فلاحا وأصيب ٩٠ فلاحا وقبض علي ٣١٨ فلاحا ..

هذه لمحات من المواقف الوطنية للقضاة المصريين ونضالات الطبقة العاملة وحرب الفلاحين في مصر شبه المستعمرة الأمريكية وشبه المستعمرة للعولمة الأمريكية والصهيونية .. وذلك بالإضافة إلي غضب الشعب المصري ومظاهراته في هذه الفترة التي تتشح بالسواد وتكتسي بالظلم والظلام ..

غضب الشعب المصري ومظاهراته

لقد ظل مزاج المصريين طول عهد الغزاة وعسكرة الغزاة يستبد به الغضب المكتوم مما حوله إلي حزن صارخ وملحوظ حيث ارتدى رجال الدين المسيحي في مصر القبطية الملابس السوداء والعمائم السوداء إلي يومنا هذا وتفشت ظاهرة الندب والندابات ورددت المرأة القبطية الحزينة شعارها الباكي الحزين الذي كان يقول .. يا كافة من أنجبن أولادا تعالي وأبكين معي .. ثم رددت حفيدتها المصرية في مصر شبه المستعمرة أشبه الإقطاعية خلال فترة السخرة والاحتلال الإنجليز لمصر شعارها الحزين .

ولدي يا ولدي . والسلطة خدت ولدي .. ولدي يا ولدي والسلطة خدت كبدي هكذا كانت السلطة المصرية مصدر الغم والهم والكرب المبين للشعب المصري طول حياته .

ولكن بفضل ثورة سنة ١٩١٩ وصدور الدستور أصبح المزاج المصري في عهدي الملك فؤاد والملك فاروق يستبد به الغضب حينا ويسوده الرضا حينا آخر ففي ظل حكومات الأقلية والملكية والرجعية كان يتفشى الغضب الشعبي ثم ينزاح هذا الغضب ويحل محله الرضي الشعبي في ظل حكومات حزب الوفد .. حزب الأغلبية الشعبية بزعامة سعد زغلول ثم بزعامة مصطفي النحاس .

وفي ظل سلطة ثورة يوليو والاشتراكية الناصرية ساد الرضي الشعبي والاجتماعي إلي حد ما بين المصريين رغم حكم العسكرة الناصرية ووحدانيتها وذلك باستثناء القوي السياسية المختلفة من الشيوعيين واليساريين وبين القوي السياسية المعارضة من الأخوان المسلمين والرجعيين .

هكذا كان مزاج الناس كل الناس في فترة الاشتراكية الناصرية . هذا المزاج الذي انقلب رأسا علي عقب في عهدي الرئيس المقتول أنور السادات والرئيس حسني مبارك وفي مصر شبه المستعمرة الأمريكية وشبه المستعمرة للعولمة الأمريكية والصهيونية .. حيث بات الغضب الشعبي والاجتماعي ظاهرة مصرية مكتومة أحيانا ومتفجرة أحيانا إلي حد أن ظاهرة الغضب هذه قد طفحت

بظاهرة الحوادث المؤسفة التي انتشرت في العقود الثلاثة الماضية في المدن والقرى والبنادر المصرية .. هذه الحوادث المؤسفة التي تتجلى في المظاهرات الشعبية والعفوية ضد فظائع الحكام والشرطة المصرية التي توحشت في هذه الفترة بفضل امتيازاتها الخرافية وصلاحيتها الجهنمية .. فالجنيه الشرطي يتمتع بقوة شرائية غير محدودة والهبات والهدايا والإكراميات التي تصل إلي الشرطة تسد عين الشمس وذلك بجانب ممارسة القتل والتعذيب والاعتقال وتلفيق التهم وتزوير الانتخابات مما جعل ضابط الشرطة المصرية ينطبق عليه وصف مؤرخنا المقريزي الذي وصف به الجندي المملوكي والذي يقول " أنه أشرس من ذئب وأزني من القرد وألعن من الفأرة "

وللأسف والحزن هما فإن هذه الامتيازات والصلاحيات الشرطوية المصحوبة بالحصانة في أغلب الأحيان كان مصدرها إحساس الشرطي المصري بأنه ممثل جبروت قوة حكم راس المال المسلح وعسكرته ووحدانيته وأنه الشخص المنوط به حرب الداخل المصري وقهره حتى يرضخ ويلتزم بحد الأدب والسكوت الجبان .

ولكن الشعب المصري العظيم لم يرضخ أحيانا حيال مظالم حكامه وحيال قتل أبنائه في السجون وفي أقسام الشرطة وحيال تزوير انتخاباته وحيال إهدار حقوق الإنسان المصري فعصف به الغضب مما أدي إلي تفجر ثوريته الكامنة عفويا وتلقائيا في مظاهرات واصطدامات كثيرة وكثيرة أسفرت عن قتل وإصابة المآت والقبض علي مآت بواسطة الشرطي المصري البطل .

ولقد بلغ الشعب الاجتماعي والوطني ذروته في مصر المعاصرة منذ بداية الألفية الميلادية الثالثة بسبب العدوان الإسرائيلي الأمريكي علي الشعب الفلسطيني البطل والمقاومة ، وذلك بقصد إبادته بينما حكام الدول العربية يجتمعون ويغضبون ويتكلمون ويتفرجون بينما سيوفهم معبأة في أغمدتها يعتريها الصدأ بالإضافة إلي انهم جميعا يضربون تعظيم سلام للسلام الأمريكي .

إن هذه الحالة المصرية والعربية الشاذة أثارت غضب الشعب المصري في المدن والقرى والبنادر فبادر بدعم انتفاضة الشعب الفلسطيني العظيم

ومقاومته الرائعة لأمريكا وإسرائيل بشبابه وشاباته الانتحاريين والإستشهاديين العظام مما دفع الشعب المصرى إلى دعم الإنتفاضة الفلسطينية بالمال والغذاء والدواء والمظاهرات الشعبية والوطنية والطلابية الغاضبة من أمريكا وإسرائيل والحكام العرب المتقاعسين .. ولهذا تصدت لهم العسكرة الحاكمة وشرطتها الوحشية بالحديد والنار وقتل الكثير من طلاب الاسكندرية وأصيب الكثير من المتظاهرين فى المدن المصرية وقبض على الكثير أيضا من نشطاء دعم الانتفاضة الفلسطينية حيث حاولت الشرطة المصرية تشويه تاريخ هؤلاء المناضلين الوطنيين من خلال اتهامهم بالنصب والاحتيال وتجارة المخدرات .

هكذا تسافلت وانحطت العسكرة الحاكمة وشرطتها الوحشية فى مواجهة الغضب الشعبى والوطنى المتراكم والمزمن والكامن فى صدور المصريين من جراء تفشى الفساد السلطوى والاستبداد السلطوى والمظالم السلطوية الطويلة الأمد ومن جراء فشل الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الروحية والأخلاقية والإنسانية للعسكرة الحاكمة التى فشلت أيضا فى مجالات الزراعة والصناعة والتنمية المستقلة .. بالاضافة إلى فشلها التاريخى والذريع فى نجاح المشروع الذرى المصرى الذى قدمه لمصر الشعب السوفيتى الاشتراكى الصديق الذى قدم أيضا للهند مشروعا مماثلا فى نفس الوقت . فبادرت الديمقراطية الهندية بتصنيع القنابل الذرية والمفاعلات الذرية بينما بادرت العسكرة المصرية وجمهورياتها إلى وأد وخنق المشروع الذرى المصرى الحمائى مما ساعد فى الاطاحة باستقلال مصر وجعلها شبه مستعمرة أمريكية وشبه مستعمرة للعولمة الأمريكية الصهيونية . الأمر الذى جعل اسرائيل الصهيونية تتوحش وتتجول على مصر والعرب جميعا .

ولذلك فالوطنية المصرية بدأت تنهض رويدا رويدا بإعلان غضبها وسخطها من خلال احتجاجاتها الاضرابية والتظاهرية الوطنية والشعبية . هذه الاحتجاجات التى سوف تتعاظم بهدف إبعاد حكم العسكرة ووحدانياتها وقيام مجتمع المشاركة الشعبية مجتمع الديمقراطية المدنية القادر على استقلال مصر من التبعية الاستعمارية للعولمة وأمريكا بالنضال الشعبى والوطنى الذى سوف يأتى للشعب المصرى بفجر صادق وصبح جديد .

ميت غمر الخميس ١٦ مايو ٢٠٠٢

العامل
عطية الصيرفى

الفهرس

الفرعونية
دولة .. حضارة .. مجتمع مدني

الهجرة البشرية الأولى
عسكرة .. استيطان .. احتلال

الهجرة البشرية الثانية
عسكرة .. ولسان .. وكتاب مبين

الهجرة البشرية الثالثة
هجرة مغولية عسكرية متوحشة

مصر والعسكرة الحديثة

احتلال .. سخرة .. ثورات .. اغتيالات

جمهوريات نجيب .. ناصر .. مبارك

مشنقة .. تعذيب .. اعتقالات .. اشتراكية .. عمالة لأمريكا والصهيونية

جمهورية الرئيس مبارك
عسكرة .. عساكر .. عولمة

عطـية الصـيرفي
العامـــــل فـــي ســــــطور

- من مواليد ميت غمر سنة ١٩٢٦.
- تعاطي الأبجدية وحفظ القرآن الكريم في كتاتيبها .
- اشتغل صبي حداد وصبي نحاس .
- اشتغل عاملا بالمعسكرات البريطانية .
- ثم عاملا بوزارة الزراعة .
- ثم عاملا بشركة مصر للغزل والنسيج .
- ثم عمل كمساريا في شركات أتوبيس وسط الدلتا .
- اشتغل بالنشاط النقابي والسياسي منذ عام ذ٩٤٥ .
- اختار الفكر الاشتراكي العلمي طريقا له في الحياة .
- سجن وعذب وشـرد فـي العـهد الملكـي .. وفـي جمهوريـة اللواء محمد نجيب وفـي جمهوريـة الرئيس عبد النـاصر وفـي جمهوريـة الرئيـس السادات وفي جمهورية الرئيس مبارك .
- شغل مناصب نقابية هامة حتى تم عزله سياسيا في عام ١٩٥٣ .
- تحرر من عزله السياسي في عام ١٩٧٥ .
- فانتخب عضوا بالمجلس المحلي بميت غمر .
- وانتخب رئيسا للجنة القوى العاملة في المجلس المحلي .
- وانتخب عضـوا بمجلس إدارة نقابـة عمـال شـركة أتوبيس وسـط الدلتـا بالمنوفية .

- اعترض المدعي العام الاشتراكي علي ترشيحاته النقابية والعمالية .
- انتخب عضوا في اللجنة المركزية لحزب التجمع وأمانته العامة .
- رشح نفسه في انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٩٠ بدائرة ميت غمر وحصل علي ٤٥ ألف صوت انتخابي زورتها السلطة إلي ٣٧ ألف صوت .
- انتفضت جماهير ميت غمر احتجاجا علي هذا التزوير للانتخاب فقبض عليه ومعه المئات من المواطنين وما زال يناضل في المجال العمالي والنقابي والمحلي .

كتب للمؤلف

- دور العمال فى المجتمع الاشتراكى والإنتاج
- عمال التراحيل
- عسكرة الحياة العمالية والنقابية
- نقاباتنا فى خدمة السلطان
- العمال والفلاحون يواجهون الرصاص والمشانق - نيابة عن الوطنية المصرية .
- اشتراكية أفندينا - والنشأة العمالية الحديثة .
- من يحكم مصر المحروسة .
- ظهور الطبقة العاملة المصرية بين السخرة ورأس المال الأجنبى .
- من ملامح حكم العسكر والعسكرة - فى مصر المعاصرة .
- أيها النمل أدخلوا مساكنكم .
- سيرة عامل مصرى مشاغب - تحت الطبع .

حكم العسكرة فى مصر المحروسة
من الدولة الفرعونية حتى حكم مبارك

رقم الإيداع : ٩٤١٢ لسنة ٢٠٠٢

ذلك الكتـــاب

ذلك الكتاب الذى ألفه عامل مصرى بقصد إحاطة المصريين علما بما غفل عنه علماء التاريخ المصريين من أمور وأهوال تجعل الولدان شيبه . فالدولة الفرعونية العظيمة دولة حضارة وعلم وزرع وضرع وحرفه وصنعه ومعمار وعدل وقانون ومجتمع مدنى خال من عبودية الإنسان لأخيه الإنسان وذلك بخلاف المجتمعات العبودية فى العصر القديم .

ولكن هذه الدولة المصرية تعرضت للضعف بسبب قيام بعض الفراعنة المتأخرين باستخدام الجنود الأجانب والمرتزقة فى الجيش المصرى هؤلاء الجنود الذين خانوا مصر لصالح الغزو الفارسى لمصر .

ومن هنا بدء حكم العسكر الغزاة ثم العسكر المستوطنين والمتمصرين ثم العسكر المصريين الذين حولوا مصر المجتمع المدنى إلى قشلاق عسكرى يحكمه العسكر دون الشعب المصرى المحبوس فى زرعه وضرعه وحرفته وصنعته والجرى وراء رزقه إلى يومنا هذا .

ولهذا باتت مصر أقدم قشلاق عسكرى فى التاريخ بحكم استمرار العسكر وحدهم فى وراثة الحكم بزريعه أن السلطة فى مصر يجب أن تقوم على أكتاف حملة السلاح من العسكر الذين حكموا ويحكمون مصر بعسكرتهم ووحدانيتهم السياسية والسلطوية وجبروتها وطغيانها وفسادها واستبدادها مما أدى إلى بؤس الحياة الاجتماعية فى مصر وإشاعة العبودية السلطوية فى أرجائها بسبب طبائع حكم العسكر المتوارثة منذ نهاية الدولة الفرعونية العظيمة حتى حسنى مبارك . ولهذا فعلى الشعب المصرى واجب الخلاص من حكم ... ينعم بالخبز والزبد والعمل والحرية فى مجتمع المشاركة الشعب الديمقراطى المدنى المصرى على ضفاف النيل الخالد .

